محاورات ألفرد نورث هوايتهد

تأليف: لوسيان برايس

ترجمة: محمود محمود

تقديم: زكي نجيب محمود

تقديم هذه الطبعة

محمد أحمد السيد

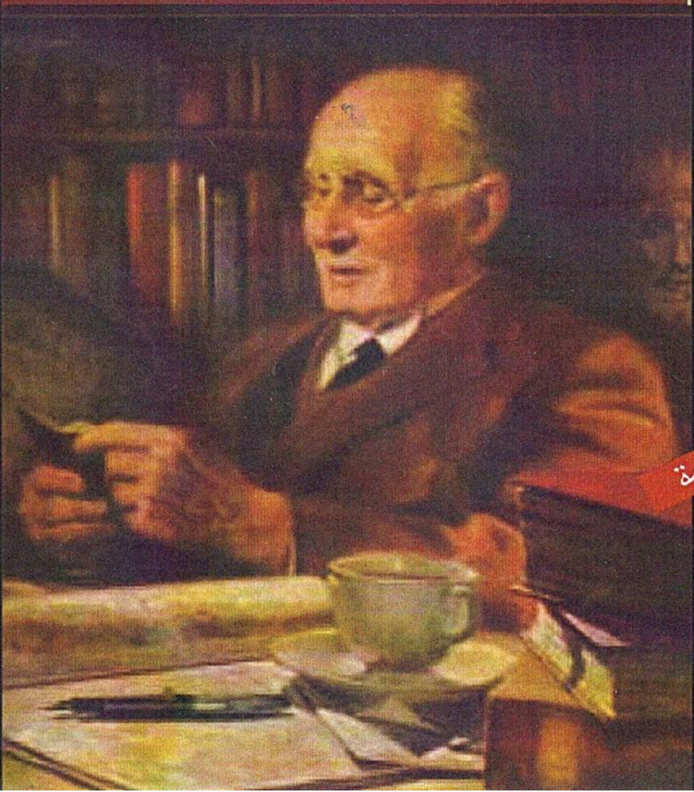

ميراث الترجمة

2131

المركز القومي للترجمة

محاورات
ألفرد نورث هوايتهد

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنـور مغيـث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2131
- محاورات ألفريد نورث هوايتهد
- لوسيان برايس
- محمود محمود
- زكى نجيب محمود
- محمد أحمد السيد
- اللغة: الإنجليزية
- 2015

هذه ترجمة كتاب:

Dialogues of Alfred North Whitehead

Recorded by: Lucien Price

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

محاورات
ألفرد نورث هوايتهد

تأليف: لوسيان برايس

ترجمة: محمود محمود

تقديم: زكي نجيب محمود

تقديم هذه الطبعة

محمد أحمد السيد

2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

برايس، لوسيان
محاورات ألفريد نورث هوايتهد/ تأليف: لوسيان برايس، ترجمة: محمود محمود، تقديم: زكي نجيب محمود، مقدمة: محمد أحمد السيد
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
٤٩٦ ص، ٢٤ سم
١ – الفلسفة اليونانية
(أ) محمود، محمود (مُترجم)
(ب) محمود، زكي نجيب (مُقدم)
(ج) السيد، محمد أحمد (مُقدم مشارك)
(د) العنوان ١٨٢

رقم الإيداع: ٢٠٨٧٣ /٢٠١٢
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977 - 718 - 134 - 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المشتركون فى هذا الكتاب

مسجل المحاورات

لوسيان پرايس : ولد فى مدينة كنت بولاية أوهايو وتلقى تعليمه فى أكاديمية وسترن ريزيرف . تخرج بمرتبة الشرف الأولى من جامعة هارڤارد سنة ١٩٠٧ ، وهو عضو فى جمعية « فى بيتا كاپا » والتحق بهيئة تحرير مجلة « ترانسكريبت » التى تصدر فى بوسطن . ومنذ سنة ١٩١٤ وهو يعمل محرراً بمجلة جلوب Globe التى تصدر فى بوسطن . وهو عضو فى الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم . نال ثقافة واسعة فى الموسيقى ، والدراما ، والفلسفة الإغريقية والتاريخ القديم والحديث ، والآداب ، وأهله النظام الذى يسير عليه العمل فى الصحافة لكتابة هذا الكتاب .

المترجم

الأستاذ محمود محمود : مدير عام تفتيش اللغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم . حصل على درجة الليسانس فى التربية والآداب سنة ١٩٣٠ ثم على دبلوم فى الأدب الإنجليزى من جامعة اكستر سنة ١٩٣٧ ، اشتغل بتدريس اللغة الإنجليزية فى مختلف المعاهد الثانوية والعليا والكليات الجامعية ، ثم عين وكيلا بالمدارس الثانوية ، ثم ناظراً لها ، ثم مراقباً عاما للتعليم بوزارة التربية والتعليم . ثم مستشاراً ثقافياً لوزارة الدولة لشئون السودان ، ثم مديراً للتربية والتعليم المصرى بالسودان ثم مديراً للمكتب الدائم للوحدة الثقافية العربية بالقاهرة ، ثم مديرا للتربية والتعليم بمنطقة السويس ، ثم مديرا عاما لتفتيش اللغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم .

نشرت له عدة مقالات أدبية فى مجلتى الثقافة والرسالة وغيرها من المجلات . ألف كتباً كثيرة من بينها « تحليل النفس » و « أعلام العصر الحديث » ، كما ترجم عدة كتب من بينها « سقراط » و « زوجة كريج » وهما من الكتب التي نشرتها المؤسسة .

صاحب المقدمة

الدكتور زكى نجيب محمود : أستاذ المنطق ومناهج البحث بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وهو حاصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن . مؤلف لعدد كبير من الكتب فى الفلسفة وفى النقد الأدبى . من أهم مؤلفاته فى الفلسفة « المنطق الوضعى » و « خرافة الميتافيزيقا » و « نحو فلسفة علمية » و « حياة الفكر فى العالم الجديد » الذى أصدرته هذه المؤسسة . ومن مؤلفاته فى تاريخ الأدب ونقده « فنون الأدب » و« قصة الأدب فى العالم » . وقد ترجم كتاب « المنطق » لجون ديوى وهو من الكتب التى أصدرتها المؤسسة . نال جائزة الدولة التشجيعية لسنة ١٩٦٠ .

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة بقلم الدكتور زكى نجيب محمود ١
فاتحـــة ٢٧
المحاورات الثلاث والأربعون ٤٩
خاتمـــة ٢٨٦

مقدمة

بقلم الدكتور زكي نجيب محمود

عملية الفكر تنحلُّ ـ آخر الأمر ـ إلى وحدات أولية بسيطة ، قوام الوحدة الواحدة منها سؤال وجواب ، وقد يكون الشخص الواحد ـ إذ يفكر لنفسه ـ سائلا ومجيبا في آن معا ، فهو الذي يلقي السؤال على نفسه ، وهو الذي يحاول الجواب ، وقد يكون السائل شخصا والمجيب شخصا آخر ، فلا فرق بين هاتين الحالتين في الجوهر والأساس ، ففي كلتيهما « محاورة » هي أسُّ الفكر ولبابه ، فالفكرة الواحدة بالغة ما بلغت من البساطة كان يستحيل عليها أن تنشأ في ذهن صاحبها ، ما لم يكن صاحبها هذا قد وقف من الأمر موقف المتسائل ، سواء أخرجَ سؤاله في صياغة لفظية صريحة ، أم لبث مستكنا يظهر في « الوقفة » وفي « النظرة » إن لم يظهر في اللفظ المسموع ، قل لنفسك « إن الشمس طالعة » أو « إن السماء غائمة » يكن هذا القول جوابا منك عن سؤال أضمرته: « كيف حالة الجو الآن ؟ ».

أساس الفكر حوار ، ولقد عبر الإنسان عن نفسه محدثا ومحاورا قبل أن يعبر عن نفسه كاتبا ، بعشرات الآلاف من السنين ، فمهما بلغ تاريخ الكتابة من القدم ، فقد سبقها الكلام ، لا ، بل إنه محال على الكتابة أن تقاس إلى الكلام في التعبير عما تضطرب به النفس من مشاعر وما يدور في الرأس من خواطر ، فأنت تعرف الشخص من حديثه أكثر جدا مما تعرفه من كتابته ، ذلك بالطبع إن أرسل كلامه على سجيته ، ولا عجب أن قال سقراط إلى جليس له ذات مرة إذ رآه صامتا : كلمني لكي أراك .

ولعل الحديث لم يبلغ أوجه إلا على لسان سقراط ، ذلك المحدث العظيم الذي كان أولَ من سجل تاريخُ الآداب مثلا للحديث يكون فنا ولا يكون لغواء

نعم ففن الحديث له علائمه وشروطه كأى فن آخر ؛ فهو فن إذا خرج منه المتحدثان أخصب فكرا وأصفى نفسا وأرحب أفقا وأغزر شعوراً ، إن الواحد منا ليحس أحيانا كأنما يريد أن يقول شيئا ولا يعرف كيف يقوله ، فالفكرة عندئذ تكون كأنما هى الجنين الذى لم يكتمل خلقا ، أو كأنما هى النسمة المبعثرة تسرى فى كيانه ولم تجتمع أطرافها بعد لتسلك سبيلها إلى اللسان والشفتين ألفاظا مرتبة فى أنفاس معبرة ، فالحديث فن إذا ترجم لصاحبه عن شعوره ترجمة تحيل ذلك الشعور عقلا ، أعنى أنها تحيله شيئا فشيئا مفهوما لسامعه ، ترى ماذا كانت تعنى الطبيعة وكيف كانت تكون آثار الفن إذا لم تجد هذه وتلك من فى مقدوره أن يتأثر بها ثم يفصح لنا عما تأثر به فى كلام بليغ نفهمه فنفهم به الطبيعة والفن جميعا ؟ ترى كيف كانت تكون حالة العلوم نفسها إذا لم يكن بين العلماء أحاديث، فهذا يسأل وذلك يجيب ، وهذا يعترض وذلك يشرح ويوضح ؟ ترى هل كانت تقوم للجماعة قائمة بغير حديث يربط أفرادها كأنما هو الخيوط يشد بعضهم إلى بعض ؟ .

وأعجب العجب أن يكون للحديث الفنى هذا الخطر البالغ ، ثم لا يفسح له تاريخ الأدب مكانا ملحوظا بين سائر صوره ، فقل أن تجد فى شتى اللغات أحاديث مسجلة كما وقعت . ومن الأمثلة القليلة التى ترد على الذهن محاورات أفلاطون التى تعد آية فى طلاوة فنها وغزارة فكرها ، لكنها إن بدت فى ظاهرها حديثا تلقائيا بين المتحاورين فهى فى حقيقتها مسيرة ملجمة لتبلغ كل محاورة منها هدفها المقصود، فبرغم ما قد ورد على لسان سقراط فى إحدى المحاورات وهو يخاطب محاوريه قائلا : فلنتبع الحديث إلى حيث يسوقنا ، إلا أن فيلسوفنا لم تغب عنه أهدافه أبدا ، وبهذا جاءت المحاورات الأفلاطونية فى صورة الحديث ، لكنها تخلو من خصائص الحديث العابر المنساب .

ومن الأحاديث المسجلة فى تاريخ الأدب كذلك ، حديث « جونسن » كما صوره مرافقه « بوزول » وكذلك حديث « جيته » كما سجله « اكرمان » ،

وعندنا فى الأدب العربى أمثلة أقربها شبها إلى المحاورات التى نحن الآن بصدد تقديمها إلى القراء . هى أحاديث أبى حيان التوحيدى التى جمعت فى كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ، وهو من ثلاثة أجزاء . وهنا نقف وقفة قصيرة نقارن فيها بين الرجلين .

تتألف محاورات هوايتهد من ثلاثة وأربعين حديثا دارت فى بيته بينه وبين طلابه وأصدقائه فى الأمسيات التى كان يخصصها لمثل تلك الاجتماعات وهو أستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة ، وكان من هؤلاء الأصدقاء صحفى أديب هو « لوسيان برايس » فكان ـ بحكم حرفة الصحافة ـ يسجل لنفسه تلك الأحاديث كما كانت تقع حتى اجتمعت له منها مجموعة ، فاختار منها ثلاثة وأربعين حديثا ، أولها حديث السادس من إبريل عام ١٩٣٤ ، وآخرها حديث الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩٤٧ (مات هوايتهد فى الثلاثين من ديسمبر عام ١٩٤٧ وهو فى السابعة والثمانين من عمره) .

وتتألف أحاديث أبى حيان التوحيدى الواردة فى كتابه الإمتاع والمؤانسة من سبعة وثلاثين حديثا ، وقع كل منها فى ليلة ساحرة من الليالى التى قضاها فى حضرة الوزير أبى عبد الله العارض ، وقصة ذلك اللقاء هى أن أبا الوفاء المهندس ـ وهو من الأئمة المشهورين فى علم الهندسة ـ كان صديقا لأبى حيان وصديقا للوزير أبى عبد الله العارض ، فقرب أبو الوفاء أبا حيان من الوزير ، ووصله به ومدحه عنده ، حتى جعل الوزير أبا حيان من سماره ، فسامره سبعا وثلاثين ليلة ، كان الوزير يطرح عليه أسئلة فى شتى الموضوعات فيجيب عنها أبو حيان ، ثم طلب أبو الوفاء من أبى حيان أن يقص عليه كل مادار بينه وبين الوزير من حديث ، فأجابه أبو حيان إلى طلبه ، ودوّن كل ما دار بينه وبين الوزير فى تلك الأماسى السامرة . فكان من ذلك كتاب « الامتاع والمؤانسة » .

فأبو حيان فى إجاباته البارعة الرائعة عن أسئلة الوزير ، هو هوايتهد فى

إجاباته البارعة الرائعة عن أسئلة طلابه وأصدقائه ، وأبو الوفاء المهندس الذى كان له فضل تسجيل تلك الأحاديث . هو لوسيان برايس الذى كان له فضل تسجيل محاورات هوايتهد ، والحديث فى كلتا الحالين مكتوب من الذاكرة بعد أوان حدوثه ، والوزير فى قصة أبى حيان يقابله المجتمع المثقف فى قصة هوايتهد ، وقصر الوزير الذى دارت فيه تلك الأحاديث فى القرن الحادى عشر الميلادى ، يقابله مسكن متواضع من أربع حجرات لهوايتهد ، هو الذى جمع الأصدقاء وشهد الحوار فى القرن العشرين .

والطريقة فى الكتابين واحدة ؛ ففى حالة أبى حيان كان الوزير أحيانا يعد سؤالا يلقيه ويترك أبا حيان يجيب له عنه دون أن يضيف هو من عنده شيئا أو يعترض على شىء ، لكنه أحيانا أخرى كان يعترض ويحاور ، وكذلك الحال بالنسبة إلى هوايتهد ، والموضوعات فى كل من الكتابين قد تنوعت تنوعا شمل صنوفا متباينة من المسائل ، وأتاح الفرصة لصاحب الإجابة أن يعبر عن نفسه من شتى نواحيه ، فما أظن أبا حيان قد ترك جانبا من جوانبه لم يظهره فى الجواب عن هذا السؤال أو ذاك ، وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى هوايتهد ، فلو قد ترك هوايتهد لمؤلفاته الفلسفية وحدها ، لما عرف عنه الناس إلا أحد جوانبه دون سائرها .

إن الليالى السامرة التى قضاها أبو حيان مع وزيره ، والليالى السامرة التى قضاها هوايتهد مع أصدقائه وطلابه ، لتذكرنا بشهر زاد وأحاديثها فى ألف ليلة وليلة ، فحلاوة الحديث هى المحور فى هذه الأمثلة الثلاثة جميعا ، والفرق هو أن أحاديث شهر زاد قد ركبت متون الخيال ، وأما فيلسوفانا أبو حيان وهوايتهد فقد أعملا فيها الفكر وتعرضا لأعوص المشاكل وأعقدها ، مع خفة الحديث وانسيابه وطلاوته .

وإنه لمما يجلو أمام أبصارنا مواضع الشبه ومواضع الخلاف بين هذين المحدثين

العظيمين : التوحيدى وهوايتهد ، — وما الشبه والخلاف بين رجلين كهذين إلا انعكاس لأوجه الشبه والخلاف بين عصرين وثقافتين ـ أقول إنه لمما يجلو أمام أبصارنا مواضع المقارنة بينهما ، أن نتعقب فكرة بعينها كيف وردت فى سياق الحديث عند التوحيدى من جهة ، وعند هوايتهد من جهة أخرى ، وكيف كان الرأى فيها ، فانظر ـ مثلا ـ إلى رأيهما فى الشعر خاصة ، وفى الأدب عامة .

أما هوايتهد فبعد أن يلفت النظر إلى قصور اللغة دون التعبير الكامل عن خبرة الانسان الباطنية ، يستطرد فيقول : (الليلة الرابعة والعشرون من محاوراته) إن الامساك بالخبرة الوجدانية قبل أن تفلت وتختفى هو من أخص خصائص الشعر الرفيع ، فهو عندئذ يكاد يوفق إلى تصيد إحدى لحظات السعادة النشوى أو الألم الأليم ، يتصيدها فى أحبولة الكلمات على نحو يقربها إلى القارىء أو السامع ، لأن اللفظ ـ على كل حال ـ هو صوت ، والعلاقة بين الصوت من جهة وبين الوجدان الذى تضطرب به النفس من جهة أخرى هى علاقة متكلفة متعسفة ، وإذا شئت فاستخرج معانى كلمات القصيدة كما وردت فى المعجم ، واجمع تلك المعانى بعضها إلى بعض ، تجد البون شاسعا بين حصيلتها وبين ما قصد إليه الشاعر ، لأن الشاعر قد أضاف إلى معانيها المعجمية نغمات عاطفية ، وكثيرا ماتنضاف هذه الاضافة إلى معنى الكلمة فيما بعد ، فتصبح جزءا منه ، وبهذا يغزر معنى الكلمات بفضل الشعراء ، على أنه مهما بعدت الألفاظ عن كوامن النفس ، فهى فى الشعر أقرب ما تكون إليها ، ففى الشعر وحده تتجلى البواطن النفسية الخوافى ، حتى لنحس ونحن نقرأ الشعر أو نسمعه أننا نجد فيه أنفسنا .

ويعود هوايتهد فى محاورة أخرى (الليلة الثالثة بعد الأربعين) فيتناول موضوع اللغة وعجزها عن التعبير عما تكنه النفس ، فيقول : إنه ليدهشنى كم تقصر اللغة دون التعبير عما يدور فى فكرنا الواعى ، ثم كم يقصر هذا الفكر الواعى دون التعبير عما يختلج به اللاوعى فى أعماق نفوسنا ، لقد أقامت الفلسفة

بناءها على أساس افتراضها بأن اللغة وسيلة تعبيرية مضبوطة ، فترى الفلاسفة يجرون الفكرة المعينة فى عبارة لفظية ثم يحسبونها قد استقرت فى صورتها الدقيقة إلى الأبد ، مع أن هذه الفكرة — حتى على فرض الدقة التامة فى العبارة التى استخدمها الفيلسوف للتعبير عنها — تتغير أبعادها فتحتاج إلى إعادة التعبير عنها فى كل قرن مرة ، بل فى كل جيل مرة ، لأن الفكرة تنمو ، ولعل أفلاطون وحده بين الفلاسفة جميعا هو الذى تنبه إلى ذلك ولم يقع فى فخ الكلمات ، فتراه على بينة تامة من هذا الجانب الراوغ فى الأفكار ، ولذلك إن استعصت الفكرة على اللفظ استخدم للتعبير عنها الأساطير ، والأسطورة بطبيعتها لا تدعى دقة التعبير بقدر ما يراد بها إثارة التأمل .

ويمضى هوايتهد فى حديثه هذا فيقول : إن الرياضة أدق من لغة الكلام ، وهى أقرب إلى الحق ، ولذلك فلا يبعد أن يجىء يوم بعيد فتصبح الرياضة هى وسيلة الناس فى التفاهم بدل الكلام المألوف لنا اليوم ، والحق أن كل ما يدور به الفكر الواعى ، وما نصوغه فى عبارات اللغة ، هو — بالقياس إلى الكامن الدفين فى نفوسنا — سطحى ضحل تافه ، وأما الأعماق العميقة فلا تتبدى أمام الوعى أو تنطلق فى عبارات اللغة ، إلا فى اللحظات النادرات ، وهى هى اللحظات التى لا تنسى من حياتنا ، وفى تلك اللحظات نشعر — أو قل إننا عندئذ نعلم — أننا إنما نُسْتَخْدَمُ أدوات لقوة أعظم منا ، لنحقق لها أهدافا أعلى من أهدافنا ، وإن أمثال هذه اللحظات لتكثر عند العباقرة ، لكن ليس منا من لم تمر بحياته لحظات كهذه ، وفى الإمساك بهذه اللحظات الإشراقية تكون عظمة الشعر والشعراء ، لأنهم هم الذين يعبرون عنها بلفظ فيمن أن يقرأه القارىء أو يسمعه السامع فيحس بدوره أن تلك اللانهاية فى آماد الفكر والشعور قد لمحها فى حياته الداخلية لمحا ، لكنها اندثرت لولا أن جاء هذا الشاعر فأخرجها له لفظا .

إن هذا الشعر الذى يفصح عن اللانهاية بلفظ محدود ، لا يحتاج إلى علم واسع ،

بل إن قلة العلم كثيرا ما كانت هى علة ارتفاع الشاعر ، كما هى الحال فى شيكسبير ، الذى لو ازداد علما لقل ارتفاعا فى شعره ، على عكس ملتن الذى كان شعره ليزداد ارتفاعا لو قل علما .

وأما محدثنا العربى أبو حيان التوحيدى ، فيتناول الموضوع نفسه (فى الليلة الخامسة والعشرين من الإمتاع والمؤانسة) فيفرق نفس التفرقة التى أشار إليها هوايتهد ، بين الوعى واللاوعى ، فالأول يرتكن إلى عقل محدود ولغة قاصرة ، والثانى يرتكن إلى لمحات الروح فى إدراكه وفى التعبير عنه ، لكن التوحيدى يقول هذا بلغته فيقول : « الكلام ينبعث فى أول مبادئه إما عن عفو البديهة وإما عن كد الروية ، وإما أن يكون مركبا منهما ، وفيه قواهما بالأكثر والأقل ، ففضيلة عفو البديهة أنه يكون أصفى ، وفضيلة كد الروية أنه يكون أشفى ، وفضيلة المركب منهما أنه يكون أوفى ، وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقل ، وعيب كد الروية أن تكون صورة الحس فيه أقل ، وعيب المركب منهما بقدر قسطه منهما ، على أنه إذا خلص هذا المركب من شوائب التكلف وشوائن التعسف ، كان بليغا مقبولا رائعا حلوا ، تحتضنه الصدور وتختلسه الآذان » .

فى هذه العبارة المركزة يقدم لنا التوحيدى مقارنة بارعة بين إدراك العقل ــ وإن شئت فقل إدراك العلم والفلسفة ــ وبين إدراك البصيرة الفطرية ــ وإن شئت هنا أيضا فقل إدراك الشعر والفن ، فلمحة الشاعر والفنان ببصيرته ترى جوهر الحق « أصفى » لأنها تزيل شوائب الجزئيات العابرة لتغوص إلى الجوهر الدفين ، لكن نظرة العالم أو الفيلسوف « أشفى » لأنها تعنى بحياة الناس العملية فتقدم إليهم ماينفعهم فى مجرى السلوك اليومى ، وما أجمل وأنفع أن نجمع فى حياة واحدة بين علم وشعر .

وإن التوحيدى ليتناول فى هذه الليلة موضوع النثر والشعر من شتى نواحيه ،

ليبين متى يفضل كل منهما الآخر ، وإنا لنحيل القارئ إلى كتاب الامتاع والمؤانسة ليقرأ عرض الفكرة مفصلا .

* * *

ونضرب مثلا آخر بفكرة أخرى يتعرض لها الرجلان : فكرة الفوارق التى تميز شعبا من شعب ، والمفاضلة بين خصائص الشعوب ، فأيها يكون أرقى ، وأيها يكون أحط منزلة من الآخر .

أما هوايتهد فخلاصة الرأى عنده هى أن خير المدنيات هو ماجاء من شعب اختلطت فى نسيجه خيوطه العنصرية ، وكلما صفا الجنس عنصرا ولم تدخله أخلاط من الخارج ، كان أقرب إلى الانحلال ، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة ترد هنا وهناك فى محاوراته ، وأقرب الأمثلة لذلك الولايات المتحدة الأمريكية .

ففى الليلة الحادية والعشرين من هذه المحاورات ، يتعرض هوايتهد لهذه الفكرة ، ثم يمضى فى حديثه ليقول إن وراء هذه الفكرة فكرة أعوص ، وهى : كيف نصون المجتمع من الركود ، فقد ترى جماعة من الناس سارت فى حضارتها سيرا هينا لينا بضعة قرون ، لكنها صائرة إلى موت محقق إذا أعوزها عنصر الجدة يدخل فى كيانها فيضمن لها الاستمرار فى التقدم ، وأحسب أن النمل والنحل مثلان جيدان لأنظمة تسير سيرا حسنا ، لكنه لا يتغير ، ولو قدر لجماعة من الناس أن تقفل على نفسها لانتهت إلى حالة لا تتميز مرتبة من عالم النمل والنحل ، ذلك لو فرضنا أنها ستظفر من دقة النظام بأكمل درجاتها .

لكن هوايتهد كثيرا مايتعرض للموازنة بين ثقافتين : السامية من جهة ، والهلينية من جهة أخرى ــ أى الشرق الأوسط والغرب ــ فيضع إصبعه على فوارق أساسية ، وتشم من كلامه دائما أنه يفضل الثانية على الأولى ، ومن أهم مايهتم له فى ذلك هو مايتسم به الأولون ــ الساميون ــ من جهامة وصرامة ، وما يتسم به الآخرون ــ ورثة الثقافة اليونانية ــ من روح فكهة متبسطة حرة .

وهو يتخذ التوراة مرآة تصور الأولين ، والإلياذة مرآة تصـور الآخرين ، ففي التوراة تنعدم روح الفكاهة وتسود الجهامة ، وتفسير ذلك عنده هو أن اليهود الأقدمين كانوا دائمـا فى حالة من اليأس والهزيمـة والتشريد ، بعكس اليونان فانهم كانوا يشعرون شعور المرح النشوان ، فاله التوراة جاد لا يضحك ولا يهزل ، وليس من حق الأفراد أن يقرءوا التوراة لتعجبهم فيأخذوا بتعاليمها ، أو لا تعجبهم فيتركوها ، بل الأمر أخطر من مثل هذه الحرية الفردية فى الاختيار فهى مبادىء لابد أن تأخذ بها كرهت أو رضيت .. وأما الإلياذة فتجعل آلهتها يضحكون ويمـزحون ، وللقارىء أن يتلوها ليأخذ مايأخذه ويرفض مايرفضه ، فلئن كان الهدف فى التوراة هو التوجيه والإرشـاد والهداية والتقويم ، فالهدف فى الإلياذة هو المتعة والنشوة ، فالفرق بينهما هوالفرق بين المعلم والفنان .

وأما أبو حيان التوحيدى فيقف كعادته وقفـة تحليلية يذكر بها جوانب الأمر كلها ، فليس لأمة واحدة فضيلة تخلو من نقص ، ولا نقص يخلو من فضيلة ، وأكاد أقول إن التوحيدى لو سئل : أى الحالات تبلغ الـكمال ، لقال — كما قال هوايتهد — هى الحـالة التى تندمج فيها الشعوب كلها لتلتقى الفضائل كلهـا فى شعب واحد ، يقـول أبو حيان (فى الليلة السادسة من الإمتاع والمؤانسة) : « .. لـكل أمة فضائل ورذائل ، ولـكل قوم محاسن ومساوىء ، ولـكل طائفة من النـاس فى صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقصير ، ويقضى هذا بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مفاضة على جميع الخلق ، .. فللفرس السياسـة والآداب والحدود والرسـوم ، وللروم العلم والحـكمة ، وللهند الفـكر والروية والخفة والسـحر والأناة ، وللترك الشـجاعة والإقدام ، وللزنج الصبر والـكد والفرح ، وللعرب النجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمام والخطابة والبيان .. » ويمضى التوحيدى فى حديثـه محللا ، فيحذر من أن تفهم خاصية الشعب على أنها شاملة لـكل أفراده ، بل هى مأخوذة على سبيل التعميم والشيوع ،

ولو شاء القارىء أن يطالع عرضه البديع ، فلا مناص من الرجوع إلى حديث تلك الليلة كما ورد فى الكتاب المذكور .

ويلاحظ أن الموازنة بين الروم والعرب عند أبى حيان هى نفسها الموازنة بين الهلينيين والساميين التى جذبت اهتمام هوايتهد ، ولو أنعمت النظر إلى قول أبى حيان أن الروم يتميزون بالعلم والحكمة ، وأما العرب فيتميزون بالنجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمام والخطابة والبيان ، وجدت أن الفرق بينهما من وجهة نظره هو الفرق بين أهل التفكير النظرى وأهل الأخلاق العملية ، وكذلك هو الفرق بين العقل من ناحية والوجدان من ناحية أخرى ، وهو فرق لا يتعارض مع ملاحظات هوايتهد عن هاتين الجماعتين ، غير أن هوايتهد يضيف فرقا آخر ، وذلك بأن جعل الروم (اليونان) أهل مرح وتفاؤل وسماحة نفس ، على حين جعل الساميين أهل تزمت وجهامة عابسة .

وكما تزهى هوايتهد بهلينيته ، لا يفوت أبا حيان — بعد أن ينظر نظرة الإنصاف إلى شتى الأمم والشعوب — لا يفوته أن تزهى بعروبته ، فيقول عن العرب : « إنهم مع توحشهم مستأنسون ، وفى بواديهم حاضرون ، فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات ، ومن أخلاق البادية أطهر الأخلاق ... ثم لما ملكوا الدور والقصور والجنان والأودية والأنهار والمعادن والقلاع والمدن والبلدان والسهل والجبل والبر والبحر ، لم يتعدوا عن شأو من تقدم بآلاف السنين ، ولم يعجزوا عن شىء كان لهم ، بل أربوا عليهم وزادوا ، وأغربوا وأفادوا . وهذا الحكم ظاهر معروف وحاضر مكشوف ، ليس إلى مرده سبيل ، ولا لجاحده ومنكره دليل » .

ألا إن هذه الأحاديث القليلة التى سجلتها لنا الصحائف أحرفا مطبوعة ، لتزداد قيمتها أضعافا مضاعفة فى عصرنا هذا الذى حل فيه الصمت المستمع

عل الحديث الحى المتبادل ، أو لعلنا على كل حال فى طريقنا إلى هــذه النهاية المحتومة . فالتليفزيون يتسلل إلى الدور ، وقد سبقه أخوه الراديو حيث أصبح على الأصدقاء المجتمعين أن ينصتوا لما يجيء إليهم مرتقبا أو غير مرتقب ، ففى ساعات العمل آلة تعمل ، والعامل مراقب لها فى صمت ، وفى ساعات الفراغ آلة تحدث والناس حولها يستمعون فى صمت . . . ترى أيــكون زمان الحديث الحى الطلى قد ولى ؟ إذن فقد أضاعت الإنسانية على نفسها أمتع وسائل التعبير .

لقد شهد هوايتهد فى مواضع كثيرة بما هو مدين به فى حياته الفــكرية لمحاوراته مع أصدقائه ، فما قاله فى ذلك أن الشطر الأعظم من نموه العقلى قد جاءه من جيد الحديث ، وكثيرا ما أسعفه الحظ فى أن يهيىء له المحدث الممتاز ، وكذلك يقول فى موضع آخر بأنه يؤمن إيمانا شديدا بقيمة المحاورة والمحادثة فى التثقيف ، حتى ليعترف بأن ما كسبه منها لايقل عما كسبه من الــكتب ، وفى هذا الــكتاب الذى نقدمه للقراء صورة لهذا المحدث البارع فى حديثه النساب ، فى بيته وبين أصدقائه .

* * *

ولد ألفرد نورث هوايتهد فى الخامس عشر من فبراير عام ١٨٦١ ، فى مدينة رامزجيت من مقاطعة كنت فى انجلترا ، من أسرة اشتغل معظم أفرادها بأعمال تتصل بالتربية وبالــكنيسة وبالإدارة المحلية ، فــكان جده ناظرا لمدرسة خاصة فى رامزجيت ، ثم جاء أبوه فخلف جده فى منصبه ذاك ، غير أن أباه قد تحول فيما بعد إلى المناصب الــكنسية ، ويقول ألفرد هوايتهد عن أبيه إنه لم يــكن عميق الثقافة بقدر ما كان قوى الشخصية ، فــكان كبير الأساقفة فى وقته قد صادقه صداقة جملته ينفق معه ساعات طويلة إبان أشهر الصيف التى كان يقضيها فى منطقة هوايتهد الوالد ، وكانا يتحدثان احاديث طويلة تمثل ـ كما يقول الفرد

هوايتهد ـ القرن الثامن عشر فى أنصع جوانبه ، وقد أخذت ثقافة ذلك القرن عندئذ تختفى رويدا رويدا لتحل محلها ثقافة القرن التالى ـ القرن التاسع عشر ـ وكان الغلام يستمع إلى تلك الأحاديث ، فكان بهذا يشهد ـ كما يقول ـ تاريخ إنجلترا نابضا حيا فى أشخاص جده وأبيه وأصدقائهما ، وكان يشهد تاريخ بلاده حيا فى هؤلاء الرجال بوعيه الباطن لا بعقله الظاهر ، حتى لقد وجد نفسه فى أيام نضجه يفهم ثقافة بلاده عن طريق ما كان قد سمعه ورآه فى هؤلاء الرجال .

وكذلك شهد فى صباه تاريخ بلاده قائما فى آثار كثيرة تحيط بمسقط رأسه رامزجيت ، فعلى بعد ستة عشر ميلا تقع كاندرائية كانتربرى بجلالها وبما تحوى من ذكريات التاريخ ، وفى جوار بلده تقوم قلعة رتشبره التى بناها الرومان ، وهنالك ترى شاطىء البحر فى نفس الموضع الذى نزل فيه السكسون ، والذى نزل فيه أوغسطين ، وعلى مسافة ميل واحد تقع كنيسة الدير محتفظة بلمسات من العمارة الرومانية ، لكن تغلب عليها العمارة النورمندية ، وها هنا ألقى القديس أوغسطين أولى مواعظه الدينية (كان البابا جريجورى الكبير قد أوفد القديس أوغسطين للتبشير بالمسيحية فى بريطانيا) وهكذا كان الصبى يتنفس فى بيئته الأولى أنفاسا تفوح بعطر الماضى التليد ، حتى لقد كان يضيق صدرا ـ لما كبر ـ بملاعب « الجولف » فى ذلك المكان . لأنه كان يرى تلك الملاعب نهاية رخيصة لقصة مجيدة .

وجاءت تربية هوايتهد كلاسية الطابع على غرار ما كان سائدا فى القرن التاسع عشر ، فقد بدأ اللاتينية وهو فى العاشرة ، وبدأ اليونانية وهو فى الثانية عشرة ، فلو استثنيت أيام العطلة الدراسية ، ألفيت فتانا لا يفوت يوما واحدا ـ حتى انتصف العام العشرون من عمره ـ دون أن يقرأ بضع صفحات من تراث اللاتين واليونان ، يقرؤها قراءة الدارس المتفحص نحوا وصرفا ومعنى ،

وعن طريق دراسته لتلك النصوص صاحب رجال الفكر الأقدمين مصاحبة تركت فى نفسه أثرها إلى آخر حياته الفكرية .

وتخلل دراسته الكلاسية دروس الرياضة ، حتى لقد أعفى فى المدرسة من بعض الدراسات القديمة لينفق فى الرياضة وقتا أطول ، وذلك لما أبداه من استعداد واضح فى هذا الاتجاه ، انتهى به إلى أن يجعل الرياضة موضوع تخصصه وهو فى الجامعة ، على أنه لم يكتف فى دراسته الثانوية بما كانت تقتضيه الواجبات الرسمية ، بل رأى نفسه مشغوفا بالشعر ، فراح يقرأ للشعراء فى أوقات فراغه ، لا سيما « ورد زورث » و « شلى » .

ودخل جامعة كمبردج فى خريف ١٨٨٠ ، وهو يعترف بما هو مدين به لهذه الجامعة فى تكوينه الثقافى اعترافا يقول فيه إنه لا سبيل إلى الإسراف فى وصف ذلك الدين ؛ الذى لم يرجع فقط لما تلقاه فى قاعات الدرس ، بل جاوز تلك القاعات إلى ما كان هناك من تدريب اجتماعى وعقلى معا ، فأما قاعات الدرس فكان التعليم فيها يلتزم نطاق التخصص فى أضيق حدوده ، وكانت الرياضة مادة تخصصه ، فدرسها على أساتذة أكفاء حتى ألم بجانبيها : البحت والتطبيقى ، لكنه لم يستمع إلى درس واحد ــ خلال سنوات الجامعة الأربع ــ فيما لا يمس الرياضه مسا مباشرا ، لكن المحاضرات لم تكن فى جامعة كمبردج إلا جانبا واحدا من تربية الطالب ، فكان هناك مصدر آخر بالغ الخصوبة بعيد الأثر فى تكوين أبناء الجامعة ، ألا وهو حلقات النقاش التى لم تنقطع بين الطلاب والأساتذة ، ففى كل مساء كان العشاء يقدم للطلاب فى نحو السادسة أو السابعة ، وبعد الفراغ منه ، يتحلق الطلاب بعضهم مع بعض ، أو مع من شاءوا من أساتذتهم ، حلقات ، حلقات ، يناقشون فيها ما طاب لهم أن يناقشوه حتى ساعة متأخرة من الليل .

لم تكن جماعات الأصدقاء تربطها وحدة التخصص فى الدراسة ؛ إذ كانت الموضوعات التى تناقش فى اجتماعاتهم الخاصة تتناول كل شىء : السياسة والدين والفلسفة والأدب ، فكان هذا التنوع حافزا على تنوع القراءة . ويسوق لنا هوايتهد نفسه فى ذلك مثلا ، فيقول إنه وهو المتخصص فى الرياضة كاد يحفظ أجزاء من كتاب « نقد العقل الخالص » لكانط عن ظهر قلب ، ويضيف إلى ذلك قوله: « لقد نسيته الآن ،لأن سحر كانط قد زال عنى وشيكا ، وأما هيجل فلم أستطع قط قراءته ، فقد بدأت دراسته بالنظر فى ملاحظاته التى أبداها عن الرياضة ، فأدهشنى أن أجدها كلها هراء فى هراء » .

ويمضى هوايتهد وهو يروى عن قصة حياته فى إيجاز مختصر (راجع كتابه : مقالات فى العلم والفلسفة) فيقول : إننى إذ أرجع ببصرى أكثر من نصف قرن (كتب هذا سنة ١٩٤١) ، أرى تلك الأحاديث التى كانت تدور بيننا ونحن فى كمبردج قريبة الشبه بالمحاورات الأفلاطونية ...... وهكذا كانت تعلم كمبردج أبناءها ، فهى تجرى على النهج الأفلاطونى ...... إن أفلاطون لو شهدنا فى كمبردج نمزج بين تخصص فى الرياضة ومناقشات حرة تدور بين الأصدقاء لأبدى رضاه » .

فرغ هوايتهد من دراسته الجامعية سنة ١٨٨٥ ، فعين فى نفس الجامعة مدرسا ، حتى كان عام ١٩١٠ استقال من منصبه ذاك لينتقل إلى لندن .

وفى ديسمبر من عام ١٨٩٠ تزوج فيلسوفنا من زوجته التى تراها بارزة الأثر فى المحاورات التى نقدمها إليك اليوم . وعنها يقول : « إن أثر زوجتى فى تشكيل وجهة نظرى إلى العالم كان من العمق بحيث لايجوز إغفاله : فهو أحد العوامل الجوهرية فى إنتاجى الفلسفى . » فلقد نشأت فى محيط يختلف كل الاختلاف عن المحيط الذى نشأ فيه زوجها ، فهى من أسرة يكثر بين أفرادها

العسكريون والساسة ، وهو من أسرة يكثر بين أفرادها المعلمون والقساوسة ، يقول الزوج عن زوجته : « إن حياتها الناصعة قد علمتنى أن الجمال بشطريه : الخلقى والفنى ، هو الغاية من الوجود . وأن وسائل بلوغه هى الرحمة والحب والنشوة الفنية . وأما المنطق والعلم فيقتصران على أن يكشفا لنا عما هو ذو صلة بالموضوع الذى نكون بصدد بحثه ، كما يعاوناننا على اجتناب ما ليس ذا صلة بذلك الموضوع . وعندى أن هذه النظرة تنقل ماقد ألفناه من اهتمام فلسفى بالماضى ، إذ توجه التفاتنا إلى الفترات التى ازدهر فيها الفن والأدب ، باعتبارهما أفضل أداة تعبر عن القيم الجوهرية فى الحياة ، إلا أن بلوغ الإنسان أعلى ذروة يستطيع الانسان بلوغها ، ليس مرهونا بنشوء مذهب عقلى متسق البناء (وهو مايقدمه لنا العلم والمنطق معا) على الرغم من أن اتساق الفكر قد أدى واجبا خطيرا فى نشأة الحضارة » .

وأنجب ذلك الزواج ثلاثة أبناء ، اشتركوا جميعا فى الحرب العالمية الأولى : أما الابن الأكبر فقد اشترك فى الحرب من أولها إلى آخرها ، وأما الابنة وهى الوسطى فقد خدمت فى وزارة الخارجية ، وأما الابن الثالث فقدكان طياراً وأصيبت طائرته فى سماء فرنسا فقتل فى مارس ١٩١٨ — وأنا أذكر هذه الحقيقة الأخيرة لأن حزن الوالد على ولده قد أدى إلى تغيير وجهة نظره الفلسفية بعض الشىء ، مما يدل على أن فلسفة الرجل وليدة ظروفه ، مهما بلغ من تدريب على التفكير الرياضى العلمى الموضوعى الذى يتجرد عن النفس ونوازعها .

وكان أول مؤلفات هوايتهد العلمية كتابه « رسالة فى الجبر العام » فاختير بسبب هذا الكتاب عضوا فى الجمعية الملكية سنة ١٩٠٣ ، وأما عمله الفلسفى فلم يبدأ إلا بعد ذلك بزمن طويل وعلى أساسه اختير عضوا سنة ١٩٣١ زميلا فى الأكاديمية البريطانية .

وحدث فى سنة ١٩٠٣ أيضا أن نشر برتراند رسل كتابه « أصول الرياضة »

على أن يكون الجزءَ الأولَ يتلوه جزء ثان ، كما كان كتاب هوايتهد فى الجبر جزءا أول يتلوه جزء ثان ، فاستكشف الرجلان : هوايتهد ورسل ، أن الجزء الثانى الملتزم صدوره عن كل منهما يتناول موضوعات هى هى بعينها ، فاتفقا على أداء عمل مشترك ، وحسبا أن عاما واحدا يكفيهما لإخراج ما تصديا لإخراجه ، لكن أفق الموضوع أخذ يتسع أمام ناظريهما ، فاستغرقا ثمانى سنوات أو تسعا يعملان معا ، حتى أخرجا كتابهما « أسس الرياضة » (برنكيبيا ماثماتكا) — وكان رسل قد التحق بجامعة كمبردج فى العشار الأخير من القرن الماضى ، أى بعد أن دخلها هوايتهد بعشر سنوات أو نحوها ، وارتبط الرجلان بروابط الصداقة الوثيقة ، وفى هذا يقول هوايتهد : « لقد نعمنا كما نعم العالم كله بألمعية رسل ، تلميذا أولا فزميلا ثانيا ، ثم صديقا آخر الأمر ، فكان عاملا قويا فى حياتنا إبان مقامنا فى كمبردج . لكن وجهة النظر الأساسية — فلسفية واجتماعية — قد تفرقت بيننا ، فتفرقت تبعا لذلك إهتماماتنا ، وكان ذلك خاتمة طبيعية للتعاون معا على عمل واحد . »

قلنا إن هوايتهد ترك منصبه فى كمبردج عام ١٩١٠ ، وانتقل إلى لندن ، وفى السنة الأولى من مقامه هناك أخرج كتابه « مدخل إلى الرياضة »، ولبث هوايتهد فى الكلية الجامعة (بجامعة لندن) حتى سنة ١٩١٤ ، وعندئذ ظفر بالأستاذية فى الكلية الامبراطورية للعلوم والتكنولوجيا (بجامعة لندن أيضا) ، وفى أواخر تلك الفترة عين عميدا لكلية العلوم بالجامعة ، ورئيسا للمجلس الأكاديمى الذى كانت مهمته رسم خطة التعليم لمدينة لندن ، كما عين عضوا فى مجلس الجامعة، وغير ذلك من جميات ولجان لا عدد لها ، ولقد كان اشتراكه فى النشاط التربوى على هذا النطاق الواسع ، موجها لاهتمامه نحو مشكلة التعليم العالى فى الحضارة الصناعية الحديثة ، فقد كان المبدأ المأخوذ به ـ ولا يزال قائما فى بلاد كثيرة ـ هو أن مهمة الجامعات مقصورة على مجالات التخصص الأكاديمى ، وهى تؤدى مهمتها تلك على أنماط مختلفة ، فمنها النمط الذى رسمته جامعتا أكسفورد وكمبردج ، ومنها النمط

الذى رسمته جامعات ألمانيا ، أما إذا جددت جامعات فى التعليم الجامعى ، فخلقت نمطا آخر ــ كما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية التى وسعت من نشاط الجامعة حتى جعلته يتناول كل صنوف الإعداد للحياة العملية — فكان ذلك ينظر إليه بعين المزدرى ، وكان معنى هذا أن الدراسة الجامعية تصب أكثر اهتمامها على الماضى ، ولا تدير بصرها إلى مشكلات تربوية خلقتها الحضارة الصناعية المحيطة بها ؛ فلم يدخل فى حساب الجامعات أبدا أن هناك ملايين الصناع الذين يتوقون إلى استنارة عقلية فى رحاب الجامعات ، وملايين الشباب من كل صوب يطلبون حظهم من المعرفة العليا .

فكان أن حاولت جامعة لندن فى عهد هوايتهد مواجهة الظروف الناشئة ، بأن ضمت فى نطاقها معاهد كثيرة تتنوع أنماطها ، يؤدى كل نمط منها ما يراد له أن يؤديه فتتحقق الأغراض جميعا .

وأما مؤلفاته التى أصدرها إبان مقامه فى لندن (١٩١٠ ــ ١٩٢٤) فأولها هو الذى أسلفنا ذكره ، « مدخل إلى الرياضة » (١٩١٠) وتلاه « تنظيم الفكر » (١٩١٦) ثم « بحث فى أصول المعرفة الطبيعية » (١٩١٩) و « فكرتنا عن الطبيعة » (١٩٢٠) و « أصول النسبية مع تطبيقات على علم الفزياء » (١٩٢٢) .

وفى ١٩٢٤ ــ وكان عمره ثلاثة وستين عاما ــ تلقى دعوة من جامعة هارفارد بالولايات المتحدة ، ليكون أستاذا للفلسفة بها ، وهناك أخرج أهم كتبه الفلسفية على الاطلاق ، فأخرج « العلم والعالم الحديث » (١٩٢٥) و « الدين فى طور التكوين » (١٩٢٦) و « المنهج الرمزى : معناه وأثره » (١٩٢٧) و « أهداف التربية » (١٩٢٨) ــ وقد ترجم إلى العربية هذا الكتاب الأستاذان قدرى لطفى ومحمد بدران ــ و « التطور وعالم الواقع » (١٩٢٩) و « مهمة العقل » (١٩٢٩) و « مغامرات أفكار » (١٩٣٣) ــ وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية

الأستاذ أنيس زكى حسن ، و « الطبيعة ، والحياة » (١٩٣٤) و « صنوف الفكر » (١٩٣٨) و «مقالات فى العلم والفلسفة » (١٩٤٧)

ومات ألفرد نورث هوايتهد فى الثلاثين من ديسمبر سنة ١٩٤٧ ، بالغا من عمره سبعة وثمانين عاما .

وكتبت زوجته فى وصف موته تقول :

« فى يوم عيد الميلاد اجتمعت الأسرة كمألوف عادتها ، وفى اليوم التالى لم يكن « ألفرد » مكتمل العافية ، وفى ذلك اليوم نزلت به النازلة ، ورأيتها وهى تنزل به ، فقد رفع يده اليسرى وتركها لتسقط ، كى ينبئنى أنه يدرى ما حدث ، فقد سار الشلل عندئذ نصف طريقه ، وأدركت أن النهاية لم تكن بعيدة الوقوع . »

وهنا قد يطفر إلى الذهن ما قاله « فيدون » لـ « أشقراط » وهو يقص عليه قصة سقراط فى سجنه ويصف له كيف ختم الأجل :

« هكذا يا أشقراط قضى صديقنا الذى أقول عنه بحق إنه أحكم من قد عرفت من الناس ، وأعدلهم وأكثرهم فضلا . »

* * *

بدأ هوايتهد حياته العلمية رياضيا من الطراز الأول ، وعالما من علماء الطبيعة ، ولذلك جاءت أولى محاولاته الفلسفية الكبرى متأثرة بتلك الدراسة الأولى ، وذلك حين تعاون مع رسل — كما أشرنا — فى إخراج مؤلف ضخم فى منطق الرياضة يعد بداية عهد جديد فى الدراسة المنطقية ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن لهذا المؤلف ـ وأعنى به « أسس الرياضة » ـ أبعد الأثر وأعمقه فى توجيه تيار الفكر الفلسفى كله فى هذه العشرات الخمس الأخيرة من أعوام القرن العشرين ؛ إذ وجه ذلك الفكر الفلسفى نحو التحليل على نموذج ما ورد فى « أسس الرياضة » من تحليلات ولو جعلنا للفلسفة المعاصرة صفة واحدة غالبة لقلنا إنها الانتقال من « التأمل » الميتافيزيقى إلى « تحليل » القضايا العلمية ، وكان من أئمة هذا التحول فى تاريخ الفلسفة المعاصرة فيلسوفنا هوايتهد .

وأهم ما يطبع فلسفة هوايتهد هو رأيه بأن الجانب الهام من حقيقة الشيء — ومن حقيقة العالم بصفة عامة — هو بنيته ؛ أى هو شبكة العلاقات الرياضية التى تكون له بمثابة الإطار الذى ينبنى عليه وفى حدوده ، وليس الجانب الهام هو المضمون الكيفى — الذى يملأ ذلك الإطار — فلو تناولت شيئا ما وفككت أجزاءه وأبطلت بنيته ، لفسد الشيء ولم يعد هو هو ، برغم احتفاظ الأجزاء بالمضمونات الكيفية ، لأن قوام الشيء هو — كما قلنا — فى العلاقات الرابطة بين أجزائه .

ومن هذا نفهم لماذا سميت فلسفة هوايتهد بفلسفة البناء العضوى ؛ فكل شيء ، وكل واقعة وكل موقف ، هو فى الحقيقة بناء ذو هيكل معين ، ولو تغير هيكله لأصبح شيئا آخر ، فالأمر فى أى شيء هو كالأمر فى الكائن العضوى من أنه ليس كومة من خلايا أو مجموعة من أعضاء اجتمعت كما اتفق ، بل هو فوق ذلك « تركيبة » معينة أو «بنية» خاصة تنتظم بها الأجزاء فى شبكة معينة من علاقات . وما قلته عن كل شيء على حدة ، تقوله عن الوجود بأسره .

غير أن هذه العلاقة الشبكية التى تمسك بأطراف الوجود فتجعله ذا بنية معلومة ، لا تقتضى أن يظل الوجود على حالة واحدة لا يتغير ولا يتطور ، بل إن العالم لفى تغير دائب دائم ، تغيرا يحتفظ فيه بذاتيته ، بفضل عملية يطلق عليها هوايتهد اسم « التشرب » .

فهو يرى أن الشيء ـ أو الوجود بأسره ـ يشرب ماضيه شربا يسرى فى كيانه كله ، ثم يسقيه إلى ما سيتلوه فى مراحل تاريخه ، فعلى الرغم من أن كل كائن هو فريد فى ذاته وصفاته ، إلا أنه فى الوقت نفسه حلقة فى سلسلة ممتدة ، ورث سالف

الحلقات ، وستورث خصائصها المتجمعة فيها لما سيجىء بعدها من حلقات . وهكذا يشعر الفرد الواحد - فى مجرى خبرته الحية - بشعورين فى وقت واحد : يشعر بفرديته التي يتفرد بها ، ثم يشعر بأنه رغم فرديته جزء من كل واحد ، هو الوجود .

إننا فى العادة نتصور الثبات فى أنفسنا ، حتى إن تصورنا التغير الدائب فى الأشياء التي تدركها ، لكن هوايتهد يجعل التغير شاملا للذات والأشياء معا . فلا ينفك ما حولنا يتغير ، كذلك ما تنفك الذات المدركة تتغير ، فإذا كانت الأشياء الخارجية لا تظل لحظتين متتابعتين على حالة واحدة ، فكذلك الذات المدركة لا تثبت على حالة إدراكية واحدة لحظتين متتابعتين ، كان هرقليطس - وهو من فلاسفة اليونان السابقين على سقراط - بذهب مذهب التغير فى الأشياء ، وقد صور ذلك فى عبارته المشهورة : « إنك لا تعبر النهر الواحد مرتين » ، ومعناها أنك حين تعبر النهر للمرة الثانية يكون قد أصبح نهرا آخر ، فليس الماء هو نفسه الماء الذي كان أول مرة ، وجاء هوايتهد فوسع من المبدأ نفسه بحيث شمل الذات أيضا ، حتى ليصح أن يقال عنها عبارة شبيهة بتلك ، فنقول : « إنك لا تفكر الفكرة الواحدة مرتين » أو « إنك لا تمارس الخبرة الواحدة مرتين » لأنك فى كل لحظة تتغير ذاتا بتغير موضوع إدراكك ، وهكذا يكون العالم كله - ذاتا وموضوعا - جديدا أبدا ، لا يدوم على حالة واحدة لحظتين متتابعتين .

لكن الشىء إذا تغير تغيرا لا يقف تياره ، فهو إنما يفعل ذلك باطراحه لصفات ، واكتسابه لصفات جديدة - هذا بديهى ، إذ لو دامت للشىء صفاته لما طرأ عليه تغير ، فلنا أن نسأل : ومن أين للشىء المتغير صفاته الجديدة التى بها يتغير ؟ إن تفسير ذلك محال إلا إذا افترضنا وجود تلك الصفات بالإمكان لا بالفعل ، لابد أن يكون هناك عالم الممكنات إلى جانب هذا العالم الفعلى ، لكى يتسنى

للكائنات الفعلية أن تلبس من عالم الممكنات ثوبا ، وتخلع ثوبا خلال سيرها وتطورها .

أفيكون هوايتهد ـ إذن ـ أفلاطونيا صريحا ، يفرض عالمين : عالم المثل ـ أو إن شئت فقل عالم الإمكان ـ من جهة ، وعالم الموجودات الفعلية من جهة أخرى ؟ هذا ما ذهب إليه بعض الشراح لفلسفة هوايتهد ، لكننا نفضل على هذا الشرح شرحا آخر يفاضل بين هوايتهد وأفلاطون ، وهو أن عالم الإمكان عند هوايتهد عالم رياضي صرف ، أى إنه عالم من علاقات صرفة ، ليس يملؤها مضمون كيفى ، شأنه فى ذلك شأن الصيغ الرياضية التى نراها فى قوانين الطبيعة كقانون الجاذبية — مثلا — أو قانون الغازات ، فالصيغة الرياضية فى كل من هذه الحالات تصور عالم الإمكان ، الذى يجىء الواقع الفعلى على غراره ، دون أن يكون فى الصيغة الرياضية إلا شبكة العلاقات الصورية خلوا من مضمونها الكيفى ، هذا هو ما يريده هوايتهد بعالم الإمكان الذى يستمد منه الواقع صوره التى ما تنفك تتغير مضمونا ، وأما المثل عند أفلاطون فهى لا تكتفى بمجرد الصيغة الرياضية ، بل إنها لتبث فيها كذلك حشوها الكيفى ، « فالبياض » مثلا مثال من المثل الأفلاطونية ، مع أنه كيفى الطابع ، وأما عند هوايتهد فالكيف لا يكون فى عالم الإمكان الأزلى الأبدى الذى يقرر وجوده .

تلك لمحة موجزة سريعة ، قد تفيد قارىء هذا الكتاب فى إلقاء الضوء على بعض ما قد ورد خلال المحاورات من آراء .

* * *

أما بعد فإن لى مع كتاب « محاورات هوايتهد » لقصة طريفة أرويها فى ختام هذه المقدمة :

كنت أستاذا زائرا بجامعة أمريكية فى ولاية واشنطن ، وهى فى أقصى

الشمال الغربى من الولايات المتحدة ، فى العام الدراسى ١٩٥٣/١٩٥٤ ، وفى ربيع عام ١٩٥٤ نشرت مجلة « آتلانتك » الأدبية فصولا من هوايتهد توطئة لإصدار كتابه هذا ، فتابعت هذه الفصول ، ولفت نظرى فى أحدها رأى غريب عن المسيح . إذ يقول عنه إنه يتصف بسماحة النفس التى لا نعرفها فى أبناء البلاد التى ظهر فيها ، ونعرفها فى اليونان ، وإذن فالأرجح أن يكون المسيح من عنصر هلينى كان قد انتقل إلى الوطن الذى ظهر فيه ...

عجبت لهذا الخطأ المنطقى المنهجى يقع فيه علم من أعلام المنطق والتفكير الرياضى الصارم ، لأن أبجدية المنطق السليم فى النظرة العلمية هى أن نبنى النظرية على أساس الواقع ، لا أن نحور فى الواقع حتى يتفق مع النظرية ، فاذا كان الفرض النظرى عند هوايتهد هو أن أهل الشرق الأوسط لا يعرفون سماحة النفس ، كما عرفت هذه الصفة عند اليونان ، ثم وجد نبى التسامح يظهر بينهم ، فالأدنى إلى الصواب أن يغير من نظريته حتى تتفق مع الواقع المشهود — والواقع هنا هو ظهور المسيح فى الشرق الأوسط ـ لا أن يحتفظ بنظريته كما توهمها ، ثم يلف الواقع لفا تتحقق به نظريته المزعومة .

وبعد قراءة هذا المقال فى المجلة ، جاء موعد محاضرتى — وكان دائما من الحاضرين عدد كبير من الأساتذة — فبدل أن أحاضرهم فى الموضوع الذى أدير حوله محاضراتى ، وهو الفلسفة الإسلامية ، فاجأتهم بأن أجعل موضوع المحاضرة تعليقا على هذه النبذة التى وردت فى المقال المذكور .

ومضت الأيام ؛ وجاء يوم الأربعاء ٢٦ من مايو سنة ١٩٥٤ ، وهو اليوم الذى ألقيت فيه آخر محاضراتى فى تلك الجامعة ، فماذا حدث ؟ هأنذا أنقل إليك أسطرا من مذكراتى اليومية .

« ... بعد أن فرغت من محاضرتى فى الفلسفة الإسلامية اليوم ، دعانى أعضاء

الفرقة التى أحاضرها ـ بما فيها من طلبة ومستمعين ـ إلى حفلة صغيرة أعدوها توديعا ، بمناسبة انتهاء الشوط الدراسى ، وهناك قام الدكتور « هـ » أستاذ الأدب الإنجليزى ـ وقد حضر لى جميع محاضراتى بغير تخلف ـ فألقى كلمة تقدير اهتزت لها نفسى ، ثم قدم إلى هدية كتاب «محاورات ألفرد نورث هوايتهد» الذى صدر هذا الأسبوع ، وقد وقع الحاضرون على غلافه من الداخل ، بعد أن كتب نيابة عنهم الدكتور « هـ » عبارة على الغلاف ، سأعتز بها ما حييت .. هذا نصها :

« إلى الأستاذ زكى نجيب محمود

إننا نقدم إليك هذا تقديراً عميقاً لمحاضراتك الوضاءة التى ألقيتها علينا فى الفكر العربى . فبرغم أنك تحدثت الينا بلغتنا . وهى لغة تختلف عن لغتك اختلافاً بعيداً . فقد بهرتنا أبداً ، وسحرتنا بهذه السيطرة الجميلة التى سيطرت بها على اللغة الإنجليزية ، فى كل لفتة من لطائف لفتاتها ، وفى كل موضع من مواضع سياقها .

اللهم اجعل الشمس والغيث لك مددا . فيثمران لك ثمرا موصولا من رصانة الحكمة وخصوبة الحياة » .

ثم شاء الله لقصتى مع هذا الكتاب الرائع أن تنتهى بفصل مشرق بهيج . وهو أن يتولى ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية شقيقى الأستاذ محمود محمود ، الذى مهما اقتضت صلتى به أن أقتصد فى عبارة التقدير ، فان يمنعنى ذلك من القول بأن الترجمة قد جاءت للأصل البديع صنوا بديعاً .

الجيزة فى ٢٧ يناير ١٩٦١ — زكي نجيب محمود

« . . . . عن هذا المصدر أخذنا الفلسفة

وإن الآلهة لم ـ ولن ـ تقدم خيرا أعظم منه للانسان الفانى » .

— أفلاطون ـ تيماوس

« . . . . . . هذا المكان مقدس ، في جميع مظاهره —

يكسوه الغار والزيتون والكرم ،

وفى قلبه تشدو فرقة مريشة من طيور العندليب،

فاجلس هنا، فوق هذا الصخر الأصم .

— سوفوكليس :أوديب عند كولونس

فاتحـــــة

يزخر القرن الذى يقع بين عامى ١٨٥٠ و ١٩٥٠ بمجموعة من السِّيَر يعجز عن ابتكارها أى كاتب من كتاب القصص الخيالية . وهذه الوفرة البالغة من مختلف الشخصيات ترتبط عادة برجال العمل ، ولكنها يمكن كذلك أن ترتبط برجال الفكر . بل لقد كانت ثورة الفكر فى القرن الماضى أشد عنفا . أى روائى يستطيع أن يتخيل سيرة تبلغ ما بلغت سيرة هوايتهد من تشابك بعصر أشد تفجراً من العصر الذى عاش فيه ؟ هل يستطيع ذلك أنتونى ترولوب ، ربما استطاع ترولوب أن يرسم البداية ، لأن القصة تبدأ بشخصية إنجليزية ، ولكن عندما تغادر هذه الشخصية بيئة كاتدرائية كانتربرى وتيت ـ رئيس الأساقفة ـ الذى اعتاد أن يذهب إلى أبرشية القديس بطرس لتناول العشاء مساء كل يوم من أيام الآحاد ـ يقصر خيال ترولوب ـ كما يقصر عقله ـ عن مجاراتها . وكأن ترولوب نفسه كان يدرك ذلك حين قال :

« ينبغى أن يكون الأدب قابلا للتصديق إلى حد كبير . فى حين أن خبرات البشر فى الواقع تفوق كل قوى الخيال . ومن ثم كان « الأدب الاجتماعى » مطابقاً للعرف . بينما يتخطى التاريخ « كل حدود العقل » .

* * *

وتقع حياة هوايتهد فى ثلاثة مجلدات ، يشمل المجلد الأول جامعة كامبردج ، ويشمل الثانى لندن ، والثالث كامبردج فى ماساشوست . وقد قال أيضاً إنه يحس كأنه عاش ثلاث حيوات فى ثلاث فترات متتابعة . الأولى من

عام ١٨٦١ إلى عام ١٩١٤ ، والثانية خلال الحرب من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨ ، والثالثة بعد هذه الحرب العالمية الأولى .

وتبدأ قصة « المدن الثلاث »[1] هذه بداية هادئة . فهو ابن أستاذ مدرس وحفيد أستاذ مدرس كذلك . ثم أصبح أبوه قسيساً فيما بعد . وفى حياته كقسيس كان يتقيد بنصوص العهد القديم ، خطبه ومواعظه يرن صداها تحت قبة كنيسة نورمان . والمنظر كله آية فى الروعة — رامزجيت التى تواجه البحار الضيقة بين إنجلترا والقارة الأوروبية ، تلك البحار الضيقة « التى تولدت عنها كل الحكومات الحرة فى العالم — هولندا وإنجلترا والولايات المتحدة . وقد كان (الآباء المهاجرون) من أبناء هذه البحار » . وعلى مقربة منها تقع تلك الأسوار العابسة : أسوار قلعة رتشبره ، التى شيدها الرومان . وعلى بعد ميل من ساحل ابز فليت ، حيث رسا السكسون فى غابر الزمان ، يقع المكان الذى ألقى عنده أوجستين أولى مواعظه . وعلى بعد ستة عشر ميلا فقط تقع كاندرائية كانتربرى ، حيث كان يستطيع الطفل الصغير منذ تسعين عاما — ولا يزال يستطيع حتى اليوم — أن يشهد البقعة التى قُتل عندها توماس بكت ، ويرى العدة الحربية التى كان يدرعها (الأمير الأسود) . إن التاريخ لهذا الصبى لم يكن شيئاً يتعلمه من الكتب ، بل كان شيئاً يحتك به كل يوم ، تكتحل به عيناه ويستنشقه مع الهواء .

ومع أن هوايتهد كان يعد نفسه دائماً إنجليزيا شرقياً ، ومع أن صورته كانت مثالا لذلك — إذ كان أشقر اللون ، أحمر الوجنتين ، أزرق العينين — إلا أنه كان يلاحظ فى تاريخ أرومته خلطا خفيفاً يجعله مخالفاً بعض الشىء لهؤلاء

---

(١) الإشارة هنا الى « قصة المدينتين » المعروفة

الإنجيليين . فقد كانت إحدى جداته من ويلز ، تنتمي إلى أسرة وليامز ، وكان يختلف عن إخوته اختلافا يرجع إلى الدم الـكلتي الذى كان ينبض فى عروقه .

ولد فى الخامس عشر من شهر فبراير من عام ١٨٦١ . وكان طفلا ضعيف البنية ، فعلمه أبوه فى البيت ، وقضى جانبا كبيراً من وقته فى الخلاء مع بستانى عجوز حمل له طوال حياته العرفان بالجميل ؛ لأنه كان أول من جعله يرى النور الذى يضىء فى الظلام . وفى الشتاء كان يزور جدته فى لندن . وكانت أرملة الخائط عسكرى ، تقطن بيتاً فى المدينة ، يحمل رقم ٨١ بيكادلى . ومن نوافذ هذا البيت التى كانت تطل على « الحديقة الخضراء » اعتاد أن يرى الملـكة فـكتوريا ، وهى تمر فى عربتها ، وكانت آنئذ أرملة فى منتصف العمر ، ولم تـكن محببة كثيراً إلى النفوس . وكانت جدته سيدة ثرية ، بيد أنها ــ كما تقول ــ « قد أخطأت إذ أنجبت ثلاثة عشر طفلا » مما أدى إلى انخفاض نصيب كل منهم فى الميراث . ولا بد أن تـكون الجدة كذلك رهيبة الجانب ، لأن المحور الذى كانت تتماسك الأسرة من حوله كان يتركز فى مديرة شئون المنزل جين ونشلو ، وهى التى كانت تقرأ روايات دكنز جهراً للطفل الصغير ، وهو يجلس على مقعد قليل الارتفاع متـكئا على ركبتيه إلى جوار موقد النار .

ولم تـكن حياته المدرسية بأقل من ذلك روعة . التحق بشربرن مراهقاً يبلغ الخامسة عشرة من عمره إلا أربعة أشهر . وجدير بالذكر أن هذه المدرسة قد احتفلت بعيدها الاثنين بعد الألف فى عام ١٩٤١ . فتاريخها يرجع إلى عهد القديس أولدلم ، وتزعم أن ألفرد الأكبر كان من بين تلاميذها . وما زالت مبانى الدير تستعمل حتى اليوم ، وبيت الرهبان به من أفخم المبانى القائمة ، وما برحت قبور الأمراء السكسون ماثلة للعيان . وفى خلال العامين الأخيرين فى هذه المدرسة لهوايتهد كانت حجرة درسه الخاصة تشتهر بأنها كانت مأوى رئيس

الرهبان ؛ وكان الفتى يعمل على مسمع من أصوات أجراس الدير ـ « الأصوات الحية للقرون الغابرة » ـ تلك الأجراس التي أتى بها هنرى الثامن من (ميدان الثوب الذهبي) وأهداها للدير .

وكان منهج الدراسة ـ كما ذكر هوايتهد بعد ذلك بسنوات ـ يسترعى ذهنه بعلامته لمكانه وزمانه . « كنا نقرأ اللاتينية والإغريقيـة باعتبارهما سجلات تاريخية للشعوب الحاكمة التي كانت تقطن إلى جوار البحر وتبسط نفوذها البحرى . لم نعتبرهما لغتين أجنبيتين ، بل لقد كانتا مجرد لاتينية وإغريقية . ولم يكن بالإمكان أن تعرض علينا آراء لها أهميتها بأية وسيلة أخرى . فكنا نقرأ العهد الجديد بالإغريقية . ولم أسمع عن أحد قرأه بالإنجليزية فى المدرسة ـ اللهم إلا إن كان ذلك فى كنيستها ؛ ولم يكن ذلك أمراً ذا بال ـ فإن ذلك معناه عقلية دينية ينقصها التهذيب . كنا متدينين ، بذلك الاعتدال الذى يتصف به قوم يأخذون دينهم عن اليونانية » . ولم يذاكر هوايتهد قط الأجرومية الإنجليزية . وإنما كان يتعلمها عن طريق الأجرومية اليونانية واللاتينية .

ولم يكن الفتيان فى هذه المدرسة مرهقين بالعمل . فقد كان يتوافر لهم الوقت للألعاب الرياضية والمطالعة الخاصة — وهى عنده الشعر ، وبخاصة وردزورث وشلى ، وكان يقرأ كذلك كثيرا من التاريخ . وكان رياضيا ممتازا ، وأمسى أخيرا « عريفا » ، واحدا من كبار الطلبة الستة المكلفين بالتبعات الإدارية ، وبحفظ النظام . وأكبر هؤلاء الطلبة هو رئيس المدرسة . وبهذه الصفة دُعى هوايتهد ليضرب طالبا سرق مالا « وكان لابد من ضربه أمام التلاميذ أو طرده من المدرسة . ولا أقول إنى أصبت فيما فعلت ، ولكنى ضربته » .

وبعد ما تلقى هوايتهد بذور الدراسة الكلاسيكية ، تابع تنميتها بقية حياته .

ولما تقدم القرن العشرون ، وظهر أن كثيرا من رجال العلم ينقصهم التوازن الثقافى بدرجة مؤسفة ، صار هذا التوازن المحمود عند هوايتهد بين العلم والدراسات الإنسانية مزية من مزاياه الفريدة ، وشاع أن « هوايتهد يلم بالطرفين » .

* * *

ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره ،التحق بجامعة كمبردج ، وقد حذق الرياضة من قبل . وكانت طريقة التدريس فى كمبردج فى تلك الأيام أفلاطونية إلى حد كبير . والجدل حر بين الأصدقاء ، فتعلم - كما يقول - من المحادثة بقدر ما تعلم من الكتب. سئل مرة كيف استطاع أن يكتب « العلم والعالم الحديث » فصلا فى كل أسبوع خلال العام الدراسى ، وهو يلقى فى الوقت نفسه محاضراته المقررة بجامعة هارفارد ، فأجاب « بأن كل ما فى الكتاب قد نوقش فى الأربعين السنة الماضية » .

وأصبح زميلا فى ترنتى فى عام ١٨٨٥ ، فى سن الرابعة والعشرين الناضجة — وكلية ترنتى بكمبردج من أعظم المؤسسات التعليمية فوق الأرض . ثم كانت بعد ذلك تلك التجربة الكبرى التى وجد فيها تلك الجوهرة النادرة ، وأقصد بها التواضع الحق .

فى القرنين السابقين كان العالم يرتاح إلى القول بأن سير إسحق نيوتن قد كشف قوانين الكون الطبيعى النهائية . ثم حدث أمر هام . وسأحاول أن أذكر كلمات هوايتهد بنصها بقدر ما تسعفنى الذاكرة .

« كنا نعتقد أن كل أمر هام تقريبا فى الطبيعة قد بات معروفا . ولم تبق إلا بعض النقاط القليلة الغامضة، بعض الشواذ الغريبة التى تتعلق بظاهرة الإشعاع، والتى كان علماء الطبيعة يتوقعون تفسيرها بحلول عام ١٩٠٠ ، وقد أمكن تفسيرها فعلا ، بيد أن العلم كله خلال هذا التفسير قد تقوض ، وتبددت طبيعة نيوتن التى كان يظن أنها نهاية الأرب . أجل ، إن طبيعة نيوتن كانت - وما تزال — نافعة

كطريقة من طرق النظر إلى الأشياء ، ولكنها لم تعد صادقة باعتبارها وصفا نهائيا للحقيقة . فقد تبدد اليقين » .

وما زال الأمر كذلك . ولكن كم غيره قد تعلم هذه الحقيقة ؟ إن تبدد اليقين — حينما كان يظن أن اليقين لا يتعرض للانجزام — قد أثر فى تفكير هوايتهد بقية أيام حياته . تبددت نهاية الأزب ، ومع ذلك فقد لاحظ هوايتهد أن رجال العلم أنفسهم الذين يعرفون قصة هذا التبديد كثيرا ما يتقدمون بمستكشفات يعرضونها وكأنهم يقولون : وأخيرا بلغنا اليقين !

« إن العالم فسيح . وليس هناك أعجب من ذلك الجزم القاطع الذى يوهم به الإنسان نفسه فى كل عصر من عصور تاريخه ، فيتوهم أن طرائق المعرفة عنده نهائية ، والمؤمنون والمنكرون فى ذلك سواء . والعلماء والمتشككون هم فى الوقت الحاضر أكبر اليقينيين ، يسمحون بالتقدم فى التفاصيل ، وينكرون كل تجديد فى الأساس . وفى شيوع اليقينية هذا قضاء على المغامرات الفلسفية — إن العالم فسيح »

وهكذا نبلغ ما سماه هوايتهد « مغالطة النهائية اليقينية » . وهو أقل تعاليمه شيوعا . وعندما يثار هذا المذهب فى حديث أو فى مطبوع للجمهور ، سرعان ما يرى فيه الناس البدعة والضلال ، فالمرء قد لا يعرف حقيقة ما لا يحب ، ولكنه يعرف أنه لا يحبه . . . . فيغضب ويزمجر كلما بدا له الشبح .

*

* *

والمنظر الثانى هو « بيت » دكنز « المكشوف » . لم يكن بيتا خياليا ، إنما هو منزل من حجر الصوان يقع على رأس بارز فى البحر عند برود ستيرز . وهو بيت مكشوف فعلا ، تهتز جدرانه من تلاطم الأمواج فى عواصف الشتاء . وهنا التقى ألفرد هوايتهد بأفلين ويد ، وهى سليلة أسرة أرلندية عسكرية ، نشأت فى

بريتانى ، وتلقت دراستها فى دير للراهبات ، وأتت فى صباها إلى إنجلترا لتعيش فيها . واقترن بهـا هوايتهد فى ديسمبر من عام ١٨٩٠ ، وعاشـا فى كمبردج عشرين عاماً من هـذا التاريخ ، قضيا ثمانية منها من ١٨٩٨ إلى ١٩٠٦ فى بيت مل بجرانشستر ، وهو بيت ريفى من القرن السابع عشر مسقوف بالقاب ؛ يقع موقعا جميلا وسـط حديقة غنـاء ، وعلى مقربة منه البركة التى ورد ذكرها فى شوسر .

ولم تـكن هنا فجوة بين الحياة المدنية والحياة الدينية . وقد شاركا فى حيـاة القرية مشاركة حية . وضربا لأهل القرية مثلا بالامتناع عن شرب الخمر ، وكان أهل القرية فى ذلك الحين يدمنون الشراب . وحملا على عاتقهما إغاثة المحتاج وعول الخدم . فـكان فى سلوكهما هذا بقيـة من سلوك الأمراء فى القرن الثامن عشر ، بل سـلوك الإقطاعيين فى القرن السابع عشر . وقد ساقت هذه التجربة هوايتهد إلى إدراك الخلق الإنجليزى والعادات الشعبية الإنجليزية التى استطاع أن يربطها بتعمياته الفلسفية . والتى عاونت على صبغ تفكيره المجرد بالمسحة الإنسانية . وانغمس كذلك فى سياسة الأحرار « وكان عملا مثيرا . . . . كان البيض الفاسد والبرتقال من الأسـلحة الحزبية الفعالة ، وكثيرا مارميت به . ولـكنها كانت دلائل القوة أكثر من دلائل الشعور السىء » .

سئل مرة : « فى أية فترة من فترات حياتك بدأت تحس أنك ملـكت زمام موضوعك ؟ »

فأجاب فى خشونة غير معهودة فيه :« لم يحدث ذلك قط ».

ولمدة ستة عشر عاما فى كمبردج - فيما يظهر - كان فى صراع دائم مع الأرق. وكلما حل شهر سبتمبر بعد قضاء عطلة الصيف فى الريف الإنجليزى ، فى كنت ، أو فى قرية صغيرة على البحر ، ساوره الشك أن يحتمل عاما دراسيا بعد ذلك ، بيد أن الأرق لم يؤثر قط فى عمله ، وأخذ يزول فى لندن ؛ وبرأ منه نهائيا آخر الأمر .

وخلال ثمانى سنوات من سنى كمبردج كان يطلع على علوم الدين . وكانت مطالعاته كلها فى هذه العلوم خارج المنهج الدراسى ، بيد أنها كانت شاملة بحيث أمكنه أن يجمع مكتبة دينية ضخمة . وفى نهاية هذه السنوات الثمانى طلّق الموضوع وباع الكتب . وعرض عليه أحد باعة الكتب فى كمبردج مبلغا طيبا نظير هذه المجموعة ، ولكن تبين له أن هوايتهد يريد أن يبيعها لقاء كتب من مكتبته . واسترسل هوايتهد فى شراء الكتب حتى أنفق فيها أكثر ما يملك من مال .

* * *

وفى منتصف حياته ، بعدما أنجب ثلاثة أطفال ، حزم وزوجه أمرهما على الهجرة إلى لندن . وكانت مغامرة صادرة عن إيمان ولكنها بغير هدف معين . وفى جامعة لندن « اشتغلت بغسل الزجاجات » على حد تعبيره . ولبث على ذلك ثلاث سنوات ثم أنشىء له بعد ذلك كرسى أستاذية ، وبعد اثنى عشر عاما أصبح رئيس مجلس الجامعة .

« وهذه الخبرة بمشكلات لندن ، التى مارستها أربعة عشر عاما (من ١٩١٠ إلى ١٩٢٤) حورت آرائى فى مشكلات التعليم العالى فى مدينة صناعية حديثة . وكان السائد فى ذلك الحين ضيق الأفق فى النظر إلى وظيفة الجامعات — بل إن هذا الأفق الضيق ما زال قائما . كان هناك طراز أكسفورد وكمبردج من ناحية ، والطراز الألمانى من ناحية أخرى ... غير أن الكثرة الهائجة المائجة من أرباب الحرف ، الذين يبحثون عن الاستثارة العقلية ، وذلك الشباب الناهض من كل مستوى اجتماعى الذى يتشوق إلى المعرفة الشافية ، والمشكلات المتنوعة التى ترتبت على ذلك — كل هذا كان عاملا جديدا فى المدنية . ولكن دنيا العلماء كانت غارقة فى الماضى السحيق » .

وانتهى القرن التاسع عشر فى ٤ من أغسطس من عام ١٩١٤ . واشترك

ولداه نورث وأريك فى الحرب العالمية الأولى ، ومات أصغرهما أريك فى الحرب وكان طيارا . والتحقت ابنته جسى بوزارة الخارجية . ولا تستطيع أن تدرك إلا إدراكا طفيفا جدا كيف أثر فقدان أريك فى والديه ، وذلك بعدما تتعرف إليهما شيئا فشيئا عاما بعد عام . واستطاعا فى نهاية الأمر أن يتحدثا عنه فى حماسة وبابتسام ، ولكن هوايتهد قال مرة إن الكلمات التى تعبر عن الحزن مهما بلغت حيويتها ، ومحاولات العزاء حتى حينما تصدر عن أساتذة اللفظ ، عن الشعراء الإنجليز ، ليست عنده إلا محاولات مخفقة « تجعل من العاطفة الحقيقية شيئا تافها » .

وبهذا انتهى المجلد الثانى من حياة هوايتهد .

* * *

وكانت دعوته لجامعة هارفارد فى عام ١٩٢٤ مفاجأة تامة . سلمته زوجته الخطاب ذات مساء مقبض فى الداخل وفى الخارج . وقرأ الخطاب وهما يجلسان إلى جوار الموقد ، ثم رده إليها . فقرأته ، ثم سألته . « وما رأيك فيه ؟ » ولشد ما كانت دهشتها حينما قال : « إنى لأوثر هذا على أى شىء آخر فى الدنيا » .

أما طريقة مجيئهما فلم تعرف بعد على وجه عام . صدرت الدعوة ـ بطبيعة الحال ـ من المستر لولى باعتباره رئيسا للجامعة ، غير أن فكرة الدعوة قد نبتت أولا فى ذهن لورنس هندرسن وأمدت أسرة هنرى أوزبرن تيلر المبالغ اللازمة لكرسى هوايتهد . ولم يعلم بذلك هوايتهد وزوجه نفسهما إلا بعد سنوات عدة .

والآن يبدأ المجلد الثالث من حياته .

فى عام ١٩٢٤ يبدأ ألفرد نورث هوايتهد وهو فى الثالثة والستين من عمره فى أرض جديدة حياة جديدة ، وهى فى سيرته أشد سنى حياته بريقا وإنتاجا . وقد شع هذا الضوء العظيم فوق هارفارد فى رفق وفى هدوء . وبدأت السماء تضىء

بإشباع الخلود الأبيض الناصع . وتحدث الناس مرة أخرى عن قسم الفلسفة كما كانوا يتحدثون عنه قبل ذلك بعشرين عاما ، إبان ازدهاره فى عهد وليم جيمز وجوسيا رويس وجورج سنتايانا وهوجو مونستربرج . وبدأت مؤلفات هوايتهد الكبرى تتوالى واحدا فى إثر آخر : العلم والعالم الحديث فى عام ١٩٢٥ ، والتطور والحقيقة فى عام ١٩٢٩ ، ثم أشق مؤلفاته ولكنه المؤلف الذى قال عنه صاحبه إنه «أشد ما يكون حاجة إلى كتابته» وهو (مغامرات الأفكار) فى عام ١٩٣٣، وهو كتاب فيه قطعا من نفس هوايتهد أكثر مما فى غيره من المؤلفات . وفى عام ١٩٣٨ أخرج (طرائق التفكير) . . . وقائمة الكتب المنشورة أطول من ذلك بكثير بطبيعة الحال .

وكان المتوقع أن يكتب فى هارفارد ولا يعلِّم إلا قليلا . وقد قام بالعملين معا . فكان يحاضر ثلاث مرات كل أسبوع ، ولم يكفه أن يسمح لطلابه بالاجتماع به عشرين دقيقة ، بل كان يخصص لهم فترة ما بعد الظهر بأسرها أو فترة المساء كلها . «ومن وحى هذه الاجتماعات يعود المرء بنغم جديد» . وكانت الأفكار تسير فى اتجاهين متقابلين ، لأن هوايتهد كان يحس أنه بحاجة إلى الاحتكاك بالعقول الشابة كى تبقى ينابيعه فى تدفق مستمر . وهو يقول : «من الخطأ الفاحش أن نظن أن الكبار لا يستطيعون التعلم من الصغار» .

ولم تكن هذه الاجتماعات علمية فحسب ، بل كانت شخصية كذلك . ولمدة ثلاثة عشر عاما على الأقل منذ منتصف العقد الثالث بعد عام ١٩٠٠ إلى ما بعد منتصف العقد الرابع، كنا نسمع عن «السهرات فى بيت هوايتهد» ليلة كل أسبوع يفتح فيها البيت للطلاب ، وإن يكن صاحب البيت يرحب بأى زائر . وكانت هذه الحفلات غاية فى البساطة ، أحاديث، وشراب الشكلاتة الساخنة، مع قليل من الكعك . وكان التلاميذ يعاونون فى عمل الشكلاته وفى الخدمة . أما الحديث فحديثهم

يشجعهم عليه بمهارة مضيفهم ومضيفتهم . وبالجملة كانت الأمسيات أمسيات الطلبة ، ولم تكن أمسيات آل هوايتهد . وقد كان الطلبة يحضرون فى أول الأمر حذرين مثنى مثنى ، كى يحمى كل منهما الآخر ، ثم اعتادوا أن يأتوا زرافات . وقد طلب إليهم هوايتهد أن يصحبوا زميلاتهم ، وكانوا بالفعل يصحبونهن . ثم كانوا فى نهاية الأمر يأتون فى جماعات كبيرة ، وقد يبلغ الحاضرون من ستين إلى ثمانية وتسعين فى الليلة الواحدة . فكان بيت هوايتهد « صالونا » بالمعنى الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، يقوم فى بلد علمى ويرده الشبان والشابات ، يتناولون فيه الكعك الخفيف والشكلاته الساخنة . وكانوا يصيبون إلى جانب هذا ذلك الرحيق العقلى الذى ينعش ولا يسكر ، وهو الحديث مع آل هوايتهد ، مع الرجل وزوجه ، وقد قال بنفسه مرة : « إننى وحدى أستاذ من الأساتذة ، ولكنى مع افلن أستاذ من الطراز الأول » .

* * *

وذات صباح فى شهر مايو من عام ١٩٣٢ دق التليفون بمنزلى . وكانت المتكلمة مسز ثاديوز دى فريز ، التى راح زوجها الشاب ضحية وباء الحرب فى معسكر حربى فى عام ١٩١٨ ، والذى كان رئيس تحرير (بوستن جلوب) . قالت :

« لقد دعوت آل هوايتهد للعشاء عندى غدا . فهل تستطيع أن تحضر ؟ »

« آسف . فقد حزمت متاعى استعدادا للسفر إلى آل بركشير »

« إنهم ضعاف ، وقد تقدمت بهم السن . وخير لك أن تعدل عن رأيك »

(وعدلت عن رأيى) .

وأخذت معرفتى بهوايتهد تنمو ببطء . وكنت فى السنوات الست الأولى من عام ١٩٣٢ إلى عام ١٩٣٨ واحدا من عشرات ، بل من مئات ، ممن يقصدون

هذا السكن ويبادرونه . وقد قال مرة إن الحديث ينبغى أن يبدأ بنغم هادىء . « يجب أن يسمح للناس أن يتحدثوا فى الأمور العامة حتى يكتسبوا حرارة الحجرة . والطقس موضوع ملائم . والحديث فى الجو يكفى » . وقد عكست صورة هذا الرأى فى الصفحات الافتتاحية من هذه المحاورات . وسوف تنمو كذلك معرفة القارىء بهوايتهد شيئا فشيئا .

ولكن بعد نحو عامين بسطت شخصيته نفوذا عجيبا . وكأن شخصه وأفكاره قد تخللت كل شىء . وبلفتة عجيبة من لفتات الخيال طابقت شخصيته إحدى القطوعات الوسيقية الرائعة ، تلك الصفحات من خاتمة سمفونية براهمز الرابعة ، تلك (الباسا كجليا) العظيمة حيث تردد الأبواق الموضوع فى نغمات ذهبية متدفقة متصلة فوق (الاربجياى) الرنان ، مع الجوقة و (فيولونسلى) و (ڤيولا) ـ أى الكمان الجهير والكمان الأوسط ـ (والمقاييس من ١١٣ إلى ١٢٩) ويبدو أن وجه الشبه بين شخص هوايتهد وهذه القطوعة الوسيقية هو الجلال فى كل .

ثم اختفى شخصه بعد ذلك . وبقى صوته واضحا ، رنانا ، رفيقا ، حازما ، دقيق النطق ، بريطانيا فى نغمته ونبرته . وبقيت صورة وجهه ، جادا ، مشرقا ، باسما فى أغلب الأحيان ، وبشرته بيضاء فى تورد ، وعيناه زرقاوان براقتان ، صافيتان بريئتان كعينى الطفل ، ولكن فى عمق الحكماء ، ضاحكا فى أكثر الأحيان ، أو مرحا بالفكاهة . قوامه نحيل ، ضعيف ، احدودب من مشقات البحث العلمى الذى شغله طوال حياته . وكان دائما حليما ، لا يضمر مثقال ذرة من شر . ورغم تسلحه باللفظ المريع ، لم يجرح قط امرءا بكلمة . وكأن وجوده المادى لم يكن إلا موصلا ، لاستغراق الحاضرين كلية فى أفكاره . وكأن هوايتهد المفكر قد اختفى فى محيط أفكاره . ولم يحدث ذلك مرة واحدة . . . ولكنه كثيرا

ما حدث ، وبغير انقطاع . وبحدث شيء غير ذلك أيضا . فكم من مرة توجهت إلى كمبردج مجهدا بعد عمل يوم كامل لا أستطيع أن أحتمل حديثا متصلا ، فأجدنى عائدا فى منتصف الليل بعد أربع أو خمس ساعات من تبادل الحديث معه ملتهبة بنار الحياة المشتعلة . فهل كانت تشع منه كهرباء الروح ؟

وكان يحيرنى أن زائرين آخرين كانوا يتلقون ذلك الفيض من الآراء القوية المبتكرة فى برودة بادية . فهل كان مجرد فرد من كثيرين ، وهل لم يحدث شيء غير عادى ؟ هل كان يمكن لهؤلاء الزائرين أن يظفروا بمثل هذا الحديث فى مائة موضع آخر ؟ أما عنى ، فلم أستمع إلى حديث يشبهه فى أمريكا أو فى أوربا ، وأستبعد أن أستمع إلى مثله مرة أخرى . إن كان هذا الحديث فى الكتب ، فما عناوين تلك الكتب ؟ كلا . إنه حديث لم تتضمنه الكتب ، بل لم تتضمنه كتبه عينها كما ذكر فيما بعد .

وقد يسأل سائل بعد قراءة هذه المحاورات : « ما هو وجه العجب الشديد فيها ؟ » أحسب أن تفكير هوايتهد بطيء التأثير . إنه كالموعظة فى السلوك ، ليست لها قيمة إلا باتباعها ، أو كالموسيقى ، صامتة قبل أدائها ، أو كالبذور ، عقيمة ما لم تبذر وتزرع . يقول الناس عن كتب هوايتهد : « لقد قرأناها ، فهزتنا وأمتعتنا ، ولكننا لم نذكر فيما بعد ما قاله فيها » . ويصدق مثل هذا القول على نغمات (ديابلى المتنوعة) لبيتهوفن ، وعلى جمهورية أفلاطون .

* * *

ولكن حذار ، فإن بعض ما فى هذه المحاورات يدعو إلى الجدل الشديد . ومن الكتب ما يحوى شيئا يسر كل إنسان ، وأرجو ألا يكون هذا الكتاب منفرا على إطلاقه . ومع ذلك فأعتقد أنه يمكن القول ، فى شيء من التواضع ، إن

فى الصفحات التالية ما يزعج كل قارىء ، وأنا واحد من هؤلاء . إن سا كن الحدود لا يستمتع فى الوقت عينه بلذة المغامرة والراحة المستتبة التى تتوافر لأفراد المجتمع المستقر . إن كان من القراء من لا يعبأ بنقده للعقائد المسيحية ، أو انحرافه عن الفكر العبرانى ، فأنا لا أعبأ كذلك ببعض أحكامه فى الموسيقى والشعر ، وهما مما أدين به ، والفارق هو : أى الديانتين محل الطعن ؟ أما هوايتهد فكان يسير نحو مرتفع رصين يعلو على الجدل .

« إن لهيبى مزيج من النيران يملوها جميعا » .

لم يكن هوايتهد ممن يجمدون الرأى ، لأنه كان يمقت اليقينية النهائية ، ولم أكن أعارضه (وعلى أية حال كنت أعجز عن ذلك عجزاً تاما) . إنما كانت مهمتى أن أعاون على استمرار الحديث وتدفق الأفكار . لم أعارض قط « لأن أسوأ ما فى المعارضة هو أنها تفسد البحث الجيد » ومن ثم فإن كان بعض ما يصدر من أفكار جارحا ، لم يسعنى إلا أن أردد ما قال تودجر فيرميل فى قصة (ماجور باربرا) - كما روى بِلْ ووكر .

يقول : إنه ينظر إلى السماء ويقول « أبغى أن أكون جديراً بالمهانة فى سبيل الله ! » .

ثم إن الأرجح أن تسجيل حديث رجل من البارزين عمل لا يحمد عليه فاعله . بل إن خير رواة الأحاديث لم يكتسبوا سوى نعتهم لمائة عام أو مائتى عام بالحير الأذلاء الأتباع المتزلفين . أضف إلى ذلك أن كل امرىء فى الوقت الحاضر يحسب أنه فى امتياز غيره من الناس ، إن لم يفقهم جميعا ، ومن ثم فان تقديرى لغيرى سوف يصمنى بالنقص فى احترامى لذاتى . بيد أنى أخالف فى الرأى مخالفة قاطعة هذه المساواة المزعومة . إن راويتكم لم يبلغ مبلغ هوايتهد ، والمفارقة العقلية بينى وبينه قائمة كذلك .

مثلي مثل صبي إنجليزي في السادسة عشرة من عمره ، عامل على ظهر حاملة البضائع (دڤونيان) التابعة لشركة لاى لاند ،التي اعتادت قبل حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ أن ترسو عند إيست بوستن قريبا من منزل سنت ماري للملاحين . كان الصبي لندني المولد ، واسمه شارلز بيلي (ويناديى كول بايلي) وكان حسن التربية ، إذا اشتدت معرفتك به وأمكنك أن توجه إليه السؤال ، فتقول له :

« قل لي ياشارلز ، لقد ذكرت لى أن أبويك فقيران ، وأنك نشأت فى مرفأ شرق لندن ، فكيف حدث ذلك ؟ »

فيجيبك شارلز فى تواضع جم :

« لقد تعلمت أن ألزم حدود الأدب فى حضرة من يفضلنى » .

إن هذه الكلمات الذهبية كالعملة الصحيحة ، لاتزال تحتفظ ببريقها كما كانت يوم صدرت عن دار سك النقود. والآن ونحن قادمون على المحاورات أقول :

« اسمع يا كول : سوف ألزم حدود الأدب فى حضرة من يفضلنى » .

ه ه ه

وليست « المحاورات » إلا عنوانا ملائما ، وإن يكن هو العنوان الذى يجب اختياره . وأى نزوع إلى منافسة « محاورات أفلاطون » التى سبقتها ضرب من السخف ، بل إن هذه المحاورات وتلك على طرفى نقيض . فمحاورات أفلاطون قد صيغت لكى تبدو حديثاً تلقائياً . أما محاورات هوايتهد فهى فى الواقع حديث تلقائى ، حتى لمختلف المتكلمين الذين كثيراً ما يطيعون وصية سقراط « أن يتابعوا الجدل إلى حيث ينتهى » . وحتى فى هذه الحالة يجب قراءة بعض ملاحظات هوايتهد فى محيطها التاريخى المحدد مع مراعاة التاريخ المضبوط الذى أبديت فيه . وهو شرط من الشروط التى حتمها هوايتهد صراحة ، وذلك لأنما يشوق عصراً متأخراً فى هذه المحاورات هو كيف كان الناس يحسون وفيم كانوا يفكرون بشأن الحوادث وهى جارية وقبل إمكان صدور حكم نهائى فيها . وهو أمر قلما يذكره القارىء ،

لأن الجنس البشرى ، الذى يفتقر إلى بعد النظر إلى الأمام ، يغرم غراماً شديداً بالنظر نظرة تنبؤية إلى الوراء . وكم من عالم فى التاريخ ، عالى التأهيل ، يطلع على بعض هذه الصفحات بعد طبعها ، تراه يقع فوراً فى هذا الفخ ، ويحتج قائلا :

« كان ينبغى له حقا أن يكون أكثر من ذلك علما ! »

« ولكن هل كنت أنت أكثر من ذلك علماً فى عام ١٩٣٤ أو عام ١٩٤٤ ؟ »

بيد أن هذا الجانب من المحاورات ليس كبيرا ؛ لأن الجزء الأكبر من هوايتهد لايتحدث عن أمور زائلة . كان اهتمامه بالحوادث اليومية يشغل ذهنه ، وكان دائما يفكر تفكيرا مبتكرا فى كل حادث ، غير أن شعاع تفكيره الحق كان يتسلط على مدى قرون .

ويلاحظ أن بعض الموضوعات يظهر فى هذه المحاورات من بدايتها إلى نهايتها . ومن السهل معرفتها . ولكن العودة إلى هذه الموضوعات بين حين وآخر ليس من قبيل التكرار . فكلما عاد ذكر الموضوع تعرض الفكرة من وجهة جديدة . وكان من اليسور أن يضم شتات الموضوع فى عرض واحد شامل للفكرة . ولو فعلت ذلك لحرفت الأصل تحريفا لا يغتفر . وبدلا من أن أفعل ذلك رضيت أن أعود إلى الموضوع مرة بعد أخرى ، وكل مرة أعرضه بشكل جديد يختلف باختلاف المناسبة ، كأنه نغمة موسيقية تعلو حينا وتنخفض حينا آخر وفقا للجو الفنى . وهذا العرض الذى يشبه العرض الموسيقى ، أقوى فى النفس أثرا ، وإن يكن من غير تدبير سابق . (وكأنى أستعد لصيد معين ، ثم أطارده حتى أبلغ نهاية الشوط) ولا أجد بأسا من عرض الموضوع وما يناقضه ، كأنه حركة موسيقية ، حتى تأتى اللحظة التى يتملك فيها هوايتهد الزمام ، كما يحدث كذلك عندما تعزف الموسيقى . وبهذه الطريقة تبلغ الحركة قمتها ، وتأخذ الآلات الموسيقية فى الهبوط تدريجا حتى يتم صمتها فى هدوء .

وثمة تشبيه آخر بصرى لمستر هوايتهد ، « تفكيره كمنشور الضوء . يجب ألا تنظر إليه من جانب واحد فقط ، ولكن من جميع الجوانب ، ثم من أسفل ، ومن أعلى . والمنشور – حينما تنظر إليه بهذه الطريقة وأنت تدور فى حركتك – يمتلىء بالأضواء والألوان المتغيرة . فإن أنت نظرت إليه من جانب واحد فقط فكأنك لم تنظر إليه ألبتة » . فالرؤية من جانب واحد هى ما يسميه هوايتهد « نصف الحقيقة » – « ليست هناك حقائق كاملة ، كل الحقائق أنصاف . ومن الضلال أن تحاول أن تعاملها باعتبارها حقائق كاملة . » (وقد صيغت من قديم ألغاز رياضية لإثبات ذلك) .

ولذا فان الاعتقاد بأن العودة إلى الموضوع الواحد فى أكثر من مكان تكرار لا فائدة منه اعتقاد ليس له محل . فلم تكن مهمتى أن أبتر أو أقتلع أو أقطع ، وإنما كانت مهمتى تسجيل ما قيل .

إذن فماذا قيل ؟ وإلى أى حد يعتبر النص هنا موثوقا به؟ عند الاشتغال بتدوين المحاورات من الذاكرة بنصها تقريبا حرفيا بقدر مايستطيع الكاتب ، نجد أن الثلاثين السنة الأولى هى أشق السنوات جميعا . وقد بدأت ممارسة التدوين وأنا تلميذ بالمدرسة فى أول يناير من عام ١٩٠١ . تابعتها كما يتابع كاتب الاختزال المحاضرات ، ثم كما يتابع الصحفى الأخبار (وسرعان مايدرك الصحفى أنه إذا أخرج القلم والورق على مرأى من شخص لم يتعود المقابلة ، فإن هذا الشخص المنكود يكاد يتجمد لتوه) . ثم تلت ذلك سنوات اختزنت فيها أحاديثى عن كل أنواع الرجال وكل ظروفهم ، المشهور منهم والمغمور . ولما حل عام ١٩٣٢ ، حينما بدأ اجتماعى هذا بهوايتهد ، بات تسجيل المحادثات عندى شيئا أكثر من ذلك . وربما يجدر بى هنا أن أضيف أن الذاكرة تكون أقرب إلى الدقة بعد ثمان وأربعين ساعة منها بعد أربع وعشرين ساعة – كأن الفترة الطويلة تكسب المادة من الوقت مايغرقها إلى الأعماق لكى تطفو مرة أخرى إلى مستوى الوعى –

وما أشبه ذلك بتجربة المستمع إلى حفلة موسيقية ، فإن الموضوعات بعد العزف مباشرة يشق تذكرها . أما فى اليوم التالى ، أو الذى يليه ، فإنها تعود من تلقاء نفسها . بيد أن هوايتهد توقع الشك فى دقة التسجيل (ولا أضمن صحتها مائة فى المائة) فقال عادونت فى الأمسيات الأخيرة ، حينما كنا معا :

« يجدر بك أن تدون ملحوظة بأن هذه المحاورات قد قرأناها معا ، وأنها تطابق ماقيل . وإلا تشكك الناس فيها . بل أنا نفسى ربما لا أعتقد فى صحتها ... »

وما مبلغ اعتقادى فى دقتها ؟ فى الأحاديث العامة التى لا تعدو أن تكون انتهازا للمناسبات ومتابعة للفكر ، تكون المحاورات حرفية فى أغلب الأحيان ، مع التنبه إلى التعابير المميزة خاصة . أما فى أحاديث هوايتهد المطولة ، فإن استخدامه للغة ينم عن دقة رياضية ، وسيطرته على الإنجليزية كاملة ، والتفكير ذاته يتركز أحيانا إلى درجة تجعلنى أصغى إليه فى ذهول خفى : « كيف أستطيع الاحتفاظ بكل هذا ؟ وكيف آمل أن أدونه فى صورة شبيهة ــ ولو إلى حد ــ بالوضوح الذى يتميز به وهو يلقيه شفاهة ؟ » والجواب أنى كثيرا ما أعجز عن ذلك . وفى هذا الصدد أردد ماجاء باللافتة المرفوعة على إحدى قاعات الرقص فى معسكر غربى للتعدين :

« لا تقتل عازف البيانو ، فهو يبذل قصارى جهده »

* * *

واستمر الحال على ذلك تسع سنوات ، من عام ١٩٣٢ إلى عام ١٩٤١ ، وقد دونت نصف الكتاب ، دون أن يعلم أحد ــ دون أن يعلم الكاتب نفسه ــ أنه سيخرج على صورة كتاب . ولم يعلم آل هوايتهد أنى كنت أسجل أحاديثهم ، ولم يكن هناك مايدعو إلى علمهم . « إن ذلك من حسن التدبير ياهوراشيو » . ثم قدمت الأحاديث للصحف ، وكنت أرسل صوراً مما ينشر إليه فى حينه (ولم يذكر اسمه قط فى مطبوع) وذلك إنصافا من ناحية ، ولكى أتأكد من ناحية أخرى إن كنت قد احتفظت بالمادة صحيحة وفهمتها فهما جيدا .

ثم كانت الحرب الثانية . وكانت زوجه وابنهما فى لندن تحت القنابل ، وكان حفيدهما فى إنجلترا كذلك عرضة لوابلها - كما قالت مسز هوايتهد . وقد طبعت هذه المحاورات حتى خريف عام ١٩٤١ وبعثت بها إليهم من قبيل التسلية . ولم أذكر شيئا عن نشرها حتى ديسمبر من ذلك العام . وسيجد القارىء فى حديث ذلك التاريخ رأى الفيلسوف فى إمكان الانتفاع بها . هل كان العلم بالاحتفاظ بها يوهن من تلقائيتها ؟ إن أحدا لم يفكر فى ذلك ، فقد كان هناك الكثير غير ذلك مما يثير الاهتمام .

وبعدما تقاعد هوايتهد فى عام ١٩٣٧ ، كان لا بد من أن يتناقص عدد زائريه . وقد واظب كثير من زائريه على الحضور ، وبعضهم من أقاصى أركان المعمورة ، ولكن تقدم السن والصمم جعلا المؤانسة على المستوى الأول غير ممكنة التحقيق . ومع هذا ، فبالرغم من أن الاجتماعات الكبرى ربما استخلصت أوجها أكثر من أفكاره وأظهرت جوانب أكثر من شخصيته ، فإن مرور الزمن واقتصار المحاورات على أربع أو حتى على ثلاث جمله يوغل فى الأفكار التى كان يتميز بها بصفة خاصة . فقد كان من قبل لا يحب أن يُسأل عما جاء فى كتبه المنشورة . ولا يود المساس بموضوعها . فهى مطبوعة يطلع عليها كل قارىء . وقد بذل أقصى جهده فى عرضها فى صيغة مفهومة . فكان يحب الخوض فى شىء جديد .

والآن جاوز الثمانين من عمره . ولم يبد عليه ألبتة مايدل على ضعف قواه العقلية . بل لقد أخذ التيار فى الصعود . وفى سنواته النهائية ، حينما كان يتخذ فندق امباسادر مسكنا له ، لما كانت جلساتنا تبدأ مبكرة فى السابعة والنصف مساء ، وتستمر حتى منتصف الليل ، كان ينتهى من الحديث وهو أوفر نشاطا مما بدأ . وكان اسم الفندق ـ امباسادر أو السفير ـ كثيرا ما يذكرنى برواية هنرى جيمس ، « السفراء » ؛ لأن هوايتهد كان حقا سفيرا بأروع ما تحمل الكلمة من معنى .

وهو يدين باحتفاظه بقواه لاعتداله فى كل أمر من الأمور . كان شديد الإمساك ، يتعفف فيما يأكل ، ويسمح بالنبيذ ، ولا يدخن . وكأنه لم يشته المنبهات قط . إن منظر هذا الرجل الذى جاوز الثمانين من عمره ولا يزال متورد الوجه ، صافى العينين ، نقى البشرة ، لا تبدو عليه سمة من سمات الانهماك التى يتميز بها الرجال عامة . هذا المنظر — كلما تقدمت به السن — لم يكن أوهى عوامل تأثير شخصيته . وعامل آخر من عوامل التأثير أقوى من هذا ، رؤيته وهو يعيش فى مسكن من أربع حجرات حياة أبعد مدى وأكثر حرية وأوسع أفقا فى العقل والروح من حياة الكثيرين فى بحبوحة ورغد . إن المرء يعتاد التسامح مع المسنين فى ولاء بنوى لما يبدر منهم من انفعال وشذوذ . بيد أن هوايتهد لم يتصف بما يدعو إلى التسامح . فقد كان هدوؤه وجلاله واتساع أفقه يرد توافه الحياة اليومية إلى قيمتها الحقيقية . ولكن المبادىء العامة عنده كانت ترتفع إلى قضايا هامة ينبغى الدفاع عنها بحرارة شديدة . لم يعل هوايتهد على ميدان المركة ، ولكن ميدان المركة كان رفيع المستوى . ومن أجل هذا كان يتميز بصفات عجيبة . فقد قابل مشكلات كثيرة وأوجد لها الحلول ، وهى مشكلات لم يدرك وجودها قط أكثر الناس . كنت تحس فى حضرته أنك أمام رجل لا يخاف — لا يخاف من أعداء البشرية المألوفة : المرض والفقر والشيخوخة وسوء الحظ والموت . بل ولم يخش مافى مصير البشرية من ألغاز عويصة ، أو مافى الكون من متاهات . فى تلك المجالات المريعة كان مطمئن النفس مرتاح الضمير . وهذا معنى أن يكون المرء فيلسوفا : أن يصادق العدو ، وأن يروّض المجهول فى دخيلة نفسه . كان الناس يرون فيه اعتياد النصر . وكل انتصاراته — التى نسيها من أمد بعيد — كانت إلى جانبه تعمل وتجاهد ، دون أن يراها أحد ، وإذا بالناس يفاجأون عند ما يتطلعون إلى قمته بكثرة مايملك من المربات الحربية والفرسان .

قال مرة إن الكتاب المقدس بدلا من أن ينتهى بسفر الرؤيا للقديس يوحنا ،

كان ينبغى أن ينتهى برثاء بركليز . وفى هذا الرثاء عبارتان : إحداهما تليق بفاتحة هذه المحاورات ، والأخرى بنهاية حياته . وهما :

« ليس لدينا لجارنا نظرات سوداء أو كلمات ساخطة إذا كان يستمتع بحياته على طريقته الخاصة » .

و « الأرض كلها مقبرة لمشاهير الرجال ، وقصة حياتهم لاتنقش على الحجر فى أوطانهم فحسب ، ولـكنها تحيا كذلك بعيدا ، دون أن يكون لها رمز يرى ، متغلغلة فى تاريخ حياة غيرهم من الرجال » .

ذلك لأن شخصا جديرا بعهد بركليز كان يعيش فى عصرنا .

المحـــاورات

(٢)

٦ من إبريل ١٩٣٤ :

الذكرى السابعة عشرة لدخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى . كان إعلان الحرب في يوم مقدس هو يوم الجمعة الحزينة ، وهي سخرية من سخريات التاريخ لم يلتفت إليها أحد في حينها على ما يبدو . وكان هذا الأمر يشغل أذهاننا في أحد مؤتمرات هيئة التحرير ، ومابرح عالقا بخاطري وأنا أقصد كانتون لأتناول العشاء مع آل هوايتهد . وكان ابنهم الأصغر أريك الطيار قد لاقى حتفه في الحرب .

وعرفت من إشارة تليفونية أن العشاء في الساعة السادسة . فسارعت إلى ميدان ما تاپان بالقطار ، ثم استأجرت سيارة حتى منزلهم بشارع كانتون المطل على « التلال الزرقاء » وعندئذ علمت أن العشاء لن يكون قبل الساعة السابعة ، فخففوا بذلك ارتباكي بلباقة . وقابلني الدكتور نيكولاس ، وهو طبيب شاب في أحد المستشفيات الكبرى بلندن ، قدم مع زوجته إلى بلادنا لأول مرة في اليوم السابق فقط ، وقد علمت أنهما يمتان إلى آل هوايتهد بصلة القربى . ثم أبلغت رسالة في الحال .

قال الرسول : « تفضل بالذهاب إلى المكتب لكي تتحدث مع مستر هوايتهد حتى يحين موعد العشاء »

وكان هوايتهد جالسا إلى مكتبه بجوار نافذتين ، وضاء الجبين عمره من

أثر أشعة الشمس التى كانت تغمره إلى وقت متأخر فى الأصيل .

فنهض وقال :

« ما أسعدنى بقدومك مبكرا ! كان وقتى بعد الظهر متقطعا ، وكنت أتسكع حتى يحل موعد العشاء » .

وانتقينا مقعدين كبيرين إلى جوار الموقد ، وأخذ يتحدث عن الصحف .

قال : « إن الصحف الأمريكية تترك فى القارىء من عناوينها انطباعا خاطئا تماما . فإذا ماشرع القارىء في الاطلاع على ما ورد تحت العناوين وجد أن محرريه قوم معقولون جدا ، وهم فيما يسمح لهم به من مجال أشد إنصافا من المحررين الإنجليز لخصومهم فى السياسة . إن الصحف الإنجليزية أحسن تحريراً على وجه الاجمال ، ولكن عندما يرتفع مستوى الكتابة فى الصحف الأمريكية ، فإنى أعتقد أنه يعلو المستوى الإنجليزى » .

قلت : « ذلك يتفق مع بعض خبرتى ؛ فى الصيف الماضى كنت أحرر مقالا عن معرض مخطوطات فاجنر فى بيروت لصحيفة « تايمز » اللندنية . ولم أجد تحريره كما لو كتبته « لبوستن جلوب » . لأن التايمز تريد أن يتخلص الأسلوب من كل زبرجة . »

والظاهر أن هوايتهد كان كذلك يعلم أن اليوم يوافق يوم الذكرى ، وأخذ يتحدث عن بعد الكتب ـ التى ألفها الأساتذة عن الحرب العالمية — عن الواقع :

« إنهم يفحصون الأوراق الرسمية بدقة بالغة ، ولكن ماشأن الأوراق الرسمية بها ؟ إن حالة الخوف التى سادت من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩١٤ كانت مكتومة ، تكاد

أن تكون لا شعورية . امتنع الناس عن الإباحة بها ، آملين بذلك ألا تنفجر المفرقعات : ولكن الفزع كان دائما في النفوس . إن إنجلترا لم يسدها الإحساس بالأمن إلا بضع سنوات بعد عام ١٨٧٠ حينما كان من الجلى أن فرنسا لن تهاجم . إن التاريخ الحقيقى لا يكتب لأنه ليس فى عقول الناس ، ولكن فى أعصابهم وقلوبهم » .

« هب أن ثقافتنا الأمريكية قد محيت ، فمن ذا تظن أننا قد أنجبنا حتى الآن ممن يستطيع أن يكون عونا دائما للعالم ؟ »

« والت هويتمان »

« أليس امرسن ؟ »

« لقد أمعنت في قراءة امرسن في شبابى ، ولكنى أستسمح جيرانى الطيبين ، أسرة فربيز وهم (حفدة امرسن) فى أن أقول إنه لم يكن شديد الابتكار . فى حين أن هويتمان قد أدخل فى الشعر شيئا لم يكن فيه من قبل. وكثير من أقواله فيه من الجدة ما كان يضطره الى اختراع صيغة جديدة للتعبير . يبدو لى أن هويتمان كان واحدا من عظماء الشعراء القلائل الذين وجدوا فى التاريخ . إنه يستطيع أن يقف بسهولة الى جوار الشعراء الأوربيين العظماء حقا . . . إذا اندثرت المدنية الإنجليزية قبل عام ١٥٠٠ ، ما كانت الخسارة فادحة . فان شوسر لا يبلغ قامة دانتى أو هومر ، ومع أنه لدينا بعض الكاتدرائيات الجميلة ، إلا أن الفن القوطى الإنجليزى لا يبلغ من الجودة مبلغ الفن القوطى الفرنسى . ولكنك لو حطمت الحضارة الإنجليزية من عام ١٥٠٠ الى عام ١٩٠٠ أفقرت العالم كثيرا ، لأنها أضافت شيئا هاما الى تقدم الروح البشرى »

قلت : « لاحظت فى كلية ونشستر فى الصيف الماضى شيئا اعتقدت أن له قيمته ؛ فقد ساقنى رجينولد كوبلاند كما ساق سام موريسون من أكسفورد لكى يرينا أين كانت مدرسته . وأثناء مرورنا بحجرات الصفوف العليا من التلاميذ

لاحظت على مكاتبهم نصوص ايسكلس ، وثيوسيديد ، وغيرها من « العصر العظيم » ، ولم تكن نصوصا دراسية ، مجموعة لتلاميذ المدارس ، وانما كانت الأصول العريقة بعينها . فسألت كوبلاند : « هل يدرس هؤلاء التلاميذ المؤلفين المسرحيين والمؤرخين فى القرن الخامس فى هذه السن ؟ وأجابنى : كلا ، إنهم يقرءونهم من تلقاء أنفسهم . أما فى هارفارد فيحسن بالطالب أن يقرأ هؤلاء المؤلفين فى العام الثانى من دراسته الجامعية . لشد ما كان ذهولى . »

فقال هوايتهد محذرا إياى : « يجب أن تذكر أن التلاميذ فى ونشستر مجموعة مختارة ، يخضعون لنوع فريد جدا من التدريب ، يتأثرون به غاية التأثير . إنهم يكتسبون فى هذه الناحية مهارة فائقة ، فإن جاوزوها كانوا على جهالة شديدة . إنهم يعرفون الكثير عن عادات الرومان فى عصر حروب قرطاجنة ، ولكنهم قليلا ما يعلمون — بل قد لا يعلمون شيئا — عن المشكلات الراهنة فى بلدهم وزمانهم . انهم يتفوقون فى الجامعات ، ويشتهرون فى المهن ، ويذيع صيتهم كرجال إدارة فى المستعمرات ، أو موظفى حكومة . ولكن ما نصيبهم من الفنون المبتكرة ؟ لا أحسب أنك تجد منهم الكثير متفوقين فى هذا الميدان . إنهم يحسنون الكتابة ، ولكن بخيال محدود . الطلبة الأمريكان أقل معرفة ، ولكنهم أشد شغفا بالتعلم : أما التلاميذ الإنجليز فهم أقل شغفا وأكثر علما : الطالب الأمريكى قليل المعرفة فيما يهمه ، والطالب الإنجليزى كثير المعرفة فيما يبدو أنه لا يهمه كثيرا » . قال هوايتهد ذلك وبريق الضحك يترقرق فى عينيه الزرقاوين اللامعتين .

فوافقته وعقبت بقولى : « أجل ، ولكن التربة الثقافية فى أوربا بأسرها أشد خصوبة » .

« إنك شديد الاهتمام بالتربة : ليس الأمر أمر التربة . فأنتم من الشعب الأوربى عينه ، وتستطيعون تناول التاريخ الأوربى بأسره . غير أن الأمريكان شديدو الخجل » .

« يسترعى نظرى أن كتابنا لا يعرفون ما يكفى» .

« حقا إن أكثر عظماء الكتاب كانوا يعرفون الكثير . ولكن من الجائز أن يعرف الإنسان أكثر مما ينبغى . إنما المراد «إحساس» عميق بالاشياء . والخطر الكامن فى المدنيات القديمة هو أن تعاليمها ربما كانت «أطيب» مما يجب . وذلك يثبط من همم التلاميذ . انهم يعرفون الكثير عما تم عمله ، وهم يحسنون الكتابة ، ولكن بغير جدة . من السهولة القاتلة لعصر من عصور الفن الناهض أن يموت بسبب الإغراق فى الدراسات القديمة وشدة الحذلقة ، فتزهق روحه . لقد لبثت أكسفورد تعلم الأدب القديم قرونا عدة ، ورفضت كمبردج قرونا عدة رفضا باتا أن تعلم الأدب، وعلمت الرياضة ، ومع ذلك فقد خرجت كمبردج من الشعراء ضعف ما خرجت أكسفورد »

« لا يستطيع أحد ـ على الأقل ـ أن يشكو أن عصرنا لا يمدنا بالمثيرات الكثيرة ليكتب فيها الكتاب . أما المشكلة فى التاريخ فهو أنه يمدنا بأكثر مما نتطلب . »

قال هوايتهد : « لو أردت مثلا قويا لزماننا اقرأ حياة «الملكة إليزابث »(١) لمؤلفه نيل . إنها مثل حياتنا دقة بدقة : فيها الشك ، ولم تخطر ببال أحد أية فكرة عما عساه يحدث ، وقد كانت فرص الاغتيال لإليزابث سانحة ، ثم كان دور مارى ستيوارت ، ولو أنها عاشت بعد إليزابث لحدث أحد أمرين: فإما أن تكون ملكة وينهار ما تم فى عهد الإصلاح الدينى ، أو تنشب حرب أهلية طاحنة . ومع ذلك فإن ذلك العصر قد تمخض عن عمل رائع . »

---

(١) « الملكة إليزابث » لمؤلفه جون أرنست نيل ، أستاذ التاريخ الإنجليزى بجامعة لندن — هاركورث بريس ١٩٣٤ .

« هل عصور الانقلاب ملائمة للخلق ؟ » .

« أحسب أنها كذلك: إذا لم يطل أمدها ولم يشتد عنفها . في عصر إليزابث ، كانت تمر بعض الأسابيع الهادئة لا يحدث فيها الكثير ، فكان الشاعر يستطيع أن ينصرف إلى تأليف مسرحياته . ثم هناك أيضا الحافز الذي يصدر عن شخصية كبيرة تؤدي عملا طيبا ، فتتلوها شخصيات أخرى كثيرة » .

« وهل يمكن أن يستنفد فنان واحد أو - فنانان عظيمان - عصرا بأسره ، أو أن يستأثر وحده بصورة من صور الفن ؟ إن عصر النهضة يضمحل بعد مشيل أنجلو ، والأوبرا العظيمة بعد فاجنر صورة هزيلة » .

« أجل إن ذلك قد يحدث، وأمثال هؤلاء الرجال يظهرون في نهايات العهود . وموضع الخطر أن تكون الموضوعات الكبرى قد تم أداؤها بصورة رائعة ، فلا يجد الفنان المتأخر سوى الموضوعات الثانوية ، أو أن يجمل فيما سبق أو أن يزيد من تفاصيله ، فينساق الفن أو الفكر إلى الأماكن الضحلة . وما أيسر أن يتم ذلك ، وما أفتكه بالفن . أقصد الموضوعات التي هي من قبيل حب الأم طفلها ، إنها عالية جدا ، حتى إن التعبير عنها يعتبر أمراً مبتذلا ، ومع ذلك فقد استطاع النحاتون في العصر الوسيط والمصورون في عصر النهضة أن يعبروا عنها تعبيراً جميلا يفوق التصور . ومن العبث أن نحاول تقليدهم . إنني أحس أن أعظم الفنون لا يبتكر إلا في العصور ، وفي الموضوعات ، التي يشتد لها التحمس والذيوع ، وينعقد عليها الإجماع . إنها تخاطب العامة من الناس ، وعندما يبدأ الفن في التصدع إلى حلقات خاصة تقل أهميته ؛ وعندما تقول هذه الحلقات : « إن هذا الفن أرفع من أن تفهمه العامة » حينئذ أشك في جودة الفن وفي عظمته .

« وعصرنا عصر تصدع ، وربما لم يهتد مفكرونا بعد إلى اتجاهاتهم في العهد الجديد . وربما كان ذلك سببا في تخلفهم . لقد تزعزعت عقائد القرن التاسع عشر .

ومن دلائل ذلك كتابة السِّيَر بروح التهكم . إن ليتن ستراتشي — الذى عرفته واستمتعت به — يكتب عن شخصيات عصر فكتوريا فى ألفة بهم وحماسة بالغة لهم ، ولكن عندما يقول أحد المعاصرين : « دعنا نجلس ونسخر فى هدوء من هذه المخلوقات المليئة ، دكتور توماس أرنولد والملكة فكتوريا . عندما يقول ذلك ربما كان مسلّيا ، وربما مس مواطن الضعف فيهم ، ولكنه لا يكتب عما كان يمدهم بالروح المعنوية ، أو عما كان يدفع القرن الذى عاشوا فيه إلى الأمام . والمحصول الثانى الذى نحصده من مثل هذه السخرية قد يدعو إلى الرثاء . وأظن أن جيلك قد قاوم التصدع أكثر من الجيل الصاعد . إنه لا يعرف عالما غير عالمه ، ولكن جيلك قد عرف . خذ مثالا هذه الدقائق الخمس عشرة التى نقضيها فى الحديث الآن . إننا نتكلم جادين . أما هم فيقولون : « ما تميز خمس عشرة دقيقة عن مثلها ، مادام المرء يقضيها فى متاع ؟ ولماذا يكون هناك أى فارق ؟ وما هو الهدف ؟ وما هى القيمة ؟ وما هو الغرض ؟ » .

قلت مؤكداً : « ولكنك ولكنى لا نعتقد أن هذه الدقائق الخمس عشرة ليست بأكثر أهمية من مثيلاتها » .

« ذلك لأننا ننتمى إلى جيل كان يشعر أن بعض الخبرات أعلى قيمة من غيرها ، وكان عندنا حس بالاتجاه الذى تسير فيه » .

ثم أثير موضوع العلم — أو العصر العلمى — وهل هو يعادى الشعر ؟ قال :

« أعتقد أن بعض عظماء الشعراء لو عاشو فى زماننا ربما كانوا علماء ولم يكونوا شعراء . شلى — على سبيل المثال — أظن أنه كان بالإمكان أن يصبح كيمويا أو عالما من علماء الطبيعة . وخذ مثالا آخر : الأستاذ آمز الدارتموثى . لقد اشتهر اسمه فى أوربا وأمريكا بكشوفه فى ميدان علم النفس والبصريات . لو تحدثت إليه تبين لك على التو أنك تتحدث إلى شاعر أو صوفى » .

(وتنبهت إلى أن هذا بعينه يحدث فى مسرحية « أجنحة فوق أوربا » لصاحبيها روبرت نيكولاس وموريس براون . العالم فيها شاب شاعر مثالى يؤمن بشلى) .

وهنا دخل علينا مستر جورج أجاسز ، وبينما كان يبحث على عجل مع الأستاذ هوايتهد بعض شئون جامعة هافارد ، التى كان مستر أجاسز مراقبا عليها ، تهيأ لى الوقت لأتفرس فى الغرفة . إنها حجرة كبيرة ذات سقف مدبب يستند إلى دعائم مكشوفة، بها موقد من الطوب يتسع لكتل خشبية يبلغ طول الواحدة منها ثلاث أقدام . وهذه الحجرة الدراسية تغطى جدرانها الكتب . والأريكة والمقاعد حول الموقد مكسوة باللون الأخضر الفاتح ، وثيرة باردة ، ولكن لهيب الكتل الخشبية كان يشع دفئا مستحبا فى برودة إبريل الفاترة المتخلفة من فصل الشتاء. والمكتب وحافظة الأوراق تستقبل ضوء النهار استقبالا حسنا . ولكن مكان عمله كان بالتأكيد ذلك المقعد الكبير المنخفض بجوار النافذة الجنوبية الغربية ، وكان معدا بلوح للكتابة يمكنه أن يضمه فوق حجره .

ومن تلك النافذة يطل المرء على رقعة فسيحة من سلاسل التلال ، والمراعى والغابات . وكان الوقت بعد ساعة الغروب ، فكانت التلال المتشابكة تبدو فى الأفق أرجوانية كالشفق ، تحت سماء صافية فى ربيع باكر .

* * *

وكانت مسز هوايتهد فى حجرة الجلوس على مقعدها المتمدد . وما أكثر ما وقع من حوادث . لقد انقصمت رقبة ابنتهما جس وهى تنزلق فوق ثلوج جبل واشنجتن . وظلت أسابيع معلقة بين الحياة والموت . ولما تقشع هذا الهم أصيبت مسز هوايتهد بنوبة قلبية . فكانت شاحبة اللون ، ولكن ما برحت تتقد

فيها شرارة الحياة . كانت بقامتها المديدة وقدها النحيل وشعرها الأبيض وردائها الأسود تبدو سيدة جليلة أكثر مما تبدو سيدة عليلة ، وإن كانت تتناول عشاءها على نضد « طاولة » فى مرقدها . أما نحن فقد اتجهنا نحو مائدة الطعام، ولكن الباب بيننا وبينها كان مفتوحا بحيث تستطيع أن تشارك فى الحديث ، وكانت تفعل ذلك الفينة بعد الفينة .

وقبل البدء فى العشاء كانت تطالع بصوت مرتفع ، وفى حماسة بالغة ، بعض الفقرات الأولى من « جون براون بودى » التى قرأوها جميعا وأحبوها جميعا . ودخلت علينا مسز نيكولز وقُدمت إلينا ، وهى سيدة إنجليزية أنيقة شابة من الطراز ذى الشعر الأسود والعيون الزرقاء ، صريحة ودود

وعلى مائدة الطعام، واصل الإنجليز الثلاثة موضوع الأدب الأمريكى مجاملة فيما يبدو لى ، ثم اتجه الحديث وجهة أخرى عندما قال أحد الحاضرين إن « البيت المكشوف » إحدى روايات دكنز القليلة التى تعالج بعض الشىء المدى الفسيح والتنوع فى الحياة الاجتماعية (مثل ماجاء فى قصائد هويتمان من ذكر مطول لمختلف الحرف).

قال دكتور نيكولز : « أجل ، كلها إلا فى البداية » .

وقال مستر أجاسز « كان دكنز جيداً فى نهاياته وأوساطه ، ولكنه ضعيف فى بداياته . أما ثاكرى فكان جيدا فى البداية ، ضعيفا بعد الوسط » .

وقال هوايتهد : « عندما كنت فى كمبردج (وكان ذلك فى سنة ٨٣) لم يكن هناك من يقرأ دكنز . كان لا يستحق الاعتبار » .

فسألت مسز نيكولز : « وهل ذلك لضعف كتابته ؟ »

« إلى حد كبير فيما أحسب » .

« إن ثاكرى يستطيع بالطبع أن يكتب »

ثم ذُكِّرتْ « برأى تشسترتن فيه. ذلك أن (ثاكرى) كان يعتقد أن أموراً كثيرة ستبقى ، فى حين أنها كانت فانية . « إنه لم يعرف من الجهلاء عدداً يمكنه من معرفة الحقيقة »

وقال هوايتهد : « لم يشرع رجال الجامعة والطبقات المثقفة فى الاطلاع على دكنز بوجه عام — فيما أظن — إلا بعد عام ١٨٩٠ » .

« وما الذى أظهره آنئذ ؟ هل عاونه الاشتراكيون ؟ »

« كلا ، لم يعاونوه ألبتة فيما أحسب » .

« كنت أفكر فى الفابيين ، وقد بدأ نشاطهم فى عام ١٨٨٤ »

« كلا . بل لقد ظهر بنفسه ، مع ظهور تلهزون بمعونة الفقراء ، وإصلاح المساكن. »

ثم اتجه الحديث نحو إزالة أحياء الفقراء ، وانتصار الاشتراكيين فى الانتخابات لتولى مجلس لندن البلدى ، مما دفع الحكومة إلى وضع مشروع ضخم لإزالة المساكن القديمة . وهو مشروع - كما يقول الأستاذ — « كانوا يلوحون به ولكنهم لم يقصدوا فعلا أن ينفذوه » . وجرت مقارنة بين أحياء لندن القديمة وأحياء نيويورك القديمة ، وقيل إن أحياء لندن تتميز على الأقل بمبانيها التى تصلح للبقاء أكثر مما تصلح نظائرها فى نيويورك ، وإن أخطار النار فيها قليلة أو معدومة . وتعجبوا من وجود منازل خشبية ، ولكنهم رأوا أنها أليق بطبيعتها بمناظرنا الطبيعية . ثم أضاف هوايتهد إلى ذلك قوله : « إن من أبرز ما يميز المدينة الأمريكية - كما لاحظت - براعة رجال المطافىء بها »

ثم تساءلت قائلا : « قبل أن نترك موضوع الروائيين ، ماذا حدث لجورج إليوت ؟ »

فأجاب الأستاذ : لقد تدهورت ، وإنى لأعجب لماذا حدث ذلك ، وقد كان كتابها (مدلارش) كتابا عظيما » .

وتكلمت مسز هوايتهد من غرفة الجلوس قائلة :

« هل حاولت قراءتها أخيراً ؟ »

قلت : « أجل »

قالت : « وكذلك فعلت ،ولقد كانت جليلة فيما أذكر ، ومازالت فى بعض مواضعها . ولكن ألم تجد لديها فقرات طويلة مملة ثقيلة ؟ »

قلت : « ما أحرج هذا السؤال ! أجل لقد وجدت . بيد أنى كنت فى العقد الثالث من عمرى أقسم بها ، وهى لاتزال ترفع النصل بيمينها على الأقل »

قالت مسز هوايتهد : « وكذلك كان الأمر معى . ولقد كففت عن حث صديقاتى فى حماسة على مطالعتها » .

وقال هوايتهد : « هذا أمر خطر . لقد لبثت أعواماً أمجد أنبياء العهد القديم. وحقا لم أطالعهم حديثا ، ولكنى أذكر أنهم كانوا فى قمة المجد . ثم حاولت أن أقرأ أشعياء فلم أستطع أن أتابعه » .

« ماذا لمست فيه ؟ هل صرفتك عنه الطريقة التى دونت بها التراجم المختلفة للعهد القديم ؟ »

« كلا : إنما صرفنى عنه اللغو والابتعاد عن الموضوع . ولقد وجدت أنى

عند ما أتحدث عن أنبياء العهد القديم ينبغى لى أن أسير فى طريق آخر غير طريقى » .

« هل تذكر ما قال ستراتشى عن الأنبياء ؟ » .

« كلا » .

« ذلك فى مقاله عن كارليل . حيث يقول إن كارليل لا يقدر الفنانين ، وإنه ليؤثر أن يذكر كنبى من الأنبياء . ولكى يكون المرء اليوم نبيا ينبغى أن يتحلى بصفات ثلاث : صوت مرتفع ، ووجه جسور ، وحدة غضب (وقد اقتبس ستراتشى هذه الصورة الفكاهية من أرستوفان . غير أن قيمتها لم تقل من أجل هذا) . ولكن ستراتشى يتساءل : من ذا الذى يذكر الأنبياء على أية حال ؟ ربما ذكرنا أشعياء وأرميا ، ولكنهما كانا محظوظين جدا إذ نقلتهما إلى الإنجليزية لجنة من الأساقفة فى عهد اليزابث ! »

وقالت مسز هوايتهد : « أذكر لهما ما قاله ستراتشى فى بيتنا عن جين أوستن . »

« كان ذلك عند ما كنا نقطن كامبردج ، فى نهاية عهـــدنا بها ، وكان ستراتشى يقيم معنا . وقال إنه قرأ جين أوستن ، فقلت له ، أنت تقرأ جين أوستن! ماذا عندها لك ؟ ، فأجاب ستراتشى : « العاطفة ! » »

وقال أجاسز ، وكأنه يفكر بصوت مرتفع : « إنى أرى أن السخرية ــ رغم ما تقولون — لا تكون إلا عند الفشل فى تحقيق الشفقة الإنسانية » .

وعلق الدكتور بقوله : « إن الإنجيل يخلو من الفكاهة بدرجة ملحوظة ، وإنى لأعجب لماذا ؟ »

وأجاب هوايتهد جادا : « وإنك لتكتئب أيضا إذا كان (يهوه) فوق رأسك دائما

« وقال مستر أجاسز : « على النقيض التام للإغريق وفكاهتهم » .

وسألت مسز نيكولز قائلة : « وأين ذاك ؟ » .

« أرستوفان » .

وقال هوايتهد : « نعم ، ولكنى أعتقد أن الفكاهة جاءت متأخرة من المرحلة التى ينتمى إليها الأنبياء . أعتقد أن الفكاهة أمر جاء أخيرا ، وأن أرستوفان برع فيها خاصة . فهل عند هومر من الفكاهة قليل أو كثير ؟ » .

وأضاف الدكتور قائلا : « وكتاب اليهود المقدس - فوق ذلك - كان أدبا دينيا » .

وقال هوايتهد : « أجل . وعند ما تكون الكتابة جديدة لا يدون الناس ما يحسبونه تافها . وما برحت القبائل البدائية تعد سوء الحظ من التوافه . ويحدثنا بعض إخواننا الذين كانوا فى أفريقيا مع الزنوج خلال الحرب كيف أن الزنوج قصدوا مرة جدول ماء فى طلب شىء معين ثم عادوا وهم يقهقهون ضاحكين .

ماذا أضحكهم ؟ لقد أطل من الماء فجأة تمساح واختطف أحد زملائهم . ولم يكن المخطوف من البيض ، وإنما كان من زملائهم هم » .

وكان هذا الحديث يدور حينما كنا ننهض عن مائدة الطعام ، ورذاذ الربيع يتساقط ، ونسمع نغمة الموسيقى فوق رؤوسنا ، لأن سقف حجرة الجلوس ، كسقف المكتب ، يستند إلى دعامات من البلوط ، ملونة باللون الأسود ، يفصل بينها دهان أبيض . والأبواب الزجاجية الثلاثة ذات الشقين تفتح على بهو يواجه الغرب ، وتطل عبر الأرض الخضراء والحديقة على (التلال الزرقاء) التى اشتقت ماساشوست اسمها الهندى منها . والغرفة فسيحة بهيجة . بها مدفأة ضخمة . ومقاعد وأرائك

منتقاة من الماهوجاني ، مكسوة بالحرير الفرنسي رمادي اللون ، مما يشير إلى الطراز الإمبراطوري . والأزهار على الموائد الجانبية ورف المدفأة من السوسن والنسرين والنرجس وزنبق الوادي .

وقالت مسز هوايتهد — وقد انضممت إلى الحديث عند عودتنا إلى حجرة الجلوس :

« عند ما كنتم تتحدثون على المائدة عن ليتن ستراتشى أردت أن أذكر هذه الأبيات من الشعر لمس وردزورث عن ليدى مرغريت هول :

لو كان كل طيب من الناس ماهرا .
وكل ماهر منهم طيبا .
لكان هذا العالم أجمل مما نحلم أنه يمكن أن يكون .
ولكن الظاهر أنه قلما — بل يستحيل —
الجمع بينهما كما ينبغى .
فالطيب عند الماهر جاف .
والماهر عند الطيب فظ قليل الأدب .

وتساءلت مسز نيكولز قائلة : « إذن فهل يجب على المصورين الماهرين أن يداهنوا من يصورونهم من الأشخاص الطيبين برغم غبائهم ، بل وبساطتهم .

وهنا أبدى مستر أجاسز هذه الملاحظة : « إنه لما عرضت فى نيويورك صور جون سارجنت لأشخاص أثرياء — ولكنهم غير مقبولين — ممن جلسوا للتصوير ، همس فى أذنى أستاذ من هارفارد قائلا « هذا هو الخلود الزائف » .

وعندئذ قالت مسز هوايتهد : « إن للجالسين للتصوير كذلك حقوقهم » وتحدثت عن مغامراتهم الحديثة مع أحد المصورين ، وقالت : « إنه رسم لى صورة أولا . وجلست أحد عشر صباحا مميتا ، حتى سألنى : أأود أن أري سير عمله ؟ وكنت بطبيعة الحال أعلم أن أمثال هذه الخطوط الأولى لا تسر ألبتة ، ولذا فلم أتوقع أن أرى شيئاً يذكر . وسألنى رأيى فيها . قلت : المرء — بالطبع — لا يعرف منظره . واستمر فى عمله ، وكأنه يعد شعرات رأسى واحدة واحدة . ولما أتم الصورة أطلع عليها زوجته . فقالت له : « إنها مزعجة ! إنها لا تشبهها قط ، ماذا تريد أن تفعل بها ؟ »

« أريد أن أضعها فى إطار وأقدمها لمستر هوايتهد على سبيل التذكار ، فقالت له : « لن تفعل . ولا بد أن تمزقها . » ولم أعلم قط ما انتهى اليه أمر الصورة ، ولكنه أسر إلى بعد حين قائلا : « اعلمى أننى لم أكن قط مهتما بموضوع الصورة ، إنما كان كل اهتمامى بوسيلة التعبير ! »

ثم سأل مستر هوايتهد قائلا : « وماذا كان من أمر الصورة التى صورها لى؟»

فأجابت مسز نيكولز : « إنها تظهرك فى السادسة من سنك »

وقالت مسز هوايتهد : « أجل ، ولقد ظل على هذه الصورة عشرين عاما بعد ذلك عندما تزوجت منه ، ولمدة سنوات بعد هذا . » وابتسمت ابتسامة تدل على الذكريات القديمة ، مشوبة بشىء من الكآبة الخفيفة ، واستمرت قائلة :

« وقد فهمت معناها ، ولزمت الصمت ! »

وقال الفيلسوف متلطفا : « كنت أتحدث إليه وهو يقوم بالتصوير ، ولكنه

كان يتوقف ليخط على الورق مذكراته ، حتى اضطررت إلى أن أوجه إليه هذا السؤال :

« هل أنت فنان أو سكرتير كاتب ؟ » فأراد أن يجرني إلى جدل يخصه :

قال لي إنه سافر إلى الخارج وعاد ومعه ضريح إيطالي ، آية في الجمال فيما أحسب ، وقد وضعه وسط المتحف ، ثم غاب عن البلاد مرة أخرى لمدة عام ، ولما عاد وجد أن الضريح قد اختفى . وأخيراً وجده في الطابق السفلي ، ولكنه لم يستطع أن يرفعه مرة أخرى ، وحاول أن يكسب تأييدي قائلا : « لو انضممت الى أظن أن تأثيرك سيكون من القوة بحيث يكفي لرده إلى مكانته التي يستحقها . فسألته :

« وأي فائدة مني ؟ إنني لا أعرف شيئا عن الفن . كل ما أعرفه أن ضريحك آية في الجمال » .

« ذلك كل ما يعنيك أن تعرفه » (مقتبسا سطرا من كيتس) .

« تعال وقل لهم ذلك »

« ولكني أستطيع أن أقول هذا هنا دون أن أذهب إلى المتحف . ثم إن قولي لن يمينك ، لأن المصلحة تميل إلى الحفريات ، وضريحك قد يكون جميلا ، ولكن إذا لم يثبت أن تاريخه يقع في حدود عشر سنوات من الفترة المطلوبة ، فلن يخرج من الطابق السفلي »

وقالت مسز هوايتهد : « ولكن لا تخطيء فهمنا . إنه عزيز علينا ، ونحن به جد مغرمين . » .

ثم اتجه الحديث إلى حركة بوشمان ، التي كانت في طريقها إلى الظهور

فى ذلك الحين ، صوتها مسموع ، وإن يكن بغير ضجيج .

وسأل سائل : « ما هذه الحركة التى تجعل الكتوم ينتفض ؟ »

وقال هوايتهد شيئا عن حقيقتها فى تعبير لا يخالجه التردد .

وقالت مسز هوايتهد : «هل سمعت عن زيارة الدكتور رتشارد كابوت وزوجه لجماعة المترفين ؟ »

« كلا »

« فى اللحظة الملائمة أومأ مستر بوشهان برأسه ــ وهو لا يعلم من هما ــ مشيرا إلى أن دورهما قد جاء ليؤديا الشهادة . فنهض الدكتور كابوت وقال فى حزم :

« أنا الدكتور رتشارد كابوت ، من الأطباء ، وأستاذ علم الاجتماع فى كلية هارفارد ، وتبعته زوجه (وانخفض صوتها إلى حد التمتمة) وقالت : « اسمى الا كابوت . وأنا باحثة جادة عن الحقيقة ، ثم جلست . وهذا كل ما حدث »

قلت : « الظاهر أنها ضرب من ضروب جيش الخلاص للطبقة العليا . فى أوقات الاضطراب الاجتماعى يخرج الناس على العقائد القديمة ويتمسكون بالأوهام . والاعتراف الجنسى نقطة من نقاط المساومة » .

ثم عقبت على ذلك مسز هوايتهد قائلة · « وكذلك الأمر مع علماء التحليل النفسانى · أليس مما لا مفر منه أن يتكون لديهم ذوق خاص من كل هذا التقصى البعيد لأسرار اللاشعور ؟ أظنهم قد انتهوا بالتقصى لمجرد لذة التقصى . وما جدوى الفقير منه ، الذى هو بحاجة اليه ــ بل أشد حاجة ــ من الغنى ، إن كانت به فائدة ؟ إننى لا أرى عيادات مجانية لعلماء التحليل النفسانى .

ومما يذهلني أن الأطباء النظاميين كثيراً ما يتناولون مرتبات ضعيفة ، في حين أن هؤلاء العلماء النفسانيين يكسبون كثيراً . أليس التحليل النفساني نوعا من الشغف الشديد بنبش ما في عقول الآخرين ، وحملهم على الإباحة بما ربما كان من الواجب عليهم أن يبوحوا به ، ولكن لغير هذا الذي ينبش ويحاول أن يحمل الناس على الإباحة ؟ »

ودافعت زوجة الدكتور نيكولز عن المهنة في غياب أصحابها بكفاية وجدارة ، والظاهر أنها كانت تعرف الكثير عنها .

ثم قال الفيلسوف : « إن (كنيسة الملك) في بوسطن فريدة بين جميع فروع المذاهب البروتستانتية التي أعرفها . إنهم يسمحون لكل إنسان بالدخول ثم يعظونه ـ حتى أنا ـ على سبيل المثال . إنها محترمة إلى درجة لا تصدق .»

ثم وجه إلى السؤال قائلا : « هل تعرف مكاناً أكثر منها احتراما ، حتى في بوسطن ؟ »

« ليس هناك مكان آخر غير شارع جبل ڤرنون . ألا يقول عنه هنري جيمس إنه أكثر شوارع أمريكا احتراماً ؟ »

وقال الفيلسوف : « أخشى ألا يعيننا ذلك ، لأن كنيسة الملك ـ كما أعلم ـ ملك لقوم يقطنون في شارع جبل ڤرنون . إنها نادرة الامتياز . إن هناك دينا خاصاً لكنيسة الملك . دينا فريداً في نوعه في هذا الوجود . وأعتقد أن هذه الكنيسة هي المكان الصحيح الذي يتزوج فيه الإنسان ».

وعلقت مسز هوايتهد بقولها : « لقد ذهبنا إلى هذا المكان المقدس ، وجلسنا جميعاً . ثم اعتلى (أولتى)[1] منبراً عالياً ، وتوقعنا بطبيعة الحال أن ننشد نشيدا دينيا،

(١) الاشارة هنا الى ألفرد هوايتهد

أو أن نتلو وردا ، ولـكن شيئاً من ذلك لم يحدث . وأشهد أن أولتى قد انفجر بعد ذلك بالحديث ، وهو أروع ما يكون ... »

قال : « إننـا فى حرية مطلقة ، كحرية هارفارد . هل تعرفون أن لهارفارد محاضرة موقوفة يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر . وكان المفروض أن يتحدث المحاضر بإسهاب فى الأخطاء اللعينة لـكنيسة روما ، بل لقد دعوا قسيسا كاثوليـكيا لـكى يقوم بإلقائها » .

« وكيف يتغلبون على الشروط ؟ »

« فى يسر شديد ! ربما لا يستطيع المحاضر أن يكشف أى خطأ لعين فى كنيسة روما . فلا ينتظر فى هذه الحالة أن يتحدث فيها . »

« إن أحد أصدقائى القدامى يستسيغ ذلك . إنه الآن قسيس ولـكنه كان فيما سبق أستاذا للتاريخ فى هارفارد ، وكان بعيد الصيت . وكنا نطلب العلم فى الجامعة معا ، واشتهرنا بتفوقنا . وكلانا من الغرب الأوسط وآباؤنا دكاترة . وكان حتى فى ذلك الحين متعمقا فى حِكَم الـكنيسة الإنجليكانية العليا » .

فقال الفيلسوف : « لا بد أن يكون هو ذلك الرجل الذى كثيراً ما ألقاه فى المـكتبة . إننا على وشك أن نتبادل التحية » .

« أرجو أن تتبادلاها فى المرة القادمة »

« ألا يرجع انتماؤه إلى الـكنيسة إلى عهد بعيد ؟ »

« حتى منذ ثلاثين عاما كنت أعجب ـ بجهالتى الدينية ـ كيف كان يحتفظ بعقيدته فى الـكنيسة الإنجليـكانية العالية ومعرفته بفلاسفـة ما وراء الطبيعة الألمان كل فى ركن ذى منطق محـكم » .

فقال الفيلسوف : « إننى لا أتصور ذلك من الصعوبة كما يبدو . كلانا يفعل ذلك . إنما العسير أن تحتفظ بهما فى ركن واحد » .

(٢)

٢٢ من إبريل ١٩٣٤

انقضى أسبوعان آخران من فصل الربيع . وقد انتشر فوق غابات تلك الأرض الجبلية بساط من أوراق البراعم الخضراء على طول الأميال الأربعة التى تمتد من ماتابان الى بيت آل هوايتهد . وبلغت الدار هذه المرة قبل السابعة بقليل . وطلبت إلى سائق العربة ـ كالمرة السابقة ـ أن يعود فى الساعة التاسعة وأربعين دقيقة ، حرصا على صحة مسز هوايتهد الضعيفة . وهو طلب ألغيته فيما بعد .

وقد جىء بها منذ برهة إلى أريكتها الممتدة فى حجرة الجلوس على مقعد ذى عجلات . وقام بذلك بهمة ونشاط الأستاذ هوايتهد وهو فى العقد الثامن من عمره . ثم أخذ يتحرك هنا وهناك بأمرها ، يرتب المقاعد والأضواء .

وعتبا علىّ انصرافى مبكراً فى المرة السالفة .

« وقال (أولتى) : هل أثقلنا عليه ؟ وهل نفدت قدرته على احتمالنا ؟»

وقلت له : ربما كان عليك أن تحرر مقالا للغد . وإن المرء ليتوقع ذلك حينما يحضر صحفى للعشاء . ولـكن جريس دى فريز تقول لى إنه لا بد لك أن تأوى إلى فراشك مبكرا » .

« ولـكن جريس دى فريز أخبرتنى أنك أنت الذى لا بد أن تأوى إلى فراشك.

مبكرة ، أو ما يشبه ذلك . لقد تحاملت على نفسى كثيرا حينما طلبت إلى سائق العربة أن يعود فى الساعة التاسعة وأربعين دقيقة » .

« إذن لا تفعل ذلك مرة أخرى ! »

« ولكنى فعلت ذلك مرة أخرى » .

« إذن ألغ هذا الأمر » .

وألغيته بالتليفون .

وعلى شىء من التعجل قالت لى : « إن زوجة الأستاذ مورجان سوف تحضر (أما المسكين فلن يستطيع الحضور ، فهو فى المستشفى . يعالج من السل كما تعلم). وستحضر أيضاً مسز نيكولز التى التقيت بها هنا فى المرة الماضية : (أما الدكتور فقد رحل إلى آن أربر للدراسة) والأستاذ روزنستك هسى ، وهو ألمانى ، ومستر أجاسز وزوجه ، وقد كانا هنا أيضاً فى المرة الماضية . وزوجه سيدة مهذبة محترمة من إنجلترا الجديدة ، وهى نموذج لطرازها من السيدات . أما هو فكما أقول له (فى فكاهة بيننا) فيبدو كرجل الشارع الباريسى ، وهو بيوريتانى مستقيم من بوسطن ، وعضو بطبيعة الحال فى هيئة الملاحظين بهارفارد . وهو قدير على رد الفكاهة بالفكاهة ، بل يردها بأحسن منها ، فهو يقول : عندما أكون فى باريس يكون ضميرى بيوريتانيا ، ولكن ذلك لا يصلح فى بوسطن . ومن ثم فأنا أتحمل المتاعب دائما » .

وسرعان ما التأم الجمع . وقدم العشاء لمسز هوايتهد ومسز أجاسز على مائدة صغيرة فى حجرة الجلوس ، أما بقيتنا فقد توجهنا إلى غرفة الطعام .

وقال أحد الضيوف للمضيف : « عرفت أنك تشبه الرئيس روزفلت بأغسطس قيصر ولكنى جمهورى، لا أحتمل هذا الرجل » .

وتلفت هوايتهد الى المتكلم وفى نظرته تردد واضح ، ثم أجاب بنغمته اللطيفة: «لم يحدث فى التاريخ إلا مرتين ـ فيما أعلم ـ جلس فيهما على العرش رجل مهذب» فقالت مسز نيكولز فى لطف ، لأنها رعية بريطانية : « العرش ، يجب أن يُرضى أى جمهورى معادٍ ».

وتساءل روزنستك هسى، ولم يغب عن ذهنه ولهلم من أسرة « هوهنزلرن الذى يمت إلى ادوارد بصلة قرابة، قال: « ألم يكن الملك إدوارد السابع رجلا مهذبا ؟ ». وأجاب الفيلسوف بقوله : « ما أبعد ذلك عن الصواب . وقد نشأ نشأة سيئة ، ولم يستطع أن يجارى قيصرا » .

قالت مستر أجاسز : « إن أحداً لا يستطيع أن يجارى قيصرا ، ثم إنه كان خال قيصر . كانت مسألة عائلية . وكانت علاقة الخال بابن أخته تجعل الأمر مستحيلا » .

« ليس هذا لب الموضوع ـ انما كان من واجب إدوارد أن يجارى قيصرا . ومن أجل هذا دفعنا له المال ، ودفعناه بوفرة وسخاء . كلا ، لقد كان سيء التربية ! لما ذهب إلى الهند وهوأمير ويلز ثار فى وجه قائد عجوز جاء إلى الاستعراض فى زى غير ملائم . وقال فى ثورته : ، أنتم أيها القدامى تتحللون فى عاداتكم هنا ؛ فقال الجندى العجوز وهو يقرع ذراعه الخشبية بيده الأخرى السليمة ، بما فى ذلك هذه الذراع ياصاحب الجلالة ! ».

وعلقت مسز مورجان بقولها : « وكأن إدوارد هو الرجل الذى يتحدث عن العادات المنحلة » .

« أستطيع أن أتسامح معه فى هذا ، فقد كانت أمه على شىء من الصلف . وإنما كان من الواجب عليه أن يرعى قواعد الآداب أمام الجمهور. يؤسفنى أن أقول إنى لم أعبأ به كثيراً . وقد كانوا يعرفون الآداب الملكية خيراً من ذلك فى القرن الثامن عشر. كان هناك رجل من الوجهاء الأقوياء يدعى توم كوك ، وكانت له ضياع شاسعة ، وكان يمقت چورچ الثالث . وفى حفل عشاء عام ضخم اقترح أحد الحاضرين أن يشرب المحتفلون نخب الملك . فانفجر توم كوك قائلا : لن أشرب نخب ظالم مستبد ! ، وكان قولا مثيرا ، وتطلع الحاضرون فى شغف إلى ماعساه يحدث . ولكن لما كان العرش فى ذلك الحين قد بدأ يترنح قليلا ، فإن كل ماحدث أن وصل إلى توم كوك خطاب من جلالة الملك ينبئه بأنه لن يقدم إلى المحاكمة، لأن جلالته قد فهم (الروح) التى أبديت بها الملاحظة ! » .

وانتقل الحديث إلى إخراج جرانفل باركر « لنساء طروادة » ليوربيديز على مسرح هارفارد فى عام ١٩١٥ ، ثم تجمع حديث المائدة فى هدوء صامت لحماية الرجل الألمانى الموجود من القلق الذى كان يساور كل عقل فى ذلك الحين ، القلق من أن المسرحية كانت أداء معاصرا لرواية « النساء البلجيكيات » ، ومن أجل هذا مثلت .

وقال قائل : « إن المأساة أشعرت الشاهدين بالإثم المشترك فى جميع الحروب » .

وسأل هوايتهد : « هل شاهدها أحد من الحاضرين ؟ » .

« نعم ، ولقد قال أحد أساتذتى القدامى فى قسم اللغة اليونانية ، وكان يجلس إلى جوارى ، هذه هزيمة مطلقة لى . لقد قرأت (نساء طروادة) مراراً وتكراراً ، وعلمتها ، ولو سألتنى هذا الصباح ، لقلت لك إنها مليئة بالأخطاء ، وإنها ليست فى الحق مسرحية غاية فى الجودة. ولكن ها هى ذى الآن ، جد رائعة. إنك لا تعرف المسرحية إلا بعد أن تشهد تمثيلها » .

وقال مستر أجاسز من غرفة الجلوس : « ومع ذلك فقد قيل إن قوة الأداء يرجع خمسة وعشرون فى المائة منها إلى يوربديز ، وخمسة وسبعون فى المائة إلى جرانفل باركر » .

وقالت مسز أجاسز : « بل إنى لأرى عكس هذه النسبة » .

وقال هوايتهد : « إنى أعرف يوربديز . وأرى أن خمسين فى المائة من الأداء يرجع إليه » .

وانسحبنا من المائدة إلى غرفة الجلوس لنتناول القهوة . واتجه الحديث إلى كيفية الوصول إلى حكومة جيدة . وقال أحدهم إنه قد وجدت دول كثيرة تستند إلى القوة. والواقع أنه لم يوجد من الدول غير هذا النوع ، على صورة من الصور. ولكن لماذا لم توجد دولة ثقافية ، فتستبدل بحكومة المالكين حكومة الخالقين ؟

فقال الأستاذ هوايتهد : « هذا حق! ولما كان المالكون يهتمون بالشئون المادية فإنهم يستطيعون الاستيلاء على الحكومة » .

وسألت : « أليس ذلك هو السبب فى أنهم يديرونها عادة إدارة سيئة ، والسبب فى وجود طبقات أنانية حاكمة ، والسبب فى أنهم يقومون بأعمال تهورية ، ولا يأبهون بالفن إلا قليلا ، ويتبعون سياسات ضعاف العقول ؟ ولكن ذلك لأنهم إنما يعبرون عن غرائز التملك . كيف نستطيع أن نجعل الدوافع الخلاقة تدير دفة الحكومة » ؟

فقال هوايتهد : « لا بد لذلك أن يكون الحكم شائقا . ومن رأيى أن سياسة الدولة فى الوقت الحاضر ليس فيها من التشويق ما يكفى لاهتمام الشاعر أو الفنان لا بد أن يكون الحكم شائقا كالشعر . »

وقال روزنستك هسى . « أعرف قصيدة واحدة تهتم بمثل هذه الموضوعات.

وهى لجيته ولم تترجم قط إلى الإنجليزية فيما أعلم . وهو فى هذه القصيدة يروى استمتاعه بالعمل الإدارى الذى قام به فى وعار ، كتعبيد الطرق ، والتنظيم الحربى وأعمال التعدين » .

وسألت . «وما عنوانها؟ »

« إلمناو »

« ألم تكتب لعيد من أعياد ميلاد الدوق كارل أغسطس ؟ »

« نعم . هل قرأتها ؟ »

« حدث ذلك منذ عهد قريب . بيد أن هناك صعوبة . فقد استمتع جيته بالإدارة ، وأجادها ، ولكنه أجادها أكثر مما ينبغى . وانغمس فيها إلى حد يعرقل قرض الشعر . ومن أجل هذا فرّ إلى إيطاليا » .

وقال هوايتهد . « إن ما أريده فيما أحسب رأس الدولة مطمئن إلى درجة معتدلة . بشرط ألاّ يبالغ فى طمأنينته » .

« وما رأيك فى الأباطرة الأنطونيين ؟ »

« كانوا بارعين فى الإدارة . وكان نظاما فريداً ينتقل من حاكم إلى حاكم بالتعيين وتؤمنه أوليجاركية عسكرية . ومن عجب أن أكثرهم تقديرا أقلهم استحقاقا له . أقصد ماركس أوريليوس ، لأنه شذ عن القاعدة بتعيينه ابنه كومودس ، وكان تعيينا سيئاً .ولولا أن ماركس كتب تلك المذكرات الشائقة ، التى برغم مافيها من متعة وعلم ، لاتمت إلى موضوعنا بصلة — لولا ذلك لساءت ذكراه من بعده . لقد كان من واجبه أن يجد خلفا طيباً » .

« ومارأيك فى جدارة بركليز ؟» .

« إنه يدعو إلى الإعجاب . فهو رأس دولة انتخب فى منافسة سياسية حرة ، وكان من الممكن زواله بمنافسة سياسية حرة مثلها » .

وعاتبته زوجه بقولها : «عزيزى أولتى ، إنك تحمل على ماركس لأنه تطفل على أثيرتك الفلسفة التى لاينتمى إليها » .

« كلا . إنى لا أقول بأنه لاينتمى إليها . وإنى لأحب أن أغامر بعيداً عن الفلسفة لو تضاعفت سنو حياتى ومكنتنى من إجراء التجارب » .

« إلى أين ؟ على سبيل المثال » .

« أحب مثلا أن أكون رئيساً لمحل تجارى ضخم» .

« أنت ؟ تدير محل جوردان مارش ! »

«لا أقول فى بوسطن . ولكن فى لندن »

« وتنافس محل سلفردج ؟ » .

« لايتحتم ذلك ، فربما جاملنى مستر سلفردج بموته وخلف لى محله لإدارته» .

« لكنه مات فعلا ياعزيزى ، وها أنت ذا لاتدير محله ! »

« كلا . لا أظنه قد مات . ولأرجع فى ذلك إلى الدليل». وذهب إلى مكتبه ليبحث عنه .

وقالت مسز هوايتهد غاضبة « إنى لأعجب لك ! أنت تريد أن تشتغل بالحرير والأطلس ، وأحسب أنك لتحب ذلك » .

« أؤكد لك ياعزيزتى أن شغفى بالإدارة أكثر من ذلك بعداً عن الاتصال بشخصى » .

ثم عاد فى الحال ومعه الدليل ، مفتوحاً فى الصفحة المطلوبة .

وقرأ بضمة مقتطفات قائلا : « إنه ما يزال حيا . وهذا هو اسمه . جوردن سلفردج » .

وقالت مسز هوايتهد : « ولكن هذا ولده . أليس كذلك ؟ » .

« لا بد أن يكون كذلك ياعزيزتى » .

« أود أن أعرف يا أستاذ هوايتهد أى أثر فى الجمهور يكون لك فى عمل تجارى ؟ » .

« الذوق ، والتدبير المنزلى . وكيف يستطيع المرء أن يعيش بحاجات أقل وأحسن » .

« حينئذ يلتهمك منافسوك ويبتلعونك » .

« لا أظن ذلك . فإن مما يبهرنى فى هذا العمل أن أبتعد عن بطونهم » .

(٣)

٢٤ من يناير ١٩٣٥ .

انتقل آل هوايتهد من كانتون عائدين إلى مسكنهم السابق فى راندون هول عند (مموريال درايف) المطل على نهر تشارلز بكمبردج .

وكان اليوم التالى لهبوب عاصفة ثلجية شديدة . وصفا الجو ، وهبت ريح

شديدة البرودة من الشمال الغربي ، وتكدست الثلوج في الطرقات على عمق قدمين أو ثلاث . ولم تمهد الطرق بين ميدان هارفارد وتشارلز . فخضت فيها وتعثرت ، وتذكرت ما قاله دافيد ماكورد على نهج روبرت لويس ستيفنسن :

في بوسطن عندما يتساقط الثلج في المساء

يزيلونه في أضواء الشموع

والأمر على نقيض ذلك في كمبردج

يتساقط الثلج فيتركونه مكدسا في مكانه

وكان العشاء في الساعة السابعة والربع . ولم يحضر سوى أفراد الأسرة : الأستاذ هوايتهد وزوجه ، ومارجوت ، زوجة ولدهما (مسز نورث هوايتهد) ، واريك حفيدهما ، وهو صبي أشقر اللون ، أزرق العينين في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره . وكانت مسز هوايتهد أوفر نشاطا ، فرأيناها تدخل وتخرج من المكتبة عدة مرات .

وكان حديث المائدة عن حياتهم في كمبردج بإنجلترا ، بالموازنة مع حياتهم في كمبردج بماساشوست ، وعن المسرح الإنجليزي كما عرفوه في لندن . وقد شاهدوا حفلة من أولى الحفلات التي مثلت فيها (مسز تانكرى الثانية) لپنرو وفيها مسز پاترك كامبل التي قامت بالطبع بدور بولا تانكرى في فاتحة المسرحية ، وقالوا إن كل من شاهد المسرحية خرج من المسرح مذهولاً ، ويكاد ينعقد لسانه مما عُدَّ في ذلك الحين صراحة مكشوفة . وبرغم هذا ، فإنه منذ ست سنوات ، عندما بعثت المسرحية من جديد ، وأجادت تمثيلها فرقة ممتازة ، فترت حرارتها ، وسخر منها النظارة فعلا . فيم كان كل ما أثار من ضجيج ؟ وماذا في الموقف لا يمكن بسطه في حديث ساعتين مع طبيب نفساني خبير ؟

وتفرقنا بعد العشاء فاتجهت السيدات إلى المكتبة ، وانصرفت مع الأستاذ هوايتهد إلى غرفة الجلوس ، حيث تناولنا القهوة . وتحدث قليلا عن الصحافة ، وتعرضنا لموضوع الشهرة التي يجلبها النشر الآلى ، ولماذا باتت كتبات صيفى سريع النمو بعد ما كانت كشجرة من أشجار البلوط تحتاج لنموها إلى ثمانين عاما .

وتساءلت : «هل هناك قانون روحانى يعوض عازف البيان الصادق الجيد الذى لا يقيم غير حفلين فى العام إزاء العازف المحترف الذى يقيم مائتى حفل فى العام؟»

فقال : « إننى أميل إلى الاعتقاد بأن من المآسى الدائمة فى الحياة أن الصفة الجيدة لا تتغلب على ما يتلوها فى الجودة » .

ثم سأل لماذا تكون عناوين الصحف مثيرة للحس ؟

«إنها إعلانات لبيع المقالات»

« إنها كثيرا ماتعطى القارىء فكرة خاطئة عما تحتويه الصحيفة »

« هل تظن ذلك ؟ إننى أتصور فى بعض الأيام أنها تعويض مستحدث عن الملاعب الرياضية الكبرى التى كانت معروفة أيام الرومان ، والتى كان يصارع فيها اللاعبون المستشهدون الحيوانات المفترسة » .

وبدا عليه الجد ولم يجادل الرأى .

وعدنا إلى المكتبة . وقد سحبت الستائر الثقيلة المصنوعة من القطيفة السوداء فوق النوافذ الطويلة التى كانت تطل على النهر وعلى (ميدان الجند) . وكانت نار الحطب تشتعل فى الموقد، تعلوها مدخنة سوداء من الخشب المنقوش على طراز كلاسيكى . وكانت حوائط الحجرة الطويلة الفسيحة مغطاة بالكتب

من ثلاث جهات ، والحجرة مضاءة بالمصابيح بصورة بهيجة . هذه هى غرفة الدراسة الخاصة بالفيلسوف ، وله فيها مقعد للقراءة ومكتب فى زاوية مريحة من زواياها .

ولما دار الحديث سنحت الفرصة للسؤال إن كان الحاضرون قد لاحظوا عقما فى الفنون المبدعة بين أهل بوسطن . وسرعان ماتبين أنهم قد لاحظوا ذلك .

وطرحت مسز هوايتهد هذا السؤال فى شىء من الحياء : « هل لذلك علاقة بفقدانهم سيطرتهم السياسية ؟ »

قلت : « لقد عالج هذا الموضوع فردريك ستمسن ، وهو محام من بوسطن ، وروائى ، وكان فى وقت من الأوقات سفيراً لنا فى الأرجنتين ، فى سيرة حياته بقلمه التى كتبها تحت عنوان « بلادى الولايات المتحدة » . وقد نشر الكتاب منذ نحو أربعة أعوام . وجاء فيه أن ثروة طائلة قد جمعت فى بوسطن فى الستين السنة الأولى للجمهورية ، ولكن الأثرياء بدلا من أن يثقوا فى أبنائهم ويزجوا بهم مخاطرين بأنفسهم فى بحار الحياة ، كما فعل آباؤهم من قبلهم ، حبسوا أموالهم فى الأسهم والسندات حتى لايبددها ورثتهم من بعدهم . وكان من أثر ذلك أن قتلوا فى أبنائهم القدرة على الابتكار » .

فقال الأستاذ : «إننى أجد بين الأثرياء القلائل الذين التقيت بهم حالة من الذعر مماتقوم به إدارة روز فلت ــ بحكمة على ما أظن ــ ولاأجد لديهم استعداداً لفهمه» .

قلت : تبين ذلك عندما داهمتنا حرب الطبقات فى عام ١٩١٢ عند إضراب لورنس الأول . كانت ثورة كبرى ، وقعد بهم الخوف عن إدراكها » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن نساءهم جبناء ، وإن ذلك ليبدو فى بيوتهن ،

فإن كل بيت يشبه الآخر فى أثاثه ، ولا تجرؤ إحداهن على المخالفة . والتشابه مميت حتى إنى كلما زرت بيتاً من هذه البيوت كدت أصرخ » .

ووافق على ذلك قائلا . « إن أمثلة الذوق المبتذل فى البيوت فى إنجلترا أكثر منها هنا ، ولكنها على الأقل ذاتية فريدة ، وداخلها ينم عن شخصية أصحابها . كما أن المحلات التجارية هنا لاتعرض الأشياء التى تقابل اختلاف الأذواق . وعلى المرء أن يأخذ مايجد » .

وقالت : « الاستثناء الملحوظ هو بيت جريس دى فريز . ففيه ذوق وشخصية فردية » .

ثم أثير السؤال عما إذا كانت اللغة المشتركة تمين أو تعوق التفاهم بين الإنجليز والأمريكان . وقد عبر هوايتهد منذ قدومه إلى هارفارد ، وجلبرت مرى عندما كان هنا أخيرا قادماً من أكسفورد فى عام ١٩٢٦ ، عبرا عن رأيهما بأن اللغة المشتركة تخدع الشعبين ، إذ يحسبان أنهما متشابهان ، فى حين أن الخلاف بينهما بعيد المدى ، ويؤدى ذلك فعلا إلى سوء التفاهم » .

وقال . « كنت أقرأ كتاب (كرمويل) لجون بكان . والرأى الذى يصر عليه هو أن كرمويل وشارل الأول كلاهما قد هزم . ثم كانت فترة انتقال مابين عام ١٦٨٠ وعام ١٧٣٧ حينما كان هناك فراغ ثقافى يكاد يكون تاما . ثم وقفت إنجلترا على قدميها مرة أخرى ، وانطلقت فى القرن الثامن عشر ، ولكنها سارت فى طريق الأرستقراطية وملكية الأرض ، التى امتدت حتى الانقلاب الصناعى فى القرن التاسع عشر وتداخلت فيه ، فاختلطت الأرستقراطية القديمة بالأرستقراطية الحديثة . ولكن تاريخكم الأمريكى ينبع من المنشقين من الطبقة الوسطى البيوريتانية المصطبغة بصبغة ديموقراطية قوية . إن ثورة كرمويل

لم تهزم فى أمريكا . ومن أجل هذا تطور القطران فى اتجاهين مختلفين جد الاختلاف . ومع ذلك فما أعجب علم الاجتماع ! فإنه بالنسبة إلى الصعوبة التى تلاقيها المواهب الفردية فى إنجلترا فى شق طريقها صعوداً إلى الطبقات العليا ، نجد أن الناس يلزمون طبقاتهم . ويرتفعون بها . حتى إنا لنجد حركة عمالية يقودها رجال من طبقة العمال قيادة قديرة . فلما تولى حزب العمال الحكم فى عام ١٩٢٤ ، وفى عام ١٩٢٩ كانوا مؤهلين غاية التأهيل لحمل أعباء جميع وزارات الإمبراطورية ، بما فيها وزارة الشئون الخارجية».

« إن حركتنا العمالية مازالت بعيدة عن ذلك جداً » .

فقال هوايتهد : «نعم . أو ليس ذلك من الأسباب التى تمكن أصحاب المواهب الاستثنائية عندكم من سرعة الارتفاع خلال الطبقات العليا؟إنهم يرتفعون أفرادا ، ولكنهم يخلفون طبقاتهم وراءهم. ومن ثم فإن الأرستقراطية الإنجليزية تخلق ديموقراطية حقيقية ، فى حين أن الديمقراطية الأمريكية تخلق نوعاً من أنواع الأرستقراطية».

وقال إن طالباً جامعياً شاباً فى مدرسة اللاهوت قد استشاره فيمن يقرأ من آباء الكنيسة الأوائل .

« وسألته : كم لبث أسلافه فى هذه البلاد ؟ فأجاب بأنه أتى إلى هنا من النرويج وهو فى الثالثة عشرة من عمره . وكان أبوه قسيسا ريفيا ، أفقر من أن يعلمه تعليما ثانويا ، ، فأرسله إلى وسكنسن أو منيسوتا إلى أحد المعارف ، الذى أوجد له عملا فى مزرعة لمدة عام . ثم التحق بمدرسة عالية ، ونجح فيها ، وشق طريقه إلى كلية صغيرة ، وحصل على منحة علمية ، ثم جاء إلى هارفارد ، وهنا

أخذ يبحث فى أوريجن وتوماس اكويناس . وعرفت أنهم ينظرون فى أمر تعيينه معلما بالجامعة .ولا شك فى أنه كان محظوظا فى ذلك ، فإن عنصر الحظ قوى فى مصائر الناس ، ولكن لابد أيضا أن يكون قد عومل معاملة تنطوى على عطف شديد .وأود أن أخلص من ذلك إلى أننى لا أعرف مكانا آخر فى الدنيا يمكن أن يحدث فيه مثل ذلك » .

وقال ان من رأيه أننا لم نستكشف بعد فى جلاء قدرة الأديرة على ابراز العناصر الحساسة وذات الخيال القوى من البشر ، وذلك بحمايتها فى العصور الوسطى . « كان العالم الخارجى عنيفا، ولكن هنا كان عالم الفكر يسير معه جنبا إلى جنب ، وكان له نفوذ عظيم . وقد وجد العلماء المتواضعون الفقراء فى هذه الأديرة ملجأ لهم . ثم ألاحظ بعد ذلك كيف سارت الدراسة فى المعاهد . فمنذ فترة الإنتقال من القرن الخامس إلى القرن السادس ، حينما أسس القديس بندكت نظامه الدينى ، حتى القرن الرابع عشر – أى ما يقرب من ألف عام – كان كل عمل عقلى لا يمكن أن يؤدى إلا فى حماية الأديرة . ولكن إذا ما بلغنا عهد إرازمس ، نجد أنه لا يكاد يذكر راهبا دون أن ينحرف وينعته بصفة تنم عن الازدراء . ولست أعرف إلى متى تحتفظ جامعاتنا بقوتها . إنها اليوم ذائعة الصيت ولها نفوذ عظيم . لكن التعليم قد يبلغ حدا من الإجادة أبعد مما نطلب . أنه يستطيع أن يثبت فينا التقاليد ويفقدنا الروح . وفى ظنى أن جامعة كمبردج التى أتقنت تدريس الرياضيات ، هى التى أخرجت من بين طلابها كثرة من الشعراء الإنجليز، فى حين أن اكسفورد التى تخصصت فى دراسة العلوم الإنسانية ، قد أخرجت كتابا بلغوا فى جملتهم حدا عاليا من التوسط . وأعتقد أن المرء إذا بحث فى الأدب مع أستاذ عالم ذكى مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع لعدة سنوات ،

تحدث عنه من جميع نواحيه ولا يرى داعيا للكتابة فيه . انه عندئذ يدرك فوق ما ينبغى العمل الجيد الذى تم أداؤه فى وفرة وبإتقان ، فيقدسه أكثر مما يستحق ثم يقول : « من أكون حتى أبز هؤلاء ؟ » .

وأخذنا نتلهى محاولين أن نتبين هل الشعراء الإنجليز قد نشأوا فى قطاعات بذاتها ، فسادوا فى بقاع جغرافية معينة . والظاهر أن خط سيرهم قد امتد من البحيرات جنوبا إلى وسط الجزيرة شرقى محور رأسى متوسط ، ثم إلى أنجليا الشرقية ، لكى يتركزوا بطبيعة الحال فى لندن .

ثم أخذ يتحدث عن الجامعات الأمريكية متعرضا لوظائفها العامة ، وقال : « اننى لا أتفق مع أبراهام فلكسنر فى رأيه بضرورة وجود معاهد مستقلة موزعة فى أنحاء البلاد كل منها يقدم لونا معينا من التدريب[1] ويبدو لى أنه من الخير لنا أن نتبع نظاما أكثر من ذلك مرونة ، نظاما يستطيع فيه الطالب الذى يتلقى تدريبا فنيا أن يحصل على دراسات ثقافية أيضا إذا أراد وإذا أحس الحاجة إليها . ويخيل إلى أن جامعاتكم الكبرى فى الوسط الغربى تفعل ذلك بصورة مقبولة . وهذه المرونة تمكن الطالب من التلفت حواليه واستنشاق الهواء . ان العقول لا تنقسم أنواعا معينة بالسهولة التى يراها بعض زملائى فيما يبدو لى . وأنا قوى الشك فى الرجل الذى يصفونه بأنه من طراز (ا) . أنه يستطيع أن يستعيد ما تريد أن تسمعه منه فى امتحان ، ولما كان الامتحان وسيلة تقريبية من وسائل الاختبار، فلا بد لك أن تمنحه درجة (ا) التى يستحقها إذا استعاد لك ما تريد . ولكن القدرة — ولا أقول الإرادة — على استعادة ماينتظر منه تبعث الشك فى ضآلتها وسطحيتها.

---

(١) راجع ماكتبه فى « الجامعة فى الحياة الأمريكية » فى مجلة اتلانتك الشهرية ، مايو سنة ١٩٣٢ ، الجزء رقم ١٤٩ وفى « عيوب مدارسنا العليا » فى نفس المجلة ، ابريل سنة ١٩٣٢ الجزء رقم ١٤٩ . وماكتبه فى « الجامعات الأمريكية والانجليزية والألمانية» طبعة جامعة أكسفورد فى عام ١٩٣٠ .

أما الرجل من طراز (ب) فقد يكون مهوش التفكير إلى حدما ، بيد أن تهويش التفكير شرط سابق لاستقلال الرأى . وقد يكون فعلا رأيا مستقلا مبتكرا فى أولى مراحله . وربما لا يتجاوز ـ بطبيعة الحال ـ مرحلة التهويش ، ولكن حينما يعتب علىّ زملائى لأنى أمنح درجة (ا) لأكثر مما يجبون ، ويصموننى برقة القلب ، أقول اننى لا أود أن ينسب إلى أننى كنت الأستاذ الذى ثبط الهمة لدى شاب ذى موهبة ناشئة » .

(٤)

٢٥ من مارس ١٩٣٥

تناولت الشاى مع الأستاذ هوايتهد وزوجه فى كمبردج . ولم يثمر بعد شجر الجميز الذى يمتد فى صفين على طول طريق (مموريال درايف) ، ولكن شمس الربيع الباكر قد أرسلت ضوءها الذهبي الفاتر ، والهواء برغم برودته الخفيفة ساكن لطيف ، والنهر أزرق صقيل . لايهز سكونه طلبة الكلية بمجاديفهم .

وقدم لنا الشاى فى حجرة جلوسهما . ثم أخرجا مجلدين قديمين من الرسائل ؛ عنوانهما « ثلاثة أجيال من النساء الإنجليزيات » ، مسز جون تيلر ، ومسز ساره أوستن ، والسيدة دف جوردن . جمعتها جانت دف جوردن . وقال الأستاذ :

« أعتقد أن الصورة التى تحصل عليها عن عصر من العصور من الرسائل الخاصة التى كتبها أصحابها تلقائيا ودون التفكير فى نشرها ، أصدق من الصورة التى تحصل عليها من القصص فى ذلك العصر وأحسن فى أكثر الحالات مما تحصل عليه من مؤرخيه » .

وقالت زوجته : « وفى هذا الباب تفضل السيدات الرجال » .

فوافقها قائلا : «أفضل بالتأكيد من المؤلفين الذين يتبادلون الرسائل بنية نشرها فى المستقبل » .

« كان أدمندجوس يشكو من أن الرسائل التى كان يكتبها إليه روبرت لويس ستيفنسن لاتنبئه بشىء مما كان يود أن يعرفه عن صديقه . ولو أنها كانت قطعا من الفن والأدب - مما حفز كارولين ولز إلى تأليف تلك القصة الشعرية التى ردد فيها قوله : لابد أن يظهر المرء بمظهر حسن فيما يُطبع » .

وقرأ الأستاذ جهراً قطعة كتبتها ساره أوستن إلى م . ب . سنت هيلير فى ٧ يولية من عام ١٨٥٦ (الجزء الثانى ، صفحة ٤٢) عن بسمارك فيها تنبؤ يدعو إلى العجب ، قالت :

...لأن هذه الممالك الجرمانية الصغيرة ،التى تحكم حكما يدعو إلى الأعجاب ، لابد أن تختفى ، وسيعم قريباً حكم القوة المسلحة الذى بدأته الثورة الفرنسية والحروب التى اعقبتها . وسوف تهزمكم بسلاحكم تلميذتكم بروسيا . ولن يتردد م . دى بسمارك فى استخدام العنف والخداع والوسائل الوضيعة . وسوف يصبح كفئا على الأقل لكل ماتملكون .أن احرارنا الأغبياء يصرون على رؤية الحرية فى بروسيا ، والاستبداد فى النمسا .ولكن هؤلاء القوم لهم كلمة واحدة . وأسم واحد .

ويؤسفنى أن تنبؤاتى قد صدقت .وسوف يمحو الوحوش الذين لا يعرفون غير قانون القوة الولايات المستقلة للصغيرة ويبتلعونها ابتلاعا .

ثم ألقى الكتاب وقال :

« وقد صدق ذلك كله فى دقة بالغة . ولم يكن مجرد تنبؤ غامض بالكارثة ، وإنما كان تنبؤا بالحوادث محدداً من عضو من الأحرار فى أعلى قمة الحرية فى القرن

التاسع عشر . ان عكس ماحدث فى عام ٤٨ قد وقع ، ولكن قل من أدرك مقدار ما كان ينطوى عليه من جد » .

وعلقت على ذلك بقولى : « أن جانت دف جوردن روس التى جمعت هذه الرسائل تبدو كأنها من معارفنا القدامى . كانت صديقة صغيرة لجورج مرديث ، وهى السيدة فى قصة (الحب الحديث) ، وهى روزجوسلن فى قصة (ايفان هارنجتن) وهى جانت إلسترفى قصة (مغامرات هارى رتشمند) . بيد أن صفاتها اقل جاذبية من صفات اولئك البطلات فى الشعر وفى القصص » .

وسألت مسز هوايتهد قائلة . « ألم تكن لها قصة مع ويدا ؟ »

« كانت تقسو على ذلك الروائى الذى أقام فى شارع بوند . وكانت قطعا إحدى تلك الشخصيات الجبارة فى القرن التاسع عشر بانجلترا التى كانت تفعل ماتشاء ، فيتقبله الناس قبولا حسنا » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن تلك الأسرات الحرة العظيمة لم تكن أبداً قليلة العدد ، وإن تكن فقيرة فى أكثر الحالات ، وكانت تستطيع أن تتجول فى كل مكان فى انجلترا وفى القارة الأوربية ، وتعرف كل من ينتمى إلى حركة التحرير . وكانت الأفكار جواز المرور ، ومازال هذه الحالة قائمة إلى حد ما » .

فقال : « عندما تقابل رجلا من الأحرار بارزا ، فانك عادة تجد من ورائه جماعة منشقة على العقائد السائدة : وكثيراً مايكونون من صغار القوم ، ومن التجار ، ومن إليهم . ولننتقل الآن إلى موضوع آخر : لقد قرأنا لك مقالين بسرور بالغ ، أحدهما بتوقيعك فى مجلة ييل عن سبيليس ، والآخر من غير توقيع فى مجلة جلوب عن حركة هتلر نحو اعادة التسليح ، وقد أبديت فى هذا المقال رأيا معقولا فى الموضوع على مانظن . ولست موسيقيا ، وان تكن زوجى كذلك ، ولكنك استطعت أن تثير اهتمامى بمقالك عن سبيليس إلى درجة قصوى . لقد تناولت تلك

الشخصية الهامة وعرضها فى صيغة جملتها شخصية عالية ، وتناولك للجانب الاجتماعى بتلك اللغة المادية جعل موضوع الدراسة كله حياً » .

« إن أشد ما كان يثيره حسه فى الحديث بيننا أن كلينا كان يعرف (أحاديث مع جيته) لمؤلفه أكرمان من أوله إلى آخره . وكان يرجع إلى هذا الكتاب يستمد منه العون » .

« كنت تقوم بعمل شاق وأنت تجعل من شخصية معينة رجلا عالميا . ويذكرنى ذلك بسيادة الحس الجمالى على الحس الإدارى عند سلسلة الشعوب المتجاورة من البلقان ، بين المانيا وروسيا حتى اسكنديناوة . باعهم فى السياسة قصير ، وباعهم فى الفن طويل . ان تاريخ فنلنده السياسى قصير ، وهى مع ذلك تخرج هذا الفنان العظيم . أما فى انجليا الشرقية ، ذلك الجزء من انجلترا الذى ولدت فيه ونشأت صبيا ، فإن قدراتنا التنفيذية طيبة ، أما قوانا الجمالية فتكاد لاتذكر . أن سواحلنا تواجه الأراضى المنخفضة التى انتقلت النهضة عبرها ، ولكن ما انتقل كان أكثره مما يتصل بالحريات السياسية ، ومن انجليا الشرقية جاء أكثر المستعمرين لانجلترا الجديدة فى بلادكم . أما غرب انجلترا فأكثره نورماندى ، وهو يواجه فرنسا . والتقليد فيه أكثره ملكى من العهد الوسيط ، وكان ملوك بلانتاجنت يتطلعون عبر المانش إلى أقاليمهم الفرنسية فى انجو واكويتين . وكانت جامعة كمبردج قليلة الاهمية إذا قيست إلى أكسفورد لمدة أجيال بعد تأسيسها ، ولا أعتقد أنه من قبيل المصادفة أن يجد شارل الأول اكسفورد الانجليكانية ملكية موالية له ، وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن يكون كروموبل عضوا فى مجلس النواب من كمبردج . إن انجليا الشرقية أكثرها من الدنمارك والسكسون . أما غرب انجلترا ، بين الأراضى المتوسطة وويلز ، فكان أكثره من النورمان الفرنسيين ، وأشد ميلا إلى الجمال فى ذوقه » .

« إذن فانجلترا الجديدة قد ورثت الاتجاه غير الفنى من انجليا الشرقية ؟ »

قال : « إنها سلسلة من الرواسب ، من انجليا الشرقية ، وانجلترا الجديدة ، وغربكم الأوسط . وإن عند أهل الغرب الأوسط شيء أعتقد أنه من الخير لإنجلترا الجديدة إن تظفر منه بنصب أوفر . كما أن بلادكم انجلترا الجديدة لديها شيء من الخير لانجليا الشرقية ان تظفر منه اليوم بنصيب » .

« ما أعجب ماتقول . لقد ذكر دكتور هارفى كشنج شيئاً يكاد يطابق ذلك تمام المطابقة - لو استبعدنا انجليا الشرقية . فى يوم من أيام الآحاد بعد الظهر فى يولية من عام ١٩٣٢ عند روكلاند قبل أن تسمح له هارفارد بالعودة إلى ييل ، كنا نتحدث عن الحماسة ، وكيف أن الميل هنا يتجه إلى احباطها . فقال : لا يمكن أن يؤدى عمل جليل - قديم أو حديث - دون حماسة . وهو شديد الحماسة ، ولم يستطع هذا المجتمع قط أن يثبطها ، ولكنه قادم من الغرب الاوسط ، ولا يمكنك أن تفهمه دون أن تعلم ذلك وقال إنه يعتقد أنه منذ عهد الاستعمار كان المهاجرون الذين وجدوا جو مستعمرة ماسا شوست باى خانقا بعض الشيء ينتقلون إلى كنكتكت وجزيرة رود - هارتفورد، نيوهاڤن ، بروڤدنس - وبالتالى ، كان أولئك الذين يجدون كنكتكت بطيئة بعض الشيء ينتقلون بعد الثورة إلى المستعمرات الغربية فى أوهايو - وهى موطنه . ثم قال إنه لحظ آثار هذه الرحلات الطويلة كذلك فى بلومنجتن وانديانا وفى مواقع أخرى فى أيوا » .

فقال هوايتهد : « أظن أن حقيقة الأمر أن الشعب الحى ينتقل فى المكان وفى غير المكان ، لأن الانسان قد يصطبغ بصبغة الزمان الوقتية ، كما يصطبغ بصبغة المكان المحلية » .

« لا بد أنهم قالوا لك عندما كنت تقطن على طريق ملتن إن إحدى خالات كامرون فوربس قالت — أو قيل أنها قالت — أثناء غيابه الطويل حاكما عاما للفلبين ، انها تأمل ألا يفقد (كام) صلته بملتن ، ولا أشير بذلك إلى أنك تفقد صلتك بها ، ولكن كيف أحسست عندما عدت إلى هنا وسط الحوادث ؟ »

قال : « لقد استنفدنا هذه التجربة . كانت ممتعة لما كنا نمر بها ـ لمدة خمس سنوات ، ولكننا أحسن حالا هنا » .

وأضافت إلى ذلك مسز هوايتهد · « قريبا من أصدقائنا . إن سكنى الريف حينما لا تستطيع المشى أو الخروج أمر سخيف » .

وواصل حديثه قائلا : « أعتقد أنه من الخطأ أن تتشبث بمكان لأنه أمدك بخبرة بهيجة ذات يوم . إنك بذلك إنما تحتفظ بِعلك زائل . لا تتمسك بالقديم لأنه أدخل على نفسك السرور فى وقت من الأوقات . بل إنتقل إلى ما يليه ، إلى الاقليم المجاور ، والخبرة التالية . لقد خلفنا وراءنا سلسلة من المساكن البهيجة ، وكلها آية فى الروعة ، وكان كل منها فى وقت من الأوقات يعنى لنا كل شىء ، ولكننا لا نأسف اليوم على أى منها بعد ما تركناه » .

(٥)

٥ من ابريل ١٩٣٥

كان على الأستاذ هوايتهد أن يحضر اجتماعا لرؤساء الأقسام . ولبثت مسز هوايتهد بانتظاره فى غرفة جلوسها الصغيرة ، التى تطل على فناء راندور هول ، وعلى النهر ، خلال أشجار الجميز التى بدأت الآن تتفتح أزهارها . وكانت كتبها [1] الخاصة هنا فوق الرفوف من سطح الأرض حتى السقف .

قالت : « إن أكثرها مذكرات فرنسية ، فى صفين ، يعلوها سنت سيمون للرجوع إليه . وعندى صنارة أستطيع أن أجذب بها المجلدات . إن فرنسا ـ كما كان يقول أولتى عندما كنت تتناول معنا الشاى فى المرة الأخيرة ـ كان من سوء حظها أن تفقد عددا كبيرا من رجالها الذين كان يرجى لهم أن يكونوا من المفكرين

الأحرار فى ثورتها ، وإلى ذلك يرجع السبب فيما أظن إلى ضعف أدبها فى أوائل القرن التاسع عشر . إننى لم أطق قط قراءته ، ومن أجل هذا آثرت الذكرات والرسائل » .

وعاد الأستاذ فى الموعد الملائم قبل ساعة العشاء ، وانسحبنا إلى المكتبة إلى جوار الموقد لأن هذا المساء من ابريل كان قارص البرودة .

قال الفيلسوف : «إننى أومن أشد الإيمان بأن أسمح للضيوف بالبدء فى الحديث فى الشئون العامة حتى ينفضوا ما لديهم ويكتسبوا حرارة الغرفة » وابتسم ابتسامة عريضة ثم قال : « حتى الجو أو المناخ موضوع ملائم للحديث دائماً » .

وكان من بين الضيوف الأستاذ رالف بارتن برى ، وهو زميل لهوايتهد فى قسم الفلسفة ، ومؤرخ حياة وليم جيمز . ولما كنت طالبا أستمع إلى محاضرات الأستاذ جورج هربرت پامر فى تاريخ الفلسفة ، كان برى ـ وهو حينئذ شاب أسمر ، وسيم الطلعة ـ يقوم بالقاء إحدى محاضرات پامر بين الحين والحين . والآن وقد تجاوز ربيع العمر ، لم يفقد شيئاً من حدة نظرته ، أو سناء طلعته . وجاء متأخرا بعض الشيء ، وقبيل وصوله كان مضيفنا يقول :

« إن الأمم الغربية عندما تقترف أمرا مشينا فهى على الأقل لا تفخر به ، ولكن يظهر أن ألمانيا تنفرد بهذه الصفة . وهى أنه كلما كان العمل بشعا ، إشتدت حماسة الألمان لتأكيد صوابه » .

واتفق رأينا جميعا على أنه بمقدار ما يدافع عنهم أحد الأحرار فى بلد من البلدان ، يخيبون ظنه بالاساءة اليه . وقد حدث لنا ذلك مرارا وتكرارا فى صحيفتنا ما بين عام ١٩١٤ و ١٩١٧ حتى سئمنا » .

وكان على مائدة الطعام هوايتهد وزوجه ، ونورث ، ابنهما ، وكان حينئذ فى

الصف الأعلى من مدرسة هارفارد لإدارة الأعمال على الضفة المقابلة من نهر شارلز، والأستاذ پرى . وبدأ الحديث عن الكحول ، لأن الخادمة قد وضعت قنينة كبرى على المائدة ـ مما أدى إلى إمتعاض مضيفتنا ـ وقد بلغت القنينة من الضخامة أنها كادت أن تخفى بتاتا باقة أزهار الربيع .

وقال هوايتهد : « منذ سنوات عديدة كنا نقطن قرية اعتاد أهلها الشراب ، وقد إمتنعنا عنه بتاتا آملين بذلك أن نضرب لهم مثلا حسنا، وذلك لأن رجال الكنيسة كانوا يشنون حملتهم على تناول الخمور . وكانت النتيجة أننا لاحظنا آثار الشراب على الآخرين عندما كنا ندعى إلى حفلات العشاء . وأخيرا قلت لأحد مضيفىّ :

« أنصت إلى قولى : هل تدرك أنه بالرغم من كثرة الضحك بعدما يتناول كل واحد كأسين من الشمبانيا ، فان النكات لا تنم فى الواقع عن فطنة أو ذكاء ، ولكنكم تحسبونها كذلك ؟ ؛ ولشد ما كان عجبى لأجابته . قال : نعم ، ولكن هذا تعريف للفطنة . أما النكتة فتكون طريفة إذا حسبتها كذلك ! »

وعلقت على ذلك بقولى : « إن كتردج كان يقول إن كل موضوع نكتة حينما يكون الناس فى نشوة » .

فقال نورث : « أجل ، ولكن أليس هناك فارق بين الفطنة والنشوة ؟ عرفت بحارا عجوزا ما رأيته قط صاحيا ولكنه لم يكن سكران . وكان يتحدث كثيرا فى السياسة ، ولكنه يلتزم دائما عمومياتها الكبرى ، دون الخوض فى تفاصيلها . لم يكن ذكيا فطنا فى الواقع ولكن لما كنت أتناول شيئا من الخمر كنت الاحظ أن نكاته فى مسمعى أروع وحكمته أسمى » .

« هل اتضح لكم لماذا يؤثر أهل الشمال الشراب القوى على النبيذ ؟ » .

وكان من رأى هوايتهد أن ذلك لتفادى الأحساس بالبرودة والرطوبة .

« هل يمكن أن يكون ذلك لأن العنب لاينمو فى الشمال ؟ » .

ووافقنى رى قائلا : « إنى أعتقد أن ذلك هو السبب إلى حد كبير » . ثم أضاف قوله : « ولكن تخمر المصير قديم قدم المدنية » .

وداعبه نورث هوايتهد بقوله : « هل تمنى أن الكحول معيار من معايير الحضارة ؟ » .

وأجابه الاستاذ رى بابتسامة مريرة : « لو كان الأمر كذلك لكانت حضارة الولايات المتحدة من نوع شديد الانحطاط فى العقد الثالث من القرن العشرين ! » .

وعلقت على ذلك بقولى : كان النورمان يدمنون الشراب منذ ألف عام . وكان من المألوف فى معاملة العدو أن تنتظر حتى يسكروا جميعا ثم تحرق دارهم بمن فيها . وقد ورد ذكر هذه العادة المستحبة فى كثير من القصص التى امتدت حتى بلغت اسكتلندة »

« ولكن هل كانوا يشربون فى عرض البحر » ؟ .

« كلا ، فيما يبدو » .

« ولكن الملاحين النشطين يستطيعون استبعاد الكحول » .

« كما يستطيعون استبعاد القهوة » .

« ثم هناك توزيع الروم عليهم » .

فقال نورث : « لاتأخذوهم مأخذ الجد . انهم قلة تدعو إلى العطف » .

« ان الأوامر بهذا الصدد فى السفن الانجليزية غاية فى الدقة ... لا يجوز ادمان الشراب فى البحر ، الا فى عيد الميلاد » .

وبذلك الانتقال السريع الذى يحدث فى الحديث ، إنتقل الموضوع من ندرة

الشراب فى البلدان اللاتينية التى تقع جنوبى « خط النبيذ » إلى كفاية الملاحين النسبية فى فنون الملاحة . وقال قائل :

« لابد أنهم كانوا بارعين فى يوم من الايام ، لأن أكثر تلك الرحلات البحرية الجريئة التى تمت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر قام بها البرتغاليون والاسبانيون والايطاليون » .

فقالت مسز هوايتهد : « كان ذلك من زمان بعيد وروت لنا أنها كانت على ظهر باخرة ايطالية اقلعت من نابلى » وقد لقى البحار « الذى كان يقلع السفينة مشقة فى فك حبل زورقه . وصاح القبطان الذى كان يقف قريبا من إحدى الخادمات وطوقها بذراعيه . فصاحت ، وعم الصياح بين الملاحين . واستطاع البحار أن يخلص نفسه ، ولكن بداية الرحلة على هذه الصورة لم تكن قط تدعو إلى الاطمئنان » .

قلت : « إن أردتم مثالا لبراعة البريطانيين فى الملاحة ، فإليكم هذه القصة ، وهى حديثة العهد جدا . وقد رواها صبى نجا من حريق الباخرة مورو كاسل ؛ وهو شاب من فيلادلفيا ، رواها لچون رتشاردز احد اساتذته القدامى فى سنت پول . أمسك بحبل كان معلقا بقضيب الباخرة ؛ وتشبث به أربع ساعات وهو فى شك من التهام النار للحبل ، ثم ماذا حدث ؟ أبحرت السفينتان الأمريكيتان ، ولم تفعلا الاقليلا بل لعلهما لم تفعلا شيئا ؛ ثم ابتعدتا . وأخير عند منبثق الصباح أتت السفينة البريطانية ، ويقول چون أن الصبى الامريكى روى القصة ثلاث مرات دون أن يدرك أنه كان يكرر ما يقول ، وذكر أثر ما اتصف به البحارة الانجليز من كفاية هادئة وتدريب حسن على نفسه . وكانت السفن شديدة التلاصق حتى استطاع أن يسمع طقطقة الاذرعة التى تحمل السفينة وصليل القطع الحديدية . ثم طرق أذنه صوت هادىء رزين انبعث من الضابط الأول ورن فوق سطح الماء وهو

يقول للرجل المسئول عن أحد قوارب النجاة: «مستر هوكنز ، أن قاربك بطىء . اهبط به إلى الماء أيها اللعين »

والظاهر أن هذه القصة قد بعثت فى نفس الأستاذ هوايتهد سرورا شديدا ولكنه قال : « ربما صاح بالأمر — فيما اعتقد — رجل لا تينى شديد الحماسة وحصل على مثل هذه النتيجة »

ثم انتقل الحديث إلى السفن الأمريكية الطويلة السريعة فى القرن التاسع عشر ، أو سفن جلستر للصيد فى القرن العشرين ، حيث بلغ كل طراز منهما قمة الاتقان ، بحيث أصبح عملا فنيا ، حتى حلت محل الأولى سفن تجارية ، وحلت محل الثانية سفن تندفع بقوة الاحتراق الداخلى .

وقال هوايتهد : « اذكر أن الاتقان يسبق التغير دائما ، ويدل على اقتراب نهاية عهد من العهود » .

وانتقل هذا الحوار من مائدة الطعام إلى حجرة الجلوس حيث كنا نتحسى أقداح القهوة ، وعندئذ ذكر مضيفنا « أن القدرة على الاختراع فى أمريكا ليست ابتكارا غير مسبوق كما ينسب إليها هذا الفضل دائما ، ولكنها توجد غالبا فى مخترعات الدرجة الثانية التى تنشر السلعة وتعمم استعمالها » وواصل حديثه قائلا : « إنكم لم تبتكروا السيارة . إنما الفرنسيون هم الذين فعلوا ذلك . أما ما قمتم به فهو تحويرها بحيث تصلح للجماهير » :

« نعم . أوليس الجانب الأكبر من هذه القدرة على الاختراع ينتهى إلى جهاز لنقل الأجسام ، ونقل الأفكار ، ولا ينتهى إلى التفكير نفسه؟ فما رأيك فى التفكير المبتكر ؟ لو كانت هذه الولايات المتحدة منعزلة كقارة اطلانطيق الخرافية ، ماذا كان يبقى لنا لنذكر به ؟ »

فقال هوايتهد : « ان تعميمكم لتعلم القراءة والكتابة ، ورفع مستوى الراحة والرفاهية بين الجماهير يعد فى ظنى من أعظم الأعمال فى تاريخ البشر . فى البلدان القديمة وفى الأزمنة السابقة — حتى فى أحسن الظروف — كانت الثقافة تنتشر بين أفراد طبقة صغيرة عليا فقط ، لاتزيد عن عشرين فى المائة على الأكثر . وأعتقد أن إمداد الجماهير بمستوى من المعيشة ملائم على الأقل يعد خدمة كبرى للمدنية » .

وسألت قائلا : « إن هذا لايعدو مجرد الرفاهية المادية وراحة الناس ، أليس كذلك ؟ » ووافقنى الأستاذ رى .

وقال رى : « إن الفنون الحقيقية هى علوم الجمال ، والعلوم ، والفلسفة : أما ما عدا ذلك فجهود ثانوية ، وليس من الجهود العظمى » .

وصاحت مسز هوايتهد قائلة : «ما أعجبكم أيها الأمريكان ! إنكم دائما تحطون من شأن أنفسكم ! » .

قلت : « إننا لم نبلغ مرحلة النقد لأنفسنا إلا أخيرا فقط . وربما كنا مبالغين فيه .

ولكن لماذا شاعت فى كتبنا الشعبية نغمة الغضب والمرارة والحنق ، فى الوقت الذى زاد فيه توفير الراحة عن أى وقت سابق أو لاحق - من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٩ ؟ ألا تذكر أى أثر أليم تركه ذلك ؟ هل كان ذلك راجعا إلى تبديد أوهامنا بشأن الحرب ، أو إلى احساسنا بعجزنا السياسى المؤقت ؟ لقد وصلت الرفاهية إلى أوساط الصفوف الدنيا من الطبقة الوسطى أو إلى بيوت العمال على صورة راديو ، وعربة رخيصة ، ومظلة من الجلد للمصباح ، وستائر كريتون ، وكرسى وثير ، وأجهزة منزلية توفر العمل . فهل يرجع سبب الغضب

إلى أن الراحة والفراغ قد توفرا لأناس لم يتدربوا على استغلالهما ، ثم حرموا منهما قبل أن يتعلموا طريقة استخدامهما ؟) .

وقال رى لـكى يستفزنى : « إنهم كانوا يتطلعون إلى وقت تزداد فيه أسباب راحتهم المادية وكانوا دائما يترقبون هذه النعمة التى لم تتحقق . فبقوا ساخطين » .

وقالت مسز هوايتهد : « أنتم مستعجلون جدا . لم ينقض من تاريخكم سوى ثلثمائة عام ، وقد انقضى من تاريخ أوربا ثلاثة آلاف » .

« ولـكن الأغريق فى حضارتهم لم ينقض على تاريخهم سوى ثلاثمائة عام »

وهنا تدخل هوايتهيد قائلا : « نعم ، ولـكنهم لم يعبأوا إلا قليلا جدا بمصر وفارس . ولعلك لاحظت ذلك . حقا لقد أقتبسوا بعض مبادىء الحضارة من كريت وميسينى وآسيا الصغرى ، وقليلا من مصر — ولعلك تذكر أن رجال الدين المصريين فى قصة أفلاطون كانوا يقولون لصولون: «أنتم الأغريق لستم الا أطفالا » . أردت أن أقول أنهم صنعوا حضارتهم بأنفسهم. وكانوا — كالأمريكان — على درجة من العنف . وانى لأتخيل المصريين والفرس يقول بعضهم لبعض: «أليس من المؤلم أن يرتـكب كثير من جرائم القتل فى اليونان ؟ لا بد أن يكون المجتمع هناك غير آمن إلى حد مزعج ، بيد أن جرائم القتل لم تعترض انشاء المدنية . ان أكثر الأماكن التى زرتها شبها باليونان — فيما أتخيل — هو اجتماع للعلماء الجامعيين فى شيكاغو! كانت المدينة فوضى ولـكنها تزخر بالحياة . لم يدرس الأغريق خير النماذج التى يمكن الحصول عليها خارج بلادهم ، كانوا يصنعون نماذجهم بأنفسهم . وذلك فى ظنى أقصى مايستطيع امرؤ أن يصنع مما يكون له صفة اغريقية . أما عن قيمة دراسة اللغة فى أصولها ، فانى أعتقد أننا نستطيع أن نستمد من الترجمات أكثر ما فيها من مميزات. ولقد قرأت العهد الجديد فى أصله وأنا شاب ووجدت اليونانية — كلغة — لا تستحق التقدير ،وأفضل منها بكثير الترجمة إلى انجليزية أوائل القرن السابع عشر . ان تسعين فى المائة من هيرودوت العزيز يمكن الحصول عليه من

الترجمة ، وكذلك ستون أو سبعون فى المـائة من ثيد سيديد . بل ان أفلاطون القدس ذاته لا يفقد الكثير فى الترجمة ، ولقد قمت بتدريس كثير من خير محاوراته لفصول متتابعة من الطلبة ، وكثيرا ماسألت نفسى أية قيمة لما تحتويه من آراء تبرر الجهد الذى يبذل فى سبيل تعلم اللغة . وبعدما انقضى الآن أربعون عاما منذ كنت أقرأ اليونانية بطلاقة ، أتناول ترجمة لوب التى تعرض الترجمة الانجليزية فى صفحات مقابلة وبمعاونة معجم ليدل وسكوت أستطيع بوجه عام أن أبين فى أى المواضع يعرّض جوت نفسه للسخرية ، وذلك تقريبا مرة فى كل جملتين . . »

واعترضت زوجه طلاقتيـه المتدفقة بقولها : « هـذا من عمل اكسفورد ياعزيزى أولتى كما تعرف ! » .

وفى خضوع لزوجته خفف من حدة نغمته فى الـكلام وقال: « أجل، ياعزيزتى، ان ما قصدت اليه ، هو أن أبدى شكى فيما يعود من فائدة للطالب المتوسط من إمعان البحث فى دقائق المعنى من الأصول . ان اليونان أنفسهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك . وحينما يقول لى دارسو الاغريقية ، نعم ، ولـكن ما عناه مؤلفنا حقا هو . . فإنهم لا يعاونون بدلالات على ظهور الفـكرة . إنهم يقولون ان أية طريقة أخرى لا تتفق وزماننا . ولست على يقين من ذلك، ولـكننى أرى أن طريقتهم هى التى لا تتفق وزماننا . ان هذا التقيد بالتقاليد الذى ينظر إلى الوراء إنما جاء فى عصر النهضة . ولم يكن من صفات اليونان . وقد عانى قسم الفلسفة الذى أنتمى اليه كثيراً من ذلك بصفة خاصة . ومن أجل هذا حاولت أن أخترع مصطلحات جديدة للأفـكار الجديدة . إن للتفـكير رطانة تعترض سبيل التفـكير نفسه . ولا يقل ذلك فى مساوئه عن رد الفن الأمريكى إلى الآثار القديمة . كان الأمراء فى عهد التصوير العظيم إبان النهضة يشترون الصور التى كانت ترسم فى ذلك الحين ، ولم يشتروا الصور التى رسمت منذ قرون . ولو أن أصحاب الملايين عندكم لم ينفقوا أموالهم

فى جمع روائع الفن لكبار الأساتذة ، وإنما أنفقوها على الصور المعاصرة ، لا تتمشى الفن فى أمريكا . إن جوهر الحياة عندكم هنا فى أمريكا هو أنكم لا تتطلعون إلى الخلق وإنما تتطلعون إلى الأمام . إذا كان تاريخ الفن هو كل ما تريدون إذن لكان مرجع الفضل كله إلى أوروبا ، أما إذا كنتم تريدون إبداعا يتطلع إلى الأمام وجب عليكم أيها الأمريكان أن تعتمدوا على أنفسكم ، وإليكم سوف يرجع الفضل كله » .

وساورنى شك خفيف فى أن الفيلسوف الطبيب كان يميل قليلا إلى الاتجاه الآخر كى يوازن ما عندى من فرط الحماسة للهلينيين . بيد أن اشتغالى باستيعاب هذا الدرس فى صدرى صرفنى عن هذا الشك . وتبادلت معه الفكاهة . وكان يتحدث مع برى عن المعركة التى دارت فى أحد اجتماعات الكلية بشأن الاستفتاء من ضرورة اللاتينية لدرجة البكالوريوس فى الآداب . واجتذب سمعى بغتة اسم (راند) — وهو ادوارد كنرار راند ، الأستاذ البابوى للاتينية فى جامعة هارفارد الذى عرفنى بلايقى وهوراس إبان الدراسة بالجامعة .

وذكر برى « إن كن راند هو الذى ألقى الخطبة الرئيسية دفاعا عن ضرورة اللاتينية ، وكانت خطبة قيمة . وفق فيها الى الحجج الصحيحة . وكان فكها فى مواطن الفكاهة » ، ثم وجه الى هوايتهد قائلا : « وبهذه المناسبة . لقد كان لك ضلع فى هذه المعركة » .

« أنا ؟ » .

« نعم . فقد اقتبس فى حديثه بحرية من إحدى مقالاتك فى (أهداف التربية) » .

« إذن فهو لم يقتبس كل نقاطى ، فليست كلها فى جانب رأيه » .

« من هذه النقاط ما يكفى لتعضيد رأيه ، حتى منينا بالهزيمة المنكرة فى صفوفنا بالفرد . وكان من بين الأعضاء عدد كبير لم يتكلم طويلا ، ولكن

لما لجأوا إلى التصويت — ومنهم شباب ما كنت تتوقع أن ينضموا إلى هذا الجانب من الرأى — صوتوا مع راند — ومعك » .

فقال هوايتهد : « هذا أمر يدعو إلى العجب — إنها محاضرة ألقيتها منذ عدة سنوات » .

قالت مسز هوايتهد : « كانت من خير محاضراتك يا أولتى »..

« نعم ، ولكن . . . » .

وصممت أن أنهى الموضوع فقلت : « ليس الأمر عجيبا جداً يا سيدى . وأنا أقر بذلك .

ومنذ بضعة أسابيع أقيمت فى بيت سام موريسون حفلة عشاء لجمع الذخيرة للدفاع عن اللاتينية . وقد وجدتهم لا يعرفون ذلك الفصل فى مقالك (أهداف التربية) ، فوجهتهم إليه » .

وبدت الدهشة فى وجه رى ، وتكشف له السر ! ولكنى تدبرت ذلك قبل أن أتكلم . ولمع بريق السرور فى عينى هوايتهد . وسواء أرضى أو لم يرض عن النتيجة ، فقد استطاع أن يدرك ما فى الموضوع من فكاهة »..

وكذلك استطاع رى أن يجابه الموقف بما عنده من روح الفكاهة . ولما خرجنا حملنى فى عربة إلى ميدان هارفارد ، حيث افترقنا ، وكل منا يؤكد لزميله استمرار تقديره له .

(٦)

٢٥ من أغسطس ١٩٣٥

تناولت الشاى والعشاء مع آل هوايتهد فى كمبردج ، وقد قرأوا مقال « هلاس والأرواح » ومقال « ممالك الذهب » فى « اكسفورد روندو » التى تخرجها

« نحن الشماليين » ، وكنت قد عرضت هذه الفصول على الأستاذ هوايتهد لأنى اقتبست منه طويلا فى كثير من الوضع ، وبعض اقتباسى من كتبه المنشورة ، وبعضه من حديث ٥ من إبريل ١٩٣٥ ، وقال لى إنه طالع المطبوعات ثلاث مرات ، وكان ذلك نقطة البداية لحديث عام .

قال الأستاذ : « إن اليهود يفتقرون إلى روح الفكاهة بدرجة فريدة » .

واعترضت قائلا : « إنهم فى أمريكا على الأقل يرسلون بعض النكات الطريفة ، ومنها نكات عليهم أنفسهم . وبعض الكوميديين اليهود من أكثر الناس فكاهة على الأرض » .

« نعم ، ولكن فكاهتهم من قبيل التهكم عادة . ويمدهين مثالا للفكاهة اليهودية . إنهم فى ذلك الممر الذى يقع بين إمبراطورية بابل و الإمبراطورية المصرية ، كانوا شعبا فى موقف يائس ؛ يحس أنه لا يظفر بحقوقه . ومن ثم فإن تفكيرهم ثقيل من أوله إلى آخره » .

وسألته : « إذا أخذنا فى اعتبارنا كل الشروح التاريخية المألوفة ، فبماذا نفسر تسلط هذا الفكر العبرى علينا نحن الأوروبيين الشماليين ، لأن هذه هى حالتنا ؟ » .

قال : « الأمر عجيب ، واعتقد أنه يجب أن نذكر أنها نظرة إلى الحياة نفذت عن طريق الرقيق والعمال المأجورين ، وهى نظرتهم التى ترى أن المرء يمكن أن يعيش حياة طبيعية حتى لو كان دون مرتبة الكلاب . وقد لونت هذه النظرة بطبيعة الحال كل ما تلا ذلك من التاريخ الأوروبى ، وهى نظرة أقرب إلى بولس منها إلى المسيح وليس هناك ما يدل على أن بولس قد رأى المسيح قط ، ويبدو أنه كان يعطف بعض الشىء على بيئته . . . » .

وقاطعته مسز هوايتهد بقولها : « نعم ، كأنه أستاذ فى أكسفورد ... » .

« أجل ، وإن المرء ليحسب أن بولس قد توجه إلى الرسل وقال لهم :

« تعالوا حدثوني عن كل ما تذكرون عنه ، وكيف كانت سيرته ؟ ولكنه لم يفعل ذلك ، بل قال: «اجلسوا أمامي وسأحدثكم عن معنى كل ذلك ». يبدو أن المسيح كان أحد أولئك الناس الذين يكتسحون غيرهم ، فتنسب اليه أمور طيبة ، فلما أخذت تلك الطبقات المهضومة تضع برناجاً للحياة يجعل العيش محتملا لهم ، تجمعت حول شخصية المسيح ... ومن عجب أن العنصر الهليني الذى تسرب إلى المسيحية كان علاجا لنفس المشكلة من الطرف الآخر المناقض، أى أن المفكرين الإغريق رأوا أن [القبضة الحديدية] أمر وضيع ، أو « بربرى » كما كانوا يقولون . وباعتبارهم من الأرستقراط رأوا أن الشفقة وحسن المعاملة هما زينة الحياه الدنيا . وائتلف هذان العنصران ، ولكن يجب أن نذكر أن المسيحية أتت الى أوربا عن طريق « الطبقة الدنيا من الكهان ! » .

وسألته : « ألا يدل اتجاه اليهود البغيض على حالة عقلية لم ترتفع إلى مستوى هذا السمو؟ »

« بالتأكيد ، وقد أصبت فى تعريفك للبروتستانتينية فى أمريكا . »

« قلت إنها لا تستند إلى تقاليد قديمة تخفف من وطأتها . »

هذا هو الفارق بينها هنا وفى أوربا . فى انجلترا ــ واعتقد أن ذلك كان بعد تدوين (مسرحية العاصفة) أى بعد عام ١٦١٠ فيما أظن ــ كان الشعب الحى الحساس ، من أصحاب الذوق الفنى ، لا يستمد راحته النفسية من الإبداع الفنى ، وإنما يستمدها من الخبرة الدينية ، لخمسين عاماً بعد ذلك على الأقل . وتلاحظ انحطاطاً ظاهراً فى الفن ، والمهارة ، والشعر (أما الفردوس المفقود لملتن فهى استثناء لا يقاس عليه) حتى بعد حكم الملكة آن . أما الأدب فجيد ، بل عمل عبقرى ، ولكنه لم يبلغ جودته المعهودة ؛ وفى فن المهارة رشاقة ولكن تنقصه القوة . واعتقد أن الخبرة الدينية ينقصها شىء يستمد من التعبير الفني . انها تهز المشاعر ولا تهذبها . وربما كانت تفتقر إلى التدريب الذهنى الذى يكفله التعبير

الفني . عندما يراقب الناس غروباً رائعاً ـ مثلا ـ تثور مشاعرهم ، ولكنهم كذلك يهدأون ، وإذا أضفت إلى ذلك عنصر النظام الذى يدخله الفنان فيما يبدع ، والذى ينبغى كذلك أن يحيط به من يستمتع بالفن ، إذا أضفت ذلك وجدت أن شيئاً من المجهود العقلى يُطلب بالتعاون مع الفنان كى يحدث الأثر . وقد عرفت الكنيسة الكاثوليكية ذلك ، واستطاعت أن تدير أمرها بطريقة أفضل . إن كرسى الاعتراف يهز المشاعر التى يثيرها فى الإنسان تقصيره فى بلوغه أعلى مستوياته ، ثم يهدئها بصرف الناس مطمئنين مرتاحين . ولا أقول أنها تتعرض لسوء الاستعمال ؛ ولكن وازن بينها وبين مذهب كالفن الذى لايطمئن فيه الرجل التائب إلى أنه أصبح واحداً من المقربين إلى الله أو أنه حكم عليه باللعنة الأبدية ، وليس هناك ما يستطيع أن يفعله بهذا الشأن . بل إن الأعمال الطيبة نفسها لن تنجيه فهو « خرقة قذرة » : إن العقيدة هى أن الله عالم بكل شىء ، حكيم ، قادر على كل شىء خلق هذه الدنيا كما أرادها تماماً ، وحتى ما فيها من شر قد سبق تقديره . وبالرغم من أنهم يلقون بضع عبارات يخففون بها من قسوتها ، إلا أن ذلك لا ينقذهم حقيقة من الموقف الصارم الذى زجوا بأنفسهم فيه . »

« ما الفرق ـ فيما تظن ـ بين الخبرة الدينية والخبرة الفنية الذى يجعل الثانية فى كثير من الأحيان على ما يبدو ـ أعنى استجابتنا لصورة من صور الفن أو لشعور من المشاعر الفنية ـ أصح كثيراً من الخبرة الأولى ؟ (بما فيها أيضاً التربية العقلية) . »

« أقول إن الفرق هو هذا . الخبرة الفنية تهدىء كما تثير . والخبرة الدينية تميل إلى أن تترك المرء معلقاً وسط الفضاء . تثور العواطف ولا تُشبع ».

« إن الوقار غير الطبيعى الذى يتصف به الكثيرون من محترفى الدين هو عندى نقطة ضعف فيهم . »

قال : « كنت الاحظ دائماً أن الأشخاص التدينين حقاً ومن الأعماق مغرمون جداً بالفكاهة وإنى لأشك فيمن ليس لديهم فكاهة . إن جهد الوقار لا يحتمل لأنه غير طبيعي . ولعلك تذكر أن الاثينيين كانوا دائماً يقدمون بعد مآسيهم مهرجاً على المسرح . »

« نعم ، وكثيراً ما كان المهرج يسخر من موضوع المسرحية . بل ومن أشخاص المأساة . »

قال : « انني فى كتابى (العلم والعالم الحديث) قد عالجت موضوع « ضرورة الهزل . » وأنزل الكتاب من فوق الرفوف . واطلعنا على ما كتب فى هذا الصدد فى الفصل الثالث عشر ، الذى قرأناه معاً جهاراً .

(هل حقية الأمر أنه ليس هناك أمر من الأمور ، ولا خبرة من الخبرات حسنة كانت أم سيئة ، ولا عقيدة من العقائد ، ولا سبب من الأسباب ، ليس هناك شيء من هذا يبلغ من الجلالة فى حد ذاته ما يكفى لشغل الحياة كلها بحيث لا يبقى مكان للضحك ؟ الضحك هو الذى يذكرنا بأن نظرياتنا ليست سوى محاولة لجعل الوجود مفهوماً ، لكنها بالضرورة لا تعدو أن تكون محاولة . ثم ألا يتدخل ما ليس معقولا وما هو غرزى لكى يحفظ التوازن صحيحاً بطريق الضحك ؟)

وواصل هوايتهد حديثه قائلا : « كثيراً ما يبدو لى أن الرجل الأوربى بلغ أوجه بين عامى ١٤٠٠ و ١٦٠٠ — ومنذ ذلك الحين أثقلنا بالتعقيل تقديرنا للجمال . نحن المتعلمين ثقفنا إحساسنا بالجمال أكثر مما ينبغى ولا ندرك كنه الجمال فى بساطة . ومن الجائز أن يكون الإحساس بالجمال أصدق وأقوى لدى غير المتعلمين منه لدينا . أن بناة الكاتدرائيات الأوائل — حتى النورمان والرومانسك — لم يصوغوا النظريات . إنما كانوا (يبنون) ، كما أن الشعراء انصرفوا إلى عملهم مباشرة أكثر مما نفعل . نحن أبناء اليوم نبالغ فى تعقيد الأمور . إن المكان

الوحيد الذى يتراءى لى أن ازدهاراً عظيماً آخر للثقافة الأوربية قد يظهر فيه هو الغرب الأوسط فى أمريكا ، حيث يمكن أن تكون البداية جديدة ، وأن تنمو الثقافة من أصولها . وقد عالجت فى الفصل الذى كتبته علاجاً معقولا مسألة الفارق بين الأمريكان والأوربيين . لا ينبغى للأمريكان أن يحاكوا الأوربيين . يجب أن يكونوا أنفسهم ، وأن يبدعوا من جديد . إن هذه المحاكاة الأمريكية لأوربا ستفتقر دائما إلى التشويق والحيوية ، شأنها فى ذلك شأن كل المشتقات . وعلى الأمريكيين أن يدرسوا أوربا وأن يعرفوا ما أنجزته من أعمال . ولكن عندما يكون الأمر أمر خلق وابداع ، فبالله انسوا كل ما تم عمله من قبل ، واخلقوا وأبدعوا ! »

قلت : « لا يبقى للمرء فى أغوار الخلق والإبداع شىء يستطيع أن يؤديه . اما الدراسة فقد تمين المرء ، ولكنها لا تنجيه . »

قال : « انها لاتعينه الا اذا تمثلها حتى نسيها وأصبح لا يعيها . وإننا لنجد – كما كتبت مرة – فى أكثر الجامعات التى تدرس الأدب ، أن الدراسة لا تتجه إلى ما ينبغى عمله وإنما تتجه إلى ما تم عمله . وهى لذلك تميل إلى تقديس الماضى واحترامه . وانى لأفزع من تجميد الذكاء الخالق بالتعليم البالغ فى جودته – بالأفكار الساكنة . فيقال للمتعلم : « هذا هو الشىء الصحيح الذى ينبغى لك أن تعرفه » . فذلك قبول سلبى للتعليم المقدس ، دون أية نية للتصرف فيه . وعلى المعلمين أن يحسوا احساساً حاداً بالعيوب الكامنة فى المادة التى تدرس . إن ما يعلمونه قد يفتقر كل الافتقار إلى عناصر التغذية الضرورية . عليهم أن يحذروا مادتهم وأن يعلموا تلاميذهم أن يحذروها . إن التعليم اذا تجمد ، فقل عليه السلام . إن أقسام هذه الكليات سوف تحتاج إلى التعليم . والخطر فى أن تتجمد التربية ، فيظن « أن هذا وذاك هو الصحيح الذى تجب معرفته » وإن حدث ذلك مات التفكير . لشد ما أضيق بالغرور الذى ألمسه فى بعض ألوان الحديث

الذى يدور بين زملائى ، ذلك الحديث الذى يرسلونه فى ازدراء قائلين بأن النظرية لا تجود اذا [اختبرت نصف اختبار] فحسب . وأنه لابد من جمع الحقائق فى دقة بالغة . كما أضيق كذلك بابتعاد الجامعة عن الحياة العملية : ولا أقصد ابتعادها عن الحكومة الفدرالية وحكومة الولاية فحسب . وإنما كذلك إبتعادها عن الشئون المحلية البلدية . إن وظيفة كبرى تنتظر الجامعات الأمريكية . وذلك أن عدنوا العمل : أو على الأصح أن يحملوا رجال الأعمال على أن يمدنوا أنفسهم باستخدام نفوذهم فى شئون الحياة العملية ، فيمدنوا وظائفهم الاجتماعية . ولا يكفى أن يجمعوا الثروة بهذه الطريقة أو بتلك ، ثم يتبرعون بعد ذلك لإحدى الكليات أو المستشفيات . إنما ينبغى أن يكون (الدافع) فى جمع الثروة استخدامها فى غرض اجتماعى انشائى . »

« وهل يستطيع الرجل الذى يندفع بدافع الإيثار أن يجمع ثروة ما ؟ » .

« الأرجح أنها تنفق عند جمعها . إنما قصدت أن القانون قد تمدن ـ فعل ذلك اليونان والرومان وجستنيان وغيرهم ـ وتخلص الطب من السحر ، وتخلصت التربية من الدجل ، وقد آن للعمل أن يعرف وظيفته الاجتماعية . لأن أمريكا ـ إن أرادت أن تتمدن ـ فلا سبيل لها إلى ذلك (فى الوقت الحاضر على الأقل) إلا عن طريق طبقة رجال الأعمال ، الذين يملكون النفوذ والعمليات الاقتصادية . ولست بحاجة إلى أن أذكر لك أن هناك محاولات كثيرة لتحقيق ذلك ، فى كلية هارفارد والمدارس العليا على هذا الجانب من نهر شارلز ، وهناك محاولات فى مدرسة هارفارد الجديدة لإدارة الأعمال على الجانب الآخر من النهر . ولكنها محاولات تسودها روح الاستعلاء وانعدام الخيال ، ولو أن الجامعات الأمريكية عرفت واجبها لتناولت العمل بين يديها وعلمته قواعد الأخلاق ومستويات المهنة العالية » .

ثم قال إن من رأيه أن تفسير التاريخ بالعامل الاقتصادى طريقة معيبة جدا ،

وإن محاولة الأسكندر توحيد العالم بإدخال الحضارة الهلينية فى شرق آسيا – « وبرغم أنه أصاب نجاحا ، وخلف من بعده فوضى » – حتى هذه المحاولة بجهود أنبل وعامل أفعل .

وتحدثنا فى السبب الذى أدى إلى تفوق الطبقة الوسطى بهذه الدرجة المؤسفة ، وكان من رأيه أن ذلك راجع إلى أنهم نخبة ممتازة نجحت فى حياتها لأنها جديرة بوظيفة محدودة – هى وظيفة خلق العمل المربح – فى عصر معين ، وإن لم يكونوا فى الواقع فئة ممتازة ، ولكنهم طبقة ذات موهبة تدفع بها الظروف المتقلبة إلى أعلى . « أما فى انجلترا فإن هذه الطبقة عند ما يعتريها شعور صادق بالخروج على التقاليد الدينيـــــة ، تتحول إلى طائفة من الناس لها قيمتها ، ولها أهمية تاريخية قصوى » .

« هل تنقسم الطبقة الوسطى إلى فئتين : إحداها تتأثر بالعاطفة الدينية أو بالإحساس بالجمال – الذى يخفف من وطأة وظيفتهم الاقتصادية – والأخرى تلك التى تتأثر أساسا « بدوافع الملكية » أو لعلها تتأثر بهذه الدوافع وحدها ؟ . »

« نعم . وأظن ذلك يفسر لنا الحقيقة . وقد وجد أن الطبقة الأرستقراطية وطبقة العمال فى انجلترا بينهما قدر كبير مشترك ، وتفاهم متبادل ، أكثر مما بين إحدى هاتين الطبقتين والطبقة الوسطى . إنهما يتعارفان عن طريق الرياضة ، وكلاهما أقرب إلى الواقع وإلى الارتباط بالأرض . وأعتقد أن طبقتكم الوسطى هنا فى أمريكا أعلى وأقوى أثرا من مثيلتها لدينا . ولا أحسب أن حركة اتحادات العمال عندكم مسئولة من الناحية السياسية أو تستطيع أن تستولى على الحكم . أما الأرستقراطية بالمعنى الأوربى الذى يقصد طبقة مسئولة حاكمة ، فلا وجود لها عندكم بطبيعة الحال » .

« إن كلمة الأرستقراطية فى هذه البلاد ممقوتة . فى الغرب الأوسط ، عند ما كنت

صبيا ، كانت كثيرا ما تقرن بسمك القد . فقد انتقلت هذه الفكرة إلى هناك من انجلترا الجديدة وهى تقصد بوسطن بصفة خاصة . يبدو لى أن أرستقراط انجلترا الجديدة ، إذا أطلقنا عليهم هذه الصفة قد فقدوا ، أو تخلوا عن قيادتهم ، واستوردوا جموعا حاشدة من الأوربيين الجنوبيين يعملون لهم ، ولما خافوا كثرتهم وفلقهم وقوتهم الكامنة ، أصابهم الذعر ، وتخلوا عن محاولة الحكم . وتحول أصحاب الأصل الطيب منهم إلى دكارة وأساتذة ، ولكن كثرتهم تعيش على المال الوروث وعلى المركز الأجتماعى » .

فقال : « إن الأرستقراطية التى تنفض قيادتها تنهى وجودها . لأن المسوغ الوحيد لبقائها هو توليها القيادة . إن أفراد الطبقات العليا من الأمريكان فى بوسطن وانجلترا الجديدة من أرق من قابلت من الناس . انهم مثقفون جذابون . ولكن لما تدفق المهاجرون الى هنا من أوربا فى القرن التاسع عشر ، لم يفعلوا لهم شيئا سوى العطف البشرى فى بعض صوره . وترتب على ذلك بعد جيلين ـ لما زاد المهاجرون عنهم فى العدد والأصوات ـ ان وجدوا أنفسهم من الناحية السياسية تحت رحمة أناس لا يشعرون نحوهم او نحو مؤسساتهم بالولاء » وبعد لحظة قال : « ان عائلات التجار المنشقين على تقاليد الدين تزاوجت مع الأرستقراط الإنجليز ملاك الأراضى فى القرن التاسع عشر فبعثت جدية خلقية فى طبقة الأرستقراط لا أظن انه قد سبق وجودها فى التاريخ » .

وكنت فى بداية المساء قد لاحظت مثلا من رقة قلب هوايتهد ويقظته : وكان يتحدث عن الكاثولكية . وانخفض صوته وهو يقول : « ان عقلنا كاثوليكى ونحن نكرس حياتنا للكاثوليكية » وكان نص ما قال :

« ان الأناجيل الجملة من تفكير قوم أقوياء : إن الحواريين يجمعون الحنطة يوم السبت ، يزجرهم حاكم القرية والمجلس القروى . وهم يجيبون فى خشونة (واخشوشن صوته الى حد الفظاظة) : « وما الخطأ فى ذلك ؟ » ، غير أن الدين

الرسمى الذى يبدأ زهاء القرن الثانى — أعنى التعاليم الكاثوليكية — فلسفة فى الحياة ، وكأنها تصدر عن رجل عاش عيشة منحلة ، وجرب كل شىء ، وكانت له علاقات جنسية مثيرة كثيرة ، ثم ـ على حين بغتة ـ فى سن الخامسة والثلاثين انقلب الى النقيض ، وتخلى عن كل صنوف الاستهتار » .

قلت : « ولماذا تحصر ذلك فى المسيحية الرسمية . ألم تصف لنا بذلك صديقنا العزيز ليو تولستوى ؟ » .

وقال باسما : « ليس الى هذا الحد ! » .

وأدى بنا ذلك إلى موضوع التأليف . قال :

« ان المرء فى الواقع يكتب لقراء يبلغ عددهم نحو العشرة . وربما أعجب بما يكتب آخرون ، هذا أمر واضح ، ولكن اذا اقتنع هؤلاء العشرة رضى الكاتب عن نفسه . لابد من قدر معين من التشجيع » .

وأثرت هذه المشكلة ، وهى : لماذا يستنفد خالق العمل الفنى خبرة الفنان المبدع ، فى حين أن لهذا العمل الفنى قدرة لا حد لها لتكرار إثارة الحس عند المشاهد ؟

قال : « ربما كان ذلك لأن كل الجهود البشرى يوجه نحو غرض من الأغراض ، سواء تحقق أو لم يتحقق ، وهدف الفنان ـ وإن لم يبلغ النتيجة التى كان رجوها برمتها ـ يتحقق إلى حد كبير ، ومن ثم فإن الأمر بالنسبة إليه منته . والنقطة التى ينتهى عندها هى نقطة البداية عند المشاهد » .

« هذا رأى أقبله إجمالا ، ولكنى أرجح أن بيتهوفن وفاجنر وبراهمز وجيته قد رضوا عن أنفسهم الى حد كبير بما أنتجوه فى السمفونية التاسعة ، ترستان) ، بالعزف على الكمان ، أو (فادوست) — ولا أقصد أنهم لم يتمنوا أن يكون العمل أفضل مما انتهى إليه ، ولكنهم استطاعوا أن يحسوا أنه بلغ

من الجودة الحد الذى يستطيعون ، ولم يكن أمامهم بعد ذلك مايزعج خواطرهم » .

وعلى مائدة الطعام تحدثنا عن تدخل الصحافة الأمريكية فى حياة الأفراد الشخصية . قال :

« إن الناشر الإنجليزى يستطيع أن يوجه الخطاب الى جمهور متماسك لا بأس به من ذوى الأذواق ، ممن يسهل الاتصال بهم . ولذلك فان الناس المهتمين بكتاب له قيمة حقيقية يسمعون عنه ، ويكفى عددهم لأن يجعل نشر الكتاب ذا فائدة . أما هنا فان الجمهور صاحب الذوق مشتت على رقعة فسيحة . ولا تزال البلاد قليلة السكان . ولذا فلا مناص للناشرين من إرسال المندوبين شخصياً الى أماكن نائية على مسافات شاسعة . ويبدو أنهم يحسون فى إعلانهم بأنه لابد من أن تكون سمة الكتاب أشد إثارة من الحقيقة . لابد فى أمريكا من اشاعة الحرارة فى كل شىء ، ومن بعث عنصر الإثارة فيه . أن جمهوركم فى حقيقته أكبر من جمهورنا ، ولكنه بالنسبة الى مجموع السكان عندكم أقل منه عندنا بكثير . جمهورنا يبلغ نحوا من خمسة وعشرين ألفا . أما جمهوركم فأكبر عددا ولكنه موزع . ويترتب على ذلك أن ناشرى الصحف خاصة بدلا من أن يخاطبوا نخبة ممتازة تتقبل الروائع ، لا بد لهم من تخفيف المادة وتزويق المقال حتى يمكن توجيهه الى جميع الطبقات ، ويؤدى ذلك الى الهبوط الى القاسم المشترك بين معارف الناس . أضف إلى ذلك أنهم تورطوا فى ارتفاع تكاليف الأنباء ، بحيث أصبحوا يعتمدون على الإعلان للانفاق عليها ، ويضعف ذلك من استقلالهم » .

وتحدثنا كذلك عن الفجوة بين الشباب والشيوخ منذ الحرب . وقيل إنها أقل عمقا بكثير فى انجلترا . وسألته عن رأيه فيما حدث هنا .

فقال : « إن الجيل الذى يبلغ أبناؤه اليوم الخمسين أو مايدانيها كانت نشأته — فيما يبدو لى — شديدة الاضطراب . وإنى حينما أخاطب جمعا من الشباب دون سن الثلاثين ينتابنى شعور بالاحترام القلبى لهم » .

وواصل حديثه قائلا : « وأعتقد أن ذلك راجع الى أن آباءهم قد فقدوا عقائدهم ، ولكنهم ظلوا مصرين على صيغ السلوك البائدة كى يجعلوا أبناءهم (طيبين) ، فى حين أنهم هم أنفسهم لم يعودوا يثقون فى هذه الصيغ البائدة . وقد كشف الأبناء حقيقة الأمر فى النهاية ، فخدعوا آباءهم بدورهم ، فكانت النتيجة خداعا فى خداع . كانوا يعرفون أن دينهم القديم كان فارغا ، ولكنهم لم يخلصوا لأنفسهم ولا لأبنائهم فى هذا . وكان أبناؤهم فى تلك السنين فيما بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين ، فى السن التى يمارس فيها المرء لأول مرة الضرورات الحيوية ، عاطفية و بدنية ، فلبثوا فى جهل تام بالنتائج الاجتماعية التى تترتب على ضروب معينة من السلوك » .

كان يقول ذلك فى طريق عودتنا الى المكتبة بعد تناول العشاء . ولما استقرت رفقتنا ، ألقى أحدهم بسؤال ظل معلقا أمدا طويلا :

« لماذا لبث العلم فى تقدم بخطوات واسعة منذ عام ١٩٠٠ فى حين أن كثيرا من الأمور الأخرى قدأخذ يتراجع ؟ » .

قال : « من الأسباب التقدم العظيم فى علوم الرياضة فيما بين عام ١٧٠٠ وعام ١٩٠٠ فتوافرت به لرجال العلم أداة دقيقة مضبوطة يستكشفون بها عوالمهم الجديدة » .

« ولكن لماذا كان هذا التقدم فى القرنين السالفين ، فى حين أن الرياضة تطورت تطورا كبيرا على أيدى اليونان منذ ستة وعشرين قرناً على الأقل ؟ » .

قال : « كانت مستكشفات الإنسان فى الرياضة قبل ذلك تأتى عن طريق ملاحظة بيئته الطبيعية ، فتتميز بذلك عن التعليل المجرد وتناقضه . لاحظ الإنسان فوق سهول كلديا النجوم تدور ثم تدور ، فاستنبط فكرة الدائرة ، وأخيراً وصل

الى العجلة . ومن ذلك ترى أن العجلة ليست اختراعا واضحا كما يظن . وحتى القرن الخامس عشر حينما وجد الأوربيون أمريكا ، كانت العجلة لا تزال مجهولة فى هذا النصف من الكرة الأرضية . والهندسة — قياس الأرض — قد تطورت على أيدى المصريين بسبب حاجتهم إلى إعادة رسم الحدود التى يمحوها فيضان النيل السنوى » .

ثم قال : « ولكن حدثت فجوة طويلة فيما بين هذه المستكشفات القديمة التى استنبطت من الخبرة المادية ، والمستكشفات التى جاءت فيما بعد ، والتى لم يمكن بلوغها إلا بالتحليل المجرد . كانت طريقة العدد الرومانية ثقيلة غير متقنة ، ولم تصل إلى أوربا طريقة العدد العربية — وهى أسهل فى التناول — حتى القرن الثانى عشر . ولما وصلت إلى أوربا جعلت صورها المبسطة — التى يسهل على المين استيعابها — الرياضة فى متناول عقول أكثر عددا وأشد تنوعا . ولما أشرف القرن السابع عشر على نهايته ، بلغ هذا التقدم — الذى بدأ فى النهضة الإيطالية — قمته عند نيوتن وليبنز ، فتطورت اللوغارتمات وحساب المثلثات والجبر ، وانتهى المهد قطعا باتقان حساب التفاضل والتكامل ، إن لم يكن باختراعه اختراعا . فأصبح الطريق الآن مفتوحا ، منذ عام ١٧٠٠ الى مابعده ، لتلك الجولة فى الرياضة التطبيقية التى أمدت العلماء بوسيلة مركبة حساسة لخلق صيغ فكرية يفسرون بها مدركاتهم للظواهر الحسية » .

فعلقت بقولى : « ولكن مع تقديرنا للتقلبات التاريخية ، وانهيار الإمبراطورية الرومانية ، والعصور المظلمة ، وما إليها . . . لا يزال من العجب أن تحدث تلك النكسة الطويلة بعد تلك البداية المبشرة فى العالم القديم » .

فقال : « ما أكثر البدايات المبشرة ، ثم لا ينفذ منها إلا القليل . وأن تتبع البدايات التى شرعها العلماء بكل ما تفرع منها لتستغرق مائتى عام . ويمكن أن

يتم ذلك على أيدى رجال أقرب فى الحقيقة إلى رجال الصف الثانى ، رجال ذوى عقول ذكية يستطيعون متابعة طرق معينة داخل دائرة محدودة ، ولكنها ليست عقولا مبتكرة . وقد تتسم أعمالهم بطابع الابتكار ، ولكنها محدودة جدا ، فهى قد لا تمثل جزءا من ألف من التجارب . لقد بلغ العلم حدا يستطيع معه أن ينقل هذه السهولة فى البحث . ولكنه بحث ذو قيمة ثانوية . ليس بحاجة إلى رجل مثل شكسبير ليقوم به » .

« هل تريد بذلك أن تقول إن مبدعى العلوم الحقيقيين فى ندرة شكسبير ؟ » .

« إنما أردت أن أقول أن كثيرا من الناس ، ومن بينهم البرزون منهم ، ممن يعدون من العلماء لا يَعْدُون فى الواقع أن يكونوا مجرد تقنيين (أى ماهرين فى الصناعة) إننا لا نظفر بعالم حقا إلا مرة فى كل جيل طويل » .

« وكيف يمكن أن ترتفع الخبرة إلى مستوى الوعى وتنتقل من اللاوعى إلى صيغة فنية ؟ » .

« أنت تتكلم كلاما ممعنا فى التعقل . إنها فى أول الأمر خبرة فنية ، يشتد الإحساس بها — خبرة عاطفية مشوبة بتصورات ذهنية — ثم تتطلب بعد ذلك صياغة فنية معينة .

ومشكلة المبدعين اليوم هو محاولتهم استبدال الفكرة العقلية بالخبرة الفنية . إنهم يفكرون على هذا النحو : « أليس مما يثير الحس أن تعالج هذا الموضوع بهذه الطريقة ، وهى طريقة لم يحاولها أحد من قبل ؟ بيد أن الجدة عديمة الأهمية . وكل ما له أهمية هو عمق الخبرة التى يصدر عنها الفن وصلاحيتها . فان صدرت عن مجرد استدلال منطقى بارع واع كان مقضيا عليها بالفشل . إنك حينئذ تعالج تصورات ثانوية وخبرة ضحلة نسبيا ، انها لا تحمل طابع الحق العميق » .

« كنت منذ برهة تتحدث عن غربنا الأوسط ، وتقول شيئاً عن . . » .

وقاطعني بشدة قائلا :

« كانت ملاحظاتى أن المكان الوحيد الذى أعرف أن الإنسان الأوربى يستطيع حتى الآن أن ينشىء فيه الحضارة على نطاق واسع هو الغرب الأوسط فى أمريكا » .

« بين جبال ابلاش وجبال روكى ؟ » .

« نعم حوض المسيسبى ، على وجه التقريب » .

« ولماذا لا تكون المناطق الساحلية ، على الأطلانطيق والمحيط الهادى ؟ » .

« إنها مجرد ناقلة للثقافة . وثقافتهم أقرب إلى الاشتقاق . أما فى الغرب الأوسط ، فالجو ، والتربة ، والطعام ، كلها ملائمة — وهى عناصر ثلاثة لازمة لازدهار الحضارة . ان محاولات الإنسان الأولى فى الحضارات المدونة فى التاريخ قامت فى الأجواء الحارة حيث يتوافر الطعام ، وحيث تكاد لا تنشأ الحاجة للملبس والمأوى . فقد قامت الحضارة الهندية الى حد كبير على الرز ، كما نشأ مجتمع متمدن فيما بين النهرين على الغلة ، وفى مصر توافر البلح ، وفى أمريكا الوسطى والجنوبية توافر للازانتة والانكا الذرة والموز . بيد أن زيادة السكان ، التى ربما كان السبب فيها رخص الطعام ، هبطت بقيمة العمل وأفسحت الطريق للاستبداد السياسى . وبالرغم من أن الثروة — ومن ثم الفراغ اللازم للثقافة — ربما تنشأ من العمل البخس ، إلا أن ما ينجم عن ذلك من فقدان الحرية يبلد الذهن . وكان من نتيجة ذلك أن مدنيتنا الشمالية فى أوربا ، حيث الجو أشد برودة ، وحيث الحصول على الطعام والملبس والمأوى أكثر مشقة ، وحيث تكاثر الجنس البشرى أقل غزارة — ولكن الفردية أشد وضوحاً — هذه المدنية اجترأت على التفكير العقلى ، وكان التفكير فيها أقل تقيداً بالخرافة الدينية ، فأنتجت أخيراً ذلك المخلوق المتوافر النشاط . المعتمد على نفسه ، وأعنى به الإنسان الأوربى . »

« إن كل نوع من أنواع الإنسان الأوربى تقريباً يوجد فى مكان ما فى غربنا الأوسط »

« بل إن به بيئة بشرية أشد ملاءمة لحضارة جديدة ؛ فالإنسان هناك ليس من سلالة مختارة فحسب ، بل إن أهل الريف والمدن الصغيرة لا يزالون يكوّنون نسبة كبرى إذا قورنوا بسكان المدن — وذلك مما يعاون على نشر الحضارة . إن خير تفكير الإنسان ما يقوم به إما أفراد يقطنون الريف وإما فى جماعات صغيرة ، وإما أولئك الذين نشأوا فى مثل هذه البيئة فى حياتهم الأولى ، ثم عززوا تجاربهم بعد ذلك بالحياة فى المدن : لأن المطلوب هو الاحتكاك بعمليات الطبيعة الأولية إبان سنوات الشباب حينما يكون العقل فى دور التكوين » .

قلت : « لاحظت مراراً عند الموازنة بين أطفال الريف أو أطفال المدن الصغرى ، وأطفال المدن أو الأطفال الذين نشأوا فى الضواحى ، لاحظت أن الصبيان الذين نشأوا فى الريف أكثر إعتماداً على أنفسهم وأوفر مادة . هب أنهم يفقدون وظائفهم : عندئذ تجد ان الشباب من المدينة أو من الضواحى ، الذى ينتمى عادة إلى طبقة الموظفين ، مضطربا ، يشعر بالعجز ، فى حين أن الشباب الريفى يتقبل الموقف ببرودة شديدة . أى عسر أمامه ؟ لقد كان يكسب عيشه بالعمل بيديه ، وهو يستطيع أن يعمل بيديه مرة أخرى إن اقتضت ذلك الضرورة » .

وواصل هوايتهد حديثه قائلا « إن التمدين (حياة المدينة) نقطة ضعف فى كثير من نواحى تفكيرنا الحديث ، وبخاصة فى المشكلات الاجتماعية . إن التفكير مستمد أساساً من المدن ، فى حين أن المدن ربما لاتهتم كثيراً . إن المسرحيات البارعة تكتب للمشاهدين المستهترين فى المدينة ، والشعر الفريد والروايات الشائعة تؤلف عن ساكنى الطرقات المزدحمة ، الذين يبعدون أكثر العام — لسوء حظهم — عن الاتصال بالتربة ، وبالغابات ، والبحار ، والذين ربما لم يقوموا بعمل يدوى شاق يوما واحدا فى حياتهم ، والذين قد لايحسون إلا إحساسا ضعيفا

بتقلبات الجو ذاتها . إنهم محرومون من ذلك النظام الذى يفرضه الاتصال اليومى بنمو المحصولات الطبيعى ، والذى يفرضه القلق الذى ينجم عن خضوع هذه المحصولات لرحمة اهواء الطبيعة . وهم محرومون كذلك من تلك التجربة التى تبعث الطمأنينة فى النفوس ـ ألا وهى جود الطبيعة فى نهاية الأمر » .

وعلقت بقولى : « منذ وقت ليس ببعيد كنت أقرأ المناظر الخاصة بالحانات فى جزئى (هنرى الرابع) . إن هاتين المسرحيتين صدرتا فى أوج عصر إليزابيث بإنجلترا ، ولم يسعنى إلا أن أتأمل دائما جلال اللفظ فيهما ، والمسرحيتان تستمدان مادتهما من الحياة العادية : وكثير من المادة مستمد من الريف ومن حظائر الحيوانات . ولما كانت خبرتى بالحظائر واسعة منذ الطفولة ، أحسست كأن رائحة الحظائر تفوح صادقة من ألفاظ شكسبير . وعلى أية حال فإن مثل هذه الكتابة لابد أن تصدر عن الريف — كما قلت — ولا يمكن أن تصدر عن أى مكان آخر» .

ووافقنى على ذلك هوايتهد قائلا « أجل ، وأعجب من ذلك أنى لا أعتقد أن شكسبير كان يتصيد الألفاظ فى أى موقف من المواقف . هل يمكنك أن تتخيله يقرض طرف قلمه مفكراً فى الكلمة الملائمة ؟ إن لديه من الخصوبة ما يجعل الكلمات تتدفق من تلقاء نفسها — فيما أظن — بمجرد تخيله المنظر واضحاً . ويجب أن تذكر أن هذه القوة العارمة قد سادت إنجلترا كلها فى عهد التيودور . ولو اجتمعنا معا مرة فى كمبردج أود أن أصحبك إلى الحجرة العامة فى كلية ترنتى ففيها ستجد صور موظفى الكلية منذ نشأتها — وقد أسسها هنرى الثامن . ستجد أولا التيودور والاليزابثيين الذين يفيضون حماسة ، ثم البيورتان الأشداء ، ثم أبناء القرن الثامن عشر الذين تدب فيهم الحياة . أما فى القرن التاسع عشر فستجد العالم والرجل المهذب ، وفى القرن العشرين تجد العالم وتفتقد الرجل المهذب ... » .

وامتعضت مسز هوايتهد ، ولكنه لم يعبأ بامتعاضها .

« إن التدريب العقلي الذى اجتازه الملوك التيودور لا بد أن يكون قد هيأ أذهانهم للحكم . ولقد كانت تربية اليزابث أشمل تربية تستطيعها أوربا . كانت تألف اليونانية واللاتينية أثناء زياراتها لجامعات أكسفورد وكمبردج . كانت تقرأ الإغريقية كل صباح مع مربيها ، روجر اسكام ، بادئة نهارها بالنص الإغريقى للكتاب المقدس ، ثم تقرأ بعد ذلك وتترجم مؤلفين قدامى من أمثال سقراط وسوفوكليز وديموستنيز . وكانت تنفق الأصائل فى اللاتينية ، وقد قرأت كل شيشرون تقريبا وجانبا كبيرا من ليفى . ولما وجه اليها السفير البولندى خطابا مهينا باللاتينية ــ وقد أراد أن يسىء اليها ــ ظانا أنها تستطيع أن تفهم ومفترضا أنها لا تستطيع أن ترد عليه بلغته ــ لما فعل ذلك أجابته بكلام مهين فظيع استغرق نصف ساعة ، وكان باللاتينية ! »

(٧)

١٩ من مارس ١٩٣٦

عند تناول العشاء ــ وكنا ثلاثة فقط ــ سألونى رأيى فى المناوشات الأوروبية . قلت : « إنها ليست حربا ــ أو إنها ليست كذلك الآن على الأقل . »

فقال الأستاذ : « إن الدبلوماسية الجرمانية فعالة . إنهم يحسبون أنفسهم أبطالا خياليين . استطاعوا فى عام ١٩١٤ أن يسبقوا العالم بمراحل دون قتال ، ومع ذلك فقد أوجبوا على أنفسهم القتال . وإنى لأتخيل أن رجال الصناعة عندهم قد أدركوا سخف هذا الاتجاه ، ولكنهم خضعوا حينما استطاع رجال الحرب ــ كما حسبوا ــ أن يثبتوا أنها لن تدوم أكثر من ستة أسابيع أو ستة أشهر . وهل يطرأ لك أن نصف قرن من موسيقى ڤاجنر قد يكون له أثر كبير فى وقوع هذه الكارثة ؟ لقد كان أفلاطون يعرف ما يتحدث عنه حينما قال إن « من الموسيقى ما يجافى

الأخلاق » . إنها لا تتمشى مع قواعد الأخلاق . صحبتنى مرة إلى كارمن فتاة صغيرة جميلة كى أستمع إليه فى حفل عيد ميلادها ، ولما انتهى الأداء ، أذهلتنى بسؤالها : « هل كانت كارمن حقا امرأة لطيفة ؟ » إن السؤال لم يطرأ لى من قبل قط .

فالمرء يستمتع بالموسيقى وينبذ أحكامه الخلقية السابقة . والألمان عاطفيون وحساسون للموسيقى . وفاجنر يستهويهم لافتخارهم بمنصرهم . وإنى لأجرؤ على القول بأنه لو أقيمت بإنجلترا سلسلة من الأوبرات الفاخرة المذهلة حقا ، ذات الموسيقى الرائعة والعروض البديعة ممجدة انجلترا من عهد التيودور حتى عام ١٩١٤ ، أقول بأن هذا يستطيع فى جيل واحد أن يحطم العبقرية الإنجليزية فى الحكم الذاتى السياسى » .

ولم أشأ أن أؤمن على هذا بأكثر من قولى : « إن الفكرة تدعو إلى القلق » ولكنى إمعانا فى الصراحة زدت على ذلك قولى : « لعلك تعلم أنى قد حضرت الحفل فى بيروت فى يولية من على ١٩٣٣ ، وكانت الذكرى الخمسين لوفاة ڤاجنر . ولقد حضر الشيطان أيضا ـ . . . جاء هتلر ، وحضر ست حفلات فى ثمانية أيام ، كما حضر الأوبرات الأربع : رنج وميشتر سنجر وپارسفال ، ثم جلس فى مقصورة فاجنر فى فستسبيلهاوس مع فراو وينفرد ، أرملة سيجفرد . وكان قد استولى على الحكم منذ يناير فقط ، وكانت النازية لا تزال فى شهر العسل . جاء واتجه الى ما بين المسرح والمطعم بين صفين من الألمان ، كل واحد منهم يستطيع أن يطعن بخنجر بن جنبيه ويقضى عليه . وكان نضر البشرة ، بنى الشعر ، لا نلحظه إذا مشى فى الطرقات . وقد جلس فى دار الأوبرا ، يوما بعد يوم ، يحضر حفلا فى أثر حفل ، وتعجبت فى ذلك الحين ماذا عساه يستمد من تلك الحفلات ! » .

فقال هوايتهد : « رأينا بعد عام تطهيره الدموى الأول » .

وما دام الفنانون لا يلامون على طريقة استغلال أعمالهم ، فقد تخلينا عن الحديث عن ڤاجنر الى حين .

وبعد العشاء عدنا الى المكتبة . وقد أسدلت فوق النوافذ الستائر الثقيلة السوداء المصنوعة من المخمل ، وكانت نار الحطب تشتعل فى الموقد تملوها مدخنة سوداء .

وكانت مسز هوايتهد فى زيها الاسود والأبيض المعهود ، فبدت أنيقة ممتازة .

وكان هوايتهد يتحدث عن كيفية استكشاف الوهبة ، وعما ينبغى عمله بها بعد استكشافها .

قلت :

« أليس بعض العصور وبعض الحضارات مواتيا لتطور نوع معين من المواهب ؟ ثم أو ليس من المستحب أن نخلق حضارة تلائم جميع أنواع المواهب ؟»

فابتسم فى خبث وقال : « أعتقد أن أقصى ما نتطلب من الحضارة ألا تسحق كل نوع من أنواع المواهب » .

فسألته : « ألست ترى أننا نحن النورديين من النوع الذى يزدهر بعد وقت طويل . وإذا لم تعجبك كلمة النورديين (وقد فاحت رائحتها على أيدى بعض الناس) فلنستبدل بها الأوربيين الشماليين — ألسنا ننضج أبطأ مما ينضج غيرنا ؟ فى حداثتنا على الأقل نرى الأحداث اليهود قادرين على التفوق علينا تفوقا ساحقا » .

ووافقانى على هذا الرأى ، وأخذنا نبحث فى النضج المبكر برهة من الوقت .

قال هوايتهد : « ولكنك حينما تلتقى بهم وهم طلاب ، يشق عليك أن

تعرف أى العوائق تفرضها عليهم كى تسوّى بين اتجاه أولئك الذين يبكرون فى نضجهم وبين العقول التى ربما كانت أشد عمقاً ، ولكنها تنضج أشد منها بطئاً . إنك بحاجة إلى أن تعرف الطالب أولا بنفسك ، ثم أنت بحاجة بعد ذلك إلى أن تعرف ما يرى الآخرون فى قدراته ، وأنت بعدئذ بحاجة إلى أن تعرف أولئك الآخرين كى تدرك لماذا يرون فيه رأياً معيناً » .

فسألته : « ألا ترى أن البحث العلمى فى ألمانيا برغم طول باعه فى الدرس وبرغم عمقه ، متخلفا بعض الشىء فى البداهة ذات الخيال البعيد ؟ »

قال : يستطيع البحث العلمى (الذى يستند إلى دراسة القديم) أن يوجه إلى نفسه ثلاثة أسئلة : أولا « ماذا كان يعنى بالضبط مؤلف من المؤلفين القدامى عندما كتب بضعة ألفاظ بعينها ، وماذا بالضبط كانت تعنى تلك الكلمات لمعاصريه ؟ » (وذلك ما كان البحث العلمى يقوم به على نطاق واسع خلال القرن التاسع عشر) ثم يسأل نفسه بعد ذلك : ما هى وأين توجد تلك الومضات التى تدل على البداهة فى عمل عبقرى من العباقرة يرتفع به عن زمانه إلى جميع الأزمان ؟ » — تلك الومضات التى تكون دائماً شاذة فى زمانها ، بمعنى أنها لا ترتبط بزمان من الأزمنة (وهذا ميدان لا يجول فيه الدارسون الباحثون كثيراً ، وهو مجال قلما يجد البحث العلمى نفسه فيه مطمئناً) . وأخيراً هذا السؤال « كيف نستطيع أن نخلد وأن ننشر هذه الومضات العبقرية النادرة التى ارتفعت فيها الإنسانية عن نفسها ، كما لم تفعل فى أى مجال آخر ؟ » .

« إن الدراسة الإنجليزية الكلاسيكية تفضل فى هذا دراستنا . فى العقد الأول من القرن الحالى كان عندنا هنا فى هارڤارد جماعة من خيار الأساتذة وبخاصة فى قسم الدراسات اليونانية . وكان هربرت ويرسمث حينئذ حجة فى ايسكلس . وقد ألحقونى بهذا القسم أربع سنوات . وسررت بهذا اللحاق — فدرست الشعر والتاريخ والفلسفة والدراما . ولكنى لم أبدأ فى فهم ما تعنيه الأفكار الهلينية العظيمة إلا بعد اثنى عشر عاماً ، وكان من وجهونى هذه الوجهة هم مرى

ولفنجستون وزيرن وكورنفورد وكاسون وزمرتهم . وقد ترد علىّ بقولك إنى بذلك قد أوضحت قضيتى وإنى كنت بحاجة إلى اثنى عشر عاماً أو أربعة عشر عاماً أخرى ، لأنى من الذين لا ينضجون إلا بعد وقت طويل جداً . بيد أن نفس الشىء قد حدث لغيرى ممن أعرف . »

وأخذوا ينقبون عن نماذج للنضج المبكر بين الأوربيين الشماليين . فذكروا كيتس وشيلى بطبيعة الحال ، ثم موزار ومندلسن. بيد أن هوايتهد كان يعتقد أنه بالرغم من كونهم نماذج شائقة ، إلا أنه لا يصح أن نعدهم ممثلين لغيرهم ، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى أن من خصائص الموسيقى والشعر العجيبة أنهما يبلغان حد الإجادة على أيدى الشباب . »

ثم باغتنى بحدة سائلا :

« أين ملحنوكم الأمريكان ، برغم حبكم العنيف للموسيقى ؟ »

وكانت العبارة التى صيغ بها السؤال تدعو إلى الحيرة . لأنه لو كان لدينا ملحنون من مستوى الألمان العظام ، غير منازعين ، ما وجه إلى السؤال . وكان ما جادت به قريحتى للرد عليه هو أن هذا الفن ـ فن تلحين السمفونيات ، التى تطور فى القارة الأوربية فى القرنين أو الثلاثة قرون الماضية ، دخل أمريكا بعد ما بلغ قمة التعقيد . ومن ثم فإن ملحنينا بدلا من أن يبدأوا من حيث بدأ الأوربيون ـ فى بساطة ـ بدأوا بالتعقيد ، وحاولوا أن يزيدوه تعقيداً . وربما كان من سبق الأوان أن نحكم أكان ذلك نجاحاً أو فشلا .

(٨)

٨ من مايو ١٩٣٦

تناولت العشاء مع آل هوايتهد . وقد أمعنا فى فصل الربيع إلى درجة لا يستحب فيها المسير على الأقدام من ميدان هارفارد إلى النهر . وأزهرت أشجار

الدردار ، واخضرت بقاع العشب الصغير أمام بيت هكس ، ذلك المسكن الريفى الأبيض الخشبي ذى السقف المنحنى ، الذى كان مقراً للجنرال اسرائيل بتنام أثناء حصار بوسطن فى عامى ١٧٧٥و١٧٧٦ . وقد أبعد الآن عن مكانه الأول وأصبح مكتبة دار كيركلاند . ثم ظهر بعد ذلك المدخل المقوس لبيت كيركلاند ذاته ، ذلك المدخل الضخم الرسمى بما فيه من أبواب حديدية مثبتة فى واجهة من الطوب الأحمر على طراز عصر النهضة . وبدت بعد ذلك على رأس زاوية تقاطع شارع بويلسطن وموريال درايف واجهة أخرى من طراز عصر النهضة ، وهى واجهة المكتبة بدار اليوت ، التى تعترض نوافذها التى تتجه غرباً أعمدة قصيرة بيضاء .

وقد اخضرت كذلك شواطىء النهر ، وازدهرت أشجار الجميز التى تمتد على جانبي موريال درايف . وكان سطح النهر ساكناً لا يهتز كأنه صفحة المرآة . ولا يشق سكونه إلا بضعة ملاحين رسوا منذ برهة عند مرمى نوَل ثم رفعوا سفينتهم إلى أعالى النهر مزمعين السير إزاء الرصيف حتى يبلغوا مرسى القوارب . وانبعث من النهر نسمة باردة تفوح برائحة الماء العذب المستساغة ، التى تنعش الروح كما جاء فى أغنية شوبير .

وكان العشاء فى السابعة ـ أو فى السادسة فعلا ، لأننا دخلنا الآن فيما يسميه الفلاحون « ضوء النهار الضائع » . والضيوف الآخرون نورث ومارجت وشيلا ، وهم الابن وزوجته والحفيدة على التوالى، «ودكتورو الترب. كانون »(١) وزوجه كورنيليا (٢) . وهو رجل من الغرب الأوسط أحمر البشرة بغير

---

(١) دكتور والتر برادفورد كانون ، عالم فى الفسيولوجيا ، ولد فى بريرى دى شين عام ١٨٧١ ، وتخرج فى هارفارد عام ١٨٩٦ ، وحصل على الدكتوراه فى الطب عام ١٩٠٠ ، واشتغل استاذا بمدرسة الطب بهارفارد منذ عام ١٩٠٦ ، وتوفى فى عام ١٩٤٥ .

(٢) كورنيليا جيمس كانون (زوجة دكتور والتربراد فورد كانون)، تشتغل بالتأليف . ولدت بسنت بول عام ١٨٧٦ ، وتخرجت فى راد كليف عام ١٨٩٩ . وحصلت على الدكتوراه من هويتن عام ١٩٤٨ . وقد تزوجت فى ٢٥ من يونية عام ١٩٠١ .

هندام ، ذو صوت عميق ، ساذج ، صريح ، لا يعرف اللذو ، حجة فى موضوعه ، مثقل بألقاب الشرف التى لا تبدو على مظهره . وزوجته شديدة الشبه به ، روحها الفكاهية قوية ، رقيقة ، متعلمة ، بارعة ، ذكية ، لا ترى داعيا للانحياز . ولم تكن هناك حاجة إلى ضياع الوقت فى المقدمات الإجتماعية .

وانعكست على المائده أشعة صفراء منبعثة من الشمس الغاربة ، ممتدة فوق الأسقف والمسلات وقمم الأشجار فى كمبردج ، وكان لها على المائدة بريق الفضة وتلألؤ الزجاج ، وهى ترسل الضوء براقاً فوق أعواد السوسن الصفراء المودعة فى إناء للزهر وسط الغرفة . وكانت مسز كانون على أحد طرفى المائدة ، ومسز هوايتهد على الطرف الآخر .

وتحدث الدكتور كانون عن روسيا وألمانيا والصين حيث كان يقوم بالسياحة ويحضر مؤتمرات طبية فى الصيف الماضى .

وكان إيفان پافلوف ، العالم الروسى (صاحب نظرية رد الفعل المشروط) أحد أصدقائه القدامى . وذكر لنا أن پافلوف — كعادته — كان يعلق على الحوادث العالمية إبان الأيام الأولى للثورة ، وذلك قبل أن يبدأ سلسلة محاضراته العلمية المنتظمة . استدعته التشيكا (وهى الهيئة القديمة التى كانت تقاوم النشاط الناهض للثورة) وبعد ما استجوبوه برهة من الوقت ، أخرج ساعته وقال :

« أرجو المعذرة أيها السادة . فإن عندى محاضرة علىَّ أن ألقيها » ، ثم انصرف .

فقال هوايتهد : « إنك تستطيع أن تفعل ذلك لو كنت مثل پافلوف ، وإلا ذهبت إلى سيبريا » .

وقال الدكتور كانون : « إن الدبلوماسيين والقناصل الأجانب فى روسيا ليس

لهم أصدقاء من الروس . فالروس لا يجسرون على أن يُروا وهم يتحدثون مع الموظفين الأجانب . كان بلننجراد قنصل بريطانى يهوى دراسة فنون الفجر الشعبية ، وكان سعيداً عما كان يتوقعه من ذهابه إلى هناك لأن الرجل الروسى الذى يعد حجة فى شئون الفجر يقطن هذه المدينة ويعلم فيها ، ولكنه قضى فيها عامين دون أن يتمكن من مقابلته . وقد أُلقى القبض على صديقين لآل پافلوف ، وهما عالم شاب وزوجته . قبضت عليهما الهيئة التى تقاوم الحركة الناهضة للثورة ، فى وقت كان ولدهما الصغير الذى لا يجاوز السابعة من عمره ، نائما ، وحبسا منفردين دون أن يصرح لأحدهما بالاتصال . وقد شهدهما البواب وهما يبعدان فأخبر آل پافلوف الذين أخذوا الطفل عندهم . وباتصالهم بموسكو استطاعوا إطلاق سراح الأبوين بعد أسبوع ، ولكن الأم كانت محطمة وربما لا تشفى مما أصابها أبداً . وترتب على ذلك حتما أن ينشأ الطفل فى جو استثنائى جداً ، فهو يذهب إلى المدرسة تحت الحراسة ، ولا يجد له زملاء فى اللعب » .

وقال هوايتهد : « إن مطاردة العلماء من أعراض الانحلال الاجتماعى ، وهى تظهر فى أوربا الغربية أيضا بين الحين والحين . إن هؤلاء العلماء فى فزع دائم » .

فقال الدكتور كانون : « هو كذلك . وهم ينقلونه معهم . حينما زارنى پافلوف هنا فى كمبردج كان الجو حاراً رطباً فى يوم من أيام شهر يولية . وكانت أسرتى فى هامبشير الجديدة ، وصحبته إلى ميدان هارفارد ، فسألنى : « وأين حارسك ؟ — قلت : ليس عندى حارس ، فأجاب : سيسرق منزلك — قلت : لا أظن ذلك — ولما شاهد عربتى القديمة من طراز فورد فى الفناء الخلفى ، قال : إن سيارتك الجميلة هذه ستسرق قطعا ! قلت : كلا ! فقال : عجباً ! إذن فمستوى الأخلاق فى بوسطن أعلى منه فى نيويورك ! » .

وكان قد سرق منه ألفان وثلاثمائة دولار فى المحطة الضخمة الوسطى فى

نيويورك ، وكان يريد العودة إلى روسيا من هناك في ذلك الحين ، فأرغم على البقاء ضيفاً على مؤسسة روكفلر .

وواصل دكتور كانون حديثه قائلا : « وإبان وجوده هنا ربط في ذهني لفظاً بآخر وفقاً لنظريته المعروفة . وكنا متجهين نحو وودز هول بالقطار ، ورأى رجلا في المقعد الأمامي يطالع صحيفة كان بها عنوان بالخط العريض وردت فيه هذه اللفظة « Fizzle » (ومعناها أزيز) ، فقال شيئاً من « Fitzel » وهو اسم شخص ، ومن ذلك الحين ارتبط في ذهني اسم الشخص بالأزيز » .

ثم أخذ الدكتور يصف حادثاً في روسيا ، وكان قد شاهد رافعة ضخمة تديرها امرأة . « كانت ترفع أطناناً من المدن ، وكأنها ترقد طفلها في الفراش » . وكان واضحاً أنه أشد تسامحاً في حكمه على السوفيت من كثير ممن زاروا دولتهم أخيراً ـ وقد أقر أنها قد رفعت من مستوى عامة الناس .

وقال عن ألمانيا انه التقى بزميل له في المهنة في مُنحنى ذكر له أن روح الجامعات الأمريكية وحريتهم العقلية التي تكونت خلال القرون قد سُحقت سحقاً . « ولم أر في حياتي شخصاً أشد منه حزنا » .

وقص لي : « أن يهودياً شاباً من مشاهير الرجال قد فصل من أستاذيته ـ وعرضت وظيفته على أحد أصدقائي من الألمان . فأجاب بقبولها ولكن بامتعاض شديد . وكان جزاؤه إبعاده عن كل مكتبة وكل معمل في ألمانيا . . . والظاهر أن من رأي النازيين أن الجامعات لا توجد للتقدم العقلي وإنما توجد لتربية « الزملاء » وذلك بقرار صادر من برنارد رست ، وزير الثقافة والتربية في الرايخ الذى يتحكم في الجامعات » .

فسأل هوايتهد : « وكيف ينشأ ذلك في ألمانيا ؟ هل يمثل من يقوم بطلا ـ

البيوت الألمان لأنه يقوم بهذا الطلاء ؟ (وعندهم الكثيرون ممن يقومون بطلاء البيوت !) وهل هذا التجنيد تعبير عن الروح الحربية ، أو عن صغار الرجال ؟ لو أن آل هوهنزلرن قد خلفهم دكتاتور نابليونى لامع لأمكن تفسير ذلك بالروح العسكرية ، إنما الأمر يبدو كأنه أقرب ما يكون إلى ثورة الأغبياء » .

وقال دكتور كانون : « أعتقد أن الشباب هو الذى يرى فى هتلر فرصة للحصول على ما يريدون فى الحياة ، وهم لا يعبأون إلا قليلا أى قيم عليا تتلاشى فى سبيل ذلك وكيف تتلاشى . إن ذوى العقول الممتازة فى الجامعات كثيرا ما يستسلمون بسبب ما يرونه يحدث من حولهم . . . ونحن عندنا الآن جماعة من الشبان مثل هؤلاء ، وللسبب عينه — يغضبهم إنكار الفرص الاقتصادية » .

وقالت مسز كانون : « كما يحدث فى الدنمارك ، حيث ترى حملة الدكتوراه يبيعون أربطة الأحذية فى الطرقات » .

فقال هوايتهد : لست أرى لماذا لا يبيع حملة الدكتوراه أربطة الأحذية انهم يستطيعون أيضا أن يتفكروا فى المشكلات الفلسفية » .

« . . . . . كما كان سبنوزا يصقل العدسات ! »

« هذا عمل أفضل . ولكن خير للناس أن يتعلموا فى المدارس من ألا يتعلموا فيها ، سواء باعوا أربطة الأحذية أم لم يبيعوها » .

قال الدكتور كانون « المشكلة هى أن كثيرا من الأمريكان لا يريدون التعلم من أجل ذاته ، وإنما يريدونه أملا فى الحصول على عمل أفضل » .

وسألت مسز كانون : « ألا نستطيع أن نربى جيلا يرى قيمة التعلم فى ذاته ومن أجل ذاته؟ إن النغمة كلها التى يترنم بها كل الشباب الذى نقابله قد تغيرب فى ست

سنوات،من موسيقى الجاز فى عام ١٩٢٠ إلى اهتمام جدى فى المسائل الاجتماعية » .

واتجه الحديث إلى الوقت البالغ فى طوله الذى يستغرقه الطالب فى التعلم حتى يصبح طبيبا . وقال كانون إن ذلك راجع إلى قرار إليوث الذى يقضى باستبعاد الدراسات الممهدة للطب من مرحلة الآداب الحرة ، وإن كان الطالب باختياره العلوم يستطيع إلى حد ما أن ينقض هذا القرار . أما الشباب الذى يأتى من الجامعات الغربية وهو يحمل بكالوريوس العلوم فإنه يستطيع أن يستغنى عن العامين الأولين فى مدرسة الطب » .

وقالت مسز كانون « إن الشاب عندنا فى سن الثامنة والعشرين ، إذا كان من خريجى كلية الطب ، ماهرا فى الجراحة ، يتقاضى كطبيب امتياز راتبا سخيا يبلغ خمسين دولارا فى الشهر » .

ورأى هوايتهد أن الشاب يجب أن يكون قادرا على أن يبدأ مهنته الطبية فى سن السادسة والعشرين .

وقال : « ان الخيال يكون على أوسعه بين التاسعة عشرة والخامسة والثلاثين . ويسير المرء بعد ذلك إلى حد كبير على الأسلوب الذى مارسه فى هذه الفترة . ويجب أن يبدأ الطبيب عمله ، إبان فورة خياله » .

وقالت : « ألم يكن هدف إليوت — كما كان هدف مستر لول — أن ينقذ كلية الآداب الحرة من أن تنقرض من الصفوف العليا بإقحام الدراسات الإعدادية للمهنة ؟ .

فقال هوايتهد « ان كثيرا من الدراسات الحرة يعطى فى أوربا فى المدارس التى تمهد للجامعة . أما هنا فى هارفارد فلا يزال المستجدون يعاملون كطلاب

الصفوف العليا من الثانوى ، ويمتحنون مرة كل أسبوع للتأكد من أنهم يعملون » .

وسأل دكتور كانون: « هل تذكر تعريف وليام جيمس لمثل هذه الاختبارات؟ قال إنها لا تعدو أن تكون كنفخ المعدة » !

وأغرقنا فى الضحك .

وانتقل الحديث إلى موضوع عداوة الطلاب الشديدة للأساتذة ، وهل لم تخف هذه العداوة فى هارفارد . إن جانبا كبيرا منها لا يزال قائما ، ولكنها آخذة فى التخفف .

وقال نورث: « يبدو أن الطلاب يخجلون من الاعتداء على وقت مدرسيهم — كأن هذا ليس من واجبنا !

وقال أبوه « أو بصراحة ، كأن ذلك ليس ما نؤجر عليه » .

وقالت مسز كانون « إننا لا نستقبلهم فى بيتنا إلا مرتين فى العام » .

وسألت مسز هوايتهد : « وهل يتم ذلك فى مواعيد منظمة » ؟

« كلا . ولكن لمستر كونانت مواعيد منظمة ، ويعتقد آل كونانت أن الحفل يكون كبيرا لو حضره ثلاثون من مجموعة يبلغ عددها ستة آلاف » .

فقال هوايتهد : « إن الرئيس لا يتوقع بالطبع أن يقابل الآلاف الستة . إن الشاى الذى يقدم إن هو إلا إشارة ، وأذكركم أنه إشارة نافعة ، ولكنه يجب أن يبقى إشارة فحسب » .

فقالت مسز هوايتهد : « يحسن أن تكون الحفلات فى المساء ، بعدما ينقضى عمل اليوم » .

فقال نورث : « نسمع فى الكليات الأخرى أن الطلبة الذين يصادقون مدرسيهم يوصمون بالشك فى أنهم يداهنونهم كى يحصلوا على درجات طيبة . »

« هذه عقيدة بدائية آخذة فى الزوال السريع . »

وسأل نورث دكتور كانون مقاطعاً : « هل هناك موت بالسحر ؟ » وهو يعلم بالتأكيد أن الدكتور لابد أن يكون قد تعرض لذلك بالبحث .

ثم تلا ذلك جدل علمى عن التجارب الموجّهة . وهلا يدس الرجل الذى يدعى الطب السم لفريسته سراً . وذُكرت فى هذا الصدد أمثلة من استراليا ومن الآداب القديمة . ثم أثيرت بعد ذلك هذه المشكلة : كيف وصل الأمريكان الأصليون إلى هذه القارة من آسيا ـ هل كان ذلك عبر مضيق بهرنج أو عبر المحيط الهادى من جزيرة إلى جزيرة . وروت مسز كانون أنها شاهدت طفلا حديث الولادة فى بلاد المغول وعليه العلامات المغولية الزرقاء (التى يتميز بها هذا الجنس) فى عجزه ـ وقالت ان الطفل قد اختير اعتباطاً بوساطة ممرضة فى بيت من بيوت الأمومة ـ وأضافت إلى ذلك أن رجلا دنماركياً أنجب طفلا من امرأة من الإسكيمو فى جرينلاند ولاحظ الظاهرة عينها فى الوليد . إنها سرطان ما تختفى بعد الميلاد .

ولما كان أحد من الحاضرين ـ فيما يبدو ـ لم يعرف عن أى طريق جاء الأمريكيون الأوائل ، استؤنف الموضوع بعد ذلك بأيام عندما حضر دكتور ألفرد فنسنت كِدَر الأثرى الذى استكشف كهوف السكن فى الجنوب الغربى من أمريكا وفى أطلال مايا فى غابات جواتيمالا .

وقال : « لا جدال فى أنهم أتوا عبر مضيق بهرنج منذ نحو خمسة وعشرين ألف عام ، إما على الأرض التى جفت فى نهاية العصر الجليدى ، أو فوق الجليد . أو فى الزوارق . أما الحيوانات فقد دخلت جميعها على الأقدام . وتسألون عن

العلامة المغولية » وتناول الموضوع باهتمام قائلا « كنت فى حفل عشاء فى جواتيمالا وسألنى أحدهم عنها . وقالت مضيفتنا : إن طاهيتى قد أنجبت طفلا منذ وقت قريب . وصفقت بيديها (وهى الطريقة التى ينادون بها الخدم هناك) وقالت : اطلبوا إلى ماريا أن تأتى بطفلها ، وجىء بالطفل ، وقلبته المضيفة ظهراً عن بطن وأطلعتنا على عجزه الصغير . وتأكدنا جميعاً من وجود [العلامة] ! »

* * *

وأسدلت ستائر النوافذ بإحكام فى المكتبة وأوقدت الشموع . واكتسب المكان بهجة من أوانى الزهر التى ملئت بأعواد التفاح ذات الزهر القرنفلى والأبيض ، وسرنى أن أشاهد وجه هوايتهد الرصين الوضاء ، فى هذه المكتبة البسيطة الجميلة ، مكتبة الرجل الباحث . وبدا عليه قليل من الإجهاد .

وبينما كنا نتناول القهوة تحدث دكتور كانون عن رحلته فى الصين . وكان أحد تلاميذه السابقين وزيرا للصحة العمومية فى حكومة نانكنج ، وقد شجعه على التحدث إلى مائتى طالب يعرفون الإنجليزية .

« وعند رؤية تماثيل بوذا البرونزية التى تخلو من التعبير ثبطت همتى ، ولكنى رويت قصة فكاهية ، فضحكوا جميعا . وجرى ريقى طبيعيا مرة أخرى ، وشعرت بالإطمئنان . أن الصينيين يضحكون من نفس النكات التى نضحك منها ، أما مايضحك اليابانيين فلا يعرفه غير اليابانيين » .

وقال هوايتهد : « لقد أديتم أيها الأمريكان خدمة كبرى للغة الإنجليزية بفضلكم فى مقاومة الحمية الصينية التى تعادى الأجانب » .

« هذا ما وجدت . ان كلياتنا تبعث إلى الصين بالفوج فى أثر الفوج من الصينيين بعد تعلمهم اللغة الإنجليزية » .

« لقد قدر للإنجليزية أن تكون اللغة العالمية الثانية » .

وسأل الدكتور : « هل كان بوسع شكسبير أن يفهم اللغة التى نستعملها على لوحات الإعلانات فى القطارات التى تسير تحت الأرض ؟ وفيها ألفاظ مثل فيتامين وجرثومة ، وما شابههما ؟ »

وقال نورث : « لا شك أنه كان يلتقطها فى لمح البصر . وكان بالتأكيد يسر من العامية الأمريكية » .

وأضاف أبوه قائلا : « وبخاصة الزوائد منها . هلا يمكنكم أن تتخيلوه وهو يؤلف منظرا عن فولستاف وهو يندفع إلى حانة (بورهد) صائحا :جى ، هو يز !»

ـ وهى زوائد من اللغة الأمريكية لا معنى لها ـ « ورأى بعضنا أن العامية كانت تصبح بذلك أقوى » .

وسأل الدكتور :

« لماذا نحرم استخدام لفظة « ملمون » (وهى تقابل لفظة فى اللغة العامية الإنجليزية لا يستحب ذكرها) ؟ » .

« لأنها مشتقة من القسم بالعذراء » .

قال نورث : « ولكن التحريم لا يشمل كل أنحاء العالم » .

وعاد دكتور كانون إلى موضوع ما يضحك الصينيين قائلا : « عند ما كان هوارد لندسى يمثل مسرحية (الحياة مع الأدب) فى فيلادلفيا ، عاد شاب صينى بعد الأداء يشكره على قضاء سهرة ممتعة . وتعجب لندسى لذلك ، إذ ماذا عسى أن يكون هناك فى حياة عائلة أمريكية مما يثير الضحك فى رجل من الصين ؟ وسأله لندسى: « أرجو أن تذكر لى ما أشد ما أمتعك فى المسرحية ؟ » ـ فأجاب الصينى قائلا : « ان أبى كان يحدث مثل هذا الضجيج تماما ساعة الإفطار » .

(٩)

١٩ من إبريل ١٩٣٧ .

ظهرت فى خلال عام واحد ثلاث روايات عن بوسطن ، آخرها المنبر رقم ٨ من تأليف جوزيف دنين ، وهى دراسة سياسة البلدية ، مع رسم صورة حية لمارتن لومازنى ، وهو رجل وسط بين أن يكون حارسا أو قيصرا فى « الحى الغربى » . وتعالج الرواية الأحياء الثلاثة الأخرى بالمدينة التى لم تتعرض لها رواية المرحوم جورج أبلى من تأليف جون ماركاند ، وإن لم تغفلها كل الأغفال . أما قصة سانتايانا « آخر بيوريتانى » ـ وهى أوسع انتشارا ـ فكأنها تنتهى قبل القصتين الأخريين بفترة مداها عشرون عاما .

وكان هوايتهد وزوجه يقرءان فى ذلك الحين قصة المنبر رقم ٨ فسألونى :

« هل تعرف المؤلف » ؟

« بالتأكيد . وهو مراسل لجريدة جلوب » .

فتهافتا سائلين : « زدنا به علما . كم يبلغ من العمر » ؟ ـ « حوالى الأربعين » « هل ولد فى بوسطن » ؟ ـ « نعم ويعرفها جيدا من الداخل » .

فقال هوايتهد وهو يبتسم مبتهجا : « لقد عرفنا ذلك من قبل ، ولكنا لم ندر أهو قد أرغم على الإحساس بالقلق على أثر صدور كتابه » .

« قابلته بالأمس فى الطابق العاوى فى حجرة المراسلين ووجهت إليه نفس السؤال . فأجابنى بقوله « فى أماكن معينة تستطيع أن تقدرها أضطر إلى الإحساس

كأنى رجل أبرص فى مرحلة من المرض متقدمة ، بيد أن ذلك لم يؤثر ألبتة فى ظهوره بمظهر اليائس » .

وقالت مسز هوايتهد ، وهى أرلندية الأصل : « ما أشد فهمه لشعبه » .

« هذا بعض تهمته . بيد أن الحكم ليس إجماعيا » .

« هل تستطيع أن تأتى به إلينا ؟ وهل يقبل الحضور ؟ »

« لا أستطيع أن أتعهد بذلك ـ ولكنى سوف أحاول » .

وكان الأمر أيسر مما توقعت . وذهبنا . وكان هوايتهد وزوجه كلاهما فى أحسن حالاتهما : فاستقبلانا أحسن استقبال : فى لطف ورعاية واشتياق ولكن فى غير استسلام . وسرنى أن أرى چو وقد خرج على ما اعتاد من عدم المبالاة . وبدأ بدفاع عام عن طريقته : وعملا على هدمها بطريقة سقراط فى السؤال : أية خدمة يؤديها الرئيس ؟ هل هو وكيل لتوريد العمال ؟ نعم . هل يدخل الروح الإنسانية فى العنبر ؟ نعم . ولكن أليست الجزية التى يفرضها باهظة ؟ وما رأيك فى بيع أصواتهم بعد أن يدفعوا له مبلغا نظير توفير العمل لهم ؟ هل تستطيع أن تدافع عن الغرض من ذلك ؟

وتناول دنين الموضوع بروح طيبة . وكان فوق ذلك يعلم أن مسز هوايتهد تعطف عليه ، وأنها وزوجها يعجبان بالرواية . وأخذ يشرح لهم مشكلات المجتمع فى اتحادات العمال ، الاتحادات التى تتوقع أن يبيعها وكلاؤها المنتجون ، الذين يبررون عملهم هذا صراحة بحجة مقتضيات السياسة ، كما شرح لهم مشكلات المجتمع فى الأعمال التجارية والمالية والصحافة . وقال إنه جو عام يحيط بنا .

وانتقل الحديث إلى الموازنة بين النظام الاجتماعى فى أمريكا والنظام الاجتماعى فى انجلترا . وقال هوايتهد : « عندنا فى انجلترا نظام فاسد ورثناه من نظام الإقطاع فى العصور الوسطى ، وهو نظام ما كان ينبغى أن يطبق ، ولكنه فى الواقع يطبق بنجاح لا بأس به . فى حين أنكم هنا فى أمريكا لديكم نظام ممتاز ينبغى أن يطبق بنجاح تام ، ولكنه فى الواقع يطبق تطبيقا فاشلا إلى حد ما » .

قلت : « إن نظامكم يبقى كل فرد ينتمى إلى طبقة معينة فى طبقته ، ولكنه بذلك يمدها بقادة قادرين ، مما يرفع الطبقة كلها تدريجا . أما نظامنا فيسمح للفرد بالارتفاع ، ولكنه بذلك يحرم طبقته من قادتها الطبيعيين ، ويترتب على ذلك أن تبقى الطبقة منحطة فى جملتها » .

فقال دنين : « هذا أمر عجيب لم يطرأ على ذهنى من قبل » .

« ولم يطرأ على ذهنى أنا أيضا يا جوزيف حتى نبهنى إليه مستر هوايتهد منذ عام . ومن ذلك الحين وأنا أفكر فيه » .

وعاد هوايتهد إلى الحديث ، وقال عن نظام الطبقات فى انجلترا :

« هناك ، حيث يكون إدراك نظام الطبقات أشد وضوحا ، وحيث السكان يتجانسون نسبيا ، يعرف الناس أنهم يكونون محل الرعاية عند الاضطرار . وأنا أتحدث الآن عن القرية والريف حيث يأخذ العمدة والأعيان على عواتقهم مسئوليات معينة عن الأمراض والكوارث . وبعد الإصلاحات التى تمت عام ١٨٣٠ مثلا حينما استولت الطبقات المتوسطة على الحكم قبل ذلك بوقت قصير ، نرى أن هذه الطبقات الحاكمة قد زادت قانون الفقراء قسوة وشدة ، فى حين أن أعيان المحافظين (التورى) هم الذين وقفوا موقف المقاومة العنيفة ، بالرغم من أن القانون الجديد يخفف من أعبائهم المالية عن ذى قبل . أما هنا فالأجور قد تكون أكثر ارتفاعا ، وقد تتوافر الراحة ، وتسير الأمور فى يسر ، غير أن ما يترتب على

انحراف الحظ أو على كارثة من الـكوارث مزعج شنيع . وكأن مصير الفقراء لا يهم أى إنسان ... إن فوارق الطبقات فى انجلترا قد تكون صارمة فى العلاقات الاجتماعية الـكبرى ، ولـكنها هينة لينة فى العلاقات الصغرى ... إن أبناء الفلاحين يلعبون الـكريكت مع أبناء الأعيان . أما هنا فان أخوتنا السطحية بين الطبقات تعمى أبصارنا عن الفجوات العميقة التى تفصل بينها ، حتى يقع الصدام » .

وقال دنين : « وما رأيك فى اتجاه أصحاب الأعمال فى متشجن إلى القضاء حينما تقاعد العمال مضربين ؟ » .

« طبقا للقانون الحالى هذا النوع من الإضراب غير شرعى على الأرجح . إنهم إذا مكثوا فى المبانى وامتنعوا عن العمل كانوا معتدين على ملك غيرهم . أما إذا كان ذلك هو الموقف الذى ينبغى أن يقفه القانون فأمر آخر . إن التطبيق الصارم للفكرة الحالية عن حقوق الملـكية (وهى أن يفعل المرء ما يريد بما علك) قد ينفع فى الوحدات الصغيرة كالحوانيت الـكائنة بشارع جبل أوبرن التى لا تستخدم إلا نفرا قليلا من الناس . أما فى الصناعات الجماعية الـكبرى التى تؤثر فى حياة مئات الألوف من الناس ، فيبدو لى أن الحـكومة يجب أن تتدخل — إذا دعت الضرورة — للتوجيه كى تضمن سير الإدارة فى خدمة مصالح الـكثيرين . وخير وسيلة لذلك — فى ظنى — أن تترك الإدارة الفعلية للعمل الحر حتى لا تفسد عامل الابتـكار ، ولا تمارس الحـكومة إلا سلطة عامة للاشراف وتلك هى الفرصة الوحيدة التى تـكفل للنظام الرأسمالى البقاء فيما أحسب .

« وليست الرأسمالية كما تعلم قديمة العهد ، فتاريخها يرجع إلى ثلثمائة عام على الأكثر . وكثيرا ما يتراءى لى أن آدم سمث قد أخطأ فى حقنا خطأ جسيما حينما أكد الدافع الاقتصادى . إنه دافع هام من غير شك . فنحن لا بد أن نأكل ،

ولكنه ليس مهما إلى هذا الحد . تصوروا ما يمكن أداؤه بتأكيد دوافع تقدير الجمال ، إنى أستطيع أن أتصور حال مجتمع ـ حتى فى ظل نظامنا القائم ـ لا يساور فيه القلق الشديد نفوس الآباء على كسب أبنائهم للمال الوافر ـ كما نراهم الآن . أعنى ذلك الكفاح الذى يرهق الأعصاب الذى يقوم به الآباء الأمريكان فى سبيل رفع أبنائهم بأى ثمن إلى طبقة أعلى من طبقتهم من حيث الدخل ، وهو ما يعبرون عنه بقولهم « أن أعطى أبنائى فرصة أحسن من فرصتى » : ولكن فرصة لأى غرض ؟ هل لزيادة المال أو للأمور التى تتعلق بالذهن والروح ؟ .

« وأستطيع أن أتصور مجتمعا ـ حتى فى ظل الرأسمالية ـ لا يهم فيه كثيرا إن كانت الأسرة تملك مالا كثيرا : فهناك الموسيقى ـ والفرق المجانية ، وهناك الراديو . (وأنا أعرف أن الراديو لا يبلغ من الجودة مبلغ صالات الموسيقى ، فالمرء لا يريد أن تأتيه الموسيقى من اتجاه واحد وصادرة عن صندوق ، وإنما يريدها محيطة له من كل جانب . وبرغم ذلك فالراديو يصلنا بالموسيقى الجيدة) وهناك الصالات التى يعرض فيها الناس مسرحياتهم ، وهناك المحاضرات ، والندوات التى ربما يعرض المشكلة فيها متحدث فى الإذاعة ثم يتابع النقاش فيها جمهور المستمعين ، وهناك روايات السينما التى تقدمها الدولة للجمهور بالمجان على نطاق واسع حقا ، وهناك الملاعب لضروب الرياضة المختلفة ، وهناك المكتبات العامة التى هى لدينا بالفعل . وأرجو الا تفهم من ذلك أنى أعنى أن يكون ذلك كله سمجا ثقيلا . فهناك الموسيقى الخفيفة ، والمباريات الودية ، والمسرحيات المسلية . ولكن فى مثل هذه الظروف يستطيع الفرد العادى أن يكفل لنفسه حياة طيبة دون مال كثير » .

وفى الساعة العاشرة قدمت لنا الشكلاته الساخنة ، وانصرفنا فى منتصف الساعة الحادية عشرة . واضطر دنين إلى العودة إلى مكتب صحيفة (جلوب) ، ولما كان قد نقلنى إلى كمبردج فى عربته ، فقد حملنى فى العودة إلى تل بيكن .

وفى الطريق كنا نتناقش فى رواية (المرحوم چورج آبلى) التى اطلع عليها كلانا ، وفى خلال المناقشة أخذنا نسرد ما افدناه فى هذا المساء .

وقال دفين : « إننى لا أعرف أين أبحث عن أى أمر فى مدينة بوسطن بعيداً عن آل آبلى »

« إنهم — رغم هذا — أصدقاء أوفياء لكثير من آل آبلى ، ويقدرون صفاتهم الطيبة »

ووافقنى على ذلك چوزيف فى شىء من شرود الذهن قائلا : « ربما كان ذلك صحيحاً . ثم انفجر — والسيارة تندفع بنا — قائلا : « إننى خرجت بهذه النتيجة : إنه مستعد للاجابة عن كل سؤال ، أكثر من أى شخص آخر قابلته فى حياتى . ألم تقل لى إن مادته كانت فى الأصل علوم الرياضة ؟ »

« نعم »

فقال دفين : « إنه عالم بالرياضيات العليا »

(١٠)

٢٤ من مايو ١٩٢٧

أخذت السماء تصفو فى الأصيل بعد هطول الأمطار ، وانبعثت رائحة عطرية من الحشائش وأوراق الأشجار المبتلة التى تقع على طريق مموريال درايف بحذاء شاطىء النهر وقد اخضارت وأينعت فى شهر مايو .

وكان آل هوايتهد بالانتظار فى مكتبتهم بمسكنهم فى راندور هول . وكانت خادمتهم قد استأجزت هذا اليوم ، وكانوا يتضاحكون سروراً من استمتاعهم بخدمة أنفسهم .

« ... ونحن نؤدي هذه الخدمات بطريقة سيئة على وجه الجملة ، ونجهدنا اجهاداً تاما . »

وكان مستر هوايتهد يرتدى حلة المساء الرسمية ، ذات السترة السوداء مدببة الذيل والياقة المنشية . وربما كان يقوم ببعض العمل الاكاديمى . وقدم الشاي . ودار الحديث حول موضوع التسامح .

فقال : « ليس هناك تسامح إلا إن كان هناك مايدعو إلى التسامح ، ومعنى هذا – من الناحية العملية – على الأرجح أن هناك من الأمور ما يعده أكثر الناس غير محتمل » .

« هل تعتقد أن روح الاضطهاد خاصة بالديانات ، أو ببعض الديانات دون بعضها الآخر ؟ لم تكن الهلينية – مثلا – دين اضطهاد . »

فقال هوايتهد : «إن الدين يحمل نوعين من الناس يسيران فى اتجاهين متضادين تماما . انه يحمل الرفقاء ذوى القلوب الرقيقة نحو الرأفة والعدالة ، وهو يحمل محبي الاضطهاد نحو القسوة الشيطانية وإيذاء الناس . ولو أن ذلك ربما يبرر فى ظاهره ما نادى به القرن الثامن عشر – عصر التعقل – من دعوى أن الدين ليس إلا خدعة منظمة كبرى ، ولعنة على الجنس البشرى . إلا أنه أبعد ما يكون عن الحقيقة . إنه يحوى هذين الوجهين ، ويستهوى وجه الشر منهما الافراد المستعدين للكراهية الصميمة . بيد أن ما يحدث فعلا هو أنك عند إثارة الطبائع حتى أغوارها السحيقة بشأن المشكلات التى تحس أهميتها الساحقة ، عندئذ تثير فيها الشر كما تثير فيها الخير – أوالطين والماء . وليس من المهم كثيرا – فيما يبدو – أى المذاهب تناشد ، لأن الوجهين يظهران فى جميع المذاهب ... »

« ان بعض الديانات تزعم لنفسها نظاما محكما ، نظاما يقوم للاجابة عن كل سؤال ، فهل لذلك علاقة بالأمر ؟ »

« ألا يتضمن تعريفى السابق الرد على هذا الى درجة كبيرة ؟ ذلك أن الناس حينما تقوى مشاعرهم إزاء موضوع ما ، يعتبرون أمثال هذه الأسئلة مما لا يقبل الجدل . »

« وهل الابتعاد المحايد عن مثل هذا الجدل (على فرض السماح به) يعد موقفا ذا أثر فعال ؟ »

« يتوقف ذلك على ما تعنى بذى أثر فعال ، إننا نتوقع من الأفراد ، ذوى الأثر الفعال ، أن يعملوا ، والعمل يؤدى بك إلى النزاع »

« إن ذلك يقودنا إلى موضوع العنف . أذكر أنك قلت فى كتابك (مغامرات الأفكار) — وهو من الكتب القلائل التى استطعت أن أقرأها على ظهر السفينة — قلت إن المسوغ الوحيد لاستخدام القوة هو تخفيض مقدار القوة التى لامناص من استخدامها . »

قال : « لو أن شابا يجعل من نفسه إنسانا مزعجا شيطانيا بصعوده السلم فى هذا البناء وهبوطه منه وهو ثمل ، فيقض بذلك مضجع اثنتى عشرة أسرة تقطن ما به من مساكن ، لو أن شابا فعل ذلك لكتبنا رسالة بشأنه إلى الصحيفة اليومية أو استدعينا البوليس بالتليفون . والتصرف الأول شكوى لينة ، وفى الثانى استخدام للقوة . ولو أصر على عمله لجأنا إلى إبعاده ، وفى ذلك حد من تصرفه » . وابتسم ساخرا ومتشاغلا .

وانتقلنا إلى موضوع عدم المقاومة ، وهل لاتظهر إلا كسلاح أخير لقوم عزل من كل سلاح سواه : فكان ظهورها فى روسيا القيصرية ، والهند البريطانية ، وبين المنادين بالقضاء على الرق فى أمريكا ، ودعاة السلام إبان الحرب ؟ .

وظننتنى مسز هوايتهد بهذا أتحدى السياسة البريطانية الاستعمارية فى الهند ،

فشرعت تسوغها حتى شرحت لها أننا انما أثرنا الموضوع لأهمية السيكولوجية فحسب، وذكرتُ الفصل الوارد فى كتاب « لم أجد سلاما » لصاحبه وب ملر، وما جاء فيه عن التكتل القائم بين المؤمنين بعدم المقاومة فى الهند، ودلالة ذلك على أن عدم المقاومة يزيد ـ فيما يظهر ـ من وحشية المهاجمين. ولما لم يلق هذا الموضوع قبولا بوجه خاص (وهو أمر كان ينبغى لى أن ألم به من قبل) تخلينا عنه لنتحدث فى غيره، وهو كيف تتجه الموهبة فى أشكال المجتمع المختلفة.

فقال هوايتهد : « ان الأرستقراطية ترحب بالموهبة. لم يكن لبرك حسب ولا نسب، ومع ذلك فقد كان يسر الارستقراط أن يضموه إليهم، وكان دائما يظفر بمقعد فى البرلمان، لأنهم كانوا يعرفون أنه من النوابغ. وكانت الملكية ـ كما كان بيت هانوفر طوال تاريخه ـ غير شعبية دون أن ينجم عن ذلك ضرر، إذ كانت تسمح بأن تتولى الحكم جماعة من البرلمانيين بامكانهم دائما أن يهددوا الملوك بأنهم إذا أساءوا السلوك أعيدوا إلى البلاد التى أتوا منها ! ومن ثم انفسح مجال الأعمال الجليلة لأصحاب المواهب. وحتى الطبقات الوسطى كانت صاحبة امتياز حتى الحرب العالمية. كانت كذلك فعلا بالرغم من أننا لم ندركه. وكان أبى على يسر معقول برغم أنه كان قسيسا ريفيا. ومع ذلك دفعت نفقات تعليمى فعلا من اعتمادات التفوق حتى بلغت الجامعة وخلال تعليمى الجامعى. ولم يكن ذلك لعجزنا عن سد النفقات، وإنما كان لأننا لم نطالب بالدفع. أما الآن فقد تغيرت الحال، فالمفروض أن تنفق اعتمادات التفوق ـ فيما اعتقد ـ على الطلبة المحتاجين إليها وحدهم. . . »

وكان التليفون يدق باستمرار. وكانت مسز هوايتهد تنهض بين الحين والحين وتذهب إلى غرفة جلوسها لكى تجيب عليه. ولما عادت أخيرا جلست على ذراع المقعد العميق الذى كان يستوى فيه زوجها وقالت :

« إنه عميد إحدى كليات الشباب فى ماساشوست وزوجه ، وذكرت اسمها ، يؤكدان ضرورة لقائك يا أولتى . فما رأيك فى مساء الخميس ؟ »

« لتناول العشاء ؟ »

« كلا . بل بعد ذلك . لا يجب أن تكون دعوة عشاء . وينبغى أن توفر لنفسك راحتها » .

« إذن فلانظر فى مفكرتى » .

وأخرج من جيبه مفكرة مواعيد صغيرة مصنوعة من الجلد الأسود المذهب الأطراف ، واستطلع صفحاتها .

وقال : « يوم الخميس مناسب » .

« سيدعوك إلى إلقاء محاضرات فى العام المقبل . ويجب أن تكون حازما » ..

« أعرف ذلك » .

« واذكر إنه المانى . وسوف يرغى ويزبد فى الحديث . وعليك أن تلزم الصمت ، وينبغى ألا يغلبك بكثرة الكلام . »

« لن أمكنه من ذلك » .

واتجهت إلىّ وابتسمت لهذا الحوار العائلى . وكان زوجها غاية فى الثبات .

ثم دق التلفون مرة أخرى . وكانت المتحدثة هذه المرة سكرتيرة مدرسة إدارة الأعمال ، وقالت إن أباها ـ وهو قسيس ريفى من مين ـ « يرغب رغبة ملحة فى زيارة هوايتهد » وتذمرت مسز هوايتهد وقالت لزوجها كأنك الإله بنفسه ! (ياللعجب ، هل أنت إله !) . وتقرر قبول الزيارة بيد أن الفتاة اعتذرت عن عدم حضورها شخصيا برغم رجائها فى ذلك .

« لمــاذا اعتذرت ؟ »

« لقد قالت إنها لا تملك ما تأتى به . وهو كلام لا معــنى له ! ويدعو إلى الأسف . ومن أين لها هذا الحظ من شأن نفسها ؟ ؟ »

فقال هوايتهد « إنه (الإحساس بالإثم) وهو أسوأ الكوارث التى حلت بالإنســان » .

وبعد ما انتهى هذا الحديث المائى المعترض ، عدنا إلى النقاش فى الموازنات بين القواعد التى تتحكم فى الأشكال الفنية المختلفة ، وفى الحيل المتنوعة التى لجأ إليها الفنانون للتعليق على موضوعات فنهم ، ومنها أغانى الجوقات فى السرحية الاغريقية ، ومنها تلك الصورة الرمزية التى تراها على مقابر مديتشى والتى رسمها ميشيل انجلو .

وقال هوايتهد : « إنه التاريخ البشرى يتحدث فى الصور الأربع الرابضة ، ولـكن أهل مديشيا لا يفقهون ذلك » .

قلت : « يظهر أن ميشيل انجلو كان يعرف ذلك فى حينه ، فلما قيل إن تمثالى جوليان ولورنزو لا يشبهانهما ، أجاب ميشيل انجلو بقوله : (ومن الذى يدرك ذلك بعد اليوم بعشرة قرون ؟) »

وقال هوايتهد : « أما عن أغانى الجوقات فى المأساة اليونانية ، فهى تحتل مكانتها ، وكأن الشاعر يكف عن الـكلام ، فتبدأ الطبيعة البشرية — وحقائق الحياة العظيمة الأولى — فى التحدث على لسانه . »

« هل من العدل أن نقول — كما يقول الـكثيرون — إن الفـكر العبرى فيه من عناصر الشفقة الإنسانية أكثر مما نجده فى الفـكر الهلينى ؟ »

وكانت إجابته كأنها حديث مروى ، وقد ألقاها فى رفق ولين .

قال : « أعتقد أنه لابد من إضافه هذه الوصية الحادية عشرة : (صادقه دائماً من يخدمك) » .

(١١)

١٧ من مارس ١٩٣٨

يوم العطلة المعتاد احتفالا بجلاء البريطانيين عن بوسطن . غير أن الصحف لا تعطل فى هذا اليوم لأن هناك دائماً استعراضاً ضخماً جنوبى بوسطن ، حيث كانت تصوب مدافع واشنطن من قلعة تيكونديروجا .

وقضيت المساء مع آل هوايتهد . وكان ذلك إثر استيلاء الألمان على النمسا مباشرة ، وكانوا يحسون بالاستياء الشديد . وقال هوايتهد إنه يرى الموقف سيئاً للغاية ، وقالت زوجه إن معناه قيام حرب أخرى عاجلا أو آجلا . وتحدثنا عن تأليف الوزارة البريطانية فقال :

لقد أدارت دفة السيارة الخارجية جماعة من المحافظين (التورى) يريدون السلام ما فى ذلك شك ـ ولكنهم يريدونه لأسباب خاطئة ، يريدونه لكى يحتفظوا بما يملكون . ولست أريد بذلك أن أقول إنهم خائنون » .

قلت : « ليست بهم حاجة إلى ذلك . فإن الطبقات ترى صالح الأمة فى صالحها » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن ذلك يصدق على أغراض العمال كما يصدق على المحافظين » .

وواصل هوايتهد حديثه قائلا : « كان العمال ينادون بنزع السلاح كلما ورد المدفع على لسان متحدث ، ثم بدأنا بعد ذلك مباشرة فى الصدام — كما حدث عندما

شنت إيطاليا حملتها على الحبشة ، فصاحوا قائلين : « إن ذلك ما كان ليحدث لو كنا مسلحين . »

« كنت دائما أتساءل ماذا عسى أن يفعل العمال لو حملوا التبعة على حين غرة . »
فأجابني بقوله : « إن المحافظين والعمال كلاهما كانوا يسيرون إلى منتصف الطريق في سياسة خاطئة . العمال يعارضون التسلح ، والمحافظون يحاولون الصلح مع الدكتاتوريين »

يبدو أن الأمر الوحيد في الديمقراطية مما يستحق الإبقاء عليه هو حرية الفرد»
فعلق على ذلك هوايتهد بقوله : « بل هما أمران . أحدهما حرية الفرد . بيد أن علمك بالتاريخ يذكرك بأن في أعماق المجتمع دائما ضربا من ضروب البؤس : الرق في العالم القديم ، ونظام الإقطاع في العالم الوسيط ، والعمال الصناعيون المأجورون منذ تطور العمل الآلي . وعصرنا هو العصر الأول الذي لا يشوبه العوز المادي إذا نظم هذا الإنتاج الآلي بدرجة معقولة . غير أن روسيا قد خففت من آلام الجماهير على حساب الحرية الفردية ، والفاشيين حطموا الحريات الشخصية دون أن يخففوا في الواقع من وطأة الظروف التي يعانيها الجماهير : إن من واجب الديمقراطية أن تخفف من بؤس الجماهير مع الاحتفاظ بحرية الفرد . »

وهل فيمن نسميهم الأرستقراط فائدة كبرى لنا ؟ »

« لو ظلوا على قيد الحياة . من رأيي أن ترتفع ضريبة الميراث بحيث لا يمكن لأسرة من الارستقراط الكسالى أن تعيش . ولكني لا احبذ تحديد مستوى الدخل . ويجب أن تتوفر للاسرات ذات الثراء حرية التجريب . فإن هواية الغنى في جيل هي حاجة الفقير في الجيل الذي يليه ـ من سيارة رولز رويس الى سيارة فورد . ولولا الأسرات الغنية ما قامت جامعاتكم في أمريكا التي تستند إلى

التبرعات الشخصية .وإنما هى هارفارد ، وبرنستون ، وشيكاغو ، وأمثالها ، التى ترسم الطريق لجامعات الحكومة ، التى لولاها لوقفت جامدة بغير حراك . »

وفى عام التاسعة دق جرس الباب وكانت القادمة جريس دى فريز ، أنيقة ، عالية الروح ، ترتدى زيا أسود اللون ، مثل مسز هوايتهد ، وهولون يلاءمهما كلتيهما . وفى الأسبوع السابق كانت فى نانتكت فتوجهت إلى طرف الحقل حيث قبر زوجها الشاب ثاديوس ، الذى كان رئيساً للتحرير بصحيفة (جلوب) . ولما كانت نانتكت موطن أسرة دى فريز لأجيال أربعة ،فقد ورد ذكرها بإيجاز ، ثم انتقل الحديث إلى ضباب البحر الذى أطبق على الجزيرة ، ثم إلى « برك الندى » فى منخفضات ولتشير ، حيث كان آل هوايتهد يقضون فصل الصيف من كل عام لمدة سنوات . ولما عدنا إلى الحديث فى مهام الموضوعات ، أثرت ملاحظات هوايتهد التى أبداها فى العام الماضى بشأن الأوبرات العظيمة،فصحح ذاكرتى قائلا:

«أنا لا أقول إن ڤاجنر ليس جليلا، أو أنى لم أستمتع به، وإنما أقول إن مثل القوة والمجد الذى يستند إلى التاريخ العنصرى من الميسور جدا أن يساء فهمه ، بل لقد أسيء فهمه فعلا . إن الكفاح والطموح والنشاط البطولى — كل ذلك من الاتجاهات النبيلة ، فيها من النبل ما فى أى إتجاه إنسانى ، ولكنها حينما تنحدر إلى مجرد حب للسيطرة تصبح من الشرور . »

« إننى حينما أطبق رأيك هذا بأن مثل هذه السلسلة من الدرامات الموسيقية كان من الجائز أن تحطم النبوغ السياسى للشعب الانجليزى فى جيل من الأجيال، يقال لى « وما الرأى فى شكسبير ! »

وتعالت الضحكات ، وتبادلوا النكات فيما قلت ، بل واشتركت بنفسى فى هذه النكات .

« فى الصيف الماضى قادونى إلى المسرح التذكارى فى ستراتفورد على نهر آفون لكى أشاهد تمثيل مسرحية (الملك هنرى الخامس) ، وبعد إنقضاء ثلاث ساعات ، امحى ثلاثة قرون من التاريخ ، حتى إنى لم أعد أعبأ إن كنت أمريكيا أو إنجليزيا . قد تقول إنها الموسيقى التى يتلاشى معها الحس الخلقى، ولكنى أقول إن شعر شكسبير قد ينطوى على مثل هذا الخداع . »

ثم أخذنا لفترة ما نتحدث عن سكان المدن الصغرى والضواحى والريف باعتبارهم نماذج بشرية طيبة . ووصفت لنا مسز هوايتهد إمرأة من سياتل ربت أربعة أبناء على كثير من الظرف والرجولة :

قالت : « إنها تتكلم فى التوافه ــ ومع ذلك ففى حديثها غذاء وشفاء »

« وكيف استطاعت ذلك ؟ »

« بما عندها من شفقة ، وما لديها من مرح ، وباحتفاظها بهم فى موطنهم . إنها تأتى إلى هنا ، ونتحدث فى توافه الأمور — وأود لو استمعت إلى وأنا ألوك هذا الكلام — بيد أن ذلك لا يهم . فهذه المرأة طيبة كأحسن ما تكون المرأة الطيبة . »

فصاحت جريس وهى تضحك مسرورة : « كم أود أن أستمع إليك وأنت تتكلمين فى التفاهات ! »

« لا أحب لك ذلك، إن مثل هذا الحديث الآن لا يكون على طبيعته. أما حينما ألتقى بها وجها لوجه فعندئذ يكون صادقا كل الصدق . إننا لا نقول شيئا ما ، ومع ذلك يفهم كل منا الآخر فهما تاما . »

قالت : « هأنتذى على أحسن ما تكونين . ولا تستطيعين أن تكونى أفضل من ذلك . »

وفى العاشرة جىء بعربة الشاى ، وهى تحمل الويسكى ، والسودا والجنجرايل والثلج . وكانت نار الكتل الخشبية تحترق فى الموقد .

وفى نقاش بشأن الحرب قال هوايتهد :

« إن الداعى الى السلام المطلق مواطن سىء . فهناك أوقات لا بد من استخدام القوة فيها لإقامة الحق ، والعدل ، والمثل العليا » .

ودهشت لهذا الرأى ، وعددته تطرفا . هل الأمر بكل هذه البساطة ؟

وغادرتنا جريس قبيل الحادية عشرة بقليل . وكانت مسز هوايتهد قد أخطرتنى بذلك من قبل ، وطلبت إلى أن أبقى معهما قليلا . وفى الحادية عشرة أداروا الراديو ليستمعوا الى الأخبار :

وقال : « لا بد لنا من الاستماع الى الاعلانات مع الأخبار ، فالنبأ يذاع ويعقبه إعلان وهكذا حتى تنتهى النشرة . لقد انحطوا بمستوانا الى درجة كبرى . ولم نعد نعنى بالأمر كثيرا ، أو نعنى به ألبتة . سلنا نجبك عن شراب هكر ومعجون الأسنان الذى يخرجه فرد من الأفراد ويفضل به كل ما سواه من أنواع » .

وأداروا الراديو . وطرق آذاننا صوت من الفضاء يقول : إن شراب سنودلدنكى يصنع من الشعير المحمص .. »

وقال مستر هوايتهد وهو يبتسم ساخرا « هذه هى الأنباء ! إننى لم أعرفه ذلك من قبل . »

ثم تلت ذلك الأنباء . وكانت مزعجة : القاء القنابل على برشلونه ، ووصول تسعة من اللاجئين النمساويين بالطائرة الى انجلترا ، ولما لم يسمح لهم بالدخول تناول أحدهم السم فى المطار ..

ونظروا إلى متسائلين ــ كأننى أعلم من الأمر ما لا يعلمون ! وكل ما استطعت أن أقول هو :

« إن المبالغة تشوه الحقائق .. أطالع فى صحف الصباح وأنا أهبط إلى المدينة العناوين الضخمة التى تملأنى فزعا ، برغم عملى الطويل فى الصحافة . ولكنى حينما أصل إلى مكتبي أعود إلى الصحف مرة أخرى أطالعها بدقة، فيتبدد الخوف والفزع. وقد سارت الأمور على هذا النسق إثنى عشر عاما — وكم من مرة تخيلت أن انفجاراً شديداً سيحدث ، ولكن الانفجار لا يحدث ، والضرر الذى قد ينجم عن ذلك بطبيعة الحال هو أننا قد نفقد فى النهاية الحساسية » .

(١٢)

٢٨ من ابريل سنة ١٩٣٨ .

يوم من أيام الربيع التى تشتد فيها حرارة الصيف فجأة ، وبلغت الحرارة التسعين إلا نصفا بدرجات مقياس الحرارة ، ولا يزال البخار يملأ جو المكاتب ، فأصبت بالاجهاد الشديد . ولم يكن بوسع أى إنسان أو أى أمر أن يغريني بالخروج فى المساء — اللهم إلا آل هوايتهد ، وحتى فى هذه الحالة بلغت دارهم ، ذابلا فى الساعة الثامنة .

وزالت بيننا الكلفة فى ذكر الأسماء ، وأمكننا أن نستغنى عن وليمة المشاء، واستطمنا أن ندير الحديث وحدنا فى عمق وفى سرعة ، وانفتحت النوافذ تستقبل ليل الربيع ، فنسينا كل ما أصابنا من إجهاد أثناء النهار .

وتحدثا عن حياتهما فى جرانتشستر حينما كان هوايتهد زميلا بكلية ترنتى فى كبردج . وكانا يقطنان (بيت مل) القديم ، وأطلعانى على صورة ملونة له فى (المجلة الجغرافية الوطنية) لشهر سبتمبر من عام ١٩٣٦ . وكانت الحياة فى القرية تسير بكل ماعرف عنها من تفكك من عهد شوسر ، وإلى جوارها الجامعة تؤانسها غير آبهة بها . فالقرية أشبه بابن الزنا ـ يخرج إلى الوجود نتيجة(لغلطة

يسيرة) ؛ وكان أهل القرية فى سذاجتهم وحسن نيتهم يعتمدون بغريزتهم على الأعيان ، كما كانوا يفعلون منذ قرون ، والأعيان لا يخيبون رجاءهم ـ فإن فعلوا فقدوا مكانتهم . وإذا أخطأ أحد المرشحين لمجلس النواب من الأحرار فتخلى عن العادة المحلية ، ثارت زوبعة من الغضب ؛ واضطر إلى الإبتعاد تفاديا لسوء العواقب . وكان (بيت مل) جذاباً بهيج المنظر ، ليس به إلا عيب واحد ، هو الفيران . وكانوا يقاومونها بمختلف الطرق ، ولكنها كانت تعود أحياناً ، فيحاربونها حربا شعواء داخل جدران ذلك المسكن القديم . فكانت الحياة فى هذا البيت فى نظر الزائر مثيرة . وكان آل هوايتهد يروون لنا قصتهم مع الفيران ، فكنا نقابل ذلك بالضحك العميق .

ثم انتقلنا أخيراً إلى ما أسماه هوايتهد « تساؤلنا عن (الألغاز التاريخية) : هل أوهن من ذكاء الإسبانيين طردهم اليهود والبروتستانت . ثم أضاف قائلا :

« إن الذهب الذى أتوا به من أمريكا حط من خُلقهم ، كما أن الجيوش التى أرسلوها إلى أوربا استنزفت جانباً من أعز ما لديهم من دماء . لاشك فى أن الجند قد أنجبوا عددا مناسباً من الأطفال ـ ولكن فى غير أسبانيا . بيد أن الكارثة لم تلحق بالفنون .

وهل أجّل طرد الهوجونوت الفرنسيين اشتعال الثورة الفرنسية ؟ »

قال : « ربما كان سبباً فيها » .

« إن ذلك يفسر هجرة الألمان فى عام ٤٨ ، فإنه بعد فشل الثورات ، تدفقت جموع كبيرة من الألمان وجاءت إلى هنا » .

« كان حظكم فيهم حسنا أيها الأمريكان . وأعتقد أنكم ظفرتم بالألمان

الذين لم يستطيعوا العيش فى جو سياسى خانق . ولاحظ أن الهجرة دائما تختار خير العناصر ـ بمعنى من المعانى . لا بد للناس من سبب للانتقال . وقد تختلف الأسباب من دواع خلقية كبرى إلى وكلاء البواخر الذين يستوردون العمل الرخيص من جنوبى أوربا . . . . لو أننا نحن الإنجليز وجدنا مناجم للذهب فى أمريكا الشمالية ، بدلا من الأرض الصالحة للزراعة ومن التجارة ، فربما كان ذلك سبباً فى دمارنا . وحتى فى هذه الحالة ، نجد أن شعبنا فى القرن الثامن عشر شعب غبى إذا قورن بأهل القرن السادس عشر ، بعد أن سحبت الهجرة العناصر النشيطة فى القرن السابع عشر .... وما دمنا نسأل أنفسنا الإجابة عن ألغاز التاريخ ، فإليك واحداً منها: ألم يؤجل بت الصغير انهيار أوربا فى العصر الحاضر وذلك بإشمال حرب لهزيمة نابليون ، أعاد بها إلى الأسرات الحاكمة الواهنة نفوذها لمائة عام ساءت خلالها الأمور الى حد يستعصى على الإصلاح ، وذلك بدلا من أن يترك هذه الأسرات تؤول إلى السقوط الذى تستحقه ؟ ألم تتهيأ الفرصة لبت لكى يصدر قراراً من أهم القرارات التى تؤثر فى تاريخ البشرية ، فأخطأ فى القرار؟ . . . وذلك بأن استمع الى برك وزمرته ، بدلا من أن يستمع إلى الأحرار ؟ »

ولما تقدم المساء قال : « كنت أفكر فى العلاقة بين المهارة الفنية والفن ، وكنت أحاول أن أخرج بنظرية ، لست على يقين من إمكان تأييدها فى جميع الحالات . وتلك النظرية هى أن المهارة الفنية ـ فى المراحل الأولى لفن من الفنون ـ ليست إلا وسيلة من وسائل التعبير عن العقيدة الملتهبة التى تجيش فى صدور الفنانين . وكثيرا ما تكون هذه المهارة على شىء من الخشونة . خذ الكاتدرائيات مثالا : انك تجد فيها شيئا عميقاً يحرك النفوس ، وإلى جانب ذلك تجد شيئا بعيداً عن الإتقان ، ولكنه لا يحط من شأنها . ثم بعد ما ينضج الفن ، وتتقدم فيه

الصناعة ، بحيث يمكن نقلها بالتعليم ، يُنتقى الصبيان الأذكياء الذين يستطيعون أن يتعلموا الصناعة بغير إبطاء ، ويهمل الصبيان أصحاب الأحلام العظيمة . فترى فى العمل أثر المهارة وإتقان الصناعة ، ولكن ينقصه العمق » .

وشرعنا نجول فى مختلف الفنون لإختبار صحة النظرية ... وكان من رأيه أن رفائيل هو أحد هؤلاء الصناع الماهرين الذين يظهرون فى اللحظة التى يبدأ فيها العمق فى الإختفاء ، وأن ملتن مثال آخر لذلك . وأن الأسلوب المتلألىء الزاهى فى الفن القوطى مثال لذلك أيضا .

وقال : « إن الفن القوطى الإنجليزى قد استغرق حوالى أربعة قرون ، من عام ١١٠٠ إلى عام ١٥٠٠ ، ومر بأربعة أساليب متتابعة — الرومانسك ، والإنجليزى القديم ، والمزخرف ، والعمودى ، وكل أسلوب منها دام زهاء قرن من الزمان ، حتى كان القرن السادس عشر حينما بدأ هذا الفن فى التلاشى . وخلال هذه القرون الأربعة كانت تستكشف أوجه جديدة لفكرة المهارة القوطية ، ثم تأخذ هذه الأوجه فى التطور . وكان إمكان التجديد فيها لا ينتهى - فيما يبدو . ولما حل عام ١٥٠٠ بدأ هذا الإمكان فى النفاد ولكنه لم ينفد بتاتا . ثم جاءت بعد ذلك فترة إنصراف شامل . وعاد البناءون إلى أسلوب المهارة عند اليونان والرومان ، وتلك هى « النهضة » واستخدموا هذا الأسلوب لكل غرض فى العالم الحديث من الكنيسة إلى محطة السكة الحديدية . فشهدت لندن كاتدرائية القديس بطرس بدلا من الدير القوطى ، وشهدت نيويورك محطة بنسلفانيا للسكة الحديدية ، وهى منشأة على طراز حمامات كارا كلا فى روما » .

وطبقنا هذه النظرية على فن المأساة الإغريقية ، وتأكدنا من خضوعه لنفس هذه الدورة الحيوية : كانت لإيسكلس معتقدات خلقية مشتعلة ، ولم تزد قدرته الصناعية فى مسرحيته (الفرس) إلا قليلا عن الموال أو الموشح ، ولكننا نجد

هذه القدرة فى (أجاممنون) عظيمة متقدمة . وفى مسرحيات سوفوكليز التى بقيت لنا نجد توازن العصر المتوسط : نجد العقيدة القوية ، ونجد الأفكار التى يعبر عنها بقوة فائقة ، وبمهارة صناعية فائقة فى الوقت ذاته ، مهارة تطلق قوة الأفكار إلى أقصى غاياتها . وتنتمى إلى هذه المجموعة (انتيجون) ومسرحيتى (أوديب). ولما نصل إلى يوريبيدز نجد أن المهارة الصناعية قد باتت مفهومة إلى الحد الذى يمكن من التلاعب بها ؛ .وبالرغم من أن العقيدة القوية ما زالت باقية، وبالرغم من أن الأفكار ما زالت قوية ، فإن الروح السائدة هى روح النقد الذى يشكك ..

ووجدنا أن ما كنا نناقشه فى مجال المهارات الصناعية هو الدورات الحيوية للأشكال الفنية . ويمكن تتبع أمثال هذه الدورات فى فن النحت اليونانى ، وفى التصوير لعهد النهضة ، وفى الموسيقى الحديثة ، التى بدأت منذ ثلاثة قرون واستمرت حتى القرن العشرين ، حتى أمست المهارة الصناعية لتوزيع الموسيقى السمفونى ممرونة إلى الحد الذى يمكن من تعليمها للصبيان الأذكياء . . .

وقد ألقت نظرية هوايتهد هذه فيضاً من الضوء فقلت : « إن بعض هؤلاء الصبيان الأذكياء يقدمون عروضاً تخطف السمع بما فيها من مهارة صناعية فائقة، وضربات تأخذ بالألباب . وهم يستطيعون أن يذهلوا الأهالى بمركبات صوتية لم يسمع مثلها من قبل ، ويستطيعون أن يهزوا قلوب الشيوخ باستخدامهم الكلمات الخبيثة ذات الحروف الأربعة فى تنافر منسجم وانعدام للنغم . ولكنهم لما كانوا لا يؤمنون بشىء فإنهم لا يجدون شيئاً للتعبير عنه . وفنيت الفكرة التى كانت قوية فيما مضى فناء مطلقاً » .

وقال هوايتهد محذراً : « ولكن الفكرة قد تعود إلى البعث . من الأفكار ما استقر دفيناً لمدة قرون ، ثم نهض مرة أخرى ، وأشعل ثورة فى المجتمع الإنسانى . قد تجد صبياً من الصبيان ليس ذكياً فحسب ، يعثر على فكرة ما ،

كان يُظن أنها ماتت من زمان بعيد ، فيعيد إليها الحياة بين يديه . لأنه حينما تتقد شرارة شاب من الشبان عند استكشاف فكرة عظيمة ، لا تهمنا لديه الفكرة المعينة التي اكتشفها ، بمقدار ما يهمنا الوميض الذي تشعله الفكرة في نفسه . فهنا نجد الإحساس بالمغامرة ، وبالجدة ، لأن الفكرة القديمة قد تراءت للبصر من جديد في صورة جديدة . لأن حيوية الفكرة في المغامرة . (والأفكار لاتدوم) ولا بد من صيانتها . حينما تكون الفكرة جديدة تكون عند حفظتها الحماسة ، ويعيشون من أجلها ، بل ويموتون من أجلها إن اقتضى الأمر ذلك . ويستقبل ورثتهم الفكرة ، وربما كانت قوية وناجحة ، ولكنهم لا يرثون التحمس لها ، ومن ثم فإن الفكرة تستقر في منتصف العمر الهادىء ، ثم تدب فيها الشيخوخة ، ثم تموت . بيد أن النظم التي تحاك حولها لا تقف عند حد ، إنها تواصل الإندفاع بقوة القصور الذاتي المكتسب وحدها ، أو تصبح كالفارس الميت محمولا على ظهر جواده » .

ولم يخصص هوايتهد القول في هذا التعميم .

(١٣)

١٧ من يناير ١٩٣٩

أصبح هوايتهد الآن أستاذاً متقاعداً . وقد بلغ التاسعة والسبعين من عمره . ورحل وأسرته منذ تقاعده ـ نظراً لانخفاض الدخل ـ من راندور هول إلى مسكن ذي أربع حجرات في فندق امباسادور بشارع كمبردج . وتطل النوافذ من الطابق الخامس على قمم الأشجار جنوباً . وترى من الناحية الغربية الأفنية الخضراء والأشجار الظليلة ، والدلتا التي تقع فيها تلك الكاتدرائية العلمانية المشيدة من الطوب الأحمر ، موريال هول .

وقد رصت أكثر كتب مكتبته فى هذا السكن . فكانت حجرة الدرس مليئة بالكتب الموضوعة فوق الرفوف التى تحيط بجدران الحجرة الأربعة من الأرض إلى السقف ، لا يقطع اتصالها إلا باب واحد ونافذة واحدة كبرى . وكان بحجرة الطعام ثلاثة جدران أخرى من رفوف الكتب ، وقد رصت فى أناقة بالغة ، حتى أن الرائى لا يحس أنها فى غير موضعها . وحجرة الجلوس فسيحة إلى درجة مقبولة ، وترتيب الأثاث فيها بارع ، مما يترك أثراً طيباً فى النفس ، حتى أن الجالس فيها لا يفتقد الموقد ، برغم عدم وجوده ، إلا قليلا ، فإذا ما دار الحديث لا يفتقده بتاتاً . وجدران السكن — كما كانت فى راندورهول — تصطبغ بلون يكاد يكون أسود ، ولكنه يريح البصر ولا يشيع الكآبة .

ولما لم يعد ممكناً لهما أن يدعوا إلى حفل عشاء ، فقد كانا يدعوان الضيوف إلى ما بعد العشاء للحديث . وقد وصل بسيارته روبرت كننجهام قادماً من اكستر ، وكنا نتناول العشاء فى زى السهرة بدبرچن بارك فى حى السوق ، وهو أمر عادى لأن الرجال والنساء يقصدون هـذا المكان للعشاء قبل ارتياد الأوبرا بالزى الرسمى الكامل ، ويجذبهم إليه أن العشاء فيه أفضل منه فى الفنادق الفاخرة ، وبسعر السوق .

ولما رآنا أحد تلاميذ كننجهام السابقين فى اكستر ، وهو الآن مستجد بهارفارد ، تقدم إلينا ، وتحدث معنا . رأى أستاذه مرتدياً زياً كاملا ويتناول عشاءه فى السوق ، فإلى أين يقصد ؟ وثارت عواطف الشاب وكاد يلتهمه الفضول .

فسأل قائلا : « هل أنت على موعد ؟ »

فأجاب كننجهام : « نعم ، وهو ثقيل » .

وكان يتحرق شوقاً إلى المعرفة . وأخيراً قال كننجهام :

« نحن ذاهبان إلى بيت الأستاذ هوايتهد للحديث معه » .

وعاد إلى نك رشده وصوابه .

ووجدنا عند آل هوايتهد مستر ومسز رتشارد جير ، وهو رئيس لجنة القبول الكلية هارفارد . وهما من فيلادلفيا ، ميولهما الدينية صاحبية . وكان الرجل فيما سبق ناظراً لمدرسة بن تشارتر . وسرعان ما انضم إلينا و . ج . كنستابل أمين قسم الصور بمتحف بوسطن للفنون الجميلة ، الذى التحق به بعد قدومه من المتحف الوطنى للصور بلندن ، وهو رجل انجليزى واسع الخبرة والعلم والثقافة ، رفيق محبب يود المرء أن يراه دائما . وأخيراً جاءت جريس دى فريز ، فى فراء أسود وغمل أسود ، وقد تضاعف لطفها المعهود وروحها العالية عندما تفادت بدخولها برودة الشتاء فى المساء .

وتحدث هوايتهد عن الفروق بين القرنين السابع عشر والثامن عشر فى انجلترا . وكان من رأيه أن الإنجليز فى القرن السابع عشر كانوا أشد عمقا : « كان اهتمامهم السائد بالدين ، مقابل تجرد العقليين فى القرن الثامن عشر من العاطفة والهوى . وهذا التجرد شيء جميل فى تحقيقه ، ولكنه كالمياه الضحلة نسبيا . أما جونسون ، وهو رجل أشد صلابة ، فكان لا يزال فى جوهره مشبعا بروح القرن السابع عشر . ولو أنه التقى بفلتير لما استطاعا أن يتبادلا الحديث طويلا . ومن عيوب القرن الثامن عشر أن كثيرا من أصحاب الجد فى الحياة هاجروا إلى المستعمرات ، مخلفين وراءهم النوع الآخر من الناس لتكون له الكلمة . كان ملوكهم شاحبى اللون ، أشباحا من عهد عودة الملكية إلى جيولف ، أسرتهم المالكة من ملوك مستأنسين يحتفظون بعروشهم بحسن سلوكهم ، وتدير البلاد هيئة من الطبقة الارستقراطية . وكان جورج الثالث هو الملك القوى الوحيد ، ولكنه خلط شئوننا بالمستعمرات الأمريكية خلطا سيئا ، وما كان ينبغى لنا أن نحارب نابليون .

وما الذى كنا نشارك فيه فى ذلك الحين الملكية فى القارة الأوروبية ؟ كان من واجبنا أن نلزم الصمت ونراقبهم » .

وسأل كننجهام : « كم من مظاهر أمثال هذه العهود ـ فيما تحسب ـ ينشأ عن الجماعة ؟ وكم منها ينشأ عن الأفذاذ من الأفراد ؟ » .

« إن الظروف الاجتماعية المحيطة فى عهد من العهود العظيمة لا بد أن تكون قائمة ، بيد أن كثيرا من الأمر ـ إن لم يكن كله ـ يتوقف على فرصة وجود شخصية قوية تدفع هذه الظروف إلى الأمام . فإذا انعدم وجود هذه الشخصية تلاشى فعل الظروف . وكان جون وزلى مثالا لهذه الشخصية . وقد أشعل حماسة إثنين آخرين ، أثارا الكثرة الغالبة من الناس . أما فى الأوقات الناضجة ، فإذا لم تظهر أمثال هذه الشخصيات الفعالة ضاعت الفرصة . ان كثيرا يتوقف على الظهور العارض لرجل عظيم يوجه قدراته نحو حاجات عصره . إنه يعبر عن هذه الحاجات » .

فسأل كننجهام : « ومن فى رأيك أقدر الناس فى إنجلترا اليوم ؟ » .

« طبقة الصناع العليا » .

ولم يدهش بعضنا لهذا الرأى ، غير أن كننجهام ـ وهو صاحب منحة رودس الدراسية سابقا بكلية الملكة فى اكسفورد (عن طريق برنستون) أراد زيادة فى الإيضاح :

فقال : إذن فليسوا هم المقلين ؟ » .

فرد هوايتهد بقوله : «إننى لم أستطع قط أن أقنع أصدقائى إقناعا كافيا بأن المقلين لا يعبرون عن أمتهم . إن أردت أن تسمع صوت الأمة وأن ترقبه وهو

يعمل . قف عند الطرقات الخافية ، واستمع إلى الفئة الهادئة من الطبقة الوسطى والعاملة . أنهم حين يعملون ينزوى العقليون جانبا » .

وقالت مسز هوايتهد فى خفة : « إنهم الفئة ، المحترمة ، وأنا أبجلهم من أجل ذلك . وهم يحيون حياتهم الدينية مرة كل أسبوع » .

فسأل رتشارد جمير قائلا : « ولكن هل يطابع الدين هؤلاء الصناع ؟ . »

فقال هوايتهد وهو يبتسم متلطفا : « إنهم — على العكس — خارجون على تقاليد الدين ، لهم كنيستهم الخاصة ، وأول ما يفكرون فيه هو أن الكنيسة الإنجليزية يجب أن تنحل ، وهذا مما يجعلهم معتدين ! . »

وسألنى من أين يأتى الأحرار الأمريكان أساسا فى ظنى . فأجلت الإجابة ، وسألته : لماذا نرى الأطباء رجعيين فى تفكيرهم الاجتماعى ؟

فقال : « حينما كنت فى كمبردج بكلية ترنتى ، أثير موضوع منح الدرجات العلمية للسيدات . فكان يؤيد الرأى من ناحية الرجال الذين يعملون فى المعامل ، ويعارضه من ناحية أخرى أولئك الذين يدرسون الكائنات البشرية — ومنهم الأطباء . وكان المؤيدون لمنح الدرجات العلمية للسيدات أولئك الذين يعالجون المادة التى لا حياة فيها ، وذلك بغير استثناء . أما أولئك الذين كانوا يعالجون النساء كمخلوقات حية فكانوا من المعارضين . وقد رأيت كثيرا من الأطباء فى لندن . انهم بعد عمل اليوم حينما يلتقطون الكتاب أو الصحيفة للاطلاع لا يفقهون ما يقرأون من شدة الإجهاد » .

فقال مستر جمير : « الأطباء فى هذا البلد دقيقون من الناحية العلمية ، وعطوفون على غيرهم من الناس . ولكننا لا نتوقع منهم أن يفهموا المشكلات الاجتماعية » .

وسألت جريس : « وهل يرى الطبيب كل جوانب الكائن البشرى ؟ »

فأجاب هوايتهد قائلا: « كلا إن المرء حينما يكون منتعشاً لا يقول : (هيا بنا نزور طبيبا) . فالطبيب آخر من يفكر فيه . إنه لا يرانا إلا حينما نعتل ، والأمر أسوأ من ذلك أن كان طبيبا نفسانيا ، فهو لا يأتى إلا حينما يبدأ أصدقاؤنا فى القلق علينا . أعتقد أن أصحاب المهن الرفيعة — على وجه الجملة ـ لا يحسنون الحكم خارج نطاق المهن التى يحترفونها » .

« هذا يعود بنا إلى سؤالك عن الأحرار الأمريكان . إن كثيراً من خيارهم ـ قبل الحرب ، وربما حتى الآن ـ كانوا يأتون من أسرات الطبقات المتوسطة الذين على شيء من الدعة ، حيث يتوافر التعليم المدرسى الجيد والتربية الدينية . ثم هم بعد ذلك إما يشهدون الفقر بإقامتهم فى منازل المحلات الإجتماعية ، ومن هؤلاء جين آدمز وليليان والد ، أو يلتقون بشخصيات فعالة مثل براند هويتلوك ، أو كما فعل نيوتن بيكر فى توم جونسون الكليفلاندى . ثم هناك من الأحرار أيضاً الصحفيون الثائرون الذين أصبحوا من المؤلفين ، وهى الزمرة التى تشمل إيدا تاربل ، وراى ستانارد بيكر ، ولنكولن ستفنز . »

وسألت جريس : « وماذا حدث لإيمانهم الدينى ؟ »

« إتجه نحو الخدمة الإجتماعية »

وأثير بعد ذلك سؤال عما إذا كان هناك أمل الآن فى ظهور طبقة مماثلة .

فقال هوايتهد : « حينما بدأت محاضراتى فى الكليات الأمريكية ـ وذلك على وجه التقريب بين عامى ١٩٢٤و١٩٢٩ ـ سرعان ما رأيت أننى إذا استعرت آية من الانجيل لا أجد من بين طلابى من اطلع عليها من قبل ، أو من عزم على الإطلاع عليها ، أو كانت لديه أدنى فكرة عما أتحدث فيه . وإذا أحسوا أنى أتكلم

فى الدين ، أشاحوا بوجوههم حتى أطرق موضوعا آخر . أما فيما بعد عام ١٩٢٩ حتى التقاعد ، وهى السنوات السبع الأخيرة من حياتى التعليمية الفعالة ، فقد تغير هذا الاتجاه ، وإذا تحدثت فى الدين أصغوا إلى منصتين . »

فقال كنستابل : « إنى أشاهد ذلك بين الشباب الذين ألاقيهم فى المتحف . إن العمل عندهم كأنه رسالة دينية يؤدونها بحماسة بالغة . وهم يشعرون بهذا الإحساس بغض النظر عن مواردهم ، يحسه أبناء الأثرياء منهم ، كما يحسه أولئك الذين لا يكادون يملكون ما يقيم أودهم » .

فسألت : « وهل يعنى ذلك أن الروح الدينية فى عهدنا ، التى يبدو أنها تنحسر عن الكنائس ، قد تعود إلى الظهور على شكل نشاط فنى خلاق ؟ »

بيد أن أحداً من الحاضرين لم يأبه بقولى . وتحول الحديث إلى موضوع الزينة الداخلية ، فقال مستر كنستابل :

« كان من واجباتى بمعرض الصور الوطنى بلندن حينما كانت تتفتت ضيعة من الضياع أن أزورها لأرى أبها أى شىء مما له أهمية قومية ؟ وكثيراً ما ردت حجرات لم يردها أصحابها أنفسهم . ولم يكن ذلك من حقى فحسب ، بل من واجبات وظيفتى كذلك . وكثيرا ما عثرت على أعجب الأشياء . فى بيت عظيم فى الطابق العلوى لأحد الأجنحة الذى عزل ليكون غرفا للخادمات فى القرن الثامن عشر ، اتجهت إلى الدهليز وعثرت على طاقم كامل من اثنى عشر كرسيا من طراز شبندبل ، اثنان منهما فى كل غرفة (وكانت الغرف ستا) وزعت هذا التوزيع منذ نحو قرن من الزمان . وكل ما فعلت هو إخراج الكراسى إلى الدهليز . أما فى أسفل الحجرات الفاخرة من البناء فكان الأثاث من شجر الجوز الأسود على الطراز الفكتورى ».

فقال هوايتهد: « يبدو لى — حينما أرى أثاثا إنجليزيا — كأن الأثاث مستورد من بيت تتوافر فيه الراحة ولا تراعى فيه المظاهر، بيت من بيوت الطبقة المتوسطة من الناحية الاجتماعية . ومن هذا البيت يمكن أن ينتقل الأثاث إلى بيت أرقى أو أدنى ، ولكنه يحافظ بوجه عام على صفقة الراحة التى تميزه خاصة . أما فى فرنسا .... (ولزوجتى التى عاشت هناك أن تصححنى إن أخطأت » — فقالت زوجته : « لا يكون ذلك علنا يا عزيزى » وقد نهضت لتدير الشطائر على الحاضرين) .

وعاد هوايتهد إلى حديثه قائلا : أما فى فرنسا فكلما شهدت أثاثا خيل إلى أنه تقليد لما فى القصور — سواء أجيد هذا التقليد أم أسىء » .

وأخذ الإنجليز الثلاثة يقارنون بين انطباعاتهم عن القصور الملكية البريطانية، كل وفق هواه .

وقالت مسز هوايتهد لكنستابل : « اننى لم أزر بكننجهام قط . فهل زرته أنت ؟ »

« نعم . وكثير مما فيه لا يختلف عما يتوقعه المرء ، مزعج إلى درجة قصوى . فالكراسى محاطة بالستائر القصيرة ، والهدب الطويلة حول أسفلها . ولكن حتى فى الحجرات الرسمية الكبرى لابد أن تراعى الراحة دائما . وفيها مايوحى للناس أن يجلسوا على راحتهم » .

وضحكت مسز هوايتهد قائلة : « والأمر كذلك تماما فى وندسور »

واتجه الحديث ثانية نحو موضوع الحماسة الدينية .

فقالت مسز هوايتهد : « الدين فى انجلترا ليس من الموضوعات التى يتحمس لها المرء ، فذلك ينافى مظهر الاحترام ! »

فقال مستر هوايتهد : « كلا . إنما يتحمس نيابة عنا أهل ويلز وسكتلندا ».

« والروح الدينية عند كليهما تتغلغل فى السياسة . وقد تخرج لويد جورج مثلا من كنيسة ويلزية »

وكانت وفاة ييتس قد أعلنت ، فأدى ذلك إلى نقاش حول احياء الروح الـكلتية .

فقال هوايتهد : « أعتقد أن محاولة إحياء اللغة نفسها كان خطأ كبيرا . لقد أضاف أهل ارلنده إلى الإنجليزية صفة مميزة بالأصوات التى أسبغوها عليها . أما لهجة الجيلك فشىء قل من يفهمه . وقد انتهى الأمر بأن تعلم هذه اللهجة الـكثيرون مع بقائهم أميين فى الانجليزية » .

فقالت مسز هوايتهد : « لـما وصل مسرح آبى التنقل لأول مرة فى زيارة لـكمبردج ، طلبت إلى الفرد أن يدعو أفراد الفرقة إلى الغداء بالـكلية . وكان ييتس متكلفا فى مظهره ومسلـكه ، منكوش الشعر ، شديد المجاملة للسيدات المستقبلات ، يسمح لإحداهن أن تحمل كوفيته ، ويسمح للأخرى بحمل معطفه الذى يتقى به المطر . لقد نظم أبياتا من روائع الشعر ، بيد أنه كان ولا شك مغروراً . وكان هناك شاب رث الثياب ، لم يكد يتفوه بكلمة ويسعل سعالا شديدا . وبعد الغداء طاف بهم مطوف فى أرجاء الـكلية ، ولـكن هذا الشاب تخلف مع ألفرد ومعى . ثم أخذ يتحدث ثلاث ساعات حديثاً شائقا . ولم نعرف منه اسمه ،ولـكنا بعد انصرافه قلنا ، لا يهم من يكون ، غير أنه ليس رجلا عاديا . انه فى ذلك الحين لم يكن قد نشر شيئا ما . وعرفنا فيما بعد أن اسمه سنج ! فلمنا أنفسنا لأنا لم نسع إلى التعرف اليه . »

وانفض الجمع نحو الساعة الحادية عشرة . ولبثت مع كننجهام نعيد المقاعد إلى أماكنها ونزيل الأطباق والأكواب ، وتحدثنا خلال ذلك عن اللهجات الكلتية والبريتونية والارلندية ، وتحدثنا عن الأجناس الكلتية ، وعن موطن أجمل

الكائنات البشرية . وقد قيل إنها فى شمالى إيطاليا ، وبخاصة الشقراوات من النساء، وفى المقاطعات الايطالية بسويسرا . وتساءلنا : هل الانجليز من بين الأجناس الجميلة . فقال . هوايتهد : « لا . انهم أصحاء خشنون ، ولكن قلما تجد فيهم جميلا » . وقال قائل : ان الجمال فى أجزاء معينة جنوبى ايطاليا ، حيث لا يزال الناس يشبهون الاغريق القدامى من سكان ماجنا جراشيا .

وكانوا منتعشين منتشين ، فانقضي المساء على خير . وقبل الانصراف قالت لى جريس دى فريز على حدة :

« إنها حفلة بغير عشاء ، ولكنها تفضل أكثر حفلات العشاء » .

(١٤)

٢٧ من فبراير ١٩٣٩

ظهر فى عدد مارس من مجلة الاطلنطيق الشهرية مقال لهوايتهد تحت عنوان « نداء الى العقل » ، وكان العدد بالفعل فى أيدى باعة الصحف . وقد حفزه إلى كتابة هذا المقال العواطف الثائرة حول تشيكوسلوفاكيا . بيد أن مناقشة هوايتهد للموضوع تجاوزت الحوادث الجارية حتى أن القارىء ينتهى من المقال وهو يحس كأنه فى عالم أرحب وأوسع . ونشرت مجلة جلوب ملخصا لمقاله فى افتتاحيتها .

وقال فى هذا المساء متلطفا .

« قرأت لك وقرأت لى » .

« ليس ما كتبتُ إلا إعلانا عن ظهور مقالك . وقد أرسلت عددا إلى بارنجتون وارد بصحيفة التايمز اللندنية »

قال : « كتبته فى نوفمبر الماضى . وقد نسى كل امرىء تشيكوسلوفاكيا الآن » .

« هذه بالضبط هى قيمة المقال . قد تزول المناسبة العارضة . بيد أن التطورات التاريخية التى تربطها أنت بها لا تزول قط » .

قالت مسز هوايتهد : « بدأ القتال أول الأمر خطابا الى فلكس فرانكفورتر وكان يحفزنا الى الحديث فى الموضوع ، بقوة وعنف » .

« لا بد أن هذه الأيام كانت أليمة على نفسه بدرجة عظمى ، لما لديه من احساس دقيق بالعدالة » .

قالت : « ثم إن هناك عرقا صليبيا ينبض فى فلكس » .

قلت : « إن الجهد الذى بذله فى سبيل المحاكمة العادلة لساكو وفانزتى وقع من نفسى موقعا أقوى من مجرد الحماسة الصليبية » .

فقالت متوددة : « إنى أتصوره دائما من قبلنا . فمنده مرح أهلها ، وإن تكن السنوات الست الماضية — علم الله — لم يكن فيها الكثير مما يبعث على المرح » .

فقال هوايتهد : « فى اليوم الذى أعلن فيه نداءه الى المحكمة العليا ، تصادف أنى كنت واقلن نستمع الى الراديو فأصغينا إليه . فنادينا إحدى العربات وانطلقنا إليه نهنئه . وقد سبقنا إليه عدد قليل من تلاميذه الذين كانوا يدرسون عليه القانون . وكان منظراً ساحراً . كانوا فى نشوة كبرى ، ورأينا فيهم كيف يكون الشباب فى أحسن حالاته : رأينا اللطف والرقة » .

ومن هنا انحرفت المحاورة الى محاورة فى الحماسة الصليبية ، وقال هوايتهد عن

الصايبيين المحترفين : « إن شيخوختهم أمر يدعو الى الأسف . إنهم يتنقلون من (قضية) الى (قضية) » .

وسألته : « متى بالضبط تفتر الحماسة الصليبية عند الانسان ؟ هل يحدث ذلك حينما تبرد دماؤه ؟ »

قال : « إنها لا تفتر قط عند المحترفين »

« إن دفاعك الحار عن اليهود فى مجلة إطلنطيق يحثنى على السؤال عن السبب فى كراهية الشعوب لهم فى كثير من الأحيان — كما ذكرتَ »

« إن ذهنهم حاد . وهذه الحدة كثيراً ماتكون فى صورة تثير الحسد ، وهى صورة النجاح فى التجارة . انها ليست عمقا دائما . وينبغى للمرء حينما ينتقى الرجال أن يحذر من تألق الشبان اليهود. إنهم ينضجون فى التاسعة عشرة أو العشرين ، وقد يلمعون ، ولكنهم لايحققون دائما الآمال المعقودة عليهم ، والتى تقوم على أساس علوهم على غيرهم فى هذه السن » .

وأضافت مسز هوايتهد قولها : « وهم فوق ذلك لم يكتسبوا خبرة حكم الشعوب الأخرى ، أو حتى حكم دولة لهم خاصة بهم » .

قال : « إن ذلك يزيد من اهتمامهم بالمثل الأعلى الذى ينفعهم . إنهم يفتقرون إلى روح الفكاهة بدرجة ملحوظة ، أوهم كانو كذلك حتى عاشوا بين الأوربيين . إن الانجيل يفتقر إلى روح الفكاهة . لم تكن عندهم بعد مآسيهم — فيما يبدو — حكاية مضحكة لارستوفان » .

« إن موقعهم بين إمبراطوريات حربية لم يهيىء لهم ما يضحكون منه » .

قال هوايتهد : « إن اليهودى مكتئب بطبعه . ولا يعترف لهم أحد بفضل العمل العظيم الذى أدوه والأثر القوى الذى كان لهم فى تقدم أوربا إذا استثنينا

ثلاثة قرون، كان الإنجيل أكثر الكتب شيوعا خلال ألف وخمسائة عام، ولا يزال حتى اليوم كذلك . . . » .

وتحدثنا فيما حققوه فى الفنون الخلاقة . فى الموسيقى مثلا، وهى الصورة الفنية السائدة فى عصرنا، أو كانت كذلك حتى العقد الثالث من القرن العشرين . إنهم يقدمون لنا فى الموسيقى مؤلفين من الطراز الأول، من مندلسن إلى أرنست بلوخ، ووفرة من العازفين، فنانين لامعين فى الأداء، وبخاصة فى عشرات السنوات القلائل الماضية، من عازفين على الكمان، إلى عازفين على البيانو، إلى قواد الأوركسترا . كما قال هوايتهد إنهم أنتجوا بعضا من علماء الرياضة الممتازين .

وكنت أترقب دورى فى الكلام لأسأله رأيه فى تقدير المستقبل لأعمال لورنس لول :

« ماذا كان اسم سابقه ؟ » .

« اليوت » .

« لقد قام إليوت بعمل نافع جداً . إنه حطم التقليد الكلاسيكى فى الكلية الأمريكية . وما كان للكلية هنا أن يكون لها ممناها فى أوربا لأنكم بعيدون جداً عن مصادرها . ليس لكم اتصال جغرافى مباشر بالمدينة الإغريقية الرومانية القديمة . ولا يقف الأمر عند هذا الحد . ولكنكم لا تتصلون كذلك بعالم العصور الوسطى الذى نقل هذه المدنية . ثم إن العلوم الانسانية — كما تدرس فى الجامعات وكما تشتق من اليونان والرومان — تفصل حياة التأمل عن العالم العملى الذى ينشأ فى مجتمع به رقيق . إن الرقيق يقومون بالجانب الأكبر من العمل اليدوى . ولا بد من تدريب اليد والذهن معا . وقد فتح إليوت مجال الدراسة كله للاختيار وأبقى عليه مفتوحا فترة من الزمن . وأخيرا، وفى الوقت المناسب جاء لول ،

فوفق بين الجوانب المختلفة ، وقد جاء بعيد اللحظة الصحيحة . وكان ماقام به عملاً جريئا شاقاً » .

قلت : « يقال إن الرئيس المتقاعد إليوت قد قال إنه بعد ما كرس حياته لتحويل هارفارد من كلية إلى جامعة ، كرس لول حياته لتحويلها من جامعة إلى كلية مرة أخرى . وربما لم يقل بذلك إليوت ، وربما كانت المقابلة مجحفة » .

فقال هوايتهد: لقد عنى لول كذلك عناية كبرى بالمدارس العليا ، وقام بعمل آخر كانت الحاجة إليه ماسة ، وهو إسكان الشبان » .

وقالت مسز هوايتهد: «قال لى مستر لول مرة فى شيء من الفخر إنه حينما كان فتى فى السادسة عشرة من عمره هنا فى هارفارد ، يسير على شواطىء النهر التى لم تكن ممهدة فى ذلك الحين ، حدث نفسه قائلا : لو كان لى نفوذ فى هذا المكان قمت بعملين : أنقل الكلية إلى شاطىء النهر ، وأهدم ساحل الذهب(١) — ثم أضاف قائلا ، وقد قمت بالعملين » .

قلت : كنا فى القرن التاسع عشر نضع نظمنا الجامعية على غرار النظم الألمانية : أما فى القرن العشرين فالظاهر أننا بدأنا ننقل عن الإنجليز . وإنى لأعجب على أية صورة سوف تكون نظمنا . . . » .

« لست من أولئك الذين يقللون من شأن ما يعمل فى جامعات الولايات الكبرى فى الوسط والغرب الأقصى . فهناك محاولات أكثر للتوفيق بين الدراسة النظرية والحياة العملية . وأعتقد أن هتشنز فى شيكاغو كان على خطأ شديد حينما هزأ منها لما فيها من دراسات فى المهارات العملية . وربما كانت بعض الدراسات التى أسماها

(١) مساكن أبناء الأثرياء فى شارع جبل أوبرن

(مهارات عملية منزلية) سخيفة — لست أدرى — بيد أن المبدأ ليس سخيفا . أما هنا فى الشرق فالعلوم أفضل من الدراسات الإنسانية لوجود العمل فى المعامل، عمل يؤدَّى و يُختبر ، ويبلغ حد الدقة ، ولا يُترك معلقا فى الفضاء . . . »

« ان اهتمام لول المعروف بقسم التاريخ واللغة الإنجليزية هو — كما أفهمه — محاولة للقيام بعمل شبيه بما تقوم به أكسفورد فى دراسة اللغة الإنجليزية ولـكن السـؤال لايزال قائما : كيف يمكن ربط هذه الدراسات بالحياة العملية ؟ » .

قال : «أرجو ألا تحسب أنى أقول إن الاغريقية واللاتينية ليستا من الدراسات الممتازة لمن يدرك معناها . وإنما أردت أن أقول إنكم فى أمريكا — وأنتم على مبعدة من الاتصال المباشر بالمدنيات القديمة والوسيطة ـ إنـكم فى حاجة إلى مزيد من الخيال عما يلزم لجميـع الطلاب ، إذا استثنينا قلة منهم ، لـكى تدركوا كـنه تلك العوالم القديمة من الـكتب . إن زملاءكم فى أكسفورد — سر رتشارد لفنجستون على سبيل المثال — يقرأون اليونانية واللاتينية دائما باحثين عن أثر ذلك فى حياتنا اليوم ، وكيف نستطيع أن ننتفع به فى العالم الحديث ؟ » .

« كان سر دافيدروس ، الذى قدم الينا فى عيد الميلاد ، يتحدث عما لام به أحد النقاد الجامعات الأمريكية — وأظنه ابراهام فلـكسنر ـ وقال إنه كان يكتب ويفكر كأن الجامعات إنما تنشأ للدارسين الباحثين وحدهم ، أو إذا لم يكن ذلك ، فلـكى تخرج الباحثين ؛ فى حين أن عدد الطلاب ـ كما قال ـ الذين يلتحقون بالجامعة ، من المؤهلين لأن يصبحوا من العلماء الباحثين أو من العلماء قلة صغرى ؛ وهل يقوم النظام الجامعى بأسره من أجل هذه القلة ؟ » .

وهنا أثيرت مواطن الضعف عند لول .

فقال هوايتهد : « إن به عيوبا . وقد عرفته جيدا لمدة سنوات ، وأستطيع

أن أرى هذه العيوب . منها أنه لايفهم الرجال المتهيبين ، ويحسب التهيب مذلة » ..

وأضافت إلى ذلك مسز هوايتهد قولها : «.. وهو يصيح فى وجه التهيب .. حدث لوشيان يا أولتى عن تلك الخبرة التى مرت بك مع رجل مهذب متواضع أراد أن يعرض أمرا على لول ... »

ولما خشيت ألا يتحدث فى ذلك زوجها ، أخذت تقص القصة : قالت إن هذا الرجل جاء الى هوايتهد يقول له : « لا أستطيع أن أعرض ذلك على لول . إنه يصيح فى وجهى . فهل تستطيع أنت » فأجابه هوايتهد قائلا : « كلا ، ولكنى سأصحبك » . وقد فعل . وبعث تهيب صاحبنا الضيق فى نفس لول فصاح فى وجهه ثلاث مرات ، وفى كل مرة يرفع هوايتهد يده قائلا : « تريث ! » وأخيراً استطاع الزائر أن يعرض قضيته ، ولما كان هوايتهد مستشاره ، فإن لول لم يغضب .

وقالت مسز هوايتهد : « إنه أعجب الديمقراطيين . إنه لا يستطيع أن يمارس الديمقراطية بشخصه ، ولكنه يعتقد فيها اعتقادا جازما . »

وأضاف زوجها الى ذلك قوله : « وأحكامه كأحكام رجال الدولة . »

وأدى ذلك الى جدل حول بوسطن باعتبارها جزيرة للأمريكيين الشماليين فى بحر ارلندى آخذةً فى الاضمحلال .

قال هوايتهد ، وعيناه تتألقان بالسرور الباطنى « إن هؤلاء الأمريكيين الشماليين لا يختلطون . اليوم بعد الظهر فقط ، كنت مع جماعة منهم ، تضم لورنس لول ، ولورنس هندرسن ، وجون لفنجستون لويس — وهو من إنجلترا الجديدة ، على الأقل تشبها بأهلها — ولن تستطيع ألبتة أن تتخيل من كلمة واحدة

مما ينطقون أنهم يعيشون وسط مجتمع من مليون ونصف المليون من البشر ، سبعون فى المائة منهم على الأقل من الأرلنديين الـكاثوليك » .

فقلت له إن برننج ، رئيس قضاة ألمانيا السابق ، ذكر خلال حديث له فى بيت هانز زنسر أن التربية يجب أن تخصص للطبقة الممتازة .

قال هوايتهد . « الى خمسين عاما مضت كانت التربية فى إنجلترا محصورة فى طبقة عليا صغيرة ، ولم يكن أحد يفكر أن من الخطأ أن تبقى الجماهير على أميتها . أما اليوم فنحن نسلم بضرورة تعلم الـكتابة والقراءة . وكان أبى يدير مدرسة القرية حينما بدأ الالزام فى التعليم . وكان يلاقى أشد المعارضة . فإن القرويين لم يتعلموا ولم يريدوا لأبنائهم أن يتعلموا » .

فعلقت بقولى : « حدث فى هذا البلد زحف ضخم مفاجىء نحو التعليم بعد الحرب العالمية ، واستمر هذا الزحف منذ ذلك الحين . ولما حل عام ١٩٢٦ أصبح الزحف شاملا ، واستمر فى سنوات الأزمة الاقتصادية . ومع انتشار التعليم زاد اعتبار المعلم » .

فقال هوايتهد : « فى أوائل القرن التاسع عشر بأمريكا — كما فهمت — كان المعلم والدارس والأستاذ فى مكانة مرموقة . كانوا موحدين ، تحيط بهم هالة من رهبة الدين . ولما تقدم القرن زالت هذه الهالة . فإن التوحيد كان دينا لا يدعو الى إلهواحد وإنما يدعو الى (إله واحدعلى الأكثر) بل الى (اله واحد) اذا كانذلك... »

قلت : زد على ذلك أن القارة كانت مفتوحة ، فتكون إحساس فى نهاية القرن بأن الرجل إذا كان رجلا كما ينبغى له أن يكون ، فلا بد له من جمع الثروة .

وهذا ما دعا وليام جيمس إلى أن يسمى النجاح (الكلبة المؤلهة) غير أن هذه العبادة لا تسود الآن كما كانت فى ذلك الحين » .

وقالت مسز هوايتهد : « لا نزال فى كلياتكم « هاربون » من الحياة العملية » .

« لست أنكر ذلك . ولكن رجالا من ذوى الكفايات الممتازة لا يحترفون اليوم مهنة التعليم فحسب ، وإنما يلقون احتراما كذلك من أجل هذا » .

وحفزتنى فقرة فى مقال هوايتهد « نداء إلى العقل » إلى أن أعود إلى السؤال عما إذا كانت إحدى الولايات قد صرحت بالتعبير الكافى عن الدوافع الخلاقة عند الإنسان . إننا نرى رؤساء الولايات بين الحين والحين — برغم إنسانيتهم — لا يعملون وفقا لدافع الخلق والابتكار عند المجتمع ، وإنما وفقا لغرائز التملك فيه .

« كان هربرت هوفر باعتباره من طائفة الأصحاب ، يطعم الأطفال البلجيكيين باللبن . وقد أمر هربرت هوفر باعتباره رئيسا للولايات المتحدة بإلقاء القنابل المسيلة للدموع على المحاربين القدماء من جيش المتبفعين لطردهم من واشنطن . فما هذا التناقض البعيد المدى ؟ » .

فقال هوايتهد : « إن تقديم اللبن للأطفال البلجيكيين لا يعنى قطعا توافر العواطف الإنسانية لديه ، إنما كان ذلك عملا تنظيميا قضت به العاطفة السائدة فى زمانه ، عملا لا مفر من أدائه ، وقد كلف بالقيام به . نعم انه من الأصحاب ، ولكنه ضيق الخيال . كان عمله فى وظيفته الأولى كمهندس أن يستخرج المعادن من المناجم فى الداخل حتى من البحر . وأمثال هؤلاء الرجال لا يفكرون فى حدود القيم الانسانية أو رفاهية البشر . إنما تأتى هذه القيم إن أتت اطلاقا — عرضا فى العمل الرئيسى ، وهو نقل المعدن من مكان وطرحه فى مكان آخر . ولا تتجه أفكارهم إلا إلى ذلك . . . فلما اقتضى الأمر طرد جيش المنتفعين من وشنطن ،

نشأ موقف لا بد من علاجه بحكمة بالغة ، وقد أثبت قوة قبضته العملية ... »

« إذن دعني أذكر لك مثالا آخر. وقع لنا حادث مع المكسيك في عام ١٩١٤، ذلك أن أمرا مثيرا قد وقع في ميناء تامبيكو ، وكان أول الأمر عراكا ، ثم تحول إلى نزاع حول إهانة تتطلب اعتذار المكسيكيين وتحية علمنا . وأخذت الأمور تزداد سوءا . فصدرت الأوامر لأسطول شمال الأطلنطيق بالتحرك صوب ساحل المكسيك ، واشتعلت نار الشعور العام (أو هكذا على الأقل كان صوت الصحافة) وأمر الرئيس ولسن الأسطول بمهاجمة فيرا كروز والاستيلاء عليها . وقد فعل ، ومات في سبيل ذلك سبعة عشر فتى ، ستة عشر من القوة البحرية وأحد البحارة . (ومات بعد ذلك ببضعة أيام رجلان متأثرين بجراحهما) . وقبل ذلك بست سنوات فقط لم يكن مستر ولسن رئيسا للولايات المتحدة ، إنما كان رئيسا لكلية جامعية في برنستن ، رجلا إنسانيا مهذبا كأي زميل من زملائك هنا ، يحزن إذا مات سبعة عشر طالبا مستجدا في فصله على أثر وباء . وجيء بالجثث إلى فناء الأسطول في بروكلن تحملها طرادة مسلحة ، وسارت النعوش مغطاة بالأعلام في أرض الاستعراض في مناسبات مختلفة . وجاء الرئيس من واشنطن ليلقي كلمة التأبين . فقال إنه يغبط هؤلاء الشبان . وكان ولسن الموظف الذي أصدر إليهم الأمر بالهجوم . وكان ولسن الرجل هو الذي ينظر إلى النعوش السبعة عشر . وأذكر أن ذلك كان في شهر مايو من عام ١٩١٤، وهو يتنبأ بالحرب العالمية أكثر من أي إنسان آخر . فلم يكن عالمنا قد قسا قلبه بعد بمرور سنوات عديدة من القتل الجماعي . وكانت أمثال هذه الحوادث تقابل بالشعور العادي . فتحطم قلب المستر ولسن . إنما أردت أن أقول إنه كرئيس كان لزاما عليه أن يعمل ممثلا لصالح الملكية الجماعية بطريقة لا يرضى عنها كإنسان . إنما كان جانب من الرجل فقط هو الذي يعمل كرئيس ، لأن جانبا من الرجل فقط هو الذي تنتظمه الدولة » .

فأجاب هوايتهد بأن الرجال داخل الدولة يتجاوز مشروعات عديدة مشتركة

تعبر عن أوجه أخرى من طبائعهم : تربوية ، وخيرية ، وخلاقة ، وفنية ، واجتماعية . وربما كان من وظيفة الدولة حتى الآن أن تهيىء ظروفا من الهدوء الكافى الذى يمكن أن يمارس فيه المرء هذه الضروب المتنوعة من ألوان النشاط . وكثير من هذه الألوان — كالعلم والتربية — أصبحت بالفعل دولية ، تتجاوز حدود الولاية .

وكان ما قاله فى مقاله « نداء إلى العقل » هو :

(إن كل كائن بشرى بناء أشد تعقيدا من أى نظام اجتماعى ينتمى إليه . إن أية حياة جماعية معينة لا تمس إلا جانبا من طبيعة كل فرد متمدن . وإذا خضع المرء خضوعا كليا للحياة العامة ضمرت شخصيته ... إن الجماعات تنقصها دقائق الطبيعة البشرية ... والحرب قد تحمى ولكنها لا تخلق) .

وخلال مناقشتنا لهذا قال فيما بعد :

« ليس واجب الحكومة إرضاء كل إنسان وإنما واجبها على الأقل إرضاء شخص ما . إذا أرضت طبقة واحدة لها نفوذ معقول ، أو طبقتين ، حاولت أن تبقيها فى الحكم . وكلما زاد عدد الطبقات التى ترضيها زادت صلابتها ... إن المدنية لا تنهار إذا انحرفت ناحية واحدة كبرى أو ناحيتان من نواحى النشاط . ولكن الاقتصاديات فى عصرنا قد تضخمت حتى باتت مشروعات جماعية عظمى أتت بلون جديد من الظلم يحتاج إلى المعالجة ، وأفلت من أيدينا عيار القومية ، وتمزق إيماننا بالدين ... ويبدو أن مدنيتنا بين هذا وذاك قد باتت فى مأزق » .

قلت : « إن حكم الإمبراطور دوميشيان قد تأثر أثرا سيئا من تاستس ، وهو من غير شك يستحق ذلك . ولكن بالرغم من أنه من الواضح أن وحشية الإمبراطور قد شلت الفكر الرومانى مدى جيل على وجه التقريب ، بحيث لم يطمئن أحد من النبلاء على حياته ، إلا أن عجلة الحياة العامة واصلت دورانها . وربما لم يكن ذلك من عمله ، ولكنه حدث على كل حال » .

فقال هوايتهد : « كان تاستس يمقته مقتا شديدا ، وكنت دائما أعتقد أنه من المحافظين ، يكره - نيابة عن طبقته - فى دوميشيان ترقيته إلى مناصب السلطة الإدارية شرذمة من الأشخاص المغمورين ، من الإغريق المتحررين ومن إليهم ... » .

« إذا كان اليهود لم يضحكوا إلا قليلا حتى العصور الحديثة نسبيا ، فما رأيك فى الرومان ؟ إننا لم نسمع ضحكاتهم كذلك ، على الأقل حتى القرن الثانى قبل الميلاد . كانوا فى القرون الأولى فى قتال مستمر ، آنا مع الكلت ، وآنا مع أهل قرطاجنة ، ولما بدأوا يضحكون ، أى لما ظهر الضحك فى أدبهم ، ألم يكن من قبيل التهكم ، أو الاستمتاع بمصائب الآخرين ؟ » .

وانطلق هوايتهد يقول : « كان الرومان قوما عجيبين ... » وفكر قليلا ، ثم صمم على ترك الموضوع .

قلت : « إن موهبة الإغريق فى الضحك ، بما فيه ضحكهم على أنفسهم ، أدعى إلى العجب ، إذا عرفنا أن العالم القديم لم يعرف إلا قليلا من الضحك فيما يبدو » .

قالت مسز هوايتهد : « ولكن أمريكا لا تهيىء لكم إلا قليلا من الفرص لكى تدرسوا الإغريق ، لأنكم أنتم أنفسكم كالإغريق - تخلقون عالما جديدا » .

قال هوايتهد : « حقا ما قلت . وإن آخر ما كان الإغريق يفكرون فى عمله هو أن يقرأوا عما يفكر فيه سواهم ، أو يفعل ، أو يقول » .

ولكى نضحك قليلا نحن أنفسنا ، بدأنا نستعيد ذكرياتنا الباكرة التى نعيها . وكان من ذكرياتها « أنى عضضت أذن أبى فلكمنى لكمة شديدة من أجل ذلك » ومن ذكرياته أنه وهو طفل فى الثالثة من عمره يتناول وجبة فى مطعم سويسرى ، أحس بالعطش الشديد فأخذ يشرب كوبا من الماء تلو الآخر ، حتى

رآه رجل كان يجلس تجاهه ، فقال له : « أيها الطفل الصغير . لا ينبغى لك أن تشرب هذا القدر الكبير من الماء » ـ « وعلى أثر ذلك تناولت ملعقة ، ورميته بها ، وأصبته فى فه ! وتصرف أبى تصرفا عاقلا فلم يعاقبنى . أولا لأنه سر مما رأى ، وثانيا لأنه ظن ـ فيما أعتقد ـ أن الرجل لاقى ما يستحق » . وقد ذكر هوايتهد هذه الحادثة مثالا « للذاكرة الكاذبة » . « فقد أعيد ذكرها على مسمعى مرارا كلما كبرت ، فلما بلغت التاسعة استطعت أن أصور لنفسى المنظر كله كاملا وظننت أننى أتذكره » .

قلت لها لابد أنهما كانا طفلين عنيفين .

(١٥)

١٧ من يولية ١٩٣٩ .

كان آل هوايتهد يقيمون مع مستر ومسز إدوارد پكان فى مزارع ددلى ببدفورد هربا من قيظ الصيف فى كمبردج . وپكان هذا من أسرة المؤرخ موتلى ، درس القانون ، ثم اشتغل ضابطا بحريا أثناء الحرب ، واتجه نحو كتابة التاريخ ، وأخرج كتابا تحت عنوان « عقلية العالم المسيحى اللاتينى » نشر منذ عامين .

وكانت مزاردع ددلى ملكا للأسرة من قبل الثورة . وبالمزرعة بيت ريفى من الطوب ذو سقف مستدير ، به المداخن الطويلة الأربع المألوفة ، اثنتان منهما فى كل جدار متطرف ، ويرجع تاريخ البيت إلى عام ١٧٩٥ ، وبقيت للبناء بساطته برغم إضافة أجنحة جديدة إليه ومنازل للضيوف . والطريق إليه يتفرع من الطريق العام ويتخلل غابات ومراع تكاد لاتنتهى ، تتوسطها أشجار الصنوبر هنا ، وبركة هناك ، وما يسميه أهل كنكورد « حديقة مستنقعة » ، وكل ذلك يشبه حديقة طبيعية مما تراه فى إنجلترا الجديدة . وعلى طول الطريق إلى كنكورد ضياع شبيهة بهذه ، تمتد بحذاء الشاطىء متلاصقة . ويعرف هؤلاء الجيران « بعائلة النهر » .

وكان هناك تيودور سبنسر . وهذا العالم الفارع الطول ، الأشقر اللون ، لطيف المعشر ، ظهر من عهد قريب فى قصة مغامرة تمثل العصر الذى نعيش فيه ، حينما يحدث أى أمر لأى إنسان . وقد أحيط علما على حين غرة مع كثيرين غيره من أعضاء هيئة التدريس بهارفارد عن طريق الرئيس كونانت بأن وظيفته كأستاذ مساعد للغة الإنجليزية التى كان يشغلها بعقد لمدة ثلاث سنوات ، لن تتجدد . وثار الشعور عامة . وقال رأس من الرؤوس العلمية القديرة فى البلاد « إننى قد لا أعرف كثيرا فى الإدارة ، ولكنى أشك - إذا قضيتم على عيش عشرة رجال ذات صباح - أشك أنكم تستطيعون بعد هذا أن يسير معهدكم كما كان من قبل . وهو شك أيدته الحوادث فى السنوات الثلاث المتتالية . وكانت النتيجة مذهلة ، فقد عين الأستاذ سبنسر أستاذا زائرا فى اللغة الإنجليزية بجامعة كمبردج لعام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ . ولما اندلع لهيب الحرب العالمية الثانية كان على هذه الجامعة أن تملأ وظيفة أستاذ زائر بهارفارد ، فأعادت تعيين سبنسر ليشغلها . فعاد إلى أحضان جامعته الأولى . وكان ذلك صورة من صور الحياة . غير أن هذه المهزلة التى عرفها أصدقاء سبنسر كإحدى سخريات الحياة الصغرى - لم يتم منها غير الفصل الأول فى ذلك الحين . وكانت روحه الفكاهية كفئا لها ، وإن كان فى بعض الأحايين يجدها كئيبة إلى حد ما .

وكنا اثنى عشر على مائدة العشاء . وحجرة الطعام عبارة عن مطبخ من مطابخ القرن الثامن عشر ، مزود بموقد كهفى وأفران من الطوب . وتفتح الحجرة من جانبها الخارجى على أرض خضراء ، هى الحديقة ، وبها بركة مستديرة تحت أشجار الدردار ، وتتصل الحديقة بمراع فسيحة هادئة تنحدر صوب تيار النهر الساكن ، ويقول هوايتهد إنه لا يمل التأمل فيها .

ونشط الحديث ، ولكن لما كان المتحدثون كثيرين ، والكلام ينتقل فى سرعة

خاطفة ، لا يمكن فى بدايته الا أن نلخصه. قيل إنه فى أى اجتماع له صفة بارزة معترف بها فى هذه الجهة يرجح أن تجد أكثر الأفراد مدينين بمكانتهم لا لكونهم خلاقين من تلقاء أنفسهم ولكن كمديرين لمعاهد ثقافية — فى كلية ، أو جامعة ، أو دار من دور النشر ، أو متحف ، أو معهد للموسيقى ، أو حكومة الولاية ، أو مكتبة ، أو مستشفى ، أو جماعة دينية — وتساءل الحاضرون عما إذا كانت المدنية فى أمريكا قد بلغت حدا يمكنها من تطبيق القدرة الإدارية والاستفادة منها ، ولكنها ، لا تزال بعيدة عن أن تكون « قوة ابتكارية » حقيقية — على حد تعبير هوايتهد .

ومن هنا ، ولما كان آل البيت موسيقيين ، وكان على مائدة الطعام موسيقيون ، انتقل الحديث إلى حقيقة فريدة لم يتنبه إليها إلا القليلون ، وهى أن كثيرا ، إن لم يكن أكثر المؤلفين الموسيقيين الممتازين فى أوربا ، ومنذ حداثة باخ إلى وفاة براهمز ، وهى فترة تمتد لمائتى عام ، كانوا رجالا يعملون فى أكثر الأحيان خارج المعاهد ، وليس ذلك فحسب ، ولكنهم ـ كذلك ـ لا يدينون الا بالقليل للتعليم الرسمى المهذى. وهذا أدعى للعجب الشديد؛ لأن الموسيقى هى الصورة الفنية الوحيدة التى تفوق فيها عالمنا منذ عام ١٧٠٠ على كل فترة أخرى . وماذا كانت النتيجة ؟ إن الينبوع ـ فيما يبدو ـ قد ينحدر لكى يتدفق خلال الحوض المرمرى الذى أعد له ، وإن ريح الروح الخلاقة تهب حيث شاءت .

وهنا أشار أحد الحاضرين إلى أن عام ١٨٥٩ كان قمة القرن التاسع عشر . وبدأ حديث المائدة يتجه نحو تأييد هذا الرأى؛ وذكر الحاضرون عددا لا بأس به من جلائل الأعمال : أصل الأنواع لداروين ، ومقال فى الاقتصاد السياسى لكارل ماركس ، وقصة المدينتين لدكنز ، وآدم بيد لجورج إليوت ، ومحنة رتشارد فقرل لمرديث ، وآل فرجينا لثاكرى ، وأناشيد الملك لتنسن ، ورباعيات فتزجرالد ، وترستان أوند اسولد لفاجنر . . .

(ثم كانت فترة توقف حتى شرع القرن العشرون يحـاول مجاراة هذا النجاح) .

ثم تبع ذلك نقاش حول موضوع يبدو أنه يبهر أنظار القوم فى هذا البلد — وهو تفوق الأشخاص غير المتعلمين . وقد لفتت هذه الفـكرة نظر بكمان بشدة خلال خبرته أثناء العمل بالأسطول ، ولـكنه قال ان نقط الضعف الثلاث فيهم هى عادة عدم القدرة على بعد النظر ، واتخاذ طريق معين وملازمته عدة سنوات ، والميل إلى خلط الأمور العامة بالأمور الشخصية .

فقال هوايتهد : « إن جمهور النـاس هو الذى يحدد الاتجاه العام للمجتمع على الأرجح . ولـكن عظماء الرجال فى المجتمع هم الذين يـكسبون هذا الاتجاه هدفه الصحيح . فإذا استمرنا السفينة للتشبيه ، قلت إن الجماهير هى المركب والبحارة والنابغة هو القائد . . . إن عدد المواليـد فى أى سنة فى بلد باتساع الولايات المتحدة لا بد أن يسد الحاجة إلى المواهب الـكامنة الضرورية لأى لون من ألوان التقدم الثقافى » .

فسألت مسز بكمان متلطفة : « هل لا بد من ذلك فى كل عام على حدة ؟ »

فقال هوايتهد مبتسما : « أقول خمس سنوات . وذلك يعزز وجهة نظرى ... ولـكن من الواضح أن الظروف قد تحول دون ازدهار ألوان معينة من المواهب مثل موهبة المؤلف الموسيقى فى الولايات الغربية خلال القرن الماضى . ومن الواضح أن الفرصة لا تسنح لظهور قائد عسكرى أيام السلم » .

فقال سبنسر : « كان جرانت فاشلا ، مدمنا على الشراب ، يعيش فى كوخ خشبى خارج سنت لويس حتى عام ١٨٥٩ ، وهى تلك السـنة الحرجة فى القرن التاسع عشر . وبعد أربع سنوات أصبح بطل ڤكسبرج ، وبعد تسع سنوات رئيسا للولايات المتحدة » .

فقال بكمان مخاطبا هوايتهد : « صادقة في ذلك الحظ ، بل وأكثر من الحظ . وكثيرا ما حدثتنا يا ألفرد عن عنصر الحظ فى حياة الناس ... كان « لى » يحمل درجات الشرف فى وست پوينت ، ودرس نفس الكتب المقررة التى درسها قواد الشمال ، وعرف أى التحركات كان يحتمل أن يقوموا بها ، وكان يهزمهم . أما جرانت فلم يتوقع ظهوره أحد » .

وانتقلت جلسة مائدة الطعام إلى حجرة الجلوس . وقد أعدت لتؤدى ثلاثة أغراض ، لأنها كذلك حجرة الموسيقى والمكتبة . وهى حجرة فسيحة مرتفعة ، سقفها من الصيص يستند إلى دعائم مفتوحة . والمفارش فى الحجرة قليلة حتى لا تطفىء روعة الألوان . وبالحجرة بيانو ضخم . ورفوف الكتب مكتظة بها ، يبلغ عددها نحوا من أربعة آلاف مجلد . وفى الطرف الداخلى موقد ضخم ، حوله مجموعة من المقاعد كالمعتاد ، وعدد من الكراسى ، والموائد الصغيرة – على الجانبين المتقابلين من المدفأة . والجدران الشرقية والجنوبية تطل على الحقول من نوافذ ضخمة على الطراز الفرنسى .

وانتقل الحديث إلى السبب فى أن إنجلترا فى القرن التاسع عشر كانت فى عهد يلائم كتاب الروايات النثرية خاصة ، والأثر القوى الذى كان لهؤلاء الكتاب فى نقل القانون العرفى إلى الشعب .

وقال سبنسر : « كانت (مدلمارش) أولى الروايات التى قرأتها فى شبابى ، والتى جعلتنى أحس أنى أعامل معاملة الرجل ، وأثلجت صدرى لأنى شعرت أن الحديث يوجه إلى دون خداع عاطفى » .

وسألت مسز هوايتهد قائلة : « أى أجزاء الرواية تعنى ؟ » .

« موضوع لدجيت وفنسى ، ذلك الزواج القاتل » .

قالت : « عرفناهما فى كمبردج » .

« عرفتموها ؟ » (وأثار هذا الموضوع عجبي) « لم أسمع قط أنها استعارت[١] شخصياتها من الحياة ! » .

« كيف لم تعرف ذلك، وقد عرفه كل إنسان» ثم عددت مسز هوايتهد الأسماء.

وأثار سبنسر السؤال عما إذا كانت شهرة جورج مرديث فى وقت من الأوقات قد كتب لها الدوام .

فقال هوايتهد : « لا أظن ذلك » .

« ما الذى سيقضى عليه ؟ » .

« كان يعيش فى وسط أدبى مرتفع ، يبتعد عن الحوادث الجارية . ويخلق شخصياته من تأملاته . وحينما يفشل الكاتب الجيد ، فالراجح أن ذلك مرده إلى زيادة انشغاله بالأفكار الأدبية البارعة ، وابتعاده عن الموضوعات الإنسانية العامة الشائعة . خذ شكسبير مثلا . إنك قلما تجد عنده فكرة ـ أو موقفا ـ من غير المألوف . غير أن اللغة والخيال تجعل هذه الفكرة أو ذلك الموقف شيئا رائعا . يجب أن تكون هناك موضوعات عامة إنسانية مما يهتم به كل إنسان ، وأن تعالج معالجة حية » .

قالت مسز بكمان : « إننا نقرأ جهرا فى أسرتنا ، وقد تبين لى أن الشباب عندنا لا يهتمون بمرديث ، ولكنهم يهتمون بهنرى جيمس . إنهم لا يجدون عباراته الملفوفة عسيرة على أفهامهم ، وهم يستطيعون متابعة دخائل فكره . إنه كان ولا شك أشد غوصا فى حدود الرقعة الضيقة التى كان ينبش فيها . إنه يكشف عن مميزات الفرد » .

---

(١) يشير هنا إلى الكاتبة الإنجليزية جورج اليوت .

وسأل سائل : « متى بدأ فى التاريخ لأول مرة تقدير الشخص لذاته ؟ » .

قال هوايتهد : « كنت أحسب أن ذلك بدأ بأصدقائنا القدامى : الرسل . بيد أن ذلك لا يشفى ، فقد كانوا خاضعين للعقائد الدينية » .

« هل نجيب عن هذا السؤال ، إذا قلنا إن تقدير الفرد قد بدأ بالإغريق ؛ كما يدل على ذلك قول بركليز فى رثائه : « إننا لا نقسو باللفظ ولا نحقد بالنظر على أولئك الذين يستمتعون بحياتهم على طريقتهم الخاصة » . متى بدأ ظهور فكرة الحرية ؟ » .

وكان ذلك مبعثا لنقاش عام ، ولكن دون أن نجمع على رأى ، وربما كان ذلك راجعا إلى كثرة المشتركين فى الجدل . وكان مما قاله هوايتهد إن من بين مفكرى القرن الثامن عشر من تنبأ فى جلاء بأن ظلم الأغلبية قد يكون أشد عسفا من ظلم الحاكم المستبد .

وواصل حديثه قائلا : « إن المؤرخين لم يقدروا قط الرجل الذى يتفادى الكارثة حق قدره . ويحضرنى الآن فى ذهنى أغسطس قيصر . إن عجبى لم ينقطع من أن روما قد استطاعت أن تخرج رجلين عبقريين كيوليس وأغسطس ، والبلاد فى أشد الحاجة إليهما . لا بد أن الشعب كان يريد النظام والمدنية من صميم قلبه ، لأن كتائب الجيش كان أكثرها على الحدود . ولم تكن الثورات داخل البلاد فى حاجة إلى جند كثير لقمعها » .

قلت : « لقد عانى الرومان من أمثال هذه الثورات خلال الحرب الأهلية التى دامت مائة عام بأكثر مما فيه الكفاية . وكان الناس فى حالة من حالات اليأس فقد كابدوا من تلك المنازعات الثنائية المريعة ، بين ماريوس وسلا فى أول الأمر ، ثم بين قيصر وبمبى ، وأخيرا بين أنطونى وأغسطس ، ولم يكن البتة من المؤكد أن هذه المنازعات ستنتهى فى يوم من الأيام » .

ووجه بكان الحديث إلى هوايتهد قائلا : « إنهم كانوا أكفاء لهذا الجهد ، وانتهت المنازعات فى آخر الأمر ، وسمعتك تقول إن ذلك يرجع إلى أن الرومان لم يسأموا بعد من حضارتهم » .

وأجاب هوايتهد بقوله : « وما زلت عند رأيى . إن جلوسنا هنا ، فى الأزياء التى نرتديها ، وبوحنا ببعض أفكارنا ، يرجع إلى حد ما — فيما أظن — إلى أغسطس . لقد وجد السبيل إلى الاحتفاظ بكيان الإمبراطورية باتباع نظام الإمارات . كان يكل إلى الرجال من جميع الأحزاب أعمالا ذات تبعات ، وكانوا يحملون هذه التبعات . وكانت بلاد الغال هادئة . أما ألمانيا (وهنا ارتسمت على شفته ابتسامة) فكانت بالأمس ـ كما هى اليوم ـ مشكلة المشكلات » .

قلت : « إنهم لم يعرفوا السلام قط . ولا عجب فى ذلك . فإن الغابة الألمانية كانت تستغرق مسير تسعة أيام من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر ـ فى ظلام ، ورطوبة ، حيث لا توجد طرق أو مدن ، ورجال القبائل دائما على أهبة للهجوم . وكانت بلاد الغال تسبق التيوتون ثقافيا بعدة قرون ... »

وسأل هوايتهد : « وهل كان للغال أدب فى ذلك الحين ؟ » .

« لست أذكر لهم أدباً قط . اللهم إلا إذا نسبت إلى الغال الفضل فى « مذكرات » قيصر . والفارق هو أن قيصر كان يجد فى الغال طرقا يقطعها مسافرا ، ومحصولات يعيش عليها ، ومدائن وممتلكات يرغم السكان على الاحتفاظ بها والدفاع من أجلها . أما فى ألمانيا فقد كان على كتائب الجيش أن تشق طرقاتها ، وتحمل معها مؤونتها » .

فقال هوايتهد : « ثم حلت كذلك تلك الكارثة المروعة بألمانيا . فقد هلك فاروس ، وهلكت معه ثلاث كتائب هى خير ما فى الجيش الرومانى » .

وزد بكمان تلك الصيحة اليائسة التي صرخ بها أغسطس ، وهى : « رد إلى كتائبي يا تونتيليوس فاروس » ثم أضاف إلى ذلك وهو يبتسم قوله : « إننا مازلنا نعاني من فقدان تلك الكتائب الرومانية فى ألمانيا على أيدى فاروس » .

وأجابه هوايتهد حاداً بقوله : « يحتمل كثيرا أن يكون الأمر كذلك » .

(١٦)

١٨ من يوليه ١٩٣٩

فى الساعة العاشرة من هذا الصباح يعود آل هوايتهد إلى مسكنهم بفندق إمباسادور فى كمبردج يقضون به ليلة حتى يأتيهم نورث لينقلهم إلى « جزيرة باتلشب » فى بحيرة سباجو بالمين .

وقبل الرحيل ، أراد هوايتهد — وقد لبس سترته وقبعته — أن يخرج إلى الحقل المنحدر فوق النهر ليلقى نظرة أخرى على المنظر الذى أحبه حباً جماً . ورافقته أنا وبكمان . وإذ نحن واقفون بالحقل نسرح الطرف فى الطبيعة ، ونرسله إلى تيار كنكورد الساكن النائم ، عاد الحديث إلى موضوع ما يحققه الشاعر لنفسه من فائدة .

قال هوايتهد : « فائدته فى تدوين فكرته . كان عنده موضوع ليس له صيغة ، يصوغه فى أبيات من الشعر ، ثم يصبح فرحا ويقول « هأنذا قد وجدتها ! » .

« وهل للثناء قيمة كبرى عند الشاعر ؟ » .

قال : « لا بد لهم منه فيما أعتقد ، وإلا فكيف يعرفون أنهم أصحاب نفوذ ؟ ومن السخف أن نزعم أن الرجل يحسن المحاضرة إذا كان نصف مستمعيه نياما . إن الاستجابة ضرورة لا بد منها » .

« إنها قد تكون مخدراً كذلك » .

فاستدرك هوايتهد قائلا : « إنهـا ضرورة للفنانين الثانويين ، وللممثلين والمخرجين. أما الشاعرفيجد ثناءه فى الأداء ذاته . وهو يعرف متى يكون مجيداً ... ويعرف متى يبلغ حد الإعجاز! حتى فى الحديث العادى . ولست أقصد به الآراء التى صغناها فى أذهاننا أولا صياغة دقيقة . ثم أكسبناها لفظاً . وإنما أقصد الآراء اللاشعورية التى تنبعث تلقائياً من اللاشعور فى ألفاظ دون إقحام أية عملية من العمليات ذات الأثر التى نعرفها . وذلك أشد مايدعو إلى الدهشة . ولم يفسره لنا أحد قط . ولا يعرف أحد العلاقة بين هذه التأملات اللاشعورية وترجمتها الباغتة إلى كلام » .

ثم اتجه الحديث نحو جيته .

فقال هوايتهد : « طرأ لى أخيراً أن تفكير جيته خاص جداً ، وأن العالم يكون أكثر تقدماً بالعواطف الثانوية السليمة الصحيحة المعقولة التى عبر عنها شلر . إن هذه العواطف لا ترتفع قط فوق مستوى معين ، ولكنها آمنة مفيدة» .

وعلقت بقولى : « قال لى صديقنا لفنجستون ذات مرة إنه لم يحفل بجيته لأنه « لم يكن رجلا مهذباً » . وبعد ثلاث سنوات ذكرته بقوله هذا ، فانفجر ضاحكا وصاح : « هل قلت ذلك ؟ إننى لأعجب ما ذا كنت أعنى » .

فقال هوايتهد : « كان جيته يوغل فى العواطف الخيالية بدرجة غير مألوفة. وانى لأشك خاصة إن كان العالم يتقدم بهذه العواطف الخيالية » .

وكانت رحلتنا إلى كمبردج ذات صباح مشرق فى يوم من أيام الصيف . وتحدث هوايتهد وزوجه عن أسفهما لاضطرارهما إلى التخلى عن أمسيات ايام الآحاد التى كانا يخصصانها للطلبة .

وقالت مسز هوايتهد فى هذا الصدد : « حينما قدمنا إلى هارفارد لأول مرة ، قال زملاء أولتى فى القسم : لا تمكن الطلبة من التدخل فى عملك ! إن عشر دقائق أو خمس عشرة تكفى لأى نقاش معهم ... » .

وزاد على ذلك هوايتهد وهو يبتسم مبتهجاً : « تذكرى أن أكثرهم كان من الخريجين ، مشكلاتهم التى يعرضونها للنقاش نفسية معقدة » .

« وكيف كنت تتغلب عليها ؟ » .

فأجابت بقولها : « كان أولتى يرد عليها بصوته المذب ، الذى يصدر عنه دائما حينما يصمم بصفة خاصة أن يعالج الموضوع بطريقته ، وكان يقول : (إن عاداتى قد تجمدت . وأخشى أن يكون الكبر قد بلغ حداً لا يمكننى من تغيير أسلوبى . وعليكم أن تصبروا معى) » .

« سمعت عن اجتماعات أمسيات الآحاد عندكم قبل أن أتعرف إليكم بسنوات عدة وكنت أتوق دائما إلى حضورها » .

قالت : « ولماذا لم تفعل ؟ لقد قيل لنا إن أحدا لن يرغب فى الحضور . ولم يحضر أحد بالفعل فى أول أمسية — إذا استثنينا رجلا صينيا بقى معنا إلى ما بعد منتصف الليل . وكدنا نفشل فشلا تاما ! ثم بدأوا يفدون علينا ستة ، ستة ، كى يحتمى كل منهم بالآخر فيما أظن . وأخيرا ذات مساء استمعوا إلىّ وأنا أجادل الحكيم — فى نقطة كنت أعرف أن أولتى قد أخطأ فيها . وتبادلنا أطراف الجدل وأخيرا أقر أولتى بخطئه . ولسبب لا ندريه انتشر نبأ هذا الجدل . فبدأ الضيوف يتوافدون . ولم يزد عدد الزائرين فى أية ليلة عن بضعة وتسعين . ثم نمى الخبر إلى اليهود فجاءوا أسرابا . وتباعد من عداهم . واستمرت الحال على ذلك عامين ، نقضي مع اليهود وقتا طيبا دون من هم على غير دينهم . ثم عاد هؤلاء إلى زيارتنا وعادت الأمور كما كانت . وكان فلكس عونا كبيرا فى هذه المجتمعات .

إنه لم يتكلم ، ولكنه حث الآخرين جميعا على الكلام . ولم يستطع أصدقاؤنا أن يصدقوا أنني لا أرضى بإلغاء أمسيات الأحد هذه في سبيل حفلات العشاء التي كانوا يقيمونها للمشهورين من الأجانب ، بيد أننا لم نتخل مرة واحدة عن طلابنا » .

وبلغنا فندق أمباسادور .

فقالا : « ألا ترغبون في الدخول معنا ؟ »

وكانت أرجاء المسكن مغطاة بالورق لحلول فصل الصيف . وقد حدث ذلك فعلا ، لأن جون وماري اللذين عاشراها — ماري لمدة تسعة عشر عاما ، وهو لما يقرب من عشر سنوات ، قد قاما — أثناء غيابهما — بتنظيف جميع الكتب وإعادتها إلى رفوفها مغطاة بأوراق الصحف . وكل شيء بالمسكن كان يفوح بالجدة والنظافة . وطافا بأرجاء المكان يستنشقان جوه ويعبران عن ابتهاجهما .

ثم قالت لي : « البث معنا لتتناول عشاء من اللحم » .

وكانت عودتنا من الريف إلى مسكن في عمارة في يوم من أيام يولية الذي اشتد قيظه مناسبة للاحتفال . وبينما كانت ماري تعد عشاء اللحم الموعود ، جلسنا في مكتب هوايتهد ، يهب علينا نسيم عليل .

وكانت حمى السياسة في أوربا تزداد سوءاً يوما بعد يوم ، وشرعنا نقارن بين مسلك الدكتاتوريين الفاشيين والحكام المستبدين المجانين في المأساة الإغريقية .

قلت : « إن هتلر لم يسمع قط بآلهة المثوبة والعقاب في العقائد الإغريقية . ولو قد عرف شيئا من هذا لما كان له لديه معنى . أما الرجل الآخر فقد قرأ في هذا الباب » .

فقال هوايتهد : « لقد قرأ مكيافلي . وقد كتب مكيافلي قواعده لبلوغ نجاح قصير الأجل ، يمتد من خمسة أعوام إلى خمسة عشر » .

وأدى بنا ذلك إلى نقاش حول طول حياة النظم فقال :

« إن الجامعات فى أوج مجدها الآن ، بيد أن الجامعات قد تصبح سببا من أسباب القلاقل ، كما كانت الأديرة ، ولنفس الأسباب » .

وقالت زوجته : « لقد بلغت الآن بالفعل مفترق الطرق » .

وتحدثنا عن إساءة استعمال « البحث » ، وذكرت خطاب چون برنت فى ١٢ من مارس عام ١٩٠٤ بسنت أندروز ، وقلنا إن الناس الذين يكثرون من الحديث فى « البحث » ليسوا أولئك الذين قاموا به . لقد ابتذلت الكلمة وأصبحت مما يسىء إلى كثير من الناس .

وإنا لنسمع عن « بيئة البحث » وعن « المنح التى تقدم للبحوث » وما إلى ذلك ، كأن الأمر كله يتعلق بالمال ، ولكن صاحب الخطاب لم يفترض أن أى كشف من الكشوف العظيمة . قد استعان بالمال ، ومن المؤكد أن جميع الكشوف قد قام بها رجال لم يفكروا بتاتا فى المعونة المالية .

فقال هوايتهد : « لقد سمعتمونى أنقد جبن العلماء . وأعتقد أن ما النقد المتزن من قيمة قد انتهى — ذلك العمل الضخم الذى استمر منذ النهضة لتنقية الأصول الكلاسيكية . ذلك عمل قد تم وانتهى . ونحن اليوم نعلم عم كان يتحدث المؤلف ولكن العلماء ما زالوا يعيدون ثم يعيدون هذه التنقية ، بعد أن لم تعد لها قيمة» .

« لماذا يستطيع العلم أن يقفز كل هذه القفزات التى وثبها فى القرن الماضى ، بل فى الأربعين السنة الماضية ، فى حين أن الدراسات الإنسانية تتقدم تقدما وئيدا ؟ هل نحن حقا قد سبقنا أفلاطون وأرسطو فى هذا المضمار بخطوات شاسعة ؟ »

فأجابنى بقوله : « فى القرن الثامن عشر (وأنا أتحدث عن إنجلترا حيث أعرف ما أتحدث عنه) كان بالإمكان مسايرة روما واليونان فى أزهى عصورها ،

فإن البناء الاجتماعي كان شبيها بهما إلى حد يجعل السوابق التاريخية ذات قيمة عملية ، ولو إلى حد ما . فما زال هناك الجماهير والأرستقراط . ولو كان الأمر مما يتعلق بحكم مستعمرة إمبراطورية — كالهند مثلا — استطعت أن تحذو حذو الرومان . ولو أن حاكما إستعماريا قُدم إلى المحاكمة لسوء إدارته — مثل وارن هيستنجز — كانت أمامك خطب شيشرون ضد فريز الذى اتهم بحكمه الجشع فى صقلية . . وحتى فى القرن التاسع عشر كان بالامكان إحتذاء المثال الاغريقى الرومانى إلى حد كبير . أما الآن ، فى القرن العشرين ، فإن التكنولوجية الحديثة قد عدلت من القيم الخلقية ، أو من العلاقات الاجتماعية ، حتى بات الأمر يتطلب مزيدا من البحث ومن الدقة فى تطبيق النظم التقليدية الكلاسيكية على احتياجات العصر الحديث » .

« وما ذا يحتمل أن يكون أثر هؤلاء الرجال الذين تعلموا تعليما علميا على حكم الإمبراطورية البريطانية ؟ » .

« إنا نبعث إلى الخارج إداريين استعماريين من الرجال الذين لم يُشربوا بروح التقاليد الإنسانية القديمة ، وإنما من خريجى المدارس العلمية . إنهم لا يقلون عن نظرائهم ذكاء . ولكن هل نالوا ما لقيه هؤلاء من تدريب ملائم ؟ إنى أشك فى أنهم يدركون بمثل دقتهم التكوين العاطفى للشعوب التى لا بد لهم أن يحكموها » .

قلت : « إن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مثال لنظام له خبرة واسعة فى الحكم ، أفاد من علم العالم القديم » .

« انه نظام قد تعلم كيف يدير الأمور ادارة ناجحة فى مجتمع ملكى تحكمه الأرستقراطية ، وعندما يفكر أحد أن فى تعديل هذا المجتمع ، أو فى تحريره بتحويله إلى النظام الجمهورى أو الديمقراطى ، تقف الكنيسة عادة موقف المعارضة لهذا التعديل . والآن ، فى الوقت الذى قد جن فيه جنون بعض الحكومات الاوربية ترى الكنيسة — أو هى تظن أنها ترى — ميزة فى جانب الدكتاتوريات الفاشستية التى تعارض نوع الدكتاتورية التى يمثلها ستالين . وأعتقد أنهم مخطئون » .

« قال لى عالم اجتماعى ممن أعرف (وهو يميل إلى جانب الاشتراكية بصورة واضحة) إنه يعتقد أن الكاثوليكية ستتغلب على الشيوعية إما بمسايرتها أو بالقضاء عليها ، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى أن الماركسيين يغضون الطرف فى فى عناد عن الاحتياجات العاطفية لمتوسط الناس ، فى حين أن الكنيسة تشبع هذه الحاجات . »

قال هوايتهد : « لقد نجحت الكاثوليكية فى إخراج نوع مهذب نوعا من النساء . ولكنها لم تبلغ مثل هذا النجاح مع الرجال . بالرجال حاجة إلى أن ينفضوا عن كواهلهم عبئا تلقيه عليهم الكنيسة ، وما لم يفعلوا ذلك، لن يكونوا مفكرين لهم أثر . إنهم إذا لزموا حدود العقائد الكنسية الجامدة ظلوا دائما على خشية من أن يفكروا فى رأى يتعارض معها . وأعتقد أن الكنيسة كان باستطاعتها أن تكون أشد جرأة مما هى عليه — وهى مطمئنة ـ فى قائمة الكتب التى تصرح بقراءتها . إن أمرسن لا يصيب شعب الكنيسة فى الحقيقة بأى لون من ألوان الأذى . »

— ١٧ —

١٥ من ديسمبر ١٩٣٩

بدأت الحرب العالمية الثانية منذ وقت قصير . وكان هذا أول مساء لى مع آل هوايتهد منذ اشتعال الحرب فى سبتمبر . وكان كل امرىء فى هذا الوقت لا يزال يمتنع عن مس موضوع الحرب مع غيره إلا بالحذر الشديد ، لأن الشعور كان ملتهبا ، ولم يستطع أحد أن يتنبأ بالمستقبل .

ولم يكن الأمر كذلك هنا على أية حال . فقد لمسنا الموضوع لمسا مباشراً .

قال : « إننى على يقين جازم بأن أمريكا يجب أن تبتعد . أنتم بحاجة إلى نحو خمسين عاما لكى تستقروا وتقروا بعض المشكلات المحلية التى يبدو أنكم الآن فى طريقكم إلى حلها . فاذا أنتم دخلتم واشتبكتم اشتباكا شديدا فربما أدى ذلك إلى ضرر دائم لمستقبل العالم . ولو أننا فزنا بمعونتكم ـ كما حدث فى المرة السابقة ـ فإن التسوية التى نصل إليها بحضوركم قد تفقد التوازن بعد انسحابكم . من الخير لأوربا أن تحقق اتزانها بنفسها » .

وقالت : « أما إذا انهزمنا ، فقد أصبح لزاما عليكم أن تتدخلوا ، وإلا وجدتم النازيين فى كندا وفى أمريكا الجنوبية » .

قال : « أشك فى أن العالم قد مرت به من قبل محنة على نطاق واسع كهذه المحنة » .

« إنك تدهشنى بهذا القول . ألم تكن محنة روما تحت حكم الأباطرة الفاسدين أوسع نطاقا ؟ » .

« كانت الآلام وأسباب الجزع فى روما محصورة فى الطبقات العليا الى حد كبير . ولا بد أيضا أن تكون آلام العدد الضخم من الرقيق ، الذى كان يقوم عليه هذا المجتمع ، شديدة كذلك » .

« يروى المؤرخ پرسكس قصة زيارته لمعسكر الهون التابعين لأتلا ، وكيف اخترق أراضى انتحرت فيها عند اقترابهم جماعات بأسرها ، فلما بلغ معسكرهم ألفى هؤلاء المحاربين أنفسهم ممتلئين بالحماسة وينشدون الأناشيد التى تتغنى بفضائلهم ... » وقد رأيت أن أربط هذه الظاهرة بمقدار انتشار الآلام البشرية ، ثم شرد ذهنى وذكرت لهم ذلك . وقال إنه كثيرا ما حدث لى مثل هذا الشرود فى الأيام الأخيرة .

قال « يسرنى أن أسمع منك ذلك ، لأن ذهنى كذلك يشرد ، وكنت أعزو ذلك إلى سنى » .

« أعتقد أنه التعب. إن وعينا للحرب ماثل دائما فى أذهاننا . ونحن مضطرون إلى معاودة التفكير فى الأمور المادية بالإشارة إليها . وكثيرا ما نفعل ذلك على غير وعى منا ، ولكن الجهد يرهقنا بعد حين . وكأن شيئاً فى اللاشعور يجذبنا » .

قال : « لقد فقدت القدرة على أداء أى عمل لفترة ما بعد نشوب الحرب . فقد كانت دائما فى خاطرى . أما الآن فقد تشبعت بها عملياتى الفكرية أخيرا ، وبدأت أعود إلى العمل » .

« يقول سكت نيرنج ، الذى تناول معى طعام الإفطار هذا الصباح (وهو أحد زعماء التحرير الأمريكى) إن المشكلة فى عصرنا الحاضر هى كيف يعيش المرء عيشة حسنة فى مجتمع منحل . ولست على ثقة مما يقول . وليس من شك فى أنا نعيش فى ضائقــة اقتصادية ، ولكن أليس من الجائز أن يكون من أثر التكنولوجية العلمية ، وما يترتب عليها من عنف واضطراب ، إعادة تماسك المجتمع ؟ من الخير لنا ألا نتعجل اليأس — ولست أقصد أنه من المحتمل لأى منا أن ييأس . ولكن كل عصر عظيم — أثينا فى القرن الخامس ، وروما لعهد أغسطس ، والنهضة ، والإصلاح الدينى ، والثورة الفرنسية ، سبقه أو صاحبه عنف واضطراب . الحرب الفارسية فى اليونان والحروب الأهلية الرومانية قبل أغسطس ، وغير ذلك .... ألا ترى معى أن الوقت لم يحن بعد للحكم ؟ وهل تدهش لما حدث إذا تذكرنا الانقلابات الآلية والعقلية التى وقعت منذ بداية هذا القرن ؟ » .

وقال هوايتهد : « لقد عشت ثلاث حيوات متميزة مدى عمرى : الأولى من الطفولة إلى الحرب العالمية الأولى . والثانية من عام ١٩١٤ حتى إقامتى فى أمريكا

فى عام ١٩٢٤ . والثالثة هنا منذ عام ١٩٢٤ . ويبدو أن الحياة الأولى أكثرها غرابة . فى تلك الأعوام من سنة ١٨٨٠ وما بعدها حتى الحرب الأولى ، من ذا الذى كان يحلم أن الآراء والنظم — التى كان يظهر عليها الثبات وتتشذ — لم تكن دائمة ؟ » .

« بالرغم من حداثة سنى حينما كنت أنت رجلا كامل النمو ، فإن الدنيا فى عام ١٨٩٠ وما بعدها تبدو لى كأنها كانت تسبح فى ضباب ذهبى من الأناشيد الأسطورية » .

قال : « كانت كذلك منذ سبعة وخمسين عاما حينما كنت شابا فى جامعة كمبردج . وقد تعلمت الرياضة والعلوم على رجال أفذاذ ، وبرزت فيها . ومنذ بداية هذا القرن قدر لى أن أرى كل فرض أساسى فى هذه العلوم والرياضيات وقد انقلب رأسا على عقب . ولا أقول أنه قد نبذ ، ولكنه بات فى المحل الثانى بعد ما كان فى المكانة الأولى . حدث كل هذا فى مدى حياة واحدة — انقلبت أهم الفروض الأساسية فى العلوم التى كانت تنسب إليها الدقة البالغة . ورغم هذا نجد أن مستكشفى الفروض الجديدة فى العلوم يصرحون بقولهم : وأخيرا بلغنا اليقين — فى حين أن بعض الفروض التى شهدنا انقلابها قد ثبتت لأكثر من عشرين قرنا » .

« وهل هذا من أسباب الصعوبات التى تلاقيها فى استخدام مصطلحات جديدة لآرائك الخاصة ؟ » .

« هل لاحظت ذلك ؟ » .

« لاحظت أنى أستطيع أن أفهم الثلث الأول والثلث الأخير من كتابك (مغامرات الأفكار) ومن مقالك (الذكرى المئوية الثالثة لهارفارد) . أما فى الثلث الأوسط فأجدنى أتعثر . فهل الثلث الأوسط فوق مستوى الرجل العادى

الذى يود أن يقرأه ثم يعيد قراءته ؟ » .

« كلا . لا أظن ذلك . فأنا أكتب للرجل العادى . وفى سبيل ذلك أتحاشى الألفاظ الفنية التى يألفها الفلاسفة » .

فقالت زوجته : « ومن أجل هذا لا يحبه الفلاسفة ، وإن كانوا فى منتهى العذوبة فى نقدهم » .

وواصل حديثه قائلا : ولكننى أعتقد أن من واجب الفلاسفة أن يربطوا أفكارهم باحتياجات الحياة العامة . وهناك أمر آخر لابد لهم منه . عند ما تفكر فى المشاق التى يلاقيها رجال العلم لكى يقيموا نظرياتهم على فروض تتعرض للنقد الدقيق — وكيف يضعون الاختبارات التى يسيطرون بها على التجارب — عندما تفكر فى ذلك أذكر كيف كانت الأفكار الأساسية حتى لأكبر الفلاسفة فى الماضى تخضع إلى حد كبير للملاقات البيئية الوقتية بحكم الضرورة . تلك الملاقات التى كانوا يعيشون فيها . أما العيب فيقع على عاتق المفكرين المتأخرين الذين لم يترددوا فى قبول أحكامهم دون التوقف لإعادة البحث فيها فى حدود الظروف الاجتماعية المتغيرة » .

قلت : « إن (علوم السياسة) لأرسطو مثال قوى لما تقول . لا شك فى أنها كانت تقوم على فرض أساسى ، وهو أن المدينة الحكومية هى الشكل السياسى السائد ، وذلك أيضا فى عصر بدأ فيه هذا النظام فى التخلف عن مسايرة الزمن وأوشك أن يتبدل لتحل محله ملكيات عسكرية على صورة مستمدة من فتوح الاسكندر الأكبر ، تلميذ أرسطو » .

« هذا مثال طيب لما قصدت إليه . الفلسفات بحاجة شديدة إلى إعادة التفكير فيها فى ضوء ظروف البشرية المتغيرة » .

« وإلى أى حد يستطيع العقل وحده أن يقوم بذلك ؟ »

« أشك فى أنا نتقدم كثيرا بالعقل وحده . أشك فى أن العقل يستطيع أن يسير بنا شوطا بعيدا . لقد تحدثت عن البداهة المباشرة . وكلما تقدمت بى السن زاد تقديرى لعبقرية فذة لا تبارى تميز بها أحد الفلاسفة ، وذلك هو أفلاطون (وعندما تفوه بكلمة فذة أكدها بطريقة نطقها وأغمض جفنيه قليلا) . قلما تجد بداهة لم تكن لديه أو لم يقدرها ، وحتى بعد ما تضع فى الحسبان التعديل الذى يترتب على الظروف الاجتماعية المتغيرة منذ ما فكر وكتب ، كما ذكرت منذ برهة ، والتغيرات التى لابد من القيام بها بناء على ذلك ، حتى بعد ذلك فإن الجانب الأكبر من فلسفته لا يزال قائما . لقد جابه الوقائع ، أو تلك الحقائق التى لا يفهمها الرجل العادى فهما مباشرا ، وبقدرة عجيبة على الدقة والجدل وضعها فى صيغة يمكن للأثينى المتعلم فى عهده أن يدركها ».

وبلغت الساعة الآن العاشره والنصف . وجىء بالشكلاته الساخنة . وانتقلنا إلى الحديث فى موضوع « النظامية الإنجليزية » وهل قامت على ضرورات اقتصادية .

فقال هوايتهد : « كلا ، لم يحدث ذلك ألبتة فيما أظن . وإنك لتلمس فى جون وزلى ذلك المزيج غير المألوف ، فقد كان رجلا يجمع بين البداهة الروحية والقدرة التنظيمية العظمى . كان التنظيم عنده طبيعة كالتنفس . وإنى لمدين لصديقى إلى هالفى بملاحظة من أشد الملاحظات التى سمعت فى حياتى نفاذا عن التاريخ الإنجليزى ، وهى أن الأفكار الثورية الفرنسية ، وبخاصة مذهب اليعقوبيين ، قد حالت دون عبورها القناة الإنجليزية فكرة اتباع وزلى الدينية ، الذين كانوا ينظرون إلى اليعقوبيين كأنهم بغير إله . وقد كان الثائرون — كما تذكر — يؤمنون بالله ، أذكر منهم روبسبيير وسنت جست وغيرهما من زمرتهما . ولكن النظامى ، كان لا يقيم لذلك ألبتة وزنا . ثم لما تطور العصر الصناعى ، حينما بدأت الأسرات الغنية

من الطبقة المتوسطة تتزاوج مع الأرستقراطية ، كان لذلك أثر فريد — وهو أن هذا التزاوج قد أعطى الأرستقراطية — لأول مرة فى التاريخ تقريبا ـ مسحة دينية لونت الحياة السياسية الإنجليزية بأسرها فى القرن التاسع عشر.» .

« إن رومان رولان فى (چين كرستوف)[1] يذكر على لسان إحدى الشخصيات أن ما جعل الإنجليز شعبا مفزعا أنهم أمة ظلت تقرأ الإنجيل عدة قرون » .

وفكر فيما قلت متشككا فيه ، ثم قال : « إن هذا الرأى أقرب إلى الفكرة الأدبية منه إلى القوة التاريخية . إن الإنجيل يتميز باشارته إلى الأبدية » ثم وقف بغتة وتحدث فى حماسة شديدة قائلا : « ها نحن أولاء بشخوصنا المحدودة الأجل وحواسنا المادية أمام عالم إمكانياته لا تحد ، وبالرغم من أنا قد لا نفهم هذه الإمكانيات اللانهائية ، فإنها وقائع ثابتة » . ولبث واقفا لحظة مستغرقا فى تفكير، ثم عاد إلى جلسته ، وواصل حديثه قائلا : « إن عيب الإنجيل فيمن تصدوا لتفسيره ، أولئك الذين سخطوا ذلك الإحساس باللانهاية وحولوه إلى آراء نهائية محدودة ، وقد كان أول مفسر للعهد الجديد أسوأهم ، وهو بولس » .

« هل قرأت (الكافر بالمسيح) لنيتشه ؟ » .

« كلا » .

(١) « إن بدنى يقشعر عندما أذكر أن الشعب الانجليزى قد تغذى بالإنجيل عدة قرون ... وانه ليسعدنى أن أرى القناة الإنجليزية حاجزا بينى وبينهم . ولن أعتقد قط أن الأمة تعد كاملة التمدن مادام الإنجيل هو غذاءها الرئيسى » .

قال كرستوف (وهو ألمانى) « إنك فى هذه الحالة تخشانى كما تخشاهم ؛ لأن الإنجيل يسكرنى . انه قوام شعب من الأسود . والقلوب الجريئة هى التى تتغذى بلبانه . ان العهد الجديد ـ بغير ترياق العهد القديم ـ غذاء غير صحى ولا طعم له . الإنجيل هو عظام الأمم التى تريد أن تعيش وهو عصبها » ـ من چين كرستوف فى « البيت » لرومان رولان . ص ٣٧٦ من طبعة اخوان هنرى هولت سنة ١٩١١ .

« إن عنوان الكتاب أعنف من محتواه ، وإن كان المحتوى فيه شىء من العنف. ويدهشنى أن نيتشه كان رفيقا بيسوع ، وهو يقول بأنه لم يوجد غير مسيحى واحد، وقد مات مصلوبا . بيد أن القديس بولس قد أدرك ذلك من غير شك » .

قال : « إننا نتكلم عن نهاية المسيحية فى حدود ألف عام . بيد أن المسيحية اتخذت أشكالا عدة فى تاريخها حتى إنى كثيرا ما أتصور أنها قد اتخذت شكلا جديدا ــ وربما كان نهائيا ــ هنا فى أمريكا ، بعدما تآلفت مع فكرتكم الديمقراطية عن الحياة . إن الحياة فى أمريكا ــ برغم كل مافيها من قيود ــ أفضل وأرق منها فى أى مكان آخر على وجه الأرض سمعت عنه خلال العصور التاريخية كلها . غير أن رجال الدين قد فقدوا نفوذهم . فإن الرجل اذا اشتدت به الأزمة فى أمريكا يتجه الآن إلى الطبيب ، ولا يفكر فى إخطار قسيسه . اللهم الا هنا وهناك حينما يكون القسيس فردا غير عادى . أما فى إنجلترا فإن الرجل الذى يقصده الناس فى أزماتهم هو محامى الأسرة ، وإنك لتلمس ذلك فى القصص الإنجليزى ، فهو فيها شخصية مألوفة . إن المشكلة فى الدين هى أن تربط النهائى باللانهائى . ومما له دلالته أن الناس لم يعودوا يعتقدون فى السماء » .

« وماذا أنت واجد فى سماء المسيح مما تستطيع أن تؤديه ؟ »

« إنى أوثر أن أذهب إلى حافة جهنم حيث أستطيع أن أقابل الفلاسفة اليونان ورجال السياسة من الرومان وأبادلهم الرأى » .

فسألت مسز هوايتهد : « وكيف يستطيع الفرد أن يتغلب على الملل المميت فى الجنة ؟ على الأقل كما يصورونها عادة ــ نغما رتيبا »

قال : « لابد من إيجاد ما يحل محلها »

« ربما كان المطلوب صورة من صورة القدرة على الابداع »

وناقشنا هذا الرأى فقال :

« كتب إلىّ سر رتشارد لفنجستون يقول إن أقوى العبارات دلالة عنده فى كتابى (أهداف التربية) هى تلك العبارات التى تقول إن الرجل العادى بحاجة إلى الاقتناع بأهمية العمل الذى يؤديه » .

فقالت مسز هوايتهد : « أهمية وظيفته ، لا أهمية شخصه » .

وواصل حديثه قائلا : « وكذلك المشكلة الأساسية فى الفلسفة الحديثة هى كيف نربط الواحد بالمتعدد . وقد تحدث فى ذلك أفلاطون ، وأصاب فى الكثير من المواضع ، ولكنه كذلك أخطأ خطأ فاحشا فى مواضع كثيرة أخرى . والاتجاه الحديث هو أن تقول : أنا سعيد (الآن) ، والمستقبل لا يهمنى . ولكن (الآن) لا معنى لها بغير دلالة المستقبل . والمطلوب هو أن نربط كل (الآونات) بالمستقبل » .

فسألت مسز هوايتهد : « وما الفارق بين الذكاء والقدرة ؟ أعتقد أننا جميعا نبتهج حينما نلمس الذكاء فى الطفل أو المراهق . أما إذا كنا لا نزال نعجب به عند الراشد فنحن من الخاطئين » .

« أليس هناك شخص فى إحدى روايات دكنز يقال عنه — حتى أواخر أيامه — إنه شاب يرجى منه ؟ أعتقد أن الذكاء هو سرعة الفهم ، وهو يتميز عن القدرة ، وهى القدرة على التصرف بحكمة فى الأمر المفهوم . ولكننى أتوق إلى السؤال عما نعنى حينما نقول عن شخص ما إن عنده عمقا ؟ إننا نعرف ما نعنى ، ولكننا لا نستطيع أن نصوغه فى ألفاظ . »

فقال هوايتهد : « إننا لا نستطيع ذلك على وجه دقيق ، لأن العمق هو القدرة

على أن يأخذ المرء فى اعتباره فى موقف من المواقف كل تلك العوامل التى لا يمكن أن تصاغ فى اللفظ صياغة شافية » .

فقالت : « إن هذه العوامل تفترحينما تصاغ فى اللفظ . العمق عندى هو القدرة على أن يرى المرء مايحيط بالأمور ، وأن يرى هذه الأمور فى كل علاقاتها » .

« وهل هى موروثة أو مكتسبة » ؟

قالت : « ليست مكتسبة ، إنما هى موروثة ، ولكنها تتطور بعد ذلك » .

فقال هوايتهد : « إننا نحصل من الأطفال على أقصى قدراتهم إذا نشأوا فى ظروف اقتصادية بعيدة عن الترف ، ظروف تقحمهم فى سن باكرة فى زمرة أولئك الذين يتحملون التبعات فى المجتمع . وقد يكون هذا المجتمع كبيرا ، ولكنه لا يتحتم أن يكون كذلك ، ويكفى أن يكونوا أشخاصا مسئولين يؤدون عملا عاما . هذه فئة . أما الفئة الأخرى فلا يلزم حتى أن تكون فى حالة اقتصادية مريحة ، ولكن الطفل ينبغى أن يولد — أو ينشأ — وسط أفكار خلقية جدا أو دينية » .

« إن ما نفعك يا أولتى هو إحساسك الخلقى والدينى . ولقد أخذت هذا الإحساس عن أبيك القسيس » .

قال : « لقد أسس أمريكا أناس من هاتين الفئتين : من أصحاب المسئولية الاجتماعية ، وأصحاب الحس الخلقى . وكثيراً ما بدا لى أن ذلك هو الذى جعل القرن الثامن عشر فى إنجلترا فاتراً . لأن الناس الذين توافرت فيهم الحيوية قد أتوا إلى هنا فى القرن السابع عشر . وكانت فرنسا أفضل من إنجلترا فى القرن الثامن عشر ، وأهم نتائج الثورة الفرنسية هى الثورة الأمريكية . وقد أخفقت الثورة فى فرنسا ، ولكنها نجحت فى أمريكا » .

وأدى بنا ذلك إلى ملاحظة انعدام الحماسة فى هارفارد ، على نقيض ما يشاهد فى الغرب الأوسط ، وبخاصة بين طلاب الجامعة فى هارفارد حيث كانت الحماسة تعد أمراً غير مستحب من الناحية الاجتماعية . وقال إن الحماسة تنعدم عند أبناء الأسر الغنية فى بوسطن ونيويورك ، وهم ثلث الطلاب ، أما الثلث الأوسط فهو محايد كالمادة ، ولكن الثلث الأخير يتصف بها ، وهم فتية أكثرهم من المدن الصغرى ومن المناطق النائية . أما هيئة التدريس فقد أقر بأن ميل الكثيرين منهم يتأثر بأبناء الطبقة العليا ، وفى اعتقاده أن صوتهم غير مسموع فى إدارة الجامعات الأمريكية ، ولم يكن لهم من قبل هذا الصوت ، على نقيض الحال فى إنجلترا ، حيث تكون الإدارة فى أيديهم . هنا يختص كل أستاذ بقسم ، أما فى ترنتى فهناك هذا الاتجاه أيضاً ، ولكنك لو تعمقت ألفيتهم جميعاً على رأى واحد ، إذ يريدون أن تكون ترنتى مكاناً له قيمة تربوية حية . لما تألفت جامعة لندن من مدارس متباعدة أشد التباعد ، اشترط أن يكون لهيئة التدريس صوت فى إدارة المؤسسة الجديدة .

« لقد طورت إنجلترا نظامها الجامعى . وكثيراً ما أتساءل عن المدة التى نستغرقها لكى نطور هنا نظاماً يلائم احتياجاتنا الخاصة بنا » .

قال : « لقد تغير النظام الجامعى فى إنجلترا كثيراً منذ عام ١٩٠٠ . كانت هناك قبل ذلك أكسفورد وكمبردج وأدنبره وجلاسجو وسنت أندروز . ومنذ ذلك الحين نشأت كل الجامعات الجديدة — وعدد ستا منها .

وخلال المناقشة عرضنا لموضوع الطريقة التى نحمى بها الفكر من التجمد فى أفكار ثابتة ، وكيف أنه من السهل أن تنكمش الدراسة الدقيقة إلى علم لا حياة فيه . وقال إنه عند ما كان الزملاء القدامى ينتخبون زملاء لهم جددا من بين المرشحين للزمالة ، قرأ على اللجنة عالم أثرى شاب بحثاً علمياً عن عمود أثرى معين

تعرض فيه لتأريخه، وهل أخطأ الباحثون فى تحديده لمدة ثلاثة أعوام بالنقص أو بالزيادة!

« (وجلس فرجيوسن ـ وخده على يسراه ـ يستمع إليه راغماً

(وجلس تشيس ـ وخده على يمناه ـ يستمع إليه راغماً

(وجلس لوب ـ وخده على راحتيه ـ يستمع إليه راغماً

(فى حين أن النقص أو الزيادة لا تهم أحداً منهم فى شىء ما) . ولكن شاباً اسمه تشارلز مور [1] قدم بحثاً عن سوفوكليز بلغ من الجودة أنه إذا لم يصدق عن سوفوكليز، ينبغى أن يصدق » .

« وكم كان يبلغ من العمر ؟ »

« زهاء اثنين وعشرين عاماً فيما أعتقد » .

« إنه أصغر من أن يعلم الكثير عن سوفوكليز » .

« ربما كان ذلك صحيحاً، ولكن اثنين منا أصرا على قبوله حتى لو كان ذلك على جثث الأعضاء » .

وهنا نقل هوايتهد الموضوع إلى الحديث عن صحف بوسطن .

قال : « إن صحيفة هيرالد ـ لو انتقدت شرارتها قليلا ـ تعبر عن رأى أصحاب الأعمال الناجحين تعبيراً يدعو إلى الإعجاب ـ بل وإلى أكثر من الإعجاب ـ بيد أنك لو أردت أن تعرف ما تفكر فيه إنجلترا الجديدة بجميع طبقاتها ـ وأنا شخصياً أريد أن أعرف ـ فلا مناص لك من أن تقرأ صحيفة جلوب . ونحن نخاطر

---

(١) كان تشارلز مور يعرف أموراً عجيبة عن سوفوكليز .

بالظن أن كثيراً من المقالات الرئيسية فى الملاقات الخارجية ـ وبخاصة ما كان منها متعلقاً بالسياسة البريطانية الخارجية ـ من تحرير كاتب أرلندى غاضب» .

« هى كذلك » .

« إنه يمارس حقوقه ، غير أنه يضفى على نفوذ المحافظين ـ الذى لا يرضيه ـ أهمية لا يستحقها » .

«إن الجنود البريطانيين هزموا جده وقضوا عليه فى أرلنده . وكانت ذكرى الحادث حية فى ذهن جدته حينما زوجته له . إنه رجل فذ فى مقدرته ، له مبادىء شامية يراعيها فى عمله اليومى» .

ثم تحدثوا عن المقال الرئيسى عن الموسيقى الذى نشر فى ٢٤ من نوفمبر دون أن يسأل أحد منهم عن كاتبه . وفى هذا المقال قلت إن الموسيقى العظيمة يدركها الأطفال ـ حتى أكثر من إدراكهم للأدب العظيم ـ لأنها تخاطب العواطف والخيال والبداهة مخاطبة مباشرة ، وهى قدرات كثيراً ما تكون عند الأطفال أحدّ منها عندهم بعد ما يكبرون . ومن الخطأ الفاحش الذى يدل على الغباء أن نزعم أن الأطفال لا يستشعرون عظمة الفنون . وقد وافق هوايتهد على ما جاء بالمقال جملة ، غير أنه قال :

« لا يستجيب للموسيقى جميع الأطفال . إنما يستجيب لها خمسون فى المائة منهم فيما أعتقد . وكان الأجدر بك أن تحور هذا الرأى شيئاً ما . وأرجو أن تعتقد أنى أوافقك على رأيك إجمالا ، وأرى أن لجميع الأطفال الحق فى أن يتعرفوا هذه الخبرات العظمى فى الأدب ، والفنون ، والطبيعة . ويستطيعون بعدئذ أن ينتقوا منها ما ينفعهم . وقد أعجبنى بصفة خاصة رأيك فى أن سحر الموسيقى الجيدة يرجع إلى أنها تفاجىء الأذن بمقاطعها التى لا تتوقعها ، وإلى أن عنصر المفاجأة دائم مهما أصبحت الموسيقى شائعة . وهذا مبدأ يسرى أيضاً فى شئون الحياة الأخرى .

فإن ما نتلهف عليه هو عنصر الجدة ، وبعض التجارب الحية ينطوى على عنصر الجدة الذى لا ينقطع ، وهو يسرى أيضاً على العلاقة بين مجالات الخبرة المتنوعة . فإذا تجددت خبرتنا فى مجال ما ، امتد التجديد إلى خبراتنا فى غيره من المجالات».

قلت : « إن بيئة موطني — وهى مدينة صغيرة — كانت قاحلة من الناحية الجمالية ، حتى لقد اضطررنا إلى الانكباب على الكتب والموسيقى (بالإضافة إلى الأصدقاء ، وما قد يكون فى الطبيعة من جمال) لكى نحتفظ بحياة أرواحنا » .

وقالت مسز هوايتهد : « وبيئته كذلك ـ وهى أبرشية ريفية ـ كانت وسطا لا ينعدم فيه الجمال فحسب ، بل ينظر إليه بعين الازدراء » .

« إن ما قلت من أن تجديد الطبيعة كلها عن طريق الخبرة الجديدة ـ التى تمد الموسيقى مثالا لها ـ ينطبق أيضا على شئون الحياة الأخرى ـ هذا القول يبعث الطمأنينة إلى نفسى بعد ذلك الذى زعم بلس برى[1] فى هذا الصدد حينما قال : (إننى لا أستطيع أن أرى كيف يمكن تحويل التقسيم الصوتى من الموسيقى إلى الآراء الخلقية) ».

قال : ولكن ذلك هو بعينه ما تفعله الموسيقى . إنها تجدد الحياة فى الطبيعة كلها » .

« كيف يمكن لأى انسان أن يكون هو بعينه بعد معرفة وثيقة برباعيات بيتهوفن الأخيرة كما كان من قبلها ؟ »

(١) بلس برى أستاذ جامعى، ومؤلف . ولد فى وليامزتاون، بماساشوست فى عام ١٨٦٠ . حصل على درجة البكالوريوس من كلية وليامز فى عام ١٨٨١ ، وعلى درجة الأستاذية فى عام ١٨٨٣ . واشتغل أستاذا للغة الإنجليزية فى وليامز من عام ١٨٨٦ حتى عام ١٨٩٣ ، وفى برنستون من عام ١٨٩٣ حتى عام ١٩٠٠ ، وكان محررا بجريدة الاطلنطيق الشهرية فى عام ١٨٩٩ .

وأدى ذلك بهوايتهد إلى الحديث عن الفارق العظيم بين شعراء القرن السابع عشر فى إنجلترا وشعراء القرن الثامن عشر . « إنك لن تجد قط عند رجال القرن الثامن عشر شيئا فى شعرهم لا تتصور أنه كان بوسعك أن تكتب مثله . ولكن سحر الشعر الإنجليزى فى القرن السابع عشر هو أنك تقابل شيئا لم تتوقعه كلية ثم تقول : « عجبا ! إننى لا أتخيل أنه كان بوسعى أن أفكر مثل هذا التفكير »

وتقدم المساء ، ومرت فترة أجمعت فيهـا ضمائرنا على نقل الحديث إلى موضوع آخر .

وقد نفدت فى أمريكا طبعة كتابه (أهداف التربية) . وقلت له إن الناس الذين أعرفهم لا يفتأون يشكون لى من أنهم لا يستطيعون الحصول على هذا الكتاب. قال إن الكتاب لم تنفد طبعته فى إنجلترا « ولكن مكملان أحرق ما عنده من نسخ لم يتم بيعها دون أن يهيىء لى فرصة لتسلمها ، وهو عمل أساء إلى كثيرا ».

« إن شركة مكملان لها طابعها الخاص ، وهى تقوم من غير شك بأعمال عجيبة — من ذلك تجليدهم كتاب (التاريخ القديم من إخراج كمبردج) ، فى حين أن طبعته الإنجليزية مجلدة تجليدا يليق بالكتاب . وإنى آسف أشد الأسف لأنى لم أشتر نسختى فى الطبعة الإنجليزية » .

« إننى أفكر فى إعادة نشر كتاب (أهداف التربية) ، فما رأيك فى حذف الفصلين الأخيرين ؟ » .

« إذا عرفت أننى لم أستطع فهمهما ، أدركت أننى لست الرجل الذى يوجه إليه هذا السؤال » .

« بل على العكس من ذلك ، أنت الرجل بعينه الذى يسأل » .

« إن الفصول الثمانية الأولى تهز القارىء بتيار كهربى . وكم من صديق ذكر لى هذا ، ومنهم لفنجستون . فلماذا لا تحذف الفصلين الأخيرين وتحل محلهما مقالك عن الذكرى المئوية الثالثة لهارفارد ؟ » .

« لقد فكرت فى ذلك أيضا . ولكن هل يكون طول الكتاب بذلك مناسبا ؟ »

« أليس لديك شىء آخر يتفق ومادة الكتاب ؟ »

« عندى قدر كبير من المؤلفات التى لم تنشر ... »

واقترحت مسز هوايتهد مباحث مختلفة يصلح ضمها إلى الكتاب .

قال : « أفكر أيضا فى إخراج كتاب عن ذكرياتى » .

وتباحثنا فى حجم الكتاب ، وإنه من الحكمة أن نراقب الناشرين فيما يختارون من رسوم للغلاف ، بالنظر إلى ما مر بنا من تجارب أليمة .

وقالت مسز هوايتهد : « لشد ما كان ذهولى حينما وقعت عينى على الغلاف الذى اختاره مكملان لكتابه (مغامرات الأفكار) » .

« كيف كان شكله ؟ » .

« رسم للقمر والنجوم وأشعة ضوئية » .

« وماذا كانت الفكرة من وراء ذلك ؟ » .

« مغامرات ، فيما أعتقد ، وفضاء كونى » .

قلت : « إنهم بذلك يهبطون بهوايتهد إلى مستوى موسيقى الجاز ! هل تظنين أن مصمم الغلاف قد قرأ الكتاب ؟ » .

قالت : « ربما لم يرد على سماعه بالعنوان » .

ولما أشرف المساء على نهايته عاد إلى أثر الإنجيل ، وإلى مفسريه فقال :

« يسرى فى التفكير العبرى تياران فيما يبدو : أما أولهما فرقيق رقيق ، جليل ، عطوف ، كله إلهام ، أشعياء ، وعاموس ، ويسوع . وأما الآخر فمنيف منتقم ، مخادع ، تنعدم فيه روح الفكاهة . وهى صفات الحاكم الشرقى المستبد بعينها . والتياران عند بولس ، ولكن التيار الثانى أغلب . إن الساميين أجلاف . وكثيرا ما شككت فى تسرب الدم الهلينى فى الجليليين مما يفسر ما اتصف به يسوع والفلاحون من رأفة . لأنك لو تابعت تفسير الأناجيل فى قرونها الأربعة أو الخمسة الأولى ، وجدت أن المفكرين المسيحيين على الشواطىء الإفريقية للبحر المتوسط وفى إسبانيا — الذين كانوا تحت التأثير السامى إلى حد كبير — كانوا غلاظا أجلافا . فى حين أن المفسرين الإيطاليين والغاليين — من أمثال جريجورى الأعظم ومارتن التورى — كانوا متسامحين إلى درجة كبرى . ولما أثير موضوع اضطهاد أتباع مذاهبهم لأول مرة ، رأى هؤلاء الناس — وعبروا عن رأيهم — أن الاضطهاد أشد ضررا من الزندقة . إن هذين التيارين فى العبرية يتمثلان فى الجشع فى الكسب المادى ، وفى رقة الروح . وإنك لتلمس أحيانا عند عظماء اليهود هذين التيارين فى طبيعة واحدة . إن مفسرى المسيحية هم سبب نكبتها » .

(١٨)

٢٢ من إبريل ١٩٤٠

دعانى هوايتهد الى حفل العشاء الذى يقيمه بانتظام كل يوم من أيام الإثنين الزملاء الحديثون فى إليوت هاوس . وفى طريقنا الى هناك بسيارة الأجرة من فندق إمباسادور ، سألته : هل قرأ مارواه البحار البريطانى عن المدمرة التى غرقت فى نارفك ؟

فقال : « كلا . إن الأنباء التى ينقضى عليها أسبوع — فى مثل هذا الوقت —

يتقادم عهدها وكأنها أنباء عن معركة ماراتون » قال ذلك فى رفق ، بيد أن الملاحظة تبين عمق إدراكه للمواقف التى تتأثر بالتغيرات التى يحدثها الزمن .

ولما بلغنا إليوت هاوس عبرنا فناء ، ودخلنا من باب جانبي تحت مصباح مستور معلق بفانوس من الحديد . وكان ليل الربيع لطيفا ، والضباب الخفيف يتساقط على متن رياح شرقية تهب من البحر ، وأشجار الربيع يانعة بزهر ذهبي اللون .

وقد سبقنا الى حجرة الجلوس الرئيس المتقاعد لول ولورنس هندرسن[١]، ومعهما سام موريسون [٢] ، الذى تفضل فسمح لى بقراءة قائمة بالزملاء الحديثين الأربعة والعشرين ، وموضوعات دراساتهم . ولا أستطيع أن أذكر من نظرة عاجلة أربعة وعشرين اسما وأربعة وعشرين موضوعا للبحث ، ولكنى ربما استمدت بعضها باعنات الذاكرة .

---

(١) لورنس چوزيف هندرسن كيموى بيولوجى . ولد فى لن بماساشوست فى عام ١٨٧٨ ، وحصل على درجة البكالوريوس من هارڤارد فى عام ١٨٩٨ ، وعلى الدكتوراه فى عام ١٩٠٢ ، والدكتوراه فى العلوم من كمبردج فى عام ١٩٣٤ ، معيد فى الكيميا البيولوچية بهارڤارد فى عامى ١٩٠٤ و ١٩٠٥ ، ومدرس من ١٩٠٥ — ١٩١٠ ، ومساعد أستاذ من ١٩١٠ — ١٩١٩ ، وأستاذ منذ عام ١٩١٩ . وزميل من الكبار فى جماعة الزملاء بهارڤارد منذ عام ١٩٣٣ ، وتوفى فى عام ١٩٤٢ .

(٢) صمويل اليوت موريسون، مؤرخ ، ولد فى بوسطن بماساشوست فى عام ١٨٨٧ . وحصل على البكالوريوس من هارڤارد فى عام ١٩٠٨ ، وعلى الدكتوراه فى الفلسفة فى عام ١٩١٢ ، والدكتوراه فى الآداب فى عام ١٩٣٦ ، وعلى الأستاذية من أكسفورد فى عام ١٩٢٢ . واشتغل مدرسا وأستاذاً للتاريخ الأمريكى بهارڤارد منذ عام ١٩١٥ ، وهو مؤلف (تاريخ ماساشوست البحرى) فى عام ١٩٢١ وتاريخ أكسفورد للولايات المتحدة فى عام ١٩٢٧ ، والذكرى المئوية الثالثة لهارڤارد من ١٩٣٠ الى ١٩٣٦ . وتاريخ عمليات الأسطول الأمريكى فى الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٧ — ثم تقاعد عن العمل .

وحذرنى موريسون بصوت منخفض قائلا : « لا تكثر من شراب الشرى قبل العشاء ، فهو ليس جيدا . وأكثر من شراب برجاندى أثناء العشاء ، فقد اختاره هندرسن وهو خبير بالنبيذ . وتحاش مايقدم اليك من خمر بعد العشاء . فهو من تقديم لول ، وهو لا يعرف شيئا عن النبيذ . وهو ليس إلا نوعا من خمور كاليفورنيا المتقة ، ولكن الزملاء لابدلهم من احتسائه بأكله . وهناك رأيان بشأنه : أولهما احتساؤه كله ، والانتهاء منه ، والآخر التأنى فى تناوله ، لأن لول قد يقدم لنا مزيدا منه » .

والمستر لول أصم تماما بالطبع . ولما كان يجد أن الحديث من جانبه أسهل من حديث الناس إليه ، فإن التحدث معه ـ إن شاء ـ كان كلاما من طرف واحد فقط.

وكان يتحدث فى الطريقة التى يعالج بها الإنجليز المعارضة السياسية ، قال :

« إن حدود الحزبية هناك أدق منها هنا ، وإذا كنت فى الحكومة وجب عليك أن تصوت معها . وقد قال لى المؤرخ لكى (إننى فى حرية تامة من إعطاء صوتى ضد الحكومة التى كنت عضوا فيها لمدة ثمانية عشر عاما) فسألته : وكم مرة صوت ضدها ؟ فقال : مرتين »

وواصل مستر لول حديثه فى موضوع المعارضة السياسية ، وقدم دليلا على رأيه فى التقرير الخاص بالفظائع الألمانية فى بلجيكا الذى قدم له لوردبرايس ، والذى نشرته الحكومة البريطانية مصادفة فى ١٢ من مايو عام ١٩١٥ ، بعد إغراق الباخرة لوزيتانيا بنواصة أمريكية بخمسة أيام ، حينما كان الرأى العام فى الولايات المتحدة ملتهبا بحرارة شديدة . وقال إن التقرير مثال للضرر الذى ينجم عن عدم تعيين « محام للشيطان ... فأنت لاتدرك الحقيقة دون مساءلة الشهود » وبذلك اختتم حديثه .

(وتذكرت ساكو وفنزتى فقلت : « بل قد لاتدرك الحقيقة أحيانا برغم هذه المساءلة ») .

ثم انتقل إلى الحديث عن فضل التريث قبل إطلاق أسماء اللامعين على الشوارع والمحلات العامة . فقال أحد الشبان :

« أليست هناك قاعدة عند الفرنسيين ألا يطلقوا اسم شخص ما على أحد الشوارع إلا بعد وفاته بعشر سنوات ؟ »

فقال مستر لول : « بل إن الكنيسة الكاثوليكية أشد من ذلك أناة : فقد ينقضى مائة عام قبل تقديسها ... »

ودق الناقوس ، إشارة إلى التوجه إلى غرفة الطعام .

وكانت الحجرات فاخرة . وكنت قد شهدتها عند بداية تشييدها فى عام ١٩٣٠ ، غير أنه لم يسمح لنا فى ذلك الوقت أن نعرف مصير استخدامها . لأن المال اللازم لتأسيس الجماعة لم يكن متيسراً بعد . (ولما توفى لول فى عام ١٩٤٣ تكشف لنا أنه قد تبرع بالمال : « . . . لما لم يكن أمام أعيننا مصدر للمال الضرورى ، قدمته بنفسى ، فى شىء من اليأس ، بالرغم من أن ذلك قد قضى تقريبا على كل ما أملك » . ووفقاً للتنظيم الذى تم فى ٨ من ديسمبر عام ١٩٣٢ كان هناك أربعة وعشرون من الزملاء الجدد ، وتسعة من القدامى . والجدد من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين ، اختارهم القدامى من بين الخريجين المحدثين فى الجامعات الأمريكية لما توسموا فيهم من مقدرة نادرة على تنمية المعرفة والفكر . وكان انتخابهم لمدة ثلاثة أعوام مع إمكان تجديد المدة ثلاثة أعوام أخرى . وكان يقدم لهم الطعام والمسكن بغير مقابل ، وتدفع لهم مكافأة معينة ، على أن تترك لهم الحرية لمتابعة أية مغامرة فكرية لها عندهم أهمية

أو لذة . وقد تولدت الفكرة(١) من نوع من الاحتكاك المباشر بلورنس هندرسن ، وألفرد هوايتهد ، والرئيس لول ، وهي تستمد شيئاً من نظام زملاء كلية ترنتي في جامعة كمبردج الذين يتقاضون مكافآت معينة ، ومن نظام كلية الأرواح بأكسفورد ، ومؤسسة تيير بباريس .

والحجرتان مبطنتان بأخشاب البلوط من الأرض إلى السقف ، ونوافذهما المستطيلة تتخللها أعمدة مربعة قصيرة أيونية من جوانبهما ، وتكسوها ستائر ثقيلة يتفق لونها ولون الحجرة . ومداخن المواقد تحوطها كذلك هذه الأعمدة المربعة القصيرة وتملؤها الصور في إطاراتها والنقوش المزخرفة . والمائدة البيضاوية الشكل التي أودع فوقها شراب الشري هي مائدة طعام الإفطار التي كان يرأسها الأوتوقراط ، وعلقت فوق الجدران صور زيتية من نفائس القرن الثامن عشر ، وإحداها من رسم چون سنجلتن كوپلي .

ومائدة العشاء على شكل حرف U . ولما كان في ذهن مصممها تيسير المناقشة ، فقد تقارب جانباها بدرجة تسمح بتبادل الحديث عبر سطحها الذي تضيئه الشموع والشمعدانات الفضية من الطراز الذي وجده لورنس هندرسن في نيقاش بفرنسا في الوقت الذي بدأ يفكر فيه في إنشاء هذه الجمعية . وكان مستر لول باعتباره رئيس الاجتماع يجلس عند رأس المائدة فوق مقعد من البلوط المنقوش ، ظهره مرتفع . أما باقي المدعوين فكانت لهم مقاعد منخفضة وثيرة من طراز هارڤارد التقليدي . وقد أعدت الخمر فوق المائدة في قنينتين وضعتا في وعاء فضي صغير ، وربما كان هذا الوضع منقولا عن الوعاء الفضي الذي يدور محملا بالخمر فوق مائدة من خشب الماهوجاني في كلية الأرواح بأكسفورد .

---

(١) هذا النظام مشروح شرحا وافيا في كتاب « جمعية الزملاء » من تأليف چورج س. هومانز واورڤل ت . بيلي الذي نشرته جامعة هارڤارد بكمبردج في ماساشوستس .

ومن القواعد غير المكتوبة ألا يجلس الضيوف والزملاء القدامى جنباً إلى جنب . فيتيح ذلك للزملاء الجدد أن يختلطوا بالقدامى ، ومن ثم فقد كان من بين الجماعة المجاورة لهوايتهد هارى لفين (١) ، وجورج هومانز (٢) ، وكونراد آرنزبرج (٣) ، وجورج هانفمان (٤) ، وهو شاب ألمانى مر بثورتين ، وقد قال إنه لم يصدق أنه آمن حقاً فى التعبير عن رأيه إلا بعد ما أقام فى هذا البلد عامين .

وقد تحدث خمستنا — الذين كانوا على مسمع من هوايتهد — فيما إذا كان بالإمكان مرة أخرى لذهن واحد أن يلم بمجموع المعارف البشرية ، على الأقل إلى المدى الذى بلغه أرسطو أو دافنشى أو جيته ، كل فى العهد الذى عاش فيه .

فقال هوايتهد إن من رأيه أن مثل هذا الإلمام يتطلب اعتماداً فوق الطاقة على معرفة الآخرين ويهبط بها إلى مستوى بسيط :

« لقد أخطأ أرسطو حينما سمح للناس أن يظنوا أنهم يعرفون ويدركون كل ما يتعلق بالموضوعات التى كان يناقشها ، ومن المؤكد أنه لم يعاون أفلاطون » .

وذكرت بهذا الصدد « أن جلبرت مرى قد قال شيئاً شبيهاً بذلك كل الشبه عن أرسطو — وبخاصة حينما كان أرسطو يتحدث فى الدراما ، وكان يتكلم عن عنصر (النشوة) فى مسرحية (باكى) ايوربيدز ، وعنصر (الخضوع المطلق) فى أسطورة دينوبسيس ، وقد قال : « أليس المبدأ الذى يقول لا تتوغل ، هو مبدأ الأميين؟ » .

فقال هوايتهد : « هذا صحيح . إنك لكى توغل فى الموضوع حقاً بحاجة إلى

(١) أستاذ اللغة الإنجليزية ، ومشرف على قسم اللغة الإنجليزية ، وزميل قديم فى جماعة الزملاء بجامعة هارفارد .

(٢) أستاذ زميل لعلم الاجتماع بجامعة هارفارد .

(٣) أستاذ زميل لعلم الاجتماع بجامعة كولومبيا .

(٤) أستاذ زميل للفنون الجميلة بجامعة هارفارد .

طاقة أكثر مما يحتويه هذا المبدأ الذى يقول (لا توغل) . ولابد للمرء من أن ينكر الكثير لكى يتقدم فى موضوع ما .

ويبدوأن عنصر المبالغة ضرورى إلى حدما فى كل ميدان من ميادين العظمة . وضرب لنا مثالا لنقيض ذلك ما قيل عن رجل « عرف إحدى وأربعين لغة ولم يكن عنده ما يقوله فى لغة من هذه اللغات » .

ثم انهمك مع اثنين من علماء الطبيعة فى جدل حول اليقظة والإلهام الضروريين فى كل تجربة جيدة ـ وكيف أنها تقوم على الكفاءة فى العمل بالإضافة إلى (المصادفة السعيدة) ، بل على إدراك نوع من أنواع الخطأ فى النتيجة ، فيأتى الاستكشاف من سؤال صاحب التجربة : « وما ذا عسى أن يكون هذا الخطأ ؟ » .

وواصل حديثه قائلا : « لقد كان الهيدروجين الثقيل تحت أعين أشخاص عديدين قبل أن يكتشفه شخص آخر غيرهم . إن الخطأ نفسه قد يكون هو المصادفة السعيدة » .

وقيل إننا هنا فى هذه المشكلة : كيف نجعل التفكير نشطاً حياً ، كما جاء فى مقاله عن الذكرى المئوية الثالثة لهارفارد بعدد سبتمبر من عام ١٩٣٦ . فقال :

« لقد قدمتُ الموضوعات للبسطاء فى البداية ، وكررتها فى النهاية ، أما المادة الجديدة فقد وضعتها فى الوسط . وجاء خير ما فيها مصادفة ، وقد رد الناشر إلى المقال قائلا إنه قصير نوعاً ما بالنسبة للصفحة المخصصة له ، وطلب إلى أن أضيف إليه نحواً من مائة وخمسين كلمة . وبجملة انتقالية وجدت أننى قد أضفت مائة وثمانيا وستين كلمة ، أى ما يقرب من طول أنشودة ، وكانت خير ما فى المقال . فهل تستطيع أن تستخرج هذه العبارة ؟ » .

« هل تتحدانى ؟ »

وأومأ برأسه وابتسم قائلا :

« نعم »

« حتى تتوافر لى فرصة قراءة المقال مرة أخرى ، ما رأيك فى رد روبرت هتشنز عليه فى عدد نوفمبر التالى ؟ » .

« لقد عاملنى هتشنز — وأرجو أن تذكر أنى أجله — معاملة المحامى برغم هذا ، إذ فصل بعض ملاحظاتى عن ملابساتها ، ثم أخذ يهاجمنى . ولما كنت قد اعترفت بأنا نعلم غيرنا كثيراً من الآراء التافهة ، فقد أهملت النقد » .

ثم ثارت مناقشة حية عن مدى مايستطيع المرء أن يحتمل بثبات من ضروب الجهد العقلى المختلفة . وجاء البرهان حينما تعرضنا للعمل الأصيل والعمل الذى يعتمد على النقل . ودلت القصص الطويلة التى رويت عن العلماء الدارسين الذين يعملون كل ساعات النهار على أن علمهم ليس إلا مجرد تحصيل . فى حين أن أكثر الفنانين المبتكرين يجدون أنفسهم مرغمين قطعا على الاكتفاء بعمل متواصل فى ثلاث ساعات أو أربع .

ووجه أحد الزملاء الجدد (وأظنه جورج هومانز) الموضوع إلى كتابة التاريخ . فقال هوايتهد : « لقد نال جِبُنْ أحسن تربية تلقاها أى مؤرخ آخر إذا استثنينا ثيوسيديد . فقد كان ينتمى إلى كتيبة حربية ، وكان قائداً الحرس هامبشير ، ومارس ما يكتنف هذا العمل من مشاعر ، وتعرف إلى الأوساط الأدبية فى لندن ، فعرف جونسن وزمرته ، وتنقل فى القارة الأوربية وعرفها . وكان فى البرلمان واستمع إلى أحاديث الحكام . »

قال هوبماز: « ولكنهم لم يحسنوا الحكم . فقد كان رئيس الحكومة هو لورد نورث الذى ضيع المستعمرات الأمريكية . »

وابتسم هوايتهد وقال : « إننى أعترف بأن الرجل الذى انهزم فى الحرب كان أعز صديق للرجل الذى اعتزم أن يكتب (انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها) »

وأثير نقاش حول الفارق بين التفكير الفعال والتفكير الجامد .

فقال هوايتهد : « التفكير الجامد هو أن تعرف على وجه الدقة من أين استقى شيكسبير موضوعات مسرحياته ، وأن ترد كل مقتبساته إلى مصادرها من فلاطارخس إلى هولنشد » .

واتجهت الأنظار القلقة صوب الأستاذ لفنجستن لويس ، حيث شاء هوايتهد لها — فى دعابة ـ أن تتجه . وكان لويس قد انسحب . ثم عقب على ذلك هوماز فى كياسة قائلا :

« لقد خرج كِترَدْج » . وضحك الجميع .

وكتردج هو — بطبيعة الحال — صاحب الكلمة الطولى على مائدة الإفطار التى تذكر بعهد شيكسبير .

وقد سمعت بلس پرى[1] — الذى عرفه وأحبه عدة سنوات — سمعته يقول : « لم أعرف أحدا قط مثله يشتد اهتمامه باللفظ ، ويقل بالمعنى . »

ومن موضوع الأفكار الجامدة انتقل الحوار إلى تلك المشكلة العويصة ، وهى : هل العالم الحديث تحت رحمة مخترعاته التكنولوجية الجديدة كلية ؟

(١) أنظر هامش ص ١٩٩ .

فقال هوايتهد: « أعتقد أن أوربا كان يمكن أن تتقدم بعمرانها المائية الداخلية وقنواتها كما تقدمت بسككها الحديدية ، ولكن السكة الحديدية فى أمريكا جاءت فى اللحظة الملائمة بالضبط لتمكنكم من إخضاع القارة » .

قال هوماز : « إننا لم نتقدم كثيرا من قبل » .

« كانت السكة الحديدية هى العامل الحاسم عندكم » .

« وما رأيك فى الطائرة ؟ »

« إنها سوف تطور الحياة فى المناطق المتخلفة ، كداخل آسيا ، وشرقى أفريقيا ، وما شابه ذلك ، وكذلك شمالكم الأقصى فى أمريكا . إن كل فن تكنولوجى جديد يحطم أولا نصف أي مجتمع قديم ، ثم يساعد على إعانة بنائه فى صورة جديدة. إن أثره الأول - على أية حال - هدام بشكل عنيف . » وصمت قليلا ثم قال : « ولكن ماذا يقصد الناس بقولهم إن المستقبل مضطر إلى أن يدفع ثمن الحروب فى الحاضر ؟ » وجر إلى هذا السؤال شابا وسيما أشقر اللون اسمه بول سامولسن [١] . كان به نحورا ومغرما بدرجة واضحة . ودخلا فى حوار على جذاب فى هذا الشأن ، ولكنه جرى أسرع مما تستطيع الذاكرة تسجيله .

واختتم هوايتهد قائلا : « إن الأمر لا يعدو أن يكون تشبيها . وإذا نظم المرء قصيدة فى الاقتصاد ، كما فعل ليوكريتس فى (دى ريرم ناتورا) كان التشبيه رائعا . أما فى الميدان الاقتصادى فإن كل ما تعنى حينما تشير إلى أن المستقبل يدفع ثمن الحروب الراهنة هو أنك تورث الأجيال القادمة صورة متغيرة من المجتمع »

---

(١) أستاذ الاقتصاد ، بالمعهد التكنولوجى بماساشوست .

وتلكأت الجماعة إلى ما يقرب من الحادية عشرة . ثم نقلني مع هوايتهد إلى فندق إمباسادور أحد الزملاء الجدد ، الذي يقوم بمرافقة مسترلول إلى بيته ببوسطن حيث عاد إلى منزله بالمدينة بشارع مارلبرو . ونزل لول من العربة وعاون هوايتهد على النزول فى شيء من التكلف كما بدا لى ، وكما بدا لمسز كذلك جليا ؛ إذ أننا حينما عدنا إلى الطابق العلوى واستقر كل منا فى مقعده ، وشرعنا نحتسى أقداح الشوكولاته الساخنة ، قال هوايتهد لزوجته ، وعلى شفته ابتسامة رقيقة ، وفى صوت هادىء رصين :

« لقد عاوننى لول على النزول من العربة »

« حقا ؟ »

« هل تظنين أنه كان يحسب أنى بحاجة الى ذلك ؟ »

قالت فى حدتها المألوفة : « كلا . إنما كان يحاول أن يبرهن على أنه إنسان أفضل منك . ولكن هيهات له ! »

(١٩)

٢ من نوفمبر ١٩٤٠

قضيت المساء مع آل هوايتهد فى فندق إمباسادور . وكنت ضيفهم الوحيد . وكان وقع الحرب ثقيلا عليهم. ولما وصلت فى منتصف التاسعة كان هوايتهد فى إغفاءة بسيطة فى مكتبه . وذكرت لى مسز هوايتهد أنهما يتلقيان أحيانا برقيات مستر نورث ، الذى يعمل فى وزارة الخارجية فى هوايتهول ، وهو المبنى الذى ألقيت فوقه القنابل مرتين .

وقالت : « إننا نحيا حياة مزدوجة . حينما نستقبل الضيوف نعيش فى هذا البلد . وبعد انصرافهم نعيش فى الحرب » .

وبعد لحظات خرج هوايتهد . وبدا عليه شيء من الاكتئاب بادىء الأمر ، وقد اشتد احديدابه وضعفه . ولكن بعدما قضينا فى الحديث نصف ساعة ، عادت إليه حرارته المعهودة . وقلت له :

« إن قراء بوسطن جلوب منذ سبتمبر الماضى يطلعون ـ على غير وعى منهم ـ على (العلم والعالم الحديث) صباحا ، وظهرا ، ومساء » .

« قل له كيف ألفت الكتاب ياأولتى » .

« كنت محاضرا فى علوم الرياضة طوال حياتى ، منذ شبابى الباكر فى كمبردج ثم فى لندن . وفى سن الثالثة والستين فى عام ١٩٢٤ أتيت إلى هارفارد لكى أحاضر فى الفلسفة لأول مرة . وكنت بطبيعة الحال ـ فيما تخلل ذلك من سنوات ـ أستمع إلى المناقشات الفلسفية فى كمبردج وفى لندن وأسهم فيها ، كما كنت أقرأ بين الحين والحين بحثا فى الجمعية الملكية . ومن ثم فقد كانت الفلسفة ماثلة فى ذهنى بدرجة عظيمة . وفى خريف عام ١٩٢٤ طلب إلى أن ألقى محاضرات لول ، بالإضافة إلى جميع محاضراتى النظامية التى كانت جديدة بمعنى من المعانى . وثلاثة أرباع الكتاب كما هو عبارة عن محاضرات لول التى ألقيتها . وقد كتبت كل محاضرة منها فى أسبوع كما كان يتطلب ذلك الإلقاء ... »

وقاطعته مسز هوايتهد بقولها : « وكانت فى حرارة التهابها » .

« ولم أسبق فى كتابتها إلقاءها بأكثر من أسبوع » .

« هل تعيد الكتابة كثيرا ؟ »

« كلا . ولكني أكتب في بطء شديد وأحذف كثيراً » .

« هل أكون على صواب إذا قلت إن أمثال هذه العبارات لا يكتبها إلا رياضي ؟ إن نثرك يختلف كل الاختلاف عن كل نثر آخر » .

« أنا لا أفكر في ألفاظ . إنما أبدأ بالتصور ، ثم أكسبه اللفظ ، وكثيراً ما يشق عليّ الأمر » .

« إن القارئ ينطبع بأثر مماثل . فبعدما يدرك معنى اللفظ ، يبدو بعد ذلك كأن فحواه يؤدي إلى وجود مستقل عن الصفحة المطبوعة ، وهو وجود يكاد يكون محسوساً . ولكن كيف حوى عقلك هذه المادة التي تتمثل في ذلك الرتل العجيب من عظماء الرجال في أوائل القرن السابع عشر ـ والتي نلمسها في مؤلفك (قرن من العباقرة)؟»

وضحك ثم قال: « كنت منذ شبابي ـ ومازلت كما تلاحظ ـ كلما ذكر أمامي اسم عظيم لم أعهده ، أبحث عنه ، وأحفظ تواريخه عن ظهر قلب كما أحفظ نوع نشاطه ، ومن ثم فإن لكل عصر من عصور التاريخ في ذهني صورة عن لون النشاط الذي كان يسوده في ذلك الوقت وذلك المكان . وأؤكد لك ضرورة هذه الدقة ، ومن الأفضل أن تعرف على وجه الدقة أكان مارلو أكبر من شكسبير سنا ؟ وبكم سنة كان يكبره ؟ وقد عرفت على سبيل المثال أن خمسة من ذوي الشخصيات الرئيسية في التاريخ الإنجليزي، تتداخل أطوال أعمارهم، وهم إليزابث ، وكرمويل ، وپت ، وولنجتن ، وفكتوريا . . . »

وسارعت مسز هوايتهد إلى قولها : « أره كتابك الصغير يا أولتي » .

ودخل مكتبه وعاد بكتاب صغير مجلد بلون بني من جلد العجل ، وينقصه الغلاف الخلفي . وقدمه إلي وعلى وجهه سيما العجب .

قال : « وجدت هذا الكتاب فى مكتبة بكمبردج أيام الشباب . ونقدى الوحيد له أنه يحوى أسماء لرجال من الإنجليز من الطبقة الثانية ، أكثر مما ينبغى » .

وقرأت العنوان : (معجم مختصر للسير) من تأليف القس شارلز هول ، طبعة مكملان وشركاه سنة ١٨٦٦ . وليس فى صفحاته سوى الأسماء كاملة ، والعناوين وتواريخ الميلاد والوفاة . واستل من داخل الكتاب صحفا من الورق الأصفر دوّن عليها الفلاسفة من أيونيا إلى العهد الحديث والأباطرة الرومان ، ثم قال : « وإليك قائمة بالملوك الإنجليز »

« هل تشترون الكتب من قوائم أعدت بأسمائها أو بعد مشاهدتها ؟ »

قالت مسز هوايتهد : « يدخل الواحد منا المكتبة ويخرج منها بكتاب » .

وروى لنا قصة وقعت لهما فى بداية حياتهما الزوجية حينما كانا يقرآن عددا كبيراً من الكتب فى اللاهوت . وقد دامت هذه الدراسة عدة سنوات ، أذكر أنه حدثنا بثمانية أعوام . وبعدما انتهى من الموضوع - وقد انتهى منه فعلا - استدعى صاحب مكتبة فى كمبردج وسأله بكم يشترى المجموعة كلها . فقدم مبلغاً طيباً حتى لقد أحسا بالثراء ، حتى بلغ الباب وقال : « سأضم هذا المبلغ بطبيعة الحال لحسابكما » . ولذا فقد استرسلا فى شراء الكتب وأدركا بعد برهة أنهما أنفقا نحو ضعف ما قيده بائع الكتب لحسابهما !

وهذا البائع واحد من أولئك الأفذاذ الذين ما تزال المدن العلمية تؤويهم . كان رجلا قديراً ، ولكنه مغرور إلى درجة تثير الضحك ، وقد قال لهما مرة :

« لقد زرت أكسفورد حديثا ، ولا أعتقد أن مكتباتهم تبلغ ما بلغته مكتباتنا . وقد طفت بها ، وتفقدتها جميعا - متخفيا بطبيعة الحال ! »

وتناول هوايتهد الحديث وقال : « إذا كان بين الناس فى هذه الأيام منحرف ، أبعدوه وأطلقوا عليه أسماء شبيهة بالعلمية ، ولكننا اعتدنا أن يكون بيننا أفراد من ذوى الأطوار العجيبة ، وكنا نسميهم « شخصيات » وكنا نفخر بهم . خذ مثالا لذلك فلانا الذى اعتاد دائما أن يسير على أحد جانبى الطريق ويقفز ، ثم يلتقط ورقة من أوراق الشجر ، ويشرع فى قرضها » ثم نهض وأخذ يقلد هذا الشخص ويفعل مثلما كان يفعل ، ثم قال : « لو أنا أبعدناه لفقدنا كتابا من خير ما لدينا من كتب دراسية فى علم الفلك » .

وأدى بنا هذا إلى موضوع القوى الخارقة لدى بعض العامة من الناس .

قال : « إنك تعلم أننى أعجب بديمقراطيتكم الأمريكية ، وأعتقد أن فوارق الطبقات فى إنجلترا من الشرور العظيمة . بيد أن التطبيق يسير على عكس ما يتوقع الإنسان . فأنا أعتقد أن بين الأشخاص من الطبقات المختلفة فى إنجلترا (إذا استثنينا الطبقة الوسطى التجارية الطموح ، والأفراد الذين يثبون فوق سلم المجتمع) من الاحترام الصادق أكثر مما فى أمريكا ، لأنك هناك تعلم أن البستانى — أو خادمة البيت — ليست لديه فرصة فى الدنيا للارتفاع . أما هنا فقد ألفتم الرأى القائل بأن لكل فرد فرصة متساوية ، سواء أكانت لديه الفرصة أم لم تكن (وغالباً لا تكون) حتى إنكم تفترضون قطعاً — ما لم تكونوا حذرين فى تصوركم — عندما تزنون رجلا تصفونه بالنقص « أنه إذا كان فيه خير لأجاد كما أجدت » وهو ما يخالف الواقع كل المخالفة . إن ما يرفع المرء إلى ما يعرف بين الناس (بالقمة) كثيراً ما يكون قدراً ضئيلا من المقدرة يكون بالمصادفة مطلوباً فى وقت معين أو زمان معين ، فيلقى صاحبه طبقاً لذلك ما يجزيه . غير أن ذلك قد يكون قليل الصلة — أو عديم الصلة — بالكفايات العليا للإنسان ، أو حتى بما عند هذا الفرد المرتفع من قدرات أفضل . . . وقل من الناس من يبرز بروزاً كافياً — وبعضهم لا يبرز ألبتة ، ويبقى متخلفاً من جميع الوجوه ، بالرغم

منى أن لهم قدرات كامنة لا يعلم بها أحد . وبعض الناس يبرز إلى منتصف الطريق تقريباً ، يصادفهم لقاء سعيد ، أو ظرف ملائم يستخرج ما عندهم من كفايات خاصة ، غير أن الكفايات المضيعة التي لم تستغل لا بد أن تكون هائلة ؛ لأن قدرات الفرد قد لا يمكن التنبؤ بها . وقد كان ذلك أحد مكتشفات الجنس البشرى العظيمة ، ولا يزال هذا الكشف يسير فى بطء شديد . كان غامضاً فى ذهن أفلاطون ، ثم قام به اليهود القدامى ، وعبرت عنه المسيحية . بيد أن المسيحيين لم يفيدوا منه كثيراً لمدة ألف عام ، لأنهم حسبوا أن عدداً كبيراً من الناس مصيرهم جهنم نتيجة لسير الأمور الطبيعى ، فأصبح الأمر لا يهمهم كثيراً. ومن ثم أخفقوا فى إدراك كل ما تنطوى عليه الفكرة » .

قلت : « إن الفكرة العظيمة تذكرنا بسرعتها وقوتها بالجبال الثلجية » .

قال : « إن متوسط الزمن الذى يستغرقه أى كشف عظيم فى عالم الأفكار لكى يعم استخدامه ، أو لكى يكون له أى أثر عملى ، هو ألف عام . وإن فكرة القيمة الفذة للفرد لم يكن لها — إلى حد كبير — أى مظهر سياسى حتى القرن الثامن عشر . وعندئذ أعطاها هذا المظهر واضعو دستوركم الأمريكى ، وأمست — فيما أعتقد — الفكرة الأساسية التى توحد صفوف أمتكم . وقد كانت الكتابة اختراعاً استغرق ألفى عام تقريباً حتى أصبح أثرها محسوساً . ألا تذكر أن المناقشات — حتى فى محاورات أفلاطون — قلما تكون حول ما قرأه أصحاب الحوار ، بل هى لا تكون حول ذلك إطلاقاً ، ولكنها تكاد تدور دائماً بغير إخلال حول ما (يتذكرون) ؟ لا بد أن مقدار التذكر كان عظيماً ، وأن أحد أسباب شيوع النظم هو أن نغمة الموسيقى معين على التذكر . ولكن إلى ما بعد اختراع الكتابة بزمن طويل ، لم تستخدم الكتابة إلا فى القليل سوى فى تدوين الحسابات ؛ فقد كانت من شئون الملاك وأصحاب المصارف، تستخدم فى إصدار الأوامر وحساب المال . ولم يبدأ الإحساس بأثر الكلمة

المكتوبة فى التقدم العقلى للبشر إلا بعدما شرع الإنسان يسجل آراءه وأفكاره».

«إن الظلام الذى ساد بعد سقوط روما يدل على أننا أصبحنا نعتمد على الألفاظ المكتوبة إلى حد كبير . وقد استغرقت استعادة بعضها ما يقرب من ألف عام» .

فقال هوايتهد : «كان لا بد من نقد نصوص التراث الكلاسيكى منذ بداية النهضة وما بعدها لكى يسترد العالم الحديث امتلاكه لثقافة العالم القديم . وقد تم ذلك فى الخمسمائة العام التى تلت عام ١٤٠٠ ... بغض النظر عن استعمال سوفوكليز للضمائر . أما عن نقل هذا التراث ، فقد اعتدت فى لندن بين الحين والحين أن أحضر اجتماعات الجمعية الملكية ، وأستطيع يقيناً أن أقول إنى حسبتها معادلة فى العصر الحديث لبحوث العلماء الدراسين فى العصور الوسطى» .

ولما تقدم المساء شيئاً ما ، وحينما كنا نتحدث عن الجمهورية الرومانية إبان الحروب الأهلية ، قال هوايتهد : «لا جدال فى أن ذلك المجتمع كان يسير فى طريق الانحلال . ولو أن إنساناً لا يعرف مجريات الحوادث ، كان بسبيل البحث عن عصر للدراسة تكون فيه المدنية متصدعة ، لبدا له أن هذا العصر يمثل كل الأعراض . وبالرغم من هذا فقد ظهر أغسطس الذى استطاع أن يلم شمله . عرف أن الطبقة الوحيدة التى ما برحت تحتفظ بقدرتها على إدارة الأمور ، هى طبقة صغار الأعيان . ولم يكن من اليسير تجنيدهم ، أو أن يرضى عنهم النبلاء القدامى ، ولكنه استطاع أن يحقق الأمرين .

قلت : «أليس من العجيب أن القرون التى تلت ذلك كانت أكثر هدوءاً ، ولكنها برغم هذا كانت ضعيفة من الناحية الثقافية . ألم يكن تاستس على التقريب هو آخر اسم عظيم ؟

ربما كان العالم تحت حكم أسرة أنطونى أفضل فى إدارته من أى عهد سبق أو لحق ، غير أنه كان فقيرا فيما أداه من عمل مبتكر . أعتقد أن الحرية لم تكن متوافرة . »

قال هوايتهد : « إن عصور الهدوء قلما تولد الأعمال المبتكرة . فإن إثارة الإنسانية أمر لا بد منه . »

وفى الحادية عشرة أو ما يقرب منها تناولنا الشوكولاتة . وعندما هممنا بالانصراف قالا لنا : » أكثروا من زيارتنا . «

وقضينا مساء بأكمله فى متعة شائقة دون أن نفكر فى الحرب .

(٢٠)

١٧ من يونية ١٩٤١

كان صباحا مشرقا فى أواخر الربيع . وكانت نوافذ مسكنهما بفندق إمباسادور مفتحة على مصاريعها ، يهب خلالها عطر المروج الخضراء من الحقول الفسيحة وأوراق الشجر ، يحمله إلينا نسيم عليل . وكنا نجلس فى مكتب هوايتهد ، حيث تغمرنا أشعة الشمس فى بهجة وسرور . وكأن بيننا اتفاقا خفيا إجماعيا على أن نتحاشى موضوع الحرب . وفيما عدا ذلك كان هذا الموضوع يشغلنا أكثر ساعات النهار .

وقال إن أبناء فرانكفورت كانوا عنده فى اليوم السابق .

فسألت : « من تظن صاحب فكرة منح الرئيس روزفلت درجة علمية من جامعة أكسفورد ؟ »

وقال بعد ما فكر فى الأمر : « أعتقد أنها كانت نتيجة الصلة التى نشأت بين هالفا كس وأبناء فرانكفورت . »

واقترحت مسز هوايتهد عليه « أن يروى له النكتة الشائعة فى واشنطن عن هاليفا كس . »

قال : « إن هالفا كس رجل تقى ، ويقولون إنه يقضى مع ربه ثلاثة أيام كل أسبوع ، ولكنه يعود من لدنه بأفكار بعيدة عن الصواب » .

وأدى بنا شجون الحديث إلى موضوع الأساس المتين الذى تبنى عليه فكرتنا عن المساواة بين الناس . إننا نعرف أن الأحياء لا يتشابهون ولا يتساوون ، ومع ذلك فنحن نشتهى فكرة المساواة .

قال : « إنها تقوم على القدرات الكامنة عند البشر التى لا تقف عند حد . إن هذه القدرات لا تظهر عند الكثيرين ، أو لا يظهر عندهم إلا بعضها . ولكن هذه القدرات موجودة ، وليس باستطاعتنا قط أن نعرف ماهيتها . وإليك مثالا : زوج خادمتنا : إنه من سلالة مرتفعات سكوت ، عامل بارع فى (الشركة الكهربية العامة) ، عنده المهارة التى تتطلب تناول الآلات فى رفق شديد ، ولما كان كذلك ، فقد كان أعلى العمال اليدويين أجراً فى أمريكا . وعلى حين غرة ظهر اختراع يمكن أن يؤدى نفس العمل ، فانحط إلى الحضيض . فقصدنا ، وكشفنا أن لديه أيضاً إحساسا بالجمال يدعو إلى العجب الشديد . »

وقالت مسز هوايتهد : « لما كنا نقيم فى بيتنا بكانتون كنت أرسله إلى المدينة لينتقى لى المفارش والأقمشة . وكان يعمل فى حديقة أزهارنا حتى العاشرة مساء ، وكنت لا أستطيع أن أوقفه عن العمل إلا إذا هددته بالفصل . وكان دائما يرتب الزهر عندى فى أوانيه » ثم تناول هوايتهد الحديث فقال:

« إن هذه الصفات تكمن حتى تظهرها الظروف . وأرجو ألا تفهم من ذلك أنى لا أقول بأن هناك قدراً كبيراً من الغباء ـ ولكن أصحاب الخيال من الناس إزاء هذه الإمكانيات التى لا حد لها يؤثرون أن يتحفظوا فى أحكامهم . ولم نعرف بعد مدى امتزاج ما عند الإنسان من قدرة بما لديه من عجز »

« إنى أعبر لنفسى عن ذلك بقولى أن الأشياء التى لا نشترك فيها ـ بوصفنا بشرا ـ لا تقاس إلى الأشياء التى نشترك فيها »

قال : « إنك تتحد معى فى وجهة النظر » .

« جئت من مدينة صغيرة إلى عاصمة كبرى ، وبعد مازالت عنى الدهشة الأولى لاحظت حقيقتين رئيسيتين : أولاهما أن البرزين من الرجال ينبثون فى كل طبقات المجتمع ، فى أسفله ووسطه وأعلاه ، وبغض النظر عن التعليم ، والأخرى أنه لولا ما فى قلوبهم من حب للسلام ، لما استطاعت الشرطة فى الولايات المتحدة مهما قويت شوكتها أن تحول دون أن يبيد كل منهم الآخر . ألا يدل ذلك على أن أكثر الناس حسنو النية ولا يحتاجون إلا إلى مجموعة من القواعد يسيرون وفقا لها ؟ »

قال : « إنه من قبيل التلطف أن تصف الناس بحسن النية ، فهناك عنصر الشر قائم فى نفوس الأفراد والمجتمعات على السواء . ومن العسير أن تعالج هذا العنصر عند الأفراد ، وأشد منه عسرا حينما يصاب المجتمع بأسره بالشر ويضل السبيل . إننا جميعا نعيش فى حماية الشرطة حتى فى الدولة المسالمة ، ونستخدم القوة نقمع بها صانعى الشر . ولكنك تلاحظ أننا حينما نريد أن نعالج الأمر لا نتجه إلا صوب الحالات الاستثنائية : كالفتاة المسكينة التى يختطفها وغد دنىء ويعتدى عليها . ولكن من ذا يستطيع أن يقول فى الحالات التى لا تبلغ حد الشذوذ متى

على وجه التحديد نستخدم القوة ، وفى أى الحالات على وجه التحديد نستدعى الشرطة ، ومتى على وجه التحديد نلجأ إلى القانون ؟» .

« لقد رأيت أسرتى — وهى فى الطبقة الوسطى — مخطىء خطأ شنيعاً فى هذا . »

« إننا نجد أفضل الأخلاق ، وأحسن المعايير — فى مختلف الطبقات فى إنجلترا — عند المستويات العليا من العمال ، وعند الأفراد الأرستقراط من أصحاب الضمائر والمواهب . أما فيما بين ذلك — فإن كثيرين جدا من طبقات أصحاب المهن والتجارة قساة، ظالمون ، جشمون ، أجلاف ، وأحط من هؤلاء خلقا ، بأى معنى من معانى الخلق الصحيح. وإنى لجد فخور بالطريقة التى تقابل بها إنجلترا هذه المحنة . وقد كتب إلى نورث أنه عندما ظهرت فى لندن لافتات الأنباء معلنة أن خطاب روزفلت الذى ألقاه منذ ثلاثة أسابيع سوف يرفع من الروح المعنوية فى بريطانيا ، اكتفى المارة فى الطرقات بتبادل النظرات وعبسوا ... وذلك كل ما كان لخطاب الرئيس الأمريكى من الأثر . إنهم يخوضون معركة ترموبيلى أو ماراثون ، ولا يستطيعون أن يميزوا أهى هـذه أم تلك ، ولـكنهم على أى الحالين لا يفـكرون فى الاستسلام . وأظن أنك سوف تجد — بعد ما تنتهى المعركة — أن أخلاق الطبقة الوسطى ستخلى السبيل لمزيج من الطرازين الآخرين من الأخلاق ، وأن النتيجة سوف تعلو علوا كبيرا » .

«لو سألتنى من أين تأتى أخلاقنا الأمريكية ، لشق على الجواب . فنحن من أجناس مختلفة وأصحاب ضروب متنوعة من التقاليد » .

قال : إن الشفقة إحدى صفاتكم هنا . إنكم تفترضون أن يعامل الناس جميعا بعضهم بعضا فى رفق . ولم أزر قط فى حياتى مكانا رأيت فيه الشفقة بمثل هذا

الشمول ، ولست أعرف مجتمعا — قديما أو حديثا — قامت فيه حالة شبيهة بهذه الحال . ولا أتردد فى القول بأن الولايات المتحدة أرفع مجتمع — على مستوى عال — شهده العالم فى تاريخه ».

« دعنى أرد عليك فى هذا : لقد ذكر لى مثل هـذا القول جلبرت مرى على ضفاف تشارلز فى خريف عام ١٩٢٦ ، كما ذكره لى لفنجستون فى نيوهافن فى عام ١٩٣٤ . وأجبتهما بقولى : إننا لم نعان بعـد ضغط السكان ، ومن ثم لم نعان بعد الضغط الاقتصادى الذى تعانونه فى أوربا . فالشفقة هنا لا تـكلفنا مثلما تـكلفكم . ومن ثم فهى ليست حسنة من الحسنات التى نتميز بها » .

وأجاب هوايتهد باسما :

« لقد ذكرتُ ذلك كحقيقة من الحقائق فحسب » .

وواصل حديثه قائلا : « أعتقد أن طوائفكم البروتستانتية قد وقعت فى هذا الخطأ : وهو أنهم حرصوا أشد الحرص على ألا يُعلّم الناس شيئا يخالف هذه الطوائف . إنك فى بضعة وثلاثين مذهبا تحدرت إلينا فى شـكل أديان من أصول يونانية سامّية ، تجد عناصر مشتركة فيها جميعا إذا استثنيت بعضا منها مما يخالف مخالفة صارخة . إنها جميعا — مهما يـكن من أمر — ترتـكز على قواعد ثابتة ، أو هى — إن شئت — تصب فى تيارات مشتركة ، وتمتزج فى قانون خلقى عام ، فتصبح ذات قيمة لا تقدر فى تربية النشء . وأعتقد أن الوحدة الخلقية فى إنجلترا اليوم تستند إلى عقائد بسيطة قليلة ، يقبلها كل فرد . إن المدرسة تحسن صنعا إذا هى بثت فى نفوس النشء مبادىء خلقية تسود البيت كذلك ويتعلمها فيه . ولا يلزم أن تـكون هذه المبادىء كثيرة أو شديدة التعقيد . إنها لا تعدو أن تـكون المبادىء العملية فى الحياة ، ومن ثم يـكون أساس صحتها . وذلك — فيما أظن — ما تفتقرون اليه هنا فى الوقت الحاضر » .

قلت : « ما فى ذلك شك . وإن المرء ليرى ذلك من ناحيتين : فهناك الجيل الصاعد الذى لا يعرف الاقتباس من الإنجيل أو الإشارة اليه ، كما أن التقاليد القديمة كذلك آخذة فى الزوال » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن هؤلاء النساكين لا يعرفون إلا قليلا عما حدث فى العالم من قبلهم ، وعما احتمل الناس وكابدوا وتغلبوا عليه ، وقهروه ، حتى إنه إذا ما اختل وجه من أوجه حياتهم الخاصة الصغيرة ، ظنوا أن الدنيا قد تحطمت بهم وألا سبيل إلى العلاج سوى الانتحار ، مهما أدى ذلك إلى البؤس والشقاء فى كل ما يحيط بهم . . . إنكما حينما كنتما منذ لحظة تبحثان فى أساس اشتهائنا للمساواة الإنسانية ، أردت أن أصيح : غفر الله لكما ، فأنتما آثمان مسكينان — ارتكب كل منكما ذلك الإثم الذى يرتكبه الرجال عادة فى حق الروح القدس ، إثم محاولة الهبوط باللا محدود إلى قانون محدود يقبله العقل . ما أشد عجبى منكما ، هلا عرفتما أن شدة رغبتنا فى المساواة تنشأ من حنان الطبيعة البشرية ، من غرابتها ، مما فيها من فكاهة ، ومأساة ، من عجزنا عن تفسيرها ؟ إنها لا يمكن أن تصاغ فى قانون . هى كذلك كما خلقت . لانستطيع أن نفعل بها شيئا . نحن خياليون ، ونحن عاطفيون ، ونحن فى حال تدعو الى السخرية ، وإلى الأسى ، نحن إنسانيون ، وكل مانستطيع عمله — إن كانت لدينا ذرة من عقل — أن ندرك الحقيقة وهى أن ليست المساواة إلا شعورا وعاطفة »

« ذلك بالضبط ما كنت أقول يا آفلن » .

« نعم فى منطقك الدقيق — فى حين أنه أبعد ما يكون عن المنطق . » ثم هزت رأسها نحونا بشدة وقالت : « تلك هى المساواة التى بيننا جميعا فى أعماق نفوسنا ! »

(٢١)

٢٨ من يونيه ١٩٤١

أقبل الصيف ، وقصدت كمبردج ، وأخذت معى لمسز هوايتهد صندوقين من

الورد من حديقة أحد جيرانى فى ماربلهد ، وأخذت له كتاب (المستقبل فى التربية) الذى نشر أخيرا لسر رتشارد لفنجستون ، والذى ذكر فيه كتاب (أهداف التربية) لهوايتهد بالإعجاب الشديد .

وكان الرجل جالسا فى مكتبه ، بعد عودتهما من ميدان هارفارد ليشتريا بدلة شتوية فى أشد أيام شهر يونية حرارة ، « ولم يستطيعا أن يحصلا عليها » .

وقلت إنى حصلت على واحدة فى الشهر الماضى « ولم أبكر بشرائها دقيقة واحدة » كما أكد لى الخائط ، فقال هوايتهد متلطفا :

« لقد تأخرنا لحظة واحدة » .

إنهم يرحلون فى شهر يولية مع آل بكمان إلى بدفورد . وفى هذا الصدد قالت مسز هوايتهد :

« إن جو المكان يلائمنى تماما ، بيت كاثوليكى تراعى فيه شعائر الدين ، وإن كنت لا أؤديها . إنه جو شبيه بذلك الجو الذى نشأت فيه فى بريتانى ، بين الكاثوليك ، وإن لم أكن كاثوليكية .

« إن ذلك يشبه إلى حد ما ارتياد الكنائس بالراديو »

قال : « لابد أن يكون هناك فى العالم الآخر مكان وسط لأمثال هؤلاء الناس . لا هو شديد الحرارة ولا هو شديد البرودة . ولا يبلغ فى كآبته حافة الجحيم . »

« لابد أنك تعنى لاوديسيا ، الذى يمقته المتحمسون لأنه مكان لا بالبارد ولا بالحار » .

ثم عدنا إلى الحديث عن زيارة الكنائس بالراديو ، وقال إن من رأيه أن الأصوات الرنانة هى خير الأصوات ، برغم خلوها من كل الأنغام الدينية التى تكسبها قوة التأثير .

قال : « إن أشد الصلوات الدينية أثرا فيما أذكر اثنتان : أولاهما قداس صغير فى كتدرائية فى إحدى المدن — ومن المؤلم جدا أن ينسى المرء الأسماء ! — على حافة الغابة السوداء بألمانيا . كان هناك حشد كبير من الأتقياء . ولم يكن بوسع المرء أن يسمع شيئاً مما قيل ، ولكن القداس بلغ مرتبة الكمال . كان المرء يحس أن الواجب الدينى يؤدى ، وأنه يشارك فيه كل أولئك القوم الأتقياء ، أما الصلاة الأخرى فصاحبية، غير أن الصلاة لم تدم طويلا . وقد أقيمت فى مدرسة ببرمنجهام ، بعد ما توجه الكثيرون منا لإلقاء المحاضرات ، التى كانت تبدأ فى التاسعة ، وكان ناظر المدرسة كل صباح قبل التاسعة بربع ساعة يجمعنا فى مكتبه الرحب ، حيث كنا نقضى بعض الوقت فى التأمل الهادئ ، ثم يتحدث إلينا فى النهاية حديثا موجزا ، كان له الأثر الصحيح تماما » .

« إنك لا تضم فى هذا الأنجلكان »

« إن صلاتهم تؤدى الغرض منها بشكل يدعو إلى العجب ؛ الطقوس الجميلة ، والموسيقى ، وفن العمارة ، والأصوات الرائعة — فيها كل شىء إلا الدين . إنها ليست دينية ، إنما هى اجتماعية » .

« كان رالف أمرسن — يسخط عليها أشد السخط . وقد بين السبب فى مقاله عن الصفات الإنجليزية » .

« ولكنى أعتقد أن المذاهب البروتستانتية تفتقر حتى إلى ذلك . إن الصلاة الأنجليكانية رمز لمسئولية الأرستقراط عن حكم الأمة . وهى لم تكن فى المسيحية

أصلا . فالفلاحون اليهود ، الذين صدرت المسيحية عن بداهتهم الخلقية العميقة ، لم تكن لديهم أدنى فكرة عن إدارة المجتمع المعقد . وحتى المسيح نفسه لم يقل شيئاً عنها بتاتا ، اللهم إلا قوله : يجدر بكم أن تدفعوا ضرائبكم ، بيد أن ذلك ليس دستورا مدنيا دقيقا » .

« هل تعنى أن ما خلا ذلك — من تبعة تنظيم المجتمع — أضيف فيما بعد ؟ »

« نعم ومن التناقض أن هذه الفكرة ، التى كانت حديثة فى العالم عند بدايته — أقصد قيمة الفرد — التى مازلت تراها على صورة أكيدة قوية فى أية كنيسة كاثوليكية ، حينما تشهد متعبدا فريدا جاثيا فى معبد قديس من القديسين — هذه الفكرة قد تبناها نظام اقترف الكثير فى سبيل قمع الفردية — وأقصد به الكنيسة الكاثوليكية . إن فى الدين دائماً عنصراً همجيا ، وإن محاولة الاحتفاظ بكيان المجتمع هى دائما من عمل الرجال المخلصين . ولم تبلغ هذه الهمجية — فيما أظن — ما بلغته فى محاكم التفتيش فى إسبانيا أو فى اضطهاد الهوجونوت فى فرنسا . ومما يدعو إلى الدهشة أن انفصال الكنيسة الإنجليزية فى القرن السادس عشر تحت حكم التيودور لم يصاحبه إلا قدر ضئيل من الوحشية نسبيا . كانت هناك بطبيعة الحال حرائق وإطاحة للرؤوس ، ولكنها لا تذكر إلى ما كان يحدث فى القارة الأوربية فى مثل هذا الظرف . إن الإصلاح لم يكن دينيا مهما يكن من أمره . ولست أدرى ما كان شأن هنرى الثامن أو إليزابث بالدين » .

قلت : « إن ما دونه ترفيليان فى صفحاته عن انحلال الأديرة يؤيد ما تقول . غير أن مشكلات هذه الأديرة لم تكن واضحة كما نحسب اليوم » .

قال هوايتهد : « إن اغتصاب الأملاك كان عملا عنيفا ، ولكنه لم يبلغ فى

عنفه ما بلغته الحروب الدينية التى اجتاحت القارة الأوربية . ولست أعرف فى التاريخ سوى مناسبتين قام فيهما أصحاب النفوذ بما ينبغى أن يقوموا به بصورة حسنة على قدر ما يستطيع المرء أن يتصور من إمكان . وإحدى هاتين المناسبتين هى وضع دستوركم الأمريكى . كان واضعوه ساسة قديرين ، وصلوا إلى مجموعة من الآراء الطيبة . وضمنوا هذه المبادىء العامة أداتهم دون أن يحاولوا أن يفصلوا بوضوح زائد كيف يمكن تطبيقها . وكانوا رجالا ذوى خبرة عملية واسعة . وكانت المناسبة الأخرى فى روما ، ومما لا جدال فيه أنها أنقذت المدنية لمدة تقرب من أربعمائة عام . وكان ذلك من عمل أغسطس وزمرته . لقد أنقذ روما من الرومان ـ أقصد الرومان سكان المدن ـ أنقذها من إفلاس شكل الحكومة الجمهورى ، ومن الآراء البائدة التى كانت تعتنقها طبقة النبلاء القديمة . فقد استطاع بطريقة ما أن يستدعى أولا أعيان الريف الإيطاليين ، وهم (الرجال المحدثون) أصحاب الآراء الجديدة . وكلما تقدمت القرون ظهر الريفيون من أمثال القياصرة الإسبان . فامتدت بذلك حياة روما حتى منتصف القرن الثالث بعد الميلاد ، وذلك حينما بدأت تنهار فيه على وجه التقريب . لقد ترك لمجلس الشيوخ نفوذا يكفى لاحتفاظهم بكرامتهم ، وكانت الحكومة ـ فيما خلا ذلك ـ فى أيدى السلطات المدنية والقوات العسكرية . لقد كان ذلك عملا من الأعمال العظيمة فى تاريخ الإنسان ، وإنى لأشك ـ مهما كان ما نقوم به من تحليل شرعى ـ فى أن أى امرىء يستطيع أن يفهم كيف حدث ذلك » .

ثم بادر إلى القول بأن الظاهر أن أحسن المدنيات هو مع مانشأ عن الامتزاج العنصرى : النورمان مع الفرنسيين ، والنورمان الفرنسيون مع الانجلو ساكسون ، والغزاة الدوريون فى اسكا مع أبناء البلاد .

« إذا كان العنصر (نقى) الدماء فالأرجح أن يكون الشعب غبيا ، حتى تختلط دماؤه بدماء أخرى أشد حيوية . وأعتقد أن الدماء السامية قد اختلطت

بدرجة كبيرة بالسماء الأيونية ، فكان من هذا الاختلاط تلك الثقافة المستنيرة الأصيلة » .

وواصل حديثه قائلا : « ووراء ذلك كله هذه المشكلة : كيف نحمى المجتمع من الركود . إن ذلك أشق أمر فى الوجود . فقد ينشأ نظام اجتماعى ويعيش فى يسر عدة قرون . ولكنه إذا افتقد عنصر التجديد ، عنصر التقدم ، فهو شىء لاحياة فيه . وأستطيع أن أقول إن النمل والنحل لها نظم تسير فى يسر ، ولكنها لاتتغير . وعنصر التجديد هذا هو الذى يحدد الفارق بين الإنسان والحيوان . فالإنسان يرى المستقبل فى الحاضر ، ويبصر ما يمكن أداؤه بما عنده من مادة موجودة ـ أن الكلب يرى الحاضر حاضرا ، ليس غير . ولكنى لا أقول إنه يستحيل على الإنسان أن يبلغ نهاية قوته الابتكارية . وليس معنى هذا أن هذه القوة قد تنفد ، ولكنه ربما يبلغ فى دنياه حالة يكون المجتمع فيها ساكنا ، فلا تجد هذه القوة الابتكارية عنده مجالا ـ وحينئذ ، تكون نهاية الإنسان . ولا تكون لمجتمع قيمة أكبر من قيمة النمل ، إذا قارنا بينهما كمخلوقين » .

وعنّ لى أثناء حديثه : « أن الفنانين — فيما يبدو — يرون أن هذه القوة الابتكارية شىء لايتحكمون فيه ، وإنما يتحكم فيهم . حقا إنهم يطورون وسائل فنية عملية تستطيع هذه القوة أن تفعل بها فعلها ، ولكن الوسائل العملية ـ كالآلة الميكانيكية — لاتخلق ، وحسبها أنها تعين على الخلق . وقد كان جيته واضحا فى ذلك خلال حديثه مع اكرمان . فهو يكاد يقول إن الآية الفنية هدية من السماء فى يوم من الأيام الطيبة ، التى تمر بالفنان . ولكن القوة المؤثرة تأتيه من خارج نفسه » .

وأخذ هوايتهد بطرف الحديث فقال : « إن المجتمع الذى يستطيع أن يهيىء الظروف التى لابد منها للفنانين لكى يجدوا مجالا حرا لقدرتهم على التجديد ،

ولا أقول الخروج على المألوف أو الشذوذ — وإنما أعنى الابتكار فى تطوير التقاليد الفنية ، والسير قدما بأحدث ما استجد فيها — هذا المجتمع يبلغ أعلى درجات التقدم » .

« ألم يكن أفلاطون فى (القوانين) — وهو من آثار شيخوخته — قاسيا فى حكمه على عنصر التجديد فى الفنون ؟ أو على الأقل فى حكمه على فن المأساة ؟ » .

فنهض ، وتطلع إلى رفوف مكتبته ، واختار أخيرا مجلدا من طبعة لُوَب ، وفتح الفصل الواحد والخمسين فى تيماوس ، وقال : « أنصت ، وسأطلعك على مقال لأفلاطون . . . » وكانت الترجمة معدلة فى مواضع مختلفة بقلمه . وقال عنها مشيرا إلى كلمة يونانية : « إن المترجم قد ترجمها خطأً بالمادة » .

قلت : « ولكنها تعنى [الطبيعة] أليس كذلك ؟ أو على وجه أدق تعنى [النمو]أو [عملية النمو] » .

« نعم : إن أفلاطون هنا يتحدث عن [الوعاء] والفكرة بعيدة المدى، وبها شىء من الغموض » وطالع صفحتين أو ثلاثًا ، وأخذ يلخص مايطالعه ، حتى بلغ الفصل الرابع والخمسين .

فقال: « وهنا ـ كما ترى ـ يهبط بالفكرة إلى [الأمر المألوف]ـ إلى الهندسة! »

« ولكن ألم تكن هذه هى طريقته ،يتناول اللامحدود ـ الذى لا يستطيع أحد سواه أن يعالجه ـ ويهبط به إلى الصورة المحدودة ، التى يستطيع أن يفهمها متوسط الأفراد — أو المتعلمون فى أثينا القديمة — كما قلتَ ذات مرة ؟ »

« هذه العلاقة بين اللامحدود والمحدود هى ما كنت أستهدفه . إن عقولنا محدودة ، ولكنا برغم تحديدها محاطون بإمكانيات غير محدودة ، والغرض من

الحياة الإنسانية أن نستوعب من اللامحدود بقدر ما نستطيع . وكم أود لو استطعت أن أنقل إليكم هذا الإحساس الذى أحس بلانهائية الإمكانيات التي تجابه الإنسانية — باحتمالات الاختيار التي لا تنتهى ، بإمكان الاستحداث والتجديد فى الجمع بين شيء وآخر ، بالنتائج السارة للتجارب ، بالآفاق المتفتحة التي ليس لها نهاية ما دمنا نجرب ؛ وما دمنا نحتفظ بإمكانية التقدم هذه ، فنحن ومجتمعاتنا أحياء فإذا فقدنا ذلك صرنا نحن ومجتمعاتنا إلى الموت ، مهما قمنا وقامت مجتمعاتنا بنشاط خارجي ، ومهما ظهرنا أو ظهرت مجتمعاتنا بمظهر الرفاهية المادية . وليس هناك أيسر من فقدان عنصر التجديد هذا الذى أشير إليه. إن مبدأ الحياة فى الفكر هو الذى يحفظ علينا جميعاً حياتنا . »

« وما مقدار صحة هذا الإحساس بالوحدة الذى نحسه أحياناً — هذا الإحساس باندماج فرديتنا فى الكل — ما مقدار صحة هذا الإحساس فى ظنك ؟ إننى لا أحب أن أتحدث فى هذا حديثاً خيالياً ، وخاصة لأنى لست ميتافيزيقياً ، ولا عالماً نفسانياً . ولكنى — برغم هذا — أعلم أن هذه اللحظات لا تنسى ، والإحساس بها قوى ، حتى إن المرء ليستطيع استعادتها بعد عدة سنوات ، قد تبلغ العشر ، كأنها كانت بالأمس فقط ، أو اليوم ، ويخلق منها شيئاً حياً جديداً . »

فقال هوايتهد : « إن الصوفية تحملنا على أن نحاول أن نخلق من الخبرة الصوفية شيئاً يُبقى عليها . أو على الأقل يُبقى على ذكراها . إن الألفاظ لا تعبر عنها إلا تعبيراً ضعيفاً . إننا نعلم أننا كنا على صلة باللانهائى ، ونعرف أننا لا نستطيع أن نعبر عنها بأية صورة من الصور النهائية المحدودة . . . »

وجاهرت « بأن الموسيقى قد تكون أقرب إليها من الألفاظ . فالمرء أحيانا ـ أثناء أداء قطعة من روائع الموسيقى أداء جيداً ـ يحس إزاء اللامحدود بإحساس شبيه بما لا بد أن يكون الملحن قد أحس به حينما كان عليه أن يختار لحنا من

الألحان لكى يعبر عنه . إن الألحان المحدودة موجودة ، فى النغم أو فى التوقيع . ولكن الإمكانيات التى لا نهاية لها ـ أعنى الطرق التى يمكن أن يعبر بها عن هذا المجال الفسيح ـ هذه الإمكانيات تحف بهذه الألحان من كل جانب » .

قال هوايتهد : « من هذا الجهد الذى يبذل فى سبيل إنقاذ الخبرة الصوفية ، أملا فى ابتداع صيغة تحفظ هذه الخبرة لأنفسنا وربما لغيرنا أيضا ـ أقول من هذا الجهد يأتى الإيضاح ـ فى فكرة أو ربما فى صيغة فنية ، وهذا الإيضاح يتحول بعدئذ إلى صورة من صور العمل ... صوفية ، وإيضاح ، وعمل . إننى لم أستطع من قبل أن أعبر عن هذا الموضوع بهذه الصورة . ولكن هذا هو الترتيب الذى أراه » .

وقال : « إن صفة الركود قد ظهرت فى الديانة البوذية كما يدل على ذلك تاريخ الهند والصين ، وإن التقدم فيهما كان يسير إلى الوراء أو يتوقف . وإنه لم يطرأ على الصين منذ عام ١٨٠٠ ق . م . حتى العصر الحديث سوى تغيير طفيف ، إذا استثنينا هذه التغيرات اليسيرة فى بعض نظم الحياة الصغرى » . ثم وضح لنا كيف أن الفكر الديناميكى المتحرك من الصفات الدقيقة التى يمتز بإحرازها الإنسان ، وكيف أنه من اليسير أن يفقدها .

وأدى بنا ذلك إلى الحديث عن حيوية التفكير فى مهنة الطب فى عصرنا ، وكيف تتقدم علوم الطب بسرعة ، ويحدثك أصحاب المهن برغم ذلك أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا . قال :

« إن الطبيب الأمريكى الممتاز هو من أكثر النماذج البشرية تقدما على الأرض فى الوقت الحاضر » .

« لأن العلم عنده يُكرس لتخفيف الآلام » .

« بل إنى لأرد ذلك إلى أسباب أعم . إنه متشكك فى وقائع مهنته ، ويرحب بالمستكشفات التى تقلب فروضه السابقة رأسا على عقب ،ولا يزال العطف الإنسانى والإدراك يمثان فيه الحياة » .

قلت : « لولا تقدمهم لمت بالزائدة الدودية منذ عشرين عاما . كان المصابون بها يموتون فى عام ١٨٩٢ . أما اليوم فهى تعد من العمليات الجراحية الصغرى » .

فقال هوايتهد: « ولولا كشف فى عالم الطب منذ ثلاثة أعوام فقط لمت منذ ستة أسابيع » وكان يشكو التهاب الرئة ، وقد شفى منه بالدواء الجديد .

ودخلت علينا مسز هوايتهد ومعها بعض الأزهار المودعة بنظام فى آنية زجاجية. ثم أخرجتُ (مستقبل التربية) من تأليف لفنجستون .

فقال هوايتهد : « إنى أقدره قدرا كبيرا . وقد عملت معه مرة فى لجنة ملكية لدراسة مكانة الأدب الإغريقى الرومانى القديم فى التربية الإنجليزية . وقد شغفت به حباً » .

وفتحت صفحة ٣٠ ، وأشرت إلى هذا الاقتباس التالى . وقرأه هوايتهد :

(إن الأستاذ هوايتهد — فى أحد الكتب القيمة حقاً عن التربية ـ قد تحدث عن خطر الآراء الجامدة ، أى الآراء التى يكتفى العقل باستقبالها دون أن ينتفع بها ، أو يختبرها ، أو يضمها إلى مركبات جديدة ... إن التربية بالآراء الجامدة ليست عديمة الفائدة فحسب ، إنها ضارة فوق كل شىء آخر ... وقد كانت التربية فى الماضى مصابة إصابة شديدة بالآراء الجامدة إذا استثنينا فترات نادرة من التخمر العقلى . . .)

* * *

ودفعني ذلك إلى أن أقول بأن لفنجستون قد كتب إليّ منذ بضعة شهور يذكر لي أن (أهداف التربية) هو من الكتب القلائل التي قرأها في الوضوع، وحمله على الاعتقاد بأنه كتاب من وضع رجل يعرف شيئا عن الموضوع.

وفي الفترة القصيرة التي بقيت من السهرة تحدثوا عن سيرة (كاترين أراجون)، من تأليف جارت ماتنجلي، وهو الكتاب الذي نشر أخيرا، وقد أثنى عليه هوايتهد ثناء عظيما.

قال: « إنه يجعل الأشخاص التاريخية إنسانية حية. والأوصاف مستقاة من الخطابات العائلية الخاصة، وإنك لتسمع عن مثل هذه الأشياء: كيف كان هنري الثامن يبدو في يوم من الأيام ... وأي ألوان العذاب كان طب العصور الوسطى يلحق بالملوك الذين يعانون الموت! كان كل امرىء يعتقد أنه يبذل قصارى جهده، ولم يعرف أحدهم كثيرا عن أي شيء. وكانت بالطبع عذابات عامة الناس في مثل هذه الشدة، غير أن أحدا لم يحفل بتسجيلها. ويعطيك هذا الكتاب أيضا فكرة عن كرانمر تختلف عن فكرة الاستشهاد المألوفة التي تنسب إليه. كان يميل أشد الميل إلى الإنكار لكي ينقذ حياته، فلما وجد أنه سيحرق بسبب هذا الإنكار، أنكر إنكاره ».

« اعتدنا أن نظن أن الحياة في تلك الأزمنة كانت معرضة للمخاطر الجسيمة. ولكن انظر إلينا الآن! ».

« أعرف ذلك. ويكاد المرء يخجل من القول بأن اليوم حار، أو أن المساء بارد، وكأن ذلك من التوافه التي تحتمل. لقد بلغ العالم حدا من الاضطراب يحتم علينا أن نعيد النظر حتى في أكثر الآراء شيوعا، الآراء التي كان يقبلها كل امرىء من قبل ».

(٢٢)

٣٠ من أغسطس ١٩٤١

صباح صائف ذهبي . وقد حددت بموعد سابق مع آل هوايتهد ساعة وصولى إليهم بالحادية عشرة والنصف . وقد تم الآن شفاء الأستاذ هوايتهد تماما من وطأة التهاب الرئة ، وكان بادى الصحة بشكل غير مألوف . وذكرت له ذلك .

فقال : « إن الناس يقولون لى هذا ، ولكن آثار المرض ما زالت متخلفة فى جسمى » .

« لعلك تتعلم من ذلك ألا تصاب بعد اليوم بالالتهاب الرئوى » .

وأمّن على هذا المزاح قائلا : « أجل ، لابد أن يكون لكل أمر درس »

« إن نيتشة ـ الذى اختص بالملاحظات المنفرة ـ له ملاحظة مؤداها أن الألم قد يجعل من الرجل إنسانا أعمق ، ولكنه لايجعل منه إنسانا أفضل » .

فقال هوايتهد : « إن الهم قد يكسب المرء لونا من ألوان الإشراق ، لأنه يشحذ المواهب ، ليس غير . إنه يحمل جميع انطباعات الإنسان أشد غزارة ... وقد كنت أفكر أخيرا فى المادة الشعبية: كيف تتلون بلون الزمان والمكان ، ولكنها ـ فى النهاية ـ تبلغ غايات متشابهة . فى إنجلترا إذا حدث خطأ من الأخطاء ـ كأن يجد المرء نارا فى حديقة — تراه يكتب إلى محامى الأسرة كى يتخذ الإجراء القانونى . فإن حدث هذا فى أمريكا اتصل تليفونيا بقسم المطافىء . وهذا التصرف وذاك كلاهما يشبع حاجة من خصائص الشعب . هى فى إنجلترا حب النظام وتطبيق القانون ، أما هنا فى أمريكا فإنكم تحبون التصرف الحى ، الحار ، السريع ..... »

« والذى يصحبه الضجيج ! شهدت ذات يوم فى شارع الدولة جهاز المطافىء

يتحرك ، وهو يتألف من ست قطع . فأخليت الطرقات ، ولزم شرطى المرور مكانه لايتحرك من شدة التنبه ، ووقفت الجماهير ترقب مايجرى . وكانت سرعة السيارات وأزيزها هائلة — وكل امرىء فى غاية السعادة — وأخيراً تبين أنه لم يكن هناك حريق » .

وواصل هوايتهد حديثه قائلا : « هذا مارميت إليه . فإن كل وسيلة تؤدى مايؤديه غيرها ، ويرجع ذلك إلى أن تسعين فى المائة من الشقة سيكولوجى . فعندما يتأكد المرء أن العملاء المكلفين بالعمل قد شرعوا فى اتخاذ الإجراء الضرورى إزاء حرائق الحدائق ، انصرف إلى عمله رضى النفس . »

قلت : « منذ عام ١٩١٠ — فى هذا البلد على الأقل — بات لزاما علينا أن نعترف بعامل جديد ، هو الطبيب النفسانى . ولكن مامدى الجدة الحقيقية فى علم الطبيب النفسانى ؟ »

وقال هوايتهد : « كان لدى الكاثوليكيين بعضه خلال تاريخهم فى فكرة الاعتراف . كنت منذ عهد قريب أقرأ — أو قل أعيد قراءة — كتاب (لغز الجزويت) من تأليف ا . ج . بويدبارت . وهو ينتقد مذهبهم فيما يسميه « علمهم النفسانى الزائف » . وبحثت عنه فى الدليل ، ووجدت أنه قام بأعمال يستحق عليها التقدير ، ولكنه لايقر لمذهب الجزويت إلا بالفضل القليل . ورأيى أن هذا المذهب لابد أن ينطوى على فضل أكثر مما نسب إليه ، وإلا لماازدهر كما عرفنا» .

« أليس هذا مثالا لأن لكل شيء تقريباً وجهين، سواء فى ذلك الحقيقة المجردة والنظام المتبع فهو من ناحية لايحتمل ، ومن ناحية أخرى مُرضٍ مقبول » .

«اليقين الصارم هو الذى يقضى على الحقيقة . وأرجو أن تلاحظ أننى لا أعيب اليقين ولكنى أعيب صرامته . حينما يقول الناس عن أمر من الأمور : هذا كل ماهنالك مما يُعرف أو يقال عن موضوع ما ، وعند ذلك ينتهى البحث ، حينما يقول الناس ذلك كان فيه الموت بعينه . وربما لايصدر الشر عن المفكر نفسه ، وإنما

يصدر عن استخدام تابعيه لتفكيره . فقد أعطانا أرسطو — مثلا — المنهج العلمى (كما قدم كذلك فى علم الأخلاق بحوثا لها قيمتها) ولكنه — أساساً — كان الرجل الذى ابتكر طرائقنا فى البحث العلمى (وفى الملاحظة كذلك) ، ولكن فروضه المنطقية ، وتعاليمه فى التعليل الصحيح — التى ورثتها أوربا — لاتصلح إلا فى حدود إطار المنطق الرمزى ؛ فلما استخدمت فى أوربا بلّدت العقول أجيالا بأسرها من الدارسين فى العصور الوسطى . لقد اخترع أرسطو العلم ، ولكنه هدم الفلسفة » .

« هل ترى أن أهم مايميز ما أضافه أفلاطون إلى طرائق التفكير هو الرغبة الملحة فى متابعة الجدل إلى حيث يؤدى — كما جاء على لسان سقراط فى المحاورات ؟ وقد يبدو ذلك غاية فى البساطة ، ولكن قل من الناس من يفهم كيف يسير وفقاً لمعناه . إن المشكلة الواحدة — مثلا — فى « محاوراته » تقلّب على كل وجه ، ويدلى فيها الكثير من الناس كل برأى » .

فقال هوايتهد . « إن العلماء الألمان الذين درسوا أفلاطون فى مستهل القرن التاسع عشر ضلوا السبيل فى رأيى . والظاهر أنهم كانوا يرون أن عدداً من الجهال قد قدموا لنا آراء لامعنى لها حتى جاء سقراط أخيراً ووضع الأمور فى نصابها . ولست أعتقد أن هذه هى الحقيقة بتاتا . حينما يشترك فى النقاش عدد من المحترفين المختلفين ، كانت خبراتهم متنوعة تنوعاً يؤدى قطعاً إلى إضافات جديدة إلى الفكرة التى يضعونها موضع الجدل . وربما لم يكن أحد منهم صاحب الكلمة النهائية ، وربما جانب بعضهم الصواب ، ولكنهم — مجتمعين — يلقون ضوءا على الموضوع . وقد لاتقبل آراءهم ، ولكنهم يستحقون الدرس. وأعتقد أن فى مكتب صحيفتكم الكثير من أمثال هذه المناقشات ...... » .

« إن اجتماعات المحررين اليومية ليست إلا كما ذكرت . وقد نما تداول الرأى

على شكل المحاورات الأفلاطونية بدرجة لم نألفها من قبل ، خلال سنوات عديدة وأعتقد أنى ربما بهذا بدأت أن أفهم الطريقة الأفلاطونية فى الجدل » .

« بهذه الطريقة يتكشف الموضوع ، وتعطى الآراء المختلفة حقها ، كما يشعر المشتركون فى الحوار أنهم بذلوا جهدهم فى سبيل غاية طيبة ، حتى وإن لم يبلغوا نتيجة محددة » .

« هل تعتقد أن هذه الطريقة قد وجدت فى أثينا قبل أفلاطون ؟ »

« أرجح ذلك إن عز أثينا قد سبق أفلاطون بقليل ، فى عهد كتاب المأساة الثلاثة العظام — وقد كان أرستوفان واحداً منهم . وأعتقد أن الثقافة تبلغ غاية ازدهارها قبل أن تبدأ فى تحليل نفسها . وقد كان عصر بركليز — كما كان كتاب المسرحية — تلقائياً ، لايشعر بوجوده » .

« إن الروح التحليلية سرت فى يوريديز ، وهو آخر الثلاثة . كما تلمس فيه كذلك قدراً أكبر من طريقة الحوار ، إذ كان هذا الكاتب المسرحى يقدم هذه الفكرة أو تلك ، لا باعتبارها رأيا نهائياً ، ولكن لكى تجد طريقها إلى التعبير » . .

« كم من الناس شهد هذه المسرحيات ؟ »

« ما يقرب من عشرين ألفا فى اثينا ، بالرغم من أن المواطنين كانوا أكثر من ذلك عدداً ، وربما بلغوا مائة وخمسين ألفا . وإنى لأتصورهم جالسين من مطلع الفجر حتى الظلام فى يوم من أيام مارس التى تنسب إلى ديونيسيا الأعظم يشهدون ثلاث مآس تتبعها مسرحية هزلية ، لثلاثة من الشعراء المتنافسين ، ولا بد أن تكون (أورستيا) لايسكلاس إحدى هذه المآسى الثلاث . أين فى عالمنا الحديث المشاهدون الذين يستطيعون أن يستسيغوا كل هذا ؟ »

قال هوايتهد : « لقد كان للطباعة أثر هدام . فقبل أن تـكون الصحيفة للعقل عوناً كان عليه أن يقوم بعمل أشق . وإذا تذكرت أن الأسرى الأثينيين من بعثة سرقسة قد نالوا حريتهم لأنهم استطاعوا أن يتلوا من الذاكرة أناشيد مختارة من يوريبدز ، عرفت أنه من الجلى أنهم لم يذكروا مقطوعات قصيرة من النص الأصلى » .

« هل ترى أن منظر أكداس الـكتب فى المـكتبة مما يثبط الهمم ؟ وهل لو عرف المرء كل ما فى هذه الـكتب أصبح أفضل مما كان ، أو أسوأ مما كان ؟ أو لعلنا نستطيع أن نسأل هذا السؤال : هل يمـكن للمبالغة فى القراءة أن تضعف فملأ جهاز التفكير عند الإنسان ؟ »

فقال هوايتهد : « إنى أقرأ ببطء شديد . وأجد أنهم يشيرون إلى أحياناً بالرجل (المطلع) . والواقع أنى لم أقرأ عدداً كبيراً من الـكتب ، ولـكنى أفـكر فيما أقرأ ، فيثبت فى ذهنى » .

(وإذا تذكرنا حجم مكتبته فى بيت كانتون ، وفى مسكنه براندور هول ، بل وهنا فى فندق إمباسادور ، حيث تفيض الـكتب من حجرة الدرس إلى حجرة الطعام ، بل حتى لو حصرنا العدد فيما كان بين أيدينا ، إذا تذكرنا ذلك عرفنا أن ملاحظته عن قلة ما قرأ من كتب ليس إلا أمراً نسبياً)

« وما رأيك فى هذا الاهتمام الحديث (بالسرعة) فى القراءة ؟ » .

« ليست السرعة ديدنى . ثم إنى فى بعض قراءاتى أغفل بعض الصفحات . فأمس مساء ـ مثلا ـ كنت أقرأ هذا الـكتاب الذى أراه فى حجرك عن الجزويت . ولما وجدت فى بدايات الفصول المتتالية أن المؤلف لا يغير وجه الموضوع الذى أدركت من قبل مغزاه لم أتردد فى الإغفال » .

ثم انتقلنا إلى الحديث فى نوع الكتاب الذى يحتم على قارئه أن يقوم (بعمل) ما إن كان يرمى إلى الإفادة مما يقرأ . إن (تأملات) ماركس أوريليس يمكن أن تقرأ كلها فى بضع ساعات ، غير أن نقل ما فى هذه التأملات إلى فكر وعمل قد يكون شغل الحياة كلها . ثم سألت :

« هل طرأ لك ـ بعد الحياة التى عشت والعمل الذى أديت فى المجتمعات العملية ـ أن المرء قد يبالغ فى تحصيله الدراسى ؟ »

قال : « إن الجامعات تشبه كل أداة ضرورية أخرى ـ مثلها مثل السلاح ، لا بد لنا منها ، وإنه ليتعذر علينا أن نتابع ثمرة الحضارة بغيرها . ولكنها ـ برغم قيمتها القصوى ـ قد تكون كذلك شديدة الخطر . إن هارفارد لم تحتفظ بمكانتها العاليه كقلعة من قلاع الفكر إلا بسبب مدارس الخريجين ، حيث تقترن المعرفة بالعمل . »

« شغلتنى أخيراً فكرة أود أن أعرضها للنقد ، وهى أن تأثير التفكير الدينى فى أمريكا فى القرن التاسع عشر كان لا يزال قوياً . فلما أقبل القرن العشرون ، وظهرت العلوم ، ثم نشبت الحرب العالمية الأولى ، ضعف هذا التأثير ، وانتقلت القيادة إلى علماء التربية حوالى عام ١٩٢٠ . أما الآن فإن دلائل كثيرة تشير إلى أن القوة الدافعة فى المدنية الأمريكية ـ بعد نحو جيل ـ قد يتولاها رجال الفن ـ وأنا أستخدم الكلمة هنا بأوسع معانيها : المبدعون . »

فقال : « إن تواريخك تحيرنى بعض الشىء . ومن رأيى أنه قد مرت بكم من قبل فترتان سعيدتان من الانتعاش فى هذا البلد : إحداها فى إنجلترا الجديدة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حينما نعمتم حقاً بعصر من أعظم ما مر بالدنيا من عصور ، وإن يكن لم يبلغ بعدمن الشهرة ما يستحق ؛ والأخرى فى أعقاب القرن الثامن عشر ، عند تشكيل دستوركم الأمريكى . ولست أعنى

أن واضعي الدستور كانوا يقومون بعمل مبتكر من جميع نواحيه ، فإن بعض آرائهم قد انقضت عليه من قبل مائة عام ـ وربما يعود إلى لوك ـ أو إلى ما قبل ذلك . ولكنها كانت آراء فريدة ، لا لأنها فصلت ما يتبع من إجراء ، ولكن لأنها وضعت مبادىء عامة تسير عليها دولة ديمقراطية عظمى . ولست أعرف سوى مثالين اثنين تم فيهما بطريقة واعية عمل بمثل هذه الضخامة . هذا أحدهما ، أما الآخر فقد تم طبقاً لمبادىء لا تحقق لك ، ولا تحقق لي ، مُثُلنا في الحرية . ولكنه ـ بالرغم من هذا ـ أنقذ المدنية ، وورّث الأجيال القادمة رأياً جديداً حتى للعصور الوسطى ، التي مكنت مؤسسات الأديرة من نقل الميراث القديم . وأقصد حينما كان أغسطس قيصر لا يتوجه بالخطاب إلى طبقة النبلاء الصغيرة ، أو الرعاع الذين لا يعتمد عليهم وإنما يتوجه به إلى الطبقة الوسطى المتماسكة ، أولا في روما وإيطاليا ، ثم في الإمبراطورية بأسرها فيما بعد . إن أحداً لا يعجب بنظام الحكم الإنجليزي من كل قلبه مثل إعجابي ، وكذلك لا يستطيع أحد أن يقول على وجه الدقة في أي وقت ظهرت فكرة الملكية المقيدة . فان الفكرة قد نمت بغير وعي . ولم تكن فكرة من ابتداع شخص بعينه أو زمن بذاته . غير أن نظام أغسطس ودستوركم الفدرالي كانا ثمرة لجهد واع . والنظام الإنجليزي ـ فوق هذا ـ يصعب نقله ، ولم يستطع أحد أن ينقله بصورة ناجحة إلا الشعوب التي هي من أصل إنجليزي ، والتي أنشأت مجتمعات استعمارية ، في أماكن مثل استراليا ، وأفريقيا وأمريكا الشمالية . »

« من الواضح أنك تستعمل لفظة ، [الفنان] بمعنى خالقي الدول العظمى » . فواصل هوايتهد حديثه قائلا : « وأنت تستعمل كلمة الخلق بالمعنى الذي أعطيه لكلمة [الجدّة] . منذ مائة ألف عام — أو ما يقرب من ذلك — فلا يعرف أحد متى كان ذلك — خطا الانسان خطوة في تطوره تمخضت عن تقدم سريع . تلك هي قدرة الإنسان على الابتداع ، قدرته على التجديد ، حبه للمعرفة ، وميله إلى

البحث . وأخشى على الإنسانية من فقدان هذه القدرة . ومن الأماكن القليلة التي لا تزال فيها هذه القدرة طليقة هنا في الولايات المتحدة . ولست أقول إنه ليست هناك وسائل تستطيعون أن تحرزوا فيها تحسنا . فأنا أعتقد أن هناك مناطق تحسنون لو خفضتم نسبة القتل فيها . ولكنا حتى مع اعتبار شيكاغو في أسوأ ظروفها ، في العقد الثالث من القرن العشرين ، قبل أن تتدخل السلطات عندكم وتوقف الحوادث عند حد ، ولكنا - مع ذلك - نستطيع أن نقول إن الحياة عامة، حياتك وحياتي،أقل تعرضاً للتدخل وأقل تعرضاً للخطر هنا منها في أي مكان آخر فوق الأرض إن الظروف لا تلائم تقدم المواهب إلا في عصور سعيدة معينة؛ وفي بلاد معينة - كبلاد اليونان في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وروما في القرن الأول بعد الميلاد . وحتى حينئذ كان مقدار المواهب التي استنبطتها الظروف الملائمة المؤقتة محدودا ، فإن المواهب الكامنة كلها ، أو الأفراد الموهوبين جميعا ، لا يجدون التشجيع المطلوب . وحينما تحل هذه الأوقات السعيدة ، لا نعرف كيف نطيل أمدها » .

فعلقت بقولي : « إن الدراما لعهد إليزابث لم تدم طويلا ، وقد بلغ ازدهارها ذروته فيما بين عامي ١٥٩٠ و ١٦١٢ ، وما إن هل عام ١٦٢٠ حتى بدأت في الذبول » .

قال : « كانت بذهني هذه الفترة بعينها . إن الفن يزدهر حينما يكون هناك إحساس بالمغامرة ، إحساس بأن شيئا لم يتم عمله فيما سبق ، إحساس بالحرية التامة للتجريب . أما حينما يدخل عنصر الحذر ، فعندئذ يحدث التكرار ، وفي التكرار ، موت الفن. كانت عندكم هنا في أمريكا فترة طيبة حتى حوالي عام ١٨٦٠ . وبعدئذ ساد الاعتقاد بأن الشيء لا يكون حسنا إلا إن كان مستورداً من أوربا » .

« أجل ، وإنك لتحس أن الرجال من أمثال أمرسن وثورو كانوا ينحون بهم عن هذه العقيدة. أما بعد منتصف القرن فقد انتشرت الفكرة كما ينتشر الوباء » .

قال : « إن الحربين العالميتين قد حطمتا أوربا وحررتا أمريكا » .

« إلا إذا انحرفنا من جراء افتقارنا للتجانس العنصرى ؟ »

« بل إن الأمر على نقيض ذلك ؛ فقد كان هذا الافتقار لكم كسبا . ولست أعرف حالة فى التاريخ شبيهة بحالتكم،التى جمعت النفوس الحية المغامرة من مختلف الأجناس فى بيئة ملائمة لخلق ثقافة كبرى . اللهم إلا فى حوض البحر المتوسط فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد (وهو ألمع عصوره) ، حينما كان الإغريق والفينيقيون والإيطاليون وغيرهم ممن لا أعرف يشقون البحر فى الزوارق يخلطون الأجناس ويؤسسون المجتمعات الجديدة . وإن الأمر ليدعو إلى العجب إذا لم تفيدوا من موقفكم هذا » .

« لا أعتقد أنى أدرك تمام الإدراك ما تعنى من قولك : إن فى التكرار موت الفن » .

« إذن فخذ فن البناء مثالا ، لقد نشأتُ فى بقعة فى إنجلترا هبط فيها كل من جاء إلى بلادنا ، من قيصر إلى إرساليات التبشير ، إلى الدنماركيين ، والنورمان ، وغيرهم . وكانت كنيسة أبى مثالا ، وكتدرائية كانتربرى مثالا آخر (وأستطيع أن أتصور الآن المكان الذى قتل فيه توماس أبكت ، وسلاح الأمير الأسود فى الجناح الجنوبى من المذبح) . وقد اطلعت على الموضوع ، ولا أومن البتة مع ت س اليوت برأيه فيما حدث فى كاتدرائية كانتربرى . وأؤكد لك أنى لا أزعم أنى أعرف كثيرا عن الموضوع ، ولكنى أحس أن الأمر لم يكن كما قال إليوت — إن كل العصور التالية راسخة فى تلك المبانى : جدران الكنائس القديمة ، ثم الأقواس النورماندية الثقيلة ، ثم الأقواس القوطية الأخف والأشد زخرفة التى انحدرت من العهد الوسيط،وأخيراً الأقواس القوطية البالغة فى الزخرفة التى جاءت من العهد الأخير.ولكنك لا تجد تكراراً . ولم يكن هناك سوى اعتماد طفيف جداً على ما سبق ، وفى كل عمل بداية جديدة » .

قلت : « كنتَ منذ برهة تتحدث عن موت الحقيقة الذى ينشأ حينما يحاول الناس أن يقننوها فى عقيدة ثابتة أو فى نظام تام يأملون أن يحتفظوا به للأجيال القادمة . وحتى أفلاطون ، فى شيخوخته على الأقل ، كان فيما يبدو ـ لا يود أن يجد مجتمعه المثالى فرصته (وربما كان ذلك فى الواقع لأنه شهد الكارثة فى أثينا) . ولكن أليست الصعوبة فى كل أمثال هذه المحاولات أن تشعب الوجود أفسح مجالا من أى نظام مهما اتسعت رقعته ؟ » .

قال : « إن الرغبة فى نموذج من نماذج الوجود ميل طبيعى شائع جداً ، وهو ميل إلى أن يكون لتجربتنا معنى ، وتطبيق ، وأن يكون لها مغزى . إن فروض العلم لا تتغير . وقد لا يمثل النموذج شيئاً أكثر من فكرتنا عن حياتنا ، كما نود أن تكون ، وقد لا يمثل شيئاً أكثر مما نفترضه فى عملية علمية ، ولكنه يثبت أقدامنا . فإذا تحدثنا عن السذاجة ، فالعلماء هم السذج ، فقد رحبوا عدة سنوات بفروض تهدم مزاعمهم السابقة ، وقد رحبوا بها كشرط من شروط التقدم ؛ فى حين أن علماء الدين ـ وأنا أعتبر علوم الدين المسيحى كارثة من أعظم الكوارث التى حلت بالبشر ـ هؤلاء العلماء لو اعترفوا بأن مزاعمهم قد انقلبت ، عدوا ذلك هزيمة كبرى لهم . (فى حين أن موقفهم كان يتزعزع ويتبدل دائماً ، حتى إن عقائد اليوم ـ فى بعض المستويات العقلية ـ لا تكاد تتفق فى شىء مع عقائد الشعب نفسه ـ أو غيره من الشعوب المماثلة ـ التى سادت منذ سبعين عاما) . ولكن الأمر كذلك فى العلم إلى حد كبير . وقد انقلب « تقدم » العلماء ، سواء أدرك العلماء ذلك أم لم يدركوه » .

« ذكر كرسب ليك[1] فى حضرتى ذات مرة أن أباه ـ وكان طبيباً باطنياً ـ

---

(١) كرسب ليك عالم من علماء الدين ، ولد فى سوثها ميتن بانجلترا عام ١٨٧٢ . وتعلم فى كلية لنكان باكسفورد . واشتغل أستاذا لعلوم الدين المسيحى القديمة بهارڤارد بين عامى ١٩١٤و١٩١٩ ، ثم أستاذا لتاريخ الكنيسة من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٣٢ ، فأستاذا للتاريخ من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٨ .

سئل فى شيخوخته عما كان له أكبر الأثر أثناء حياته فى تخفيف آلام البشرية ، فأجاب بقوله « التخدير » وتدهور علوم الدين المسيحى ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٢ وقد كان اهتمامه – كما كان اهتمامك – [بعلوم الدين] » .

فأجاب هوايتهد بقوله : « ليست بنا حاجة إلى الخوض فى هـذا الموضوع : وهو هل كان المسيح شخصية تاريخية مؤكدة من جميع الوجوه ، أم هل كان من أولئك الأشخاص الذين تتعلق بهم حاجات عصر من العصور وأقواله وآماله ، ويحسن – فيما أظن – أن نبدأ بطبقة وسطى زراعية فى فلسطين ، سليمة جداً ، على درجة عالية من الثقافة بالنسبة لزمانهم ومكانهم (كما نقرأ فى الـكتب المقدسة فى الـكنائس القديمة ، كإنجيل الملك جيمز فى الـكنائس) ونبدأ كذلك بمستوى عال جداً من الأخلاق . ثم إلى جانب هؤلاء كانت الزمرة الأخرى فى بيت المقدس ، التى أستطيع أن أسميها « زمرة الأساتذة » . وقد ظهر فى نفس الوقت تقريباً خطيبان دينيان قويان شعبيان ، وهما يوحنا المعمدان ويسوع . وكان كلاهما مكروها من الأساتذة فى بيت المقدس ، لأن تعاليمهما انتشرت ، وأشاعت قواعد خلقية جديدة أشد نقاء . ولذا فقد أعدم أحدهما على يد هيرود ، وهو حاكم وطنى ، كما أعدم الآخر على يد حاكم رومانى . وفى الحق أنه لم يفعل ذلك بنفسه ، ولـكنه سمح لغيره أن يفعله . إن تعاليمهما التى ذاعت لم يكن فيها شىء جديد حقا ، فقد عبر عن أكثر أفـكارهما من قبل الأنبياء القدامى ، الذين جرى فى عروقهم الدم النبيل – أشعيا وعاموس وأرميا – ولـكنهما عبرا عنها تعبيراً مباشراً قوياً غير معهود .

« وقد قلت من قبل – وربما كان الحديث موجها إليك – إن الاضطراب يبدأ بمفسرى المسيحية . كان الحواريون قوماً ثابتين إلى درجة تدعو إلى الإعجاب . وكان هناك فى مبدأ الأمر أمل بأن تمتزج خصائص الأقطار الإغريقية القوية التى كانت تنتشر فى العالم فى ذلك الوقت – آراؤهم فى الحرية ، والديمقراطية ، واستنـكار

الوحشية ، وما إلى ذلك ـ كان هناك أمل فى أن تمتزج هذه الخصائص بخير ما فى الفكر اليهودى ـ الذى لم يكن كل ما فيه بطبيعة الحال بهذا السمو ، ولكنه لا يخلو من ومضات الفطرة السليمة التى تنطوى على الخير والرحمة ، ثم تبدأ الكارثة بعد ذلك . وتجدها عند كل من تلا من مفسرى المسيحية من أغسطين ، وحتى عند فرانسس الأسيسى ؛ الرقة والرأفة فى جانب من جوانب المسيحية ، ولكنها تقوم منطقياً على مجموعة من الآراء المفزعة . فقد عاد الإله الجبار القديم ، والحاكم الشرقى المستبد ، وفرعون ، وهتلر ، وكل ما فى العقيدة عندهم يرغم المرء على الطاعة من آلام الطفولة إلى عذاب الجحيم . وإنك لتجد عند أغسطين آراء تدعو إلى الإعجاب ، فهو يشع الضوء إشعاعا . ثم إذا أنت بحثت فى الأسس العميقة لمبادئه ألفيت هذه الهوة المفزعة . كانت قلوبهم على صواب ورؤوسهم على خطأ . ولم تنبعث من رؤوسهم دعوة طيبة . وتكاد لا تصدق أن العالمين ـ عند سنت فرانسس مثلا ـ عالم الخير والرحمة ، وعالم الجحيم الأبدى ، أمكن أن يستقرا فى صدر واحد . هذه الكارثة الدينية هى ما أعنى عند ما أتحدث عن الشر الذى يترتب على اختفاء روح التجديد ، وعلى محاولة وضع الحقيقة فى صيغ جامدة ، وعلى التصدى للقول بأن (ذلك هو كل ما هنالك مما يمكن معرفته فى الموضوع ، وبه ينتهى الجدل) .

» وربما تحدثت إليك من قبل عن المدنية الجامدة فى الصين . فقد أتى وقت كفت فيه الأمور عن التغير . وإن أردت أن تعرف السبب فاقرأ كنفيوشس . وإن أردت أن تفهم كنفيوشس فاقرأ جون ديوى . وإن أردت أن تفهم جون ديوى فاقرأ كنفيوشس . أراد كنفيوشس أن يتخلص من الآراء السخيفة . إن الحقائق البسيطة ينبغى أن تكفيك ، ولا تضيع الوقت فى السؤال عن الغايات النهائية من وراء هذه الحقائق ، (واعلم أنى أعجب أشد العجب بما جعله جون ديوى ممكناً فى تطور جامعاتكم الغربية ، وإنما أتحدث هنا عن نتائج مبادىء البراجماتية ـ

أو الذهب المملى) . وهكذا عرف الصينيون الإبرة المغناطيسية . إن الحديد إذا وضع فى أوضاع معينة يجعل المشير يتجه نحو الشمال . ويقول كنفيوشس «وينبغى لك أن تكتفى بهذا » ولكن حينما دخلت البوصلة المغناطيسية غربى أوربا ، ماذا حدث ؟ شرع الناس فى الحال يوجهون الأسئلة السخيفة : لماذا ؟ ما الذى يجعل الإبرة تتجه نحو الشمال ؟ ، ثم تبعت ذلك فى الحال نتائج مثمرة من كل الأنواع ، فعلوم الرياضيات التى كادت تكون عديمة الفائدة لمدة ألفى عام تحولت إلى أداء الخدمات . . . وما إلى ذلك . وهذه هى الأسئلة « الزائدة بعينها التى تتجاهلها البراجماتية » ثم ابتسم وقال : « إنك بالطبع إذا ذكرت كتابة أن الفرد ينبغى أن يُصغى إليه ، وأن هذه الأسئلة السخيفة ينبغى أن تُسأل ، تنبه فى الحال ثلاثة آلاف معتوه وضايقوك بخطابات تحوى أسئلة سخيفة فعلا ! »

قلت : « هذا حق . لأنى ذكرت ذلك كتابة وضايقنى ثلاثة آلاف معتوه بخطاباتهم » .

وواصل حديثه قائلا : « ولكن المهم هو أن [السؤال السخيف] هو أول إشارة إلى تطور جديد كل الجدة . هب أننا أخذنا بهذا المبدأ فى مجال الأخلاق . وما هى الأخلاق فى أى وقت معين أو مكان معين ؟ إنها ما تميل إليه الأغلبية فى ذلك الوقت وذلك المكان ، وسوء الأخلاق هو ما يمقتونه . بيد أن [السؤال السخيف] إذا طبق على الأخلاق يفتح الطريق إلى استكشاف غايات قليلة تكمن وراء كل المذاهب الخلقية ، وهو مجال لم يتم فيه حتى الآن إلا القليل » .

(٢٣)

١٠ من سبتمبر ١٩٤١

كنت قد ذكرت للأستاذ هوايتهد فى أوائل الصيف أنى دونت محادثاته

فى مذكراتى منذ عام ١٩٣٣ . وكان يعلم أنى قد استخدمت أجزاء منها بين حين وآخر منقولة بحرفها تقريباً فى افتتاحيات صحيفة جلوب ، لأنى كلما فعلت ذلك أرسلت له عددا من الصحيفة . ويرجع السبب المباشر فى ذكر ما قلت له أن نورث ومارجوت وأريك ، ابنه ، وزوجة ابنه ، وحفيده ، كانوا فى إنجلترا ، واثنان منهما ـ هما نورث ومارجوت ـ فى لندن تحت وابل القنابل . وفوق هذا الهم الشخصى ، كان قلقه على إنجلترا ، وعلى أوربا ، وعلى مستقبل الحضارة . وقد عانى من الحرب عناء شديداً فريداً ؛ لأنه كان يدرك ـ أكثر من غيره ـ ما يهدد مستقبل البشرية من خطر .

ولم يدر بخلدى نشر هذه الأحاديث . وإنما كنت أرمى إلى أن أقدم له لوناً جديداً من الترفيه ـ مهما يكن وجيزاً ـ من هذا الجهد اليومى ، الذى بدأت تظهر آثاره بصورة واضحة ، وقد بدأت فى طبع هذه المحادثات على الآلة الكاتبة فى منتصف الصيف وكنت أرسلها إليه كلما تم طبعها . وسرت على ذلك فى الصفحات المائة الأولى تقريباً ، واستنفدت الفترة ما بين ١٩٣٣ و ١٩٣٧ ، وفى نيتى أن أتابعها فى الخريف حتى ألاحق بها تاريخ اليوم .

وكان اليوم الأربعاء ، العاشر من سبتمبر من عام ١٩٤١ ، وتوجهت إلى كمبردج لكى أراه فى الأصيل . وقد بدأت أشجار الدردار فى فناء الكلية تزدهر قبل الأوان المعتاد ، وإن يكن اليوم ما يزال صائفاً حاراً رطباً .

وكان مسكنه فى فندق إمباسادور فى الطابق الخامس ، فكان بارداً يتخلله الهواء ، والستائر الفينيسية ترد وهج الشمس . وكان اليوم مما يقضيه هوايتهد فى الفراش ، فاستقبلنى فى حجرة النوم ، وهى حجرة بهيجة ، تضيئها الشمس ، وجدرانها ملونة باللون الأزرق الفاتح . وقد جلس مستنداً إلى الوسادات ، وإلى جواره مكتبة صغيرة ، تبدو رطبة مريحة .

وكان يطالع ما تم طبعه من المحاورات ، وقد ألنى فى مادتها مضمون أقواله غرضى عنها ، ثم سأل :

« كيف تستطيع التذكر بكل هذه الدقة ؟ »

فذكرت له خبرتى السابقة . إذ كنت فى شبابى مراسلا يكتب بالاختزال ، وقضيت ثلاثين عاماً أتدرب على تسجيل أحاديث الآخرين .

وتصفح المحاورات المطبوعة ، وكان يتوقف هنا وهناك .

ثم قال : « إن آمالك فى نشر هذه المحاورات لا تبشر بالخير فى الوقت الحاضر . لقد انحدرت من عائلة طويلة العمر . ولما مات جدى فى السابعة والثمانين تنهد صديقه القديم مر موزيس منتيفيور صائحا : « مسكين هوايتهد ، فقد اقتطف فى زهرة العمر ! »

قلت : « لو استطعت أن أستبدل بك كتاباً عنك كانت صفقة خاسرة . »

« لقد اقتضبت ملاحظاتك الخاصة أكثر مما أحب »

« إن هدفى من الكتابة هو أن أذكر ملاحظاتك أنت »

واقترح على ، إذا واصلت تسجيل الأحاديث فى المستقبل ، أن أروى ملاحظات المتحدثين الآخرين بدرجة أكثر إسهابا . وتفاهمنا دون أن نطيل الكلام ، وكان ما تفاهمنا عليه هو هذا : إن الآراء التى يقدمها المتكلمون الآخرون ضرورية لتدفق الفكر ، حتى إن لم تكن ذات أهمية خاصة فى حد ذاتها . المحاورات تبادل فى الرأى ، ولمست أنه لا يحب أن يظهر بمظهر المستغرق فى الحديث الفردى أو المحتكر للكلام . وهو براء من هذا وذاك . ولما كانت محاورات ، فهى تسير على المبادىء التى أشار إليها فى محاورات أفلاطون ، حيث تجد متكلمين متعددين يقدمون آراء مختلفة ، دون أن يحاول أحد منهم أن يكون يقينياً حاسماً .

وقلت معتذراً : « لنعد إلى الحديث فى الهلينية والعبرية ، وقد تعتقد أنى أكثرت من إثارة هذا الموضوع . ولكن عذرى ـ إن صح أن يكون هذا عذراً ـ هو أنى أنفقت السنوات أدرس العلاقة بين هاتين القوتين الأساسيتين فى المدنية الغربية ، وأنت أحد الأشخاص القلائل الذين يمكن أن يكونوا ذوى فائدة لى . فقد قرأت الكتب وقت بالتفكير . وربما كان لتكرار البحث هذه الميزة : وهى أن يعود الموضوع ناميا متطورا ، كما يحدث فى النغمة المتكررة فى القطعة الموسيقية » .

قال : « إن اليهود — كجنس — ربما كانوا أقدر الأجناس فى الوجود . وإذا كان الشخص الموهوب ساحرا ، ويستخدم قدرته الخارقة فى مصلحة الآخرين ، قلنا إنه نموذج الكمال ، وعبده الناس . وعلى نفس القياس ، إذا كان الشخص صاحب القدرة الخارقة منفراً غير محبوب ، فإن قدرته تزيد من النفور منه ومن كراهيته . ومن ثم فإن الأفراد المنفرين فى هذا الجنس هم الأكثر بروزا » .

فقالت مسز هوايتهد : « إن نفور الناس منهم لا يزيد قيد أنملة عن نفورهم من الأنجلوساكسون . وقد نشأت فى بريتانى ، ثم رحلت إلى إنجلترا ، فكنت حديثة التعرف بالجنسين ، ، فأنا إذن على علم . »

قال : « من الإنجليز طائفة على يسار ، ترتكز على عماد من الملك والأسرة ، يمتد تاريخها إلى جيلين أو ثلاثة مضت ، وهؤلاء ثمرة لخبرة ضيقة ، وتعاطف محدود ، عرفوا فى العالم كله بأنهم قوم ينفر منهم الناس » .

قلت : « هذه شخصية يصورها الأدب » .

قالت مسز هوايتهد : « أجل ، بل ويصورها أدب بلاده » .

فقال الأستاذ : « وإلى جانب هؤلاء هناك آخرون على شىء من الضيق المالى .

هم الأبناء الثوانى أو الثوالث فى الأسر المتيسرة ، حرموا من الميراث طبقا للقانون الإنجليزى الذى يورث الابن الأكبر وحده . إنهم يذهبون إلى المستعمرات ، ويحسنون السلوك ، ويلقون احتراماً كبيراً ، ويستخدمون مواهبهم فى الإنشاء والتعمير » .

وعدت إلى الحديث فى أمريكا والفن فى القرن الحالى ، وهو موضوع لم يتجه وجهته الصحيحة فى حديثنا السابق .

قال : « إننى لم أقصد أن أقنعك بأن الفنان ليس شخصية غاية فى الأهمية فى أمريكا اليوم . الواقع أنكم هنا الآن فى موقف يشبه فى كثير من الوجوه الموقف فى بلاد البحر المتوسط التى تقع حول بحر إيجه فيما بين عام ١٠٠٠ ق . م . وعام ١٠٠ بعد الميلاد على وجه التقريب . كان هناك يسر شديد فى النقل المائى ، تسهله مجموعة من الجزر ذات موقع مناسب . وقد ساعد ذلك على نقل الأفكار وامتزاج الأجناس الموهوبة . إن الجنس [النقى] يرجح أن يكون غبياً — مثل أهل لاسدعون — ولكنك إن مزجت عنصر آتكا مع الغزاة الدوريين أو أهل أيونيا بالآسيويين ، وصلت إلى نتائج باهرة . وأعتقد أن المكان الوحيد الذى زرته ووجدته شديد الشبه بأثينا القديمة هو جامعة شيكاغو . ومن ثم ترى أننى أبحث عما يضارع عندكم فى أمريكا ما كان فى البلاد التى تقع حول بحر إيجه ، وأعتقد أن ذلك يتحقق فى الغرب الأوسط » .

قلت : « من الناحية الجغرافية قد يكون الغرب الأوسط عندنا كبلاد بحر إيجه . ولكن وسيلة النقل هنا هى السيارة » .

قال : « إن الحوادث الكبرى ، وهى النقاط التى ينتقل منها تاريخ البشر انتقالا جديداً ، هذه الحوادث ، قلما تكون — بل هى لا تكون قط — ثمرة لسبب واحد ، إنما هى تنشأ حينما يجتمع سببان أو ثلاثة . وأضف إلى سيارتكم

انهيار أوربا . (ولم يعد من الضرورى لعلمائكم أن يذهبوا إلى برلين أو لندن لكى يتعرفوا ما يجرى . بل إن ذلك فى الواقع أمر مستحيل) . ولهذين السببين: انهيار أ ربا والسيارة ، أضف عاملا ثالثاً ، وهو امتزاج عناصر من أجناس عديدة ممتازة هنا ، وقد بدأ الأفراد الموهوبون ـ نتيجة لهذا الامتزاج ـ فى الظهور. وينبغى ألا ننسى وسائل الاتصال والنقل السريع ، الطائرة واللاسلكى ، التى وحدت الحياة فى هذا الكوكب . ووضعت أمريكا فى قمة المدنية الحديثة »

وعاد إلى الحديث فى مكانة الفنان فى تطورنا القومى ، فقال : « وفى الفنون أيضاً ، تنتقلون انتقالا عظيما حينما يعالج البسطاء عندكم ـ لأنهم شديدو الاهتمام بمهام الأمور ـ موضوعاً قديماً من زاوية جديدة . لقد كان أهل البحر المتوسط يمتازون بالبساطة . أما فى نيويورك ـ مثلا ـ فإن طراز الرجل الأمريكى يميل إلى التعقيد ، إذ أنهم قد سئموا بكل شىء ، ويرون أن الموضوعات الساذجة قد باتت مطروقة . هذا هو حالهم . ولكن الفن العظيم هو معالجة الموضوعات البسيطة معالجة جديدة . أى شىء كثر ترداده من قبل كموضوعات مسرحيات شكسبير ؟ حقاً لقد كان يضع حوادثه هنا أو هناك فى الزمان والمكان . ولكن شخصياته كلها إنجليزية من عهد إليزابث ينظرون إلى هذه المشكلات القديمة البسيطة فى ضوء الحياة المعاصرة . إن موضوع [هاملت] قصة قديمة انقضى عليها ثلاثة آلاف عام قبل أن يتناولها شكسبير . ولكن القوم البسطاء ينظرون إلى كل موضوع نظرة جديدة . ولذا فهم يتناولون الموضوعات القديمة ويخلقون منها شيئاً جديداً » .

« هل تذكر جيتة ، فى أواخر القرن الثامن عشر حينما بدأ الناس يهرعون إلى أمريكا ، إذ جعل أحدهم يعود من أمريكا الى أوربا ويقول : « هنا ـ وليس فى أى مكان آخر ـ تكون أمريكا » .

فقال هوايتهد : « لقد انقلب الوضع ، انهارت أوربا ؛ والمدنية بين أيديكم ، والآن هنا ـ وليس فى أى مكان آخر ـ تكون أمريكا » .

وتحدث عن الدور الذى قد يلعبه الكاثوليك فى مستقبلنا .

قال : « تكاد الولايات المتحدة أن تكون الميدان الوحيد الذى يبشر بالخير ولم يطرقوه . إنجلترا فى القرن السابع عشر ، وفرنسا فى الثامن عشر ، أما ألمانيا وإيطاليا فهما فى أيدى الفاشيين ، وإسبانيا فى ثورة ، والمكسيك شيوعية ، وأمريكا الجنوبية لا تجدى كثيراً . وإنى لأعجب لنفوذ الأساقفة الأمريكان فى روما . إن الماركسية تعتبر اليوم عدوهم الأول ، أقصد قوة الدافع الاقتصادى . إنهم لم يتخلوا عن مكانتهم خلال القرون إلا بالتدريج البطىء . كان البابا من عام ١٠٠٠ بعد الميلاد الى عام ١٥٠٠ ـ فيما أحسب ـ أقوى شخصية فى أوربا . ثم تحداه ملوك التيودور فى إنجلترا . ومنذ ذلك الحين فقدت البابوية تأييد البوربون وهوهنزلرن وهابسبرج . واتخذت الكنيسة المحل الثانى بعد الدولة الوطنية . ولكن رجال الدين الكاثوليك يكيفون أنفسهم للظروف الخارجية المتغيرة » .

وقبل أن أغادره كنا نتناقش فى طرق الإنشاء ، وهل ستسىء الآلة الكاتبة إساءة دائمة إلى كتابة النثر الإنجليزى .

قال : « إن الناس ينشئون بإحدى طريقتين . وقد لاحظت ذلك أولا حينما كنت أضع كتابا بالاشتراك مع برتراندرسل . كان يحب الكلمات ، وكانت الكلمات فى الواقع تسد حاجته الشديدة إلى التعبير . وقد اعترف بذلك . ولكن الناس ينشئون إما بالكلمات مباشرة ، والكلمات تعبر عن أفكارهم عن الأشياء ، أو ينشئون بالصور العقلية ثم يحاولون أن يجدوا الكلمات التى يمكن أن تترجم إليها هذه الصور ، وأستطيع أن أضيف إلى ذلك أن طريقتى الخاصة هى الثانية » .

(٢٤)

١٩ من نوفمبر ١٩٤١

فى ليلة عيد الشكر تناولت العشاء مع آل هوايتهد فى كمبردج . ولما تقدم المساء بحثنا فيما إذا كان بالإنجيل عون كبير لقوم مثلنا خلال الاضطرابات المالية الراهنة . وقال إنه لم يعد فيه له شىء كثير فى أية ناحية من النواحى . وذكرت له الكلمات المباركة فى إنجيل متى ، وبعض أقوال يسوع ، وقصة اليشع فوق جبل كرمل .

قال : « إنها قصة عظيمة ، ولا شىء غير ذلك »

قلت : « إن الرجلين اللذين لم يخيبا ظنى قط ، هما بيتهوفن وأفلاطون . »

فأجاب فى هدوء : « إن أفلاطون هو الرجل العظيم »

وسألته ماذا كان يقرأ ؟

فأجاب فى شىء من التعب : « إننى فى حالة إجهاد عجيبة . ومن ثم فإنه من العسير أن أقول لك ماذا أقرأ . فأنا أحاول موضوعا حينا ، وموضوعا آخر حينا آخر . »

وقالت : « وقد يصيب أو يخطى . »

وتحدثنا من رجال الدين البروتستانت ، وذكر أن جماعة من القسيسين جاءوا إليه فبهرته قدرتهم الفائقة وألفاظهم « أحراراً ، واسعى الأفق ، مستعدين لمجابهة المواقف . واعتقدت أنهم — كمجموعة — أرقى من هيئة التدريس بهارفارد » .

وكان الجدل بين ثلاثتنا :

(وتسألني : من ذا الذي يؤيد رأيي في هذه الأيام السيئة ؟)

لقد تخلى عن الإنجيل . وقلت إن جمال الطبيعة يهبني بين الحين والآخر لحظات من الطمأنينة . إن الخضرة المتلألئة لأمواج البحر المتكسرة التي تومض قبل أن ترغى بلحظة — سيظل هذا المنظر جميلا بعد اليوم بمائة ألف عام . إنه الخير والحق ، ولا يقتضيني شيئاً . ويباح لي دون قيد أن أعترف من صفته الأبدية .

قال : « إن بعض ما يسندني بقوة أستمده من الشعراء الإنجليز . ولا أذكرمنهم شعراء القرن الثامن عشر ، وبوب خاصة ، وإن كنت أحب الرجل الذي صور المقبرة — ما اسمه ؟ جراى — ولكني أقصد رجال القرن التاسع عشر أو السابع عشر » ثم تحدث وهو في حالة من الإجهاد قائلا : « ومهما يكن من أمر فإن خبراتي منذ الحرب العالمية الأولى جعلتني أجد قراءة الشعر اليوم أمراً شاقاً . فإذا كانت لديك المشاعر التي يحاولون تصويرها ، وإذا أحسست بالفعل إحساساً عميقاً ، وجدت أن الشعر لا يترجم عنها » .

(٢٥)

١٠ من ديسمبر ١٩٤١

كان ذلك بعد هجوم اليابانيين المفاجىء على أسطولنا في پيرل هاربر بيومين . وبعد العشاء في نادي الأساتذة حيث كنت برفقة لويس ليونز الذي عاد لتوه من واشنطن وفي جعبته أنباء لاتسر (وهو وكيل مؤسسة نيمان بهارفارد) سألت آل هوايتهد بالتليفون أأستطيع أن أزورهم نصف ساعة .

ولحسن حظي لم يكن عندهم غيري . ولما كان لا يشغل أذهاننا سوى

بيرل هاربر خلال اليومين السابقين ، كان بيننا اتفاق مكتوم على أن نتحاشى الخوض فى هذا الموضوع .

وجلس هوايتهد ومعه ظرف يحتوى على مجموعة الصحائف التى طبعتها على الآلة الكاتبة حتى ذلك الحين . وارتدى نظارته واستغرق فى الأوراق يصححها هنا وهناك .

قال : « من غير المألوف أن نجد سجلا معتمدا للأحاديث فى وقت من أوقات الماضى » .

وأجبت بقولى : لا أذكر فى الوقت الحاضر إلا (جونسن) لبزول وأحاديث اكرمان مع جيتة . وأحاديث اكرمان قلما تكون محاورات عامة بمقدار ما هى أحاديث فردية يلقيها جيتة ، وإن تكن لها قيمتها » .

قال : « إن الروائيين لا يضربون بسهم وافر فى هذا السبيل ، لأنهم يهتمون دائما بتطور القصة . وإن كنا بين الحين والآخر نجد روائيا متوسطا مثل أنتونى ترولوپ يعيد بدقة نوع الكلام الذى كنت أسمعه من أصدقاء أبى حينما كنت صبيا ، قسيس القرية ومعه فى بعض الأحيان القمص والأسقف . »

قالت : « وبعد ذلك ، استمرت هذه الأحاديث حينما جئت إلى بيتكم . وإنى لأذكر ذلك جيداً » .

قال : « إن رسائل المؤلفين قلما تقدمها إليك ، لأنهم يعرفون دائمة — سواء أقروا بذلك أم لم يقروا — أن رسائلهم ستطبع . وما تريد الأجيال القادمة أن تعرفه حقاً هو ما كان يتحدث فيه الناس عند اجتماعهم ، وهم لا يجدون من ذلك إلا القليل . وأعتقد أن صحائفك هذه ستكون أعلى قيمة بعد مائة عام منها اليوم » .

وقالت مسز هوايتهد وهى تبتسم : « ولا بد قبل طبعها من انتقالها بالوراثة من يد إلى يد بضع مرات ، وستكون المرة الأولى من لدنا . إننا نتحدث معك دون أى تحفظ » .

« أنا أعلم ذلك ، ومن ثم لم يطلع على هذه الأحاديث أحد سوى أختى ، التى قامت بطبعها على الآلة الكاتبة . وقالت إنها تصلح « مقدمة لهوايتهد » — وإن الأفكار المجردة التى قد يشق على القارئ المتوسط أن يدركها من كتبك المنشورة ، تظهر هنا فى حديث طارئ ، سهلة المنال . إن كثيراً من مادته — فيما يبدو لى — جديد ، ولست أذكر كثيراً — بل لعلى لا أذكر شيئاً منه — فى كتبك » .

« كلا . إنك لا تجده فى أى كتاب من كتبى . . . . كنت أحاول أن أتذكر اسم ذلك المالى الرومانى الذى كان شيشرون يراسله — هو أتيكس . إنك تجد فيما بينهما مثالا من الحديث فى العالم القديم — تجد على الأقل الموضوعات التى كانت تهم المتعلمين . كما تجد بعضها عند أفلاطون ، وإن الرجل المتعلم نفسه فى أثينا لم يبلغ بطبيعة الحال ما بلغ أفلاطون خلال محاوراته كلها أو حتى أكثرها » .

قلت : « يحدث ذلك أحيانا ، وإن كنت تجد أن بعض ما ذكر أفلاطونه يصدر عن الحياة مباشرة . وتحضرنى الآن تلك الحكاية الهزلية التى وردته فى (لاكيز) عن معركة بحرية كان يحارب فيها أحد الملاحين بحربة مسنونة ، سددها فى حبال سفينة أخرى ولم يستطع انتزاعها . ولكى تسير السفينتان كل منهما بحذاء الأخرى ، انطلق على ظهر سفينته متعلقا بطرف مقبض الحربة حتى اضطر إلى تركها فى النهاية . وقد كف بحارة السفينتين عن القتال كى يضحكوا ويظهروا إعجابهم بهذا العمل . وكانت حربته تهتز فى الهواء معلقة بالسفينة الأخرى . وليس من شك فى أن هذه القصة قد انتشرت فى كل أنحاء أثينا » .

فقال هوايتهد : « إنك تجد هذه اللمسات الحية فى « المحاورات الأولى » وقد استعاد إلى ذهنه تلك المحاورات وهو سعيد بذكراها ، وأخذ يروى لنا قصة أو قصتين أخريين من هذا الطراز » ثم واصل حديثه قائلا :

« إن الكتابة لا تبرز إلا الخبرات السطحية نسبيا . كما أن الإنسان لم يستخدمها إلا وقتا قصيرا نسبيا — نحوا من أربعة آلاف عام تقريبا — أولا فى صورة قطع حجرية منحوتة يعلن فيها الملوك قراراتهم وأمجادهم ، ثم على أوراق البردى . إن الناس لم يدونوا أفكارهم إلا منذ نحو ثلاثة آلاف عام أو أقل من ذلك ، من عهد هومر على وجه التقريب . أما قبل ذلك بأجيال عديدة فقد كان هناك مقدار ضخم من التجارب البشرية متجسدة فى أجسام الناس . فقد كان الجسم — ولا يزال — تجربة كبرى . إن مجرد الانسجام بين أعضائه التى تؤدى وظائفها أداء صحيحا يعدنا بفيض من المتعة اللاشعورية إنها متعة لا يمكن التعبير عنها ، وليست بها حاجة إلى التعبير عنها ولكنها فى مقدارها — بل وفى دلالتها — تشمل أفقا أكثر اتساعا بدرجة كبيرة من أفق الكلام المكتوب . فهذا الأخير — بالقياس — تافه فى أكثر الأحيان . »

فعلقت على ذلك بقولى : « حتى مع أعظم كتاب الكلام المكتوب ، من أمثال دانتى وجيته وأيسكلس يرى المرء أن عباراتهم فاترة إذا قورنت بالخبرة نفسها. إن جيتة لم يستطع إلا أن يشير إلى التعاسة والفزع فى مأساة جرتشن . ولا يمكن أن يكون « جحيم دانتى » إلا صورة ضعيفة لما كان فى خياله؛ أو مقتل أجاممنون ، وما سبقه وما لحقه من آلام : أين هو فى الصورة منه فى الواقع ! ربما كان ما تستطيعه الكلمة المكتوبة أن تعيد إلينا خبراتنا الخاصة ، أو تعطينا لمحات عن خبرات يحتمل أن نمارسها . وما دمت تقول إن الكلمة المكتوبة سطحية نسبيا ، فما الذى يأتى أولا كخبرة واعية عميقة ، بعد هذا الفيض من مجرد المتعة الذاتية البدنية ؟ » .

فأجاب قائلا بعد فترة طويلة من التفكير : «المعايير الخلقية فيما أظن . وحتى الكلاب عندها هذه المعايير ، فى شكل محبة ساذجة وولاء » .

قلت : « حتى ذلك العالم النفسانى رقيق الحاشية وليم جيمس كان شديد الاهتمام بسلوك الكلاب ، عظيم التأثر بمحبتها . وكان أحيانا يستخدمها أمثلة توضيحية أثناء محاضراته » .

ولاحظت مسز هوايتهد « أن الكلاب فى هذا خير من القطط . هل لاحظتم كيف ينقسم الناس فى ميولهم ، ففريق يميل إلى القطط ، وفريق آخر يميل إلى الكلاب ؟ إن القطط محبة لذاتها ، لا تفكر إلا فى نفسها » .

قالت ذلك ، وقد تركت للسامع أن يستنبط الحكم على الكلام ، بيد أن هوايتهد نطق به ، فقال باسماً :

« إذا وثب الكلب فى حجرك فذلك لأنه مغرم بك ، وإذا فعل القط ذلك فلأن حجرك أشد دفئاً » .

وسألت : « هل عرفت فيما مضى أن من الناس من تغلب فيهم صفات القطط ومنهم من تغلب فيهم صفات الكلاب — فهناك شخصيات كلبية تتميز عن الشخصيات القطية . ومن الشخصيات القطية أولئك الذين (لا يحبون الناس) . وماذا تعنى بالضبط هذه العبارة ؟ » .

ورأت مسز هوايتهد « أن معناها تركيز اهتمام المرء فى نفسه . تلك الطبيعة التى ترى دائماً [أنها لم تنل قط ما تستحق] . والصفة الأولى فيما أعتقد تولد الصفة الثانية » .

ثم وجهت هذا السؤال : « بعد ما تطورت القيم الخلقية عند الإنسان الأول (ما دمنا نفكر فى الأصول الأولى) ما الذى جاء بعد ذلك فى ظنك ؟ » .

قال هوايتهد : « القيم الجمالية . حينما يسهر البلبل طوال الليل يغنى لأنثاه — ويجيد الغناء — لا يمكن لأحد أن يقنعنى أن القيم الجمالية من الطراز الأول معدومة » .

وسارعت مسز هوايتهد تقول : « أذكر له قصة بلبلنا المسكين فى سرى » ؟ ولما بدا عليه أنه لا يعرف ماذا يقول فى هذه القصة ، شرعت تتحدث فقالت :

« كان لنا كوخ فى أوائل الربيع . وفى أول مايو بعد وصول البلابل ، تساقط الثليج ، صدقت ذلك أم لا تصدق . وأصيب البلبل المسكين بالبرد ، ولكنه واصل الغناء . ولم يستطع أن يعود إلى النغمة الصحيحة طوال الصيف » .

وقال هوايتهد باسماً . « نعم ، لقد كان من خبرتنا الاستماع إلى بلبل يغنى غناء لا ينسجم مع النغم » .

قلت : « إنى لأوثر أن أستمع إلى أداء يضع فيه صاحبه قلبه ، على أداء تراعى فيه الأصول ويتنزه عن الأخطاء » .

فقال هوايتهد : « والأمر صحيح بالنسبة إلى الأشخاص . فهم أقوى أثراً إذا كانوا على طبائعهم منهم عما يرد على ألسنتهم مهما يكن . وحتى حينما تستخدم الكلمات للتأثير بها ، فإنها تكتسب الكثير من الوجود المادى للمتكلم ؛ فالحرارة ، والنبرة ، والتأكيد ، إنما تصدر عن الجسم والروح » .

« إن أحسن الكتابة بطبيعة الحال هى محاولة نقل بعض تلك النغمات التى يرن بها الصوت وتصدر عن الشخصية المادية — محاولة نقلها إلى كلمات مكتوبة » .

فقال : « نعم ، ويتم ذلك أحياناً بنجاح يدعو إلى الدهشة . وهذه خصيصة من خصائص الكتابة الممتازة » .

قلت : « إنك فيما ذكرت الآن تؤيد صورة فى خاطرى عن الغرباء أدركتها منذ سنوات . وهى ليست دائما صورة عما عندهم من خير أو جمال ، وإن كانت كثيراً ما تتأثر بالخير والجمال . إنما هى أشبه بإشعاع ينبعث لا شعورياً عن وجه الغريب وبدنه وروحه ، ذلك الغريب الذى لم يُعرف من قبل قط . وكأن حاسة لاسلكية عند الرائى تلتقط هذا الإشعاع ، فتشير بطريقة ما إلى أن لدى هذا الشخص الغريب ما يثير الاهتمام ويدل على الحيوية » .

فقالت مسز هوايتهد : « ليس فى هذا ما يدهشنى . وقد كنا منذ برهة نقرأ سيرة مسز مارجريت دلاندبقلمها (وإنك لتجد الكتاب على النضد الصغير عند مرفقك) . هل تعرف هذه السيدة ؟ »

« كلا . لم يسعدنى الحظ بمعرفتها . كانت إحدى المؤلفات المعاصرات لأبى والحببات إلى نفسها . ألم تبتعد هى وزوجها قليلا عن الحياة الاجتماعية فى بوسطن ؟ » .

قالت : « ذلك ما قصدت إليه . . . إيواؤهما فى بيتهما للأمهات اللاتى لم يتزوجن ، وإنقاذهما لهن من الانتحار والسقوط ، وحملهما لهن على الاستقامة ، وذلك بإتاحة الفرصة لهن لكى يعدن تنظيم حياتهن حول محبة الطفل حتى يستطعن أن يقفن على أقدامهن . وفى مثل هذا العمل تجد معنى قيمة الغريب وما يثيره من اهتمام حتى فى ظل السحب القاتمة » . واسترسلت فى حديثها عن خبرة لها فى إنقاذ فتاة جميلة : « . . تبدو عليها أعراض السل . فسقتها إلى أحد عشر مكاناً فى لندن قبل أن أجد مكاناً يقبل إيواءها . ذهبت أولا إلى بيت من بيوت الكنيسة الإنجليزية ، فقيل لى : [إننا لا نؤوى الطبقة الثانية من مرتكبى الآثام] . . . وهكذا حتى بلغنا — إلى أين تظن ؟ » .

« إلى جيش الخلاص » .

« أجل . وهناك استقبلونا كأنا أصدقاء طال انتظارهم إيانا ، وآوونا كأنا ضيوف حللنا بهم في نهاية الأسبوع . وسألت كم يكلف بقاؤها هناك . فأجابوني : « لاشيء » ، ثم قالوا : « إذا استطعت الدفع فنحن بالطبع نتوقع منك ذلك ، ولكننا لا نتقبل ما تدفعين إلا لكي نستطيع أن نؤوي شخصاً آخر » . ولبثت الفتاة هناك خمسة عشر شهراً باختيارها وكانت في منتهى السعادة » .

« وماذا حدث لها في النهاية » .

« تزوجت من بائع خضراوات . ولما كانت مصابة بالسل فقد لبت نداء ربها في شبابها » .

وسألت هوايتهد : « في أية مرتبة تضع جيش الخلاص باعتبارهم مسيحيين ؟ » .

قال : « في مرتبة ممتازة . إنهم يأخذون دينهم المسيحي في بساطة » .

« في بساطة سر فرانسس الأسيسي ؟ » .

« بل أبسط منه بكثير . فإن علوم الدين السيئة لا تعرقل سلوكهم كما كانت تفعل معه » .

وأثرته بقولي : « أنت إذن ترى علوم الدين أمراً سيئاً ؟ » .

فقال : « إن المشكلة تنشأ عن التفكير في الدين بالعقل . لم يكن المسيح عميقاً في تفكيره العقلي . إنما كانت لديه البصيرة النافذة . وقد بدأت الإنسانية في شرق البحر المتوسط فيما بين عامي ٥٠٠ ق م و ٢٠٠ بعد الميلاد تكتب ما يتردد في صدرها من أفكار . فنجم عن ذلك عصر عظيم . وإنني أشير هنا بطبيعة الحال إلى الرجال الموهوبين بدرجة استثنائية الذين دونوا أفكارهم .. إن بولس يهبط هبوطاً شديداً عن مستوى يسوع . وبالرغم من أن من

بين تابعيه أشخاصاً لهم قدرهم ، إلا أنهم يصورون الله — فيما أرى — كما يصورون الشيطان » .

« وما رأيك فى البوذية ؟ » .

« إنهـا دين الهاربين . ينطوى المرء على نفسه ويدع الأمور الخارجية تسير على مشيئتها . وليس فيها تصميم على مقاومة الشر . إن البوذية لا ترتبط بالمدنية المتقدمة » .

(٢٦)

٥ من إبريل ١٩٤٢

وأخيراً حل الربيع . وكان المساء من ليالى الربيع اللطيفة الأولى ، التى تهب فيها نسمات منعشة لا نعرف من أين مأتاها ، ويغرد فيها الهزار ، حيث تزدهر فى فناء الكلية أزهار الربيع الصفراء اليانعة ، وأزهار شجر اللوز القرنفلية . وبعد ما تناولت العشاء فى نادى هيئة التدريس ، اتصلت تليفونيا بمسز هوايتهد ، وسألتها : أأستطيع أن أؤدى لها زيارة؟ .

فقالت : « تعال فوراً . ولن تقابل لدينا أحداً سوى جريس دى فريز » .

ولا يبعد فندق أمباسادور عن النادى سوى مسيرة خمس دقائق . وكانت السماء ناحية الغرب تتلألأ بلون أحمر داكن ملتهب يبدو من فوق قمم أشجار الدردار . ولم أكن قد رأيت آل هوايتهد منذ شهر فبراير ، وهكذا تسير المدينة فى الشتاء : بغير قلب . وكان يبدو على مسز هوايتهد التعب ، ولكنها متألقة كعادتها . وكان باب مكتب الأستاذ مغلقا ، فجلسنا برهة نتحدث فى غرفة الجلوس ، حيث كانت تحتفظ بآنية ملئت بزهر البنفسج الإنجليزى ووضعت

على النضد المجاور لمقعدها . والزهر ينشر أريجه فى أنحاء الغرفة . وتحدثت عمن تعرف من النساء اللائى يستطعن أن يبعدن عن أذهانهن ألبتة كل ماتثير الحرب من أفكار . قالت :

« لا يجب أن يحدث ما تنقبض له نفوسهن . فالسعادة ضرورية لصحتهن ... ويجب أن يحصلن على ثياب جديد كل الجدة ، وإلا كن مشمئات ! كيف تفكر هذه العقول ؟ إنها فوق مستواى . إننى – من الوجهة النظرية – أغبط هذا الانعدام فى الإحساس . ولكننى فى الحقيقة أوثر أن أموت على أن أتجاهل ما يدور حولى من حوادث إلى كل هذا الحد » .

« ما دمت قد قدمت الاعتراف ، فسوف أقدمه كذلك .. وأنا أعرف واحدا من هؤلاء الذين يثيرون الحسد – من الوجهة النظرية : إنه نموذج لصاحب مزرعة ، رجل غاية فى الرقة – الدنيا كما هى تلائمه كل الملاءمة ويلائمها كل الملاءمة . وأشك فى أنه شعر ذات يوم بحاجة إلى غير ما يملك : بيت كبير ، وملعب للتنس ، وزوجة ، وأسرة ، ودخل طيب . وفى لحظات يأسى أقول لنفسى : « لماذا لم تستطع أن تكون على غراره ؟ » .

« ولكنك لا تعنى ما تقول لحظة واحدة فى حياتك » .

« كلا ولا شك . كيف حال ألفرد فى طقس هذا الفصل من العام ؟ » .

« إنه دائب على العمل . وهو فى بعض الأيام أصح منه فى بعضها الآخر . ولكنه لا يعانى أمراً خطيرا » .

ثم نهضت وفتحت باب المكتب ، وقالت فى صوت منخفض :

« إن لوشيان هنا » .

ونم صوته فى الداخل عن ترحيب قلبى .

وولجت الغرفة . وكان يجلس على أحد المقاعد الكبيرة ، وتحت قدميه ما يسندهما إليه ، يقرأ مكتوبا بحروف مطبوعة كبيرة فى ضوء مصباح للمطالعة .

وقال وهو ينهض من مكانه : « هذا المكتوب يدلنا على الطريقة التى نحقق بها نظاما عالميا فى خلال ثلثمائة عام ، إذا أدرك ما يتحدث عنه الكاتب عدد كاف من الناس » .

فعلقت بقولى : « إن أكثر أمثال هذه المشروعات تفترض أن جميع سكان العالم بعقلية أساتذة الجامعات » .

فقال : « أجل ، ويتطلب ذلك مدة أطول من ثلاثمائة عام بكثير ، وهذا فوق أن المشروع ذاته يحاط بالشك فى الرغبة فى تنفيذه » .

ودق جرس الباب . وفتحه ، وكانت القادمة جريس دى فريز .

فقال مبتهجا : « سنقضى وقتا طيبا » .

وذكر أحدنا بهذه المناسبة أنشودة من أناشيد الأطفال ، وأثير سؤال عن تاريخ هذه الأناشيد .

فقال : « أعتقد أن بعضها يرجع إلى مصر . ويطرأ على هذه الأناشيد شىء من التهذيب كلما انحدرت فى عصور التاريخ المتقدمة ، ولكنها لا تتغير فى صميمها » .

قلت : « الأطفال عندكم هم المحافظون المناضلون . أناشيدهم تنتقل خلال الأغانى الشعبية — بما فيها من كلمات بذيئة — من جيل إلى جيل دون أن تحيد . وبعض الألفاظ إقليمى بحت . وهناك لفظة ألفت الاستماع إليها وأنا صبى فى الغرب الأوسط لم أسمع بها شرقى اليجنيز ، حتى استعملها صبى من منتانا كان فى

زيارتى . واللفظة تحريف محلى على الأرجح لـكلمة [جهنمى] » .

فقالت جريس : « إن أطفالى يعودون إلى بيتهم بنفس القصص والفكاهات التى كنت أسمعها وأرددها حينما كنت فى مثل سنهم ، ولم تطرأ على ذهنى منذ سنوات » .

وقال هوايتهد : « إن المكان الوحيد الذى يعجز فيه تأمركى هو النكات التى ترويها صحيفة نيويوركر . وأستطيع بوجه عام أن أدرك الفكاهة فى الصور ، ولـكن التعليق كثيرا ما يخرج عن دائرة إدراكى » .

وقالت جريس : « لا ينبغى أن تأسف لذلك ، فإن أطفالى كثيرا ما يفسرون النكات لى . ويحملنى ذلك على إدراك مقدار بعدى عن لون الفكر المعاصر » .

وأردت أن أعزيهما فقلت : « ولا ينبغى أن يأسف المرء لهذا البعد أيضا . لأن كثيرا من النكات إقليمى بحت ـ وقد يتصل بنيويورك وحدها » .

وقالت مسز هوايتهد : « أستطيع أن أفهم النكات التى تدور حول السيدات البدينات » .

« نكات هلن هوركنسن ؟ » .

« نعم . ولـكنى لا أعتقد أن السيدات البدينات يثرن الضحك . إننى أشفق عليهن ، هؤلاء المسكينات » .

« ما أشبهك بروبرت ، ابن مسز رتشارد لفنجستون ، ذلك الصبي الطيب ، الذى اعتاد أن تقع عيناه على صحيفة نيويوركر فوق أحد مكاتب المطالعة فى اكسفورد ، فيقول : « إننى أضحك على النكات ، ولـكنى أحس أنه لا ينبغى لى أن أفعل ذلك » .

وقالت مسز هوايتهد : « إنى أحس أن هذا اللحم الزائد قد يكون نتيجة لخلل فى إحدى الغدد ولا ينبغى لنا أن نضحك منه » .

« إنى أستطيع أن أريح ضميرك . تعالَىْ معى إلى محل هايلر بشارع ترمنت ذات يوم بعد الظهر فى الساعة الثالثة وسأريك عشرات من النساء يلتهمن الفطائر الحلوة المكسوة بالسكر والمحشوة بالقشدة المخفوقة » .

فقالت وقد قطبت جبينها : « أف لما تقول ! لاتتوقع منى أن أرافقك ! »

وبعدما تحدثنا فيما إذا كان وزن المرء — كميوله وزواجه — مقدراً له ، انتقل الحديث إلى موضوع حرية الإرادة . وقالت مسز هوايتهد إن من رأيها أننا لسنا أحراراً فى إرادتنا إلا إلى حد ضئيل جداً . وليس لدينا إلا فرص وقتية ننحرف فيها عن المصير المحتوم ، وإن كنا نستطيع — فى حدود هذه الفرص — أن نسيطر على أنفسنا إلى حد كبير .

وقال هوايتهد : « إن التفكير السابق اللاشعورى يكيف تصرفنا النهائى حتى يبدو لنا كأنه تلقائى ؛ ولكنى أعتقد — بالرغم من ذلك — أننا كنا فى الواقع نحدد هذا التصرف بقدر كبير من الانتقاء والاختيار . ويتوقف الأمر كله على أى الآراء نقبل ، وكيف نقبلها . بعضها يُنبذ فورا لأنه منفر مزعج ، وبعضها يُستبقى لأنه سار بهيج . وبعدما تستمر عملية الانتقاء والاختيار ردحاً كافيا من الزمن ، يصبح التصرف النهائى مشروطا ، ولكن بعدما كان لنا فى تحديد نوعه نصيب موفور » .

وتقدمتُ بهذا الاقتراح : « هل تسمح لى أن أتابع أسلوب تفكيرك قليلا ، وأدفعه الى الأمام ؟ أليس وراء ما ننتقى أو ننبذ ظروفنا الاقتصادية ، التى قد تحدد للمرء سهولة الوصول الى المعايير العليا أو صعوبته ؟ ثم أليس هناك الميل الموروث الذى قد يتلاءم وبعض ألوان الاختيار وقد يتنافى وبعضها الآخر ؟ »

فوافق على قولى ، ثم أردف قائلا : « الظاهر ، أن نطاق الاختيار يقع بين هذه المقدّرات السابقة والتصرف النهائى الذى يبدو تلقائياً . ولكنك تستطيع أن تشهد نفسك وأنت ترحب بحكم المادة بأنماط معينة من الفكر وتنبذ أنماطا أخرى . وهنا — فيما أعتقد — تتقرر الى حد كبير مصائرنا الشخصية ».

قلت : « اذا استطعتما أنتما الاثنان أن تخرجا لتشهدا فلم (ميجر باربرا) لبرناردشو لاجذبتكما إلى هناك . لقد شهدته جريس ، وتناقشنا فيه من قبل نقاشا طويلا . ولب الموضوع أن شو قد أعاد كتابة ذلك المنظر الأخير الضعيف ، فى مصنع الأسلحة ، وكأنه يقول الآن إن قوى الطبيعة هذه ليست فى حد ذاتها طيبة أو سيئة . إنما يتوقف الأمر على طريقة استخدامها . ووظيفة الإنسان التى ينفرد بها هى أن يتعلم كيف يستخدمها استخداما صحيحاً ، وإن تكن القيم الخلقية التى نسبغها عليها هى بأسرها من وضعنا . فإذا كانت مما يوفر الراحة والانسجام نعتناها « بالخير » ، وإذا كانت على عكس ذلك نعتناها « بالشر » ولا يزال اللغز العظيم قائماً ، وهو : كيف ظهرت إلى الوجود على هذا الكوكب أية حياة تستطيع أن تفكر فى أمثال هذه القيم على الإطلاق ؟ »

فقال هوايتهد : « من ذا الذى كان يحلم — حينما كانت هذه الأرض مجرد كتلة منصهرة — بأية صورة من صور الحياة التى ظهرت ؟ الظاهر أن طريقة الطبيعة هى إنتاج الجديد — فهى تتجه اتجاهات مبتكرة لايتوقعها البتة أحد . وبمرور الزمن بردت الأرض ، وظهرت البحار ، وبعد دهور طويلة ظهرت الحياة النباتية ثم الحيوانات ».

وقالت مسز هوايتهد : « ويالها من حيوانات عجيبة مفزعة ! »

وواصل حديثه قائلا : « وأخيراً ظهر الإنسان بعد نحو مليون عام . ومن ذا الذى يشك ممن يرقبون السموات أن صورا من الحياة لا تقل عن هذه دهشة

توجد فوق الـكواكب الأخرى ؟ وللسديم كذلك دورته الحيوية . فهو يظهر في الوجود ، ثم يمحى ، ويتلاشى في صورة أخرى . أين تظهر الأفـكار الخلقية أولا ؟ إنها في الواقع تظهر (قبل) الإنسان . فللحيوانات أفـكارها الخلقية . والطيور تعرف متى تفعل الخطأ » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن الـكلاب أعلى من الإنسان في المستوى الخلقي بكثير . انها أشد منه محوا لذاتها وتضحية بنفسها . راقب كلبا وهو يحاول أن يساعد فرداً يحبه . إنه يخجلنا » .

وقال هوايتهد : « أعتقد أن قدرتنا على الابتـكار الواعي هي مجال حرية الإرادة . إننا نختار دائماً بين ماهو خير وما هو أقل خيراً ، سواء أدركنا ذلك أم لم ندرك . حتى الأطفال يكادون يفعلون ذلك قبل أن يتـكلموا . حينما كان أحد أولادنا صغيراً كان له ناموسه الخاص بكل تأكيد وكان يخرق هذا الناموس أحيانا (ولم نـكن في ذلك الوقت نعاقبه ، لأنه لم يفعل شيئاً مما يعاقب عليه) . والطريقة الوحيدة التي كنا نعرف بها أنه يخالف ناموسه هي حينما نراه زاحفاً تحت السرير . ولما كنا نشهد حذاءه الصغير مطلا من تحت السرير ، كنا نعرف دائماً أنه مذنب ، وإن كنا لاندري قط أي ذنب اقترف ، ولم نسأله ؛ لأنه لم يكن بوسعه أن يجيب . وما كان يخرج إلا إذا سحبناه من عقبيه . فإن فعلنا ذلك غفر لنفسه . ولا شك أنه كان يعتبر سحبه من عقبيه تـكفيراً تاماً » .

وقالت جريس إنها تود لو عرفت طريقة تجذب بها من عقبيها من تحت السرير . فإن ذلك يبسط كثيراً من المشكلات الخلقية المعقدة .

وواصل هوايتهد حديثه قائلا: « ولاحظوا أنه لابد أن يكون لدى الأطفال أمثال هذه الأفـكار قبل أن يستطيعوا الـكلام بوقت طويل . وكان هذا الطفل يسمي

نفسه (جو) وقد سمعته ذات يوم وهو يمر تحت النافذة المفتوحة بمكتبي يتمتم لنفسه قائلا : إن جو يستطيع الآن أن يمشى ، وهو يستطيع الآن أن يتكلم » .

وقالت جريس : « حدث ما يشبه ذلك حينما كان أيفنز صغيراً . كان طفلا ثقيلا ، ولم يكن خفيف الحركة على قدميه كما كان بولى . كان أشبه بعربة الثلج الصغيرة . وعرف بغتة ذات يوم أنه يستطيع الوقوف . فاضطرب اضطرابا شديدا وصاح : (تان! تان !) . وظل يتعثر ، ثم يقف على قدميه ثانية . وأعتقد أنهم يرون من يكبرونهم وهم يقومون بهذه الأعمال المدهشة ، وقبل أن يستطيعوا الكلام بوقت طويل ، يصممون على أن يقوموا هم بها أيضاً » .

قال هوايتهد : « إن جانباً كبيراً من تجاربنا الناضجة أيضاً لا يمكن التعبير عنها بالكلام » .

قلت : (لقد قال الدكتور ماك فى كامبل ، أستاذ العلاج النفسانى فى مدرسة هارفارد الطبية ، شيئاً شبيهاً بهذا منذ بضع ليال — قال : إن الكلمات قاصرة ، أو هى لا تفى ألبتة بالتعبير عن بعض التجارب أو العواطف » .

وقال هوايتهد : « ذلك ما يفعله الشعر حينما يبلغ قمة الإجادة ـ إنه يكاد يتصيد فى شبكة من الألفاظ لحظة من تلك اللحظات القوية الزائلة من لحظات السعادة أو الألم . إن الكلمة ـ مهما تكن ـ ليست سوى صوت ، والعلاقة بين هذا الصوت والتجربة علاقة مصطنعة تحكمية . اكشف عن كلمات الشاعر فى المعجم ، وستجد أن المعنى الذى يقدمه المعجم لا يحيط بما يجول فى نفس الشاعر فلقد (أضاف) إلى المعنى بالنغمات العاطفية ، حتى إنك تستطيع فى بعض الحالات أن تتابع درجات النمو فى معنى الكلمة التى أضافها اليها الشعراء بالتتابع . ولكن فى الشعر ذاته دائما عبير التجربة الذى استطاع الشاعر وحده أن يستنشقه ، وإن

كنا نحسه كذلك كأنه من تجاربنا الشخصية ».

وسألت : « ألا تمر بنا جميعاً أمثال هذه اللحظات من الوجود القوى ، حينما نحيا بصورة فريدة خاصة ؟ وتستقر هذه اللحظات فى نفوسنا ، ينابيع دائمة ، نغترف منها حيناً بعد حين ، وبعد سنوات ، دون أن ينفد المعين » .

وقالت مسز هوايتهد مصححة قولى: « أجل ، ولـكن ليس ذلك هو الخبرة ، إنما هو (ذكرى) اللحظة التى عشناها عيشة غزيرة . هل ترى تلك المرآة فوق الجدار الداخلى ؟ لقد أعطتنى إياها برناردين . وأصلها من فلورنسة . ولم يقدر لى أن أرى غيرها . إنها مرآة « سوداء » . لو كانت بيضاء لـكانت الصور والأشخاص الذين ينعكسون فيها مجرد أوجه جديدة لنفوسهم فى ضوء النهار . ولـكنا حين نراهم فى هذا الوسط الأسود العجيب ، يبدون لنا كأنهم بغير أجساد ، إنهم ذكريات . إن مرآتى السوداء هى عالم الذكرى . وما يستطيع الشعراء عمله بالألفاظ لـكى ينقذوا من هوة النسيان هذه اللحظات الغزيرة من البهجة أو الألم هو كالمرآة السوداء » .

وقالت جريس . « حينما أتيت أول الأمر لرؤيتـكم عندما كنتم تقيمون على شاطىء النهر ، كانت هذه المرآة أول شىء وقعت عليه عينى فى حجرة جلوسكم » .

وقال هوايتهد : « إنها تختلف فى كل ساعة من ساعات النهار ، وفى موضعها الملقة به تعكس غروب الشمس . ولذلك أثر عجيب . ثم إن هذا الغروب — كما تقول أفلن يبدو كأنه ذكرى الغروب — أو ذكرى فـكرة مبهمة هربت من الذهن . إنى كلما سمعت — وأنا أسمع أحياناً — أحد زملائى يقول إنه ليست هناك آراء لا يمكن التعبير عنها بوضوح فى لغة بسيطة ، قلت إنى أعتقد أن آراءك لابد أن تكون سطحية » .

وذكرته : « أنه قال لى مرة إن بعض الـكتاب — ومن بينهم الفلاسفة —

يفكرون بالألفاظ ، ولكنه يفكر بالصور الذهنية ، ثم يحاول أن يجد الكلمات التى يعبر بها عنها . فما الذى يحدث بين الصورة والكلمة ؟ وكيف يترجم إحداهما إلى الأخرى ؟ »

وقال فى حماسة : « الله يعلم ! إن العبارة تأتى أحيانا ، ولا تأتى أحيانا أخرى. »

وأضافت زوجته معترضة قوله : « إنه يمزق صفحات عديدة من الورق المكتوب » .

وقلت : « هل تبصر آراءك ، حتى ما كان منها مجرداً ؟ »

« لست أدرى ، هل تبصرها أنت ؟ »

«دعنى أولا أعدل من ملاحظتى . إننى لا أتناول الأفكار المجردة على المستوى الذى تتناولها به ، ومع ذلك ، فإنى بعد اشتغالى بها ربع قرن من الزمان ، أدرك المشقة التى يلاقيها المرء فى نقل أبسط الأفكار المجردة نسبياً إلى لغة بسيطة .»

وقال مؤكدا : « إنك تتناول أفكاراً مجردة على كثير من الصعوبة . وقد قرأت مقالاتك » .

« وإذن فأنا أستطيع الإجابة . حينما يكون تركيز الذهن على أشده ، تبدو الفكرة المجردة كأنها مادة بغير جسد تطفو فى الفضاء ، وتحتها مباشرة مشهد منظور لا يمت إليها ألبتة بصلة — وكثيراً ما يكون مستمداً من طفولتى ، كرعى فى ضوء الشمس فى فصل الصيف مثلا » .

« هذا أمر عجيب جداً . كلا . لا أعتقد أنى أبصر أفكارى بهذه الصورة »

وقالت جريس للفيلسوف : « أرجو أن تشرح لى ما تقصد بالصورة الذهنية » .

وقال وقد بدأت عيناه تتلألآن : « سأحدثك بما أعنى . هذا لوشيان برايس يجلس مواجها لى . إن فى ذهنى صورة عنه ، عن شخصيته ، ومظهره ، ومن أى ضرب من ضروب الناس هو — كل ذلك محدد فى ذهنى . ولكنى حينما أحاول

أن أصوره فى ألفاظ ، ماذا أجد ؟ أستطيع أن أقول . إنه صديق قيم ، ويسرني دائما أن أراه ، ومظهره الشخصى من نوع . . ؟ ولكنى أستطيع أن أقول مثل ذلك تماما عن لورنس لول » .

وضحكت السيدتان أشد مما ضحكت .

وقالت جريس : « لقد بلغ هذا الحديث القمة يا ألفرد . وقلما نستطيع أن نبزه بعد ذلك » .

قال : « هل فهمت الصورة الذهنية ؟ » .

« فهمتها تماما ! ولكنى لا أعتقد أن لوشيان قد فعل . إنه يبدو فى غير وعيه . هل فهمت ؟ » ووجهت إلىّ السؤال .

« لست على يقين من أنى أريد أن أفهم » .

وقالت : « تناول قليلا من شراب الجنجر ، فإنه ينعشك » .

وبعد الحديث الرائع الذى انتهى بعسترلول ، واصل هوايتهد حديثه فى صوت منخفض ، قال :

« إن بعض الخواطر البديهية الخلقية الرائعة تطرأ لقوم غاية فى السذاجة . إن هبوط الآراء الشامخة لا يتوقف على التعليم المدرسى النظامى . وأذكر فى هذا الصدد الفلاحين الجليليين » .

وقالت مسز هوايتهد « إن مارى التى قامت على خدمة بيتنا ما يقرب من عشرين عاماً لها ابنة صغيرة اسمها مارغريت . وفى عيد من أعياد الفصح سألت عن قصة المسيح وصلبه ، وأرادت لهـا تفسيراً . فجلست معها مارى وقصت لها القصة . فسألتها الطفلة : وهل مات يسوع على الصليب ؟ وقالت أمها : نعم ، قالت الطفلة : وهل كانت أمه واقفة إلى جواره طوال الوقت ؟ ، قالت الأم : « نعم » : فذهلت الطفلة وقالت : « ولماذا لم تمت أمه فى سبيله ؟ » .

وأثير بعد ذلك هذا السؤال . لماذا وكيف تنحط الفكرة النبيلة أو الفكرة الأصيلة — بعد إعلانها — إلى درجة تكاد تختفى فيها معالمها . إن الاختراع يتحول من البناء إلى الهدم . والمسيحية تتخذ ذريعة للاضطهاد . والموسيقى السيمفونية الكلاسيكية ، تباع رخيصة فى النوادى الليلية فى أداء مزيف يكاد يكون بذيئا . هل تبلغ مثل هذه الفكرة — فى صورتها الأصيلة — مستوى شامخاً فريداً ، ثم تنحط حتما بتعرضها للشيوع ؟

وتناول هوايتهد الموضوع فقال :

« قد تكون البداهة ملاكاً ، ولكن الذهن قد يلعب دور الشيطان . ولا بد أن يكون لك ذهن بطبيعة الحال لكى تتناول الأفكار التى تأتى بها البداهة ، غير أن الشر يدخل حينما يبدأ تحقيق الأفكار وتبويبها وتنظيمها وصياغتها فى قواعد صارمة . والمسيحية مثال مريع . كانت لليهود أصلا قواعد خلقية بربرية ، أخذت تدريجاً تتخذ صفة إنسانية على أيدى أصحاب الأرواح العالية منهم ، وإن كانت هذه القواعد تعود إلى البربرية من حين إلى آخر على أيدى أصحاب النفوس الدنيئة . ولست أذكر أن الديانة البوذية قد ارتكبت فى أى وقت من الأوقات إثم أمثال هذه الأفكار التى تنحرف عن الأخلاق السليمة انحرافاً شنيعاً كما فعلت علوم الدين اليهودية فى صورتها الأولى أو علوم الدين المسيحية فى صورتها المتأخرة : إن البشرية إما أن تنجو وإما أن تلحقها اللعنة ، ويحكم عليها بالعذاب الأبدى . أما البوذية فتقول — على خلاف ذلك — إننا جميعاً ناقصون بحيث ينبغى لنا أن نعود إلى الحياة مرة بعد أخرى لكى نتطهر بالمحن حتى نستحق أن نفقد ذاتياتنا فى الكل . ولكن اليهود تلفتوا حولهم فلم يجدوا أبداً غير حاكم شرقى مستبد ، ومن ثم تفكروا فى الدنيا بأسرها فظنوا أنه لا بد أن يكون لها حاكم يستبد بالجميع . وترتب على ذلك أنهم تصوروا إلها أبعد عن الأخلاق من أى إله آخر تصوره من قبل إنسان » .

وقالت مسز هوايتهد : « تصور أن يهوه يطلب من إبراهيم أن يضحى بولده !! »

واقتبست هذه العبارة من صموئيل بتلر : « إن الإله الأمين أنبل عمل من أعمال الإنسان »

وقالت جريس : « حقاً لقد فعل يهوه أشياء يتردد أى منا فى فعلها »

وقالت مسز هوايتهد : « تقولين ، (يتردد) بل قولى (يفزع) »

وسألت : «هل تذكر تلك الملاحظة التى أبداها توماس هاردى عن (الإله الغيور) فى قصته (تسى سليلة دربرفيل)؟ »

قال هوايتهد : « كلا وما هى ؟ »

وقالت مسز هوايتهد : « إنى أذكرها . إروها له » .

« وقد يكون حلول خطايا الآباء بالأبناء قاعدة خلقية ترضى عنها الديانات السماوية ، غير أن الطبيعة البشرية المادية تنفر منها . »

وقالت مسز هوايتهد : « إن آلهة الإغريق يبدون بالمقارنة أقرب إلى النفوس . قد تكون لهم جرائمهم وحماقاتهم ، وقد لا يكونون أفضل مما ينبغى أن يكونوا ، ولكن إساءاتهم كانت أشد ظرفا » .

قلت : « نعم حتى إن ذهبوا هم أيضا إلى الشيطان فى النهاية ، فإنهم يذهبون إليه بعد قضاء وقت مرح . والمهم هو أن الإغريق احتفظوا لأنفسهم دائما بحق الضحك من آلهتهم » .

وعلق على ذلك هوايتهد بقوله : « إن انعدام الفكاهة من الإنجيل انعداما تاما من أعجب الأمور فى جميع الآداب » .

قالت : « لقد لاحظ ذلك نجيته فى مقدمته لفاوست . ونرى مفستوفيليس يعير الله بانعدام الفكاهة لديه ، ويقول :

« كان لابد أن تثير أشجانى فى جلالتك الضحك

لولا أنك أقلعت عن الضحك من زمان بعيد »

وقال هوايتهد : « إن انعدام الفكاهة من كتابات اليهود القدامى قد يكون مرده إلى أنهم كانوا دائما شعبا مكتئبا . تعرضوا دائما للغزو والهزيمة ، وتشتتوا هنا وهناك . أما الإغريق — فمهما يكن ماحدث لهم ، وسواء أكانوا فى القمة أم لم يكونوا — فقد كانوا دائما يعدون أنفسهم متفوقين » .

وشرعنا نوازن بين الإلياذة التى يضحك فيها الآلهة ، والإنجيل . إن واضعى الإنجيل كانوا يتصورون أن مهمتهم التثقيف — إذا لم تكن تحب كذا من الأمور فينبغى لك أن تحبه . أما واضعو (أو واضع) الإلياذة فكانوا يعدون أنفسهم فنانين . إذا أخفقوا فى تشويقك ، فليس الخطأ منك ، إنما هو خطؤهم .

واعترضت جريس بقولها : « ولكن هل كان للإلياذة ما كان للإنجيل من أثر فى نشر الخير ؟ لقد قرأت قصص الإنجيل فى السن المناسبة ، ولم ينطفىء بريقها قط فيما بعد » .

فقال هوايتهد : « ربما كانت الإلياذة منشأ فكرتنا عن الرجل المهذب . ولكن الرجل المهذب لا يستطيع أن يجابه جميع المواقف » .

ولما تقدم المساء أخذنا نتباحث فى القيمة النسبية لشراب الإسفندان والحلو الممزوج بالدهن .

وقالت مسز هوايتهد : « شراب الإسفندان ؟ تلك المادة اللزجة ؟ إنى أمقته » .

وناشدت زميلي الأمريكي قائلا : « إنها تشمئز من أنفس ماتستطيع إنجلترا الجديدة أن تنتجه ؟ »

وقالت جريس : « هوّن على نفسك . إننى لا أميل إلى شراب الإسفندان كثيراً أنا نفسى » .

واعترفت مسز هوايتهد على نفسها قائلة : « أما إن أردتم فعلا أن تمسوا نقطة الضعف فى نفسى فجربوا معى الحلو الممزوج بالدهن ! »

وصاحت جريس قائلة : « هذا الحلو الممزوج بالدهن ! ذلك المزيج المزعج ؟ »

« إنه ليس مزعجا . إنه طعام سماوى ، إننى فى إيثارى له قد أكون فى غاية الضلال . »

وقال هوايتهد : « هذا مابلغناه بعد ماتناقشنا فى أسمى المعانى المجردة ، انحدرنا إلى الحديث فى الحلو الممزوج بالدهن : لقد تمت الدورة التاريخية . إنه هبوط المدنية إلى مستوى الحلو الممزوج بالدهن ! »

(٢٧)

٥ من مايو ١٩٤٣

قضيت المساء عند آل هوايتهد مع إدوارد ويكس . وقد دبرنا هذا الاجتماع منذ شهور ، ولكنا لم نستطع أن نتمكن منه جميعاً إلا هذا المساء . ومنذ ظهور مؤلفات هوايتهد فى مجلة « أطلنطق الشهرية » منذ عدة سنوات ، تم بينهما التعارف سواء فى العهد الذى كان فيه ألزى سد جويك رئيساً للتحرير ، أو منذ أسندت رياسة التحرير إلى مستر ويكس .

بعدما تناولنا العشاء سرنا فى شارع برسكت حتى بلغنا فندق أمباسادور فى شفق مساء من الأمسيات اللطيفة النادرة فى هذا الربيع الذى حل بنا متأخراً بعد عناء شديد.

وقد سألنى أعند آل هوايتهد أحد سواهم؛ ولم أكن أعرف ولكنى تمنيت ألا يكون. وكانا وحدهما، مما سرنى وسر زميلى. المصابيح مضاءة، والظلات والستار مدلاة لكيلا يتسرب الضوء من الخارج. وحجرة الجلوس تزدان بالأوانى والزهريات التى ملئت بأزهار الربيع.

وكانت مسز هوايتهد تعانى من قبل التواء شديداً فى عقبها، يكاد يكون كسراً فيه. ودهشنا عندما وجدناها تسير عليه.

قالت: «انه يؤلمنى. ولكن لامناص لى من ذلك ...»

وكانت مقدمات الحديث حينئذ أقصر مايمكن. وكان قد ظهر فى عدد مايو لمجلة أطلنطيق مقال رئيسى لرئيس هارفارد كونانت، عنوانه: «مطلوب: راديكاليون أمريكان» ويقترح المقال اختياراً ثالثا يقع بين المعسكرين القديمين، راديكالية مبنية على مبادىء جيفرسون، تمجد أندروجاكسن، أمرسونية فى نزعة أمرسن إلى (العالم الامريكى)، شاعرها والت وتمان، تحترم ماركس وانجلز ولنين، ولكنها تبتعد عنهم. وقد نادى المقال بالتخطيط للعالم بعد الحرب: من حيث السياسة الخارجية، والمشكلات الداخلية كملكية أدوات الإنتاج أو السيطرة عليها، واللامركزية، ومهاجمة المجتمع الطبقى، ومحاولة إعادة تعريف الثقافة فى الحدود الديموقراطية والأمريكية.

ووجه هوايتهد السؤال إلى رئيس تحرير المجلة. قال: ماهو رد الفعل عندكم لمقال مستر كونانت؟»

« لم يحن الوقت بعد للحكم . »

« أعتقد أنكم تتسلمون خمسين خطابا فى بريد كل صباح ، يأخذ أصحابها عليه كتابة المقال وعليكم نشره » .

« وما رأيك أنت فيه ؟ »

« إن رأيه فى إعادة توزيع الثروة فى كل جيل رأى جرىء . ولا أقول إنه جديد . ولكنه كما قدمه ليس عملياً . إنك تستطيع ذلك بفرض الضرائب . غير أن معنى ذلك استيلاء الحكومة عليها . إن وجود قدر معين من فائض الثروة فى أيدى الأفراد المستقلين يعين على إجراء جميع صفوف التجارب . »

« وما مصير الأستقراطية الإنجليزية صاحبة ملكية الأرض . »

وأجاب هوايتهد فى هدوء : « لقد انتهى مصيرهم ، وآلوا إلى الدمار . إن الحكومة تستولى على أراضيهم ، وتسمح لهم بالبقاء فى البيوت كحراس عليها ، ولكن الأرض قد تحولت إلى الزراعة ، ولم تعد الأشجار تزرع للزينة ، وإنما لمحصولها . وقد قطعت الأشجار الكبيرة لأغراض الحرب ، وزرعت مكانها أشجار الصنوبر الصغيرة ».

وتنهدت مسز هوايتهد قائلة : « إنجلترا ، يابلادى ! يسرنى ألا أراها ثانية بعد هذا. »

وواصل حديثه قائلا : « أشك إن كنا سنقوم بعد الحرب بتجارة خارجية واسعة كما كنا من قبل . ومعنى ذلك أنه ينبغى لنا مضاعفة الجهد فى الزراعة . »

ثم تحدث مستر ويكس ، الذى عاد حديثاً من رحلة عبر القارة ، عن التصنيع الشامل، للغرب ، من تكساس على ساحل المحيط الهادى حتى بوجت ساوند ، على

حساب الولايات الزراعية الداخلية. وكان الحديث مفصلا والاستماع إليه فى شغف، لأن الموضوع كان أحدث من أن يوصف وصفاً شاملا فى صحائف مطبوعة . وأدى بنا هذا الى مسائل خاصة تتعلق بسير المجلة ، وترجع الى النقص فى تموين الورق . وقد أجاب عن هذا الأمر فى إيجاز وإن يكن بوضوح . قال إن الناشرين الأمريكان قد تلقوا التحذير من زملائهم الإنجليز بألا يخلقوا لأنفسهم منافسا قويا فى الجهاز الحكومى ، الذى يستطيع أن يحصل على ماشاء من موارد الورق ، كما أن له السلطة التى يوجه بها الطابع .

وفى أحد الأعوام التى تقع بين سنة ١٩٢٠ و ١٩٣٠ والمال لايزال وافراً ، قيل لى فى مكتبة (الركن القديم) إن عشرين ألف كتاب جديد قد نشرت فى هذا القطر وحده . ذكرت ذلك ، وحددت العام الذى حدث فيه هذا .

وصححنى ويكس قائلا : « لقد أخطأت فى ذلك . إن الكتب الجديدة بلغت نحو تسعة آلاف . أما ماعدا ذلك فكان إعادة طبعات ».

« حتى إن كانت تسعة آلاف (وهذا ماقصدت إليه) فإن عدداً كبيراً منها كان حتما عديم القيمة »

وقال هوايتهد وقد التفت وراءه إلىّ : « إنك تجابه رجلا نشر اثنى عشر كتاباً ، ثم تقول إن الكثير منها ما كان ليستحق الطباعة ! »

ثم اتجه الحديث نحو البحث فيما إذا كان الرجال من ذوى العقل الممتاز ينجحون كرجال سياسيين .

وقال هوايتهد : « إنهم قلما تسنح لهم الفرص للتجربة . إن نوع الرجل المطلوب لإدارة الدولة ، ونوع الرجل الذى يديرها فى أكثر الأحيان ، هو ذلك

الرجل الذى يحس بقوة مانسكون الحاجة ماسة إلى عمله — وربما لا يكون صاحب عقل ممتاز ، »

« وهل لانستطيع أن نذكر لذلك استثناء ؟ »

فصاح هوايتهد وويكس فى صوت واحد « دزرائيلى » وبعد برهة من التفكير أضاف ويكس إلى ذلك قوله : « وتوماس جيفرسون مثال آخر » .

وواصل هوايتهد الحديث قائلا : « إن الرجال الذين أسسوا جمهوريتكم كانوا يدركون إدراكا واضحاً بدرجة غير مألوفة تلك الآراء العامة التى أرادوا أن يطبقوها هنا . ثم تركوا وضع التفصيلات للمفسرين الذين جاءوا أخيراً ، وقد كانت — على وجه الجملة — ناجحة الى درجة كبرى . ولست أعرف سوى ثلاث مرات فى العالم الغربى وجه فيها رجال السياسة مصائر التاريخ ، وهم واعون : اثينا فى عهد بركليز ، وروما تحت حكم أغسطس ، وتأسيس جمهوريتكم الأمريكية » .

وقد أثار ذلك البحث فى هذا الموضوع ، إلى أى حد يمكن لرجال السياسة الحاكمين أن يكونوا فى الأزمات التاريخية الكبرى متنبهين إلى ضخامة المصائر التى يتحكمون فيها . كان العالم القديم فى أشد المخاطر عندما تولى أغسطس حكم روما ، ونحن نتساءل هل كان بإمكانه أن يتصور على بعد المخاطر التى كان يتعرض لها مستقبل أوربا والغرب ؟

قال هوايتهد : « كلا . كان رومانيا ، فأراد أن ينقذ الإمبراطورية الرومانية . وترتب على ذلك أن أصبحت الإمبراطورية الرومانية عنق الزجاجة التى مرت خلالها ثقافة العالم القديم إلى شمال أوربا وإلى نصف الكرة الأرضية الغربى . والآن بعد ما انقضى خمسمائة عام أخذت مدنية النهضة الأوربية تنهار . إنك فى

الحوادث التاريخية العظمى قلما تستطيع أن تعين سبباً واحداً . إنما تتضافر عدة أسباب . لقد سئم الروس حكومتهم القيصرية المريعة المبذرة ؛ وكانت ملكية هابسبرج على أهبة السقوط ؛ وكانت فرنسا تتدهور أسرع مما قدرنا بكثير ؛ وكان على رأس ألمانيا ذلك الملك المتردد ولهلم الثانى . ولعب بسمارك دوره جيداً . وإنه ليرتاع لو رأى الأبعاد التى بلغها الدور الذى قام به . إن انهيار مدنية النهضة الأوربية التى دامت خمسمائة عام لم ينجم عن واحد فقط من هذه الأسباب، وكل هذه الأسباب مجتمعة ليست إلا جانباً فقط من جملة الأسباب . وأضف إليها الثورة الصناعية والوسائل الفنية العلمية الجديدة . وباتت المشكلة هى هذه : هل تقع هذه الأداة بين أيدى قوم أشرار أو قوم من الخيار؟ لقد وقعت الأداة عند بداية الثورة الصناعية — منذ مائة عام — على وجه الجملة فيما أحسب بين أيدى قوم من خيار الناس نسبياً : لقد استغلوا الفقراء ، ولكنهم — على أقل تقدير — استخدموا الأداة فى الإنتاج . أما فى وقتنا هذا فقد وقعت هذه الوسائل الفنية الجديدة بين أيدى قوم أشرار ، رجال عصابات مفترسين — وإنى لآمل ، بل أعتقد ، أن ذلك لن يدوم طويلا . كانت كل هذه الأسباب قائمة مجتمعة . وكانت الحوادث الفردية نتائج لها . ولست أقول إن أوربا قد انتهت إلى الأبد ، بل إنها سوف تسترد حيويتها بعد زمن بطبيعة الحال . ولكنها قد انهارت لجيل على الأقل ، إن لم يزد عن ذلك . وأتمنى أن تبقى ثلاث من الدول الحديثة ذات المجتمعات الطيبة . وهى الدنمارك والنرويج والسويد » .

واستطرد فى حديثه عن عنصر المصادفة فى التاريخ — كيف أن حملة بريطانية حربية كانت فى طريقها إلى الصين ، انحرفت إلى كلكتا فى الوقت الملائم المساعدة على إخماد ثورة سيبوى ؛ واختتم حديثه متفكهاً بقوله :

الظاهر أن العناية الإلهية فى « جانبنا » .

وقال ويكس ضاحكا : « ولكن العناية الإلهية لا تحابى . » ثم روى تلك السلسلة المتتابعة النادرة من المصادفات التي وقعت على نهر هدسن والتى كشفت عن مؤامرة بندكت آرنولد .

واقتبست مسز هوايتهد هـذه العبارة من كتاب أرون (أو المدينة المجهولة) لصمويل بتلر : « شاء الحظ أن تكون العناية الإلهية بجانبى . »

ثم عدنا إلى التساؤل عما هى « المصادفة » . إنها تبدو أحيانا من عوامل الخير ، كما تبدو أحيانا أخرى من عوامل الشر ، كما حدث للاثينيين قبل مرقسه وانها لتجىء فى تتابع يوحى قطعا بالترتيب السابق . ماذا تقول ؟ هل تقع الأسباب فى أغوار أعمق من مجرد المصادفات الهمجية ؟

قال هوايتهد : « إننى أميل إلى الاعتقاد بأن الأسباب قائمة فى كل ظرف . وليست الحوادث التى نشاهدها ، والتى تبدو كأنها من فلتات المصادفة ، إلا الخطوات النهائية فى خطوط طويلة من المسببات . »

وجىء بصينية عليها سلة فضية بها فطائر صغيرة . والسلة — كما تدل الكلمات المنقوشة عليها — كانت مهداة لوالد هوايتهد ، القسيس ، فى عام ١٨٥٨ .

ولما كنا قد سمحنا للمحادثة أن تقف لبضع دقائق ، فقد توافر الوقت للاستمتاع بمشاهدة الحاضرين . وقد جلس ثلاثتهم فى ضوء المصباح المظلل . وبدا ويكس كعادته نحيلا ، أنيقا ، قويا ، وإن يكن على درجة من التنبه أكبر مما عهدنا فيه . أما مسز هوايتهد فقد تمددت على راحتها ، وأشعة المصباح تسقط

مباشرة على وجهها الذى أكسبته الشيخوخة قوة فى التمييز . وقد ألقت على ركبتيها شالا مطرزا ، وإلى جانبها آنية من أزهار الحديقة . وكانت هى أو ويكس يدخنان سيجارة بين الحين والحين . كما احتفظت عينا هوايتهد ببريقهما الأزرق دون أن ينطفىء ، وما زالت بشرته متوردة ، وصوته واضحا قويا رنانا وهو يتلفت أثناء حديثه من واحد إلى آخر منا . وحديثه رزين ، صحيح النطق يزن كل أمر من الأمور ، والعبارات التوضيحية تذكر فى وقتها اللائم . لغته محددة ، وتكاد تبلغ حد الدقة الرياضية . أما الشباب البادى على وجهه فيدعو إلى العجب . وكثيراً ما كان موضع ملاحظة الآخرين . إنه ضوء الفكر الذى يكسبه هذا البريق والإشماع . وهو إشماع ينتقل منه إلى غيره ، فيقوى تفكير المستمعين إليه .

واستؤنف الجدل حينما قال هوايتهد :

« إن الأمريكان يهتمون بالمساواة أكثر مما يهتمون بالحرية . إنكم تفهمونها بمعنى غير الذى نفهمها به ، ولكنكم أشد قسوة منا بكثير على من لا يرقون . إنكم تفترضون هنا أن الرجل إذا لم يرق فلا بد أن يكون ذلك راجعاً إليه . إن شعور الزمالة بين الطبقات العليا والطبقات العاملة أقوى فى إنجلترا منه هنا . إن الطبقات عندنا أشد جموداً ، ولكنك إن كنت تجد فوارق الطبقات عندنا تسير فى خطوط أفقية ، إلا أن أواصر الصداقة لدينا تمتد فى خطوط رأسية » .

وأدى بنا ذلك إلى القول بأنه من الملاحظ أن الناس هنا يحاولون أن يتعاونوا فيما بينهم ، وخاصة منذ أن أعادت الحرب الحالية توزيع السكان .

فقال هوايتهد فى ثنايا المحادثة : « إن شفقة الأمريكان — على قدر علمى بهم — شىء فريد فى تاريخ العالم ، وهى التى تسوغ وجودكم . إن المهاجرين إلى بلادكم — قبل عام ١٨٨٠ وما بعده حينما صارت الهجرة إليكم تجارة تقوم بها

شركات البواخر — جاءوا إلى هنا أساساً لأنهم أحبوا الفكرة الأمريكية ». والواقع أنه ربما كان من أسباب انهيار أوربا أن كثيراً من القادرين فيها هجروها وجاءوا إلى هنا ، والألمان الذين رحلوا إليكم فى عام ١٨٤٨ من خير العناصر بين سكان بلادكم » .

وعلق على ذلك ويكس ، وقد نهض ليشعل سيجارة مسز هوايتهد ، قال : « إننا لم نسىء معاملة أولئك الذين وفدوا بعد العقد التاسع من القرن التاسع عشر ، بالرغم من أن بعض من أتى بهم إلى هنا لم يتوقعوا لهم خيرا . ومن المحتمل أن يكون عملهم الرخيص قد أثر على مستوى معيشة عمالنا مدى جيل بأسره . بيد أن أطفالهم التحقوا بمدارسنا العامة وتعلموا الإحساس الحى بحقوقهم المدنية » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن إنجلترا كذلك قد وفد اليها بعض ألمان عام ١٨٤٨ ، وإنك لتجدهم بين أصحاب المصانع الأثرياء فى أماكن مثل برمنجهام . ولهم هذه الخاصية ، إن من بينهم وحدهم — على حد علمى — تجد فى إنجلترا أعداء السامية » .

ووافقها على رأيها مستر هوايتهد ، وقال : « كانت عداوة السامية نادرة جداً . وفى قريتى بكنت كان صديق والدى العزيز سرموزس منتيفيور يهودياً . ولم يهتم بذلك أحد ما » .

وقالت مسز هوايتهد : « لقد أحببت هذا المكان حينما قدمت للعيش هنا ، وأنا لا أنقد ما أحب . غير أنى الاحظ قسوة فى المعاملة من الزبائن للعاملين فى المحلات التجارية . وإنه لمن اليسير أن يكون المرء شفيقاً كذلك حينما لا يجد لديهم ما يحتاج إليه : إن الشبان والشيوخ يعاملون معاملة ملكية فى عرباتكم العامة . ولن يضطر الشيخ قط إلى الوقوف . ولكن فيما بين هؤلاء رأيت نساء

واقفات كان ينبغى أن يجلسن ، وبدت إحداهن كأنها على وشك أن تضع فى ذلك اليوم عينه ... ومن ناحية أخرى هذا ما يمكن أن يقع : حدث ذات صيف فى قرية بفرمنت أن انهارت سباكة أحد الأكواخ . وقيل لى إن السباك رجل غريب الأطوار ، مستقل لا يعتمد على أحد ، وربما أصلح السباكة وربما لم يصلحها . وأرسلنا فى طلبه على أية حال . ولكنه لم يحضر ، وفى الأصيل عندما كان ألفرد نورث فى الخارج فى مكان ما ، وكنت أجلس عند عتبة الباب ، دخل على رجل ، يلبس قميصاً من الطراز الشائع هناك . فقلت له إن زوجى سوف يعود بعد قليل ، ورجوته أن يصعد وينتظر . وتبادلنا الحديث ، فوجدته مطلعا وشائقا فى حديثه . وبعد قليل سألته أهو يرغب فى تناول الشاى . فقال إنه يرغب . فأتيت به . وتناولنا الشاى ، واشتد شغفى بما كان يقول ، حتى قال أخيراً « يجدر بى أن أفحص سباكتكم » .

« ألم تشعرى قط من يكون ؟ » .

« ربما أمكن ذلك ، ولكن الواقع أنى لم أشعر » .

فقال ويكس : « ينقصنا — مع ذلك — شىء واحد ، وذلك هو ماض مشهود محسوس . إننا نحاول أن نكشفه ، ونستخرجه من الكتب ، ولكن ذلك يكلفنا جهداً . وانعدام الماضى هذا تعززه سهولة انتقالنا . إننا لا نموت قط فى البيت الذى نولد فيه . وليت الأمر يقف عند هذا الحد . بل إنا لنهجره ونحن ما نزال فى سن الصبا . وعندما يعود أحدنا إلى زيارة محل ميلاده يجد أن البيت قد أزيل وأقيمت مكانه محطة من محطات البنزين . ليس فى مدينة نيوجرسى حيث نشأت ، وحيث امتدت إليها ضواحى نيويورك فيلفت الريف . ليس هناك سوى (بيت واحد كبير) . ونحن أطفال المدينة لم ندع اليه قط لتناول الشاى ، وإن كان يسمح لنا بزيارة حدائقه . ولكنه كان يمثل شيئا فى حياتنا الخيالية » .

وقال هوايتهد : « إن إحساسنا بالماضى فى إنجلترا شامل من جميع النواحى ، حتى بات لا شعوريا عندنا . حيثما اتجهنا ، كان الماضى أمامنا فى المبانى ، والآثار ، والتاريخ ، والأساطير — وقد يمتد إلى خمسمائة عام ، أو إلى ألف عام . وهو يدخل بطبيعة الحال فى كل ما نفكر فيه وفى كل ما نعمل . »

ووجه إلىّ ويكس هذا السؤال : « كيف كان انعدام الماضى ، هذا فى المدينة التى نشأت فيها ؟ »

« إن ماضينا أقل من ماضيكم . وفى [خزان أوهايو الغربى] بناء أقيم منذ خمسة وسبعين عاما ، نعده ، قديما ، غير أن ما فقدناه فى الماضى ، عوضناه فى المساواة » .

وسأل الأستاذ هوايتهد : « وهل معنى ذلك أن كل من جمع ثروة ترك المدينة ؟ »

« لم يترك المدينة رجل غنى . إذ أنه يتحتم على المرء أن يترك المدينة لكى يصبح غنيا » .

وكانت بين الباقين فوارق طبقية قليلة غير واضحة . وكل منهم فى أعماقه يحس أنه لا يقل شأنا عن سواه ، ما دام يسدد ما عليه من دين » .

وقال ويكس : « لقد نسيت فارقاً طبقيا فى المدينة الأمريكية الصغيرة كان قائما منذ جيل . »

« وما ذاك ؟ »

« لم يكن إدمان الشراب مما يدعو إلى الاحترام » .

« هذا حق . إن الاستهتار الذى ساد فيما بين عام ١٩٢٠ و ١٩٣٠ قد أنسانى ذلك » .

وتوجهت مسز هوايتهد السؤال إلى مستر ويكس ، قائلة : « هل تظن أن هناك احتمالا لإعادة تحريم الخمر ؟ » .

« إن أمواج حركة التحريم تكاد تغرق مكتب مجلة الأطلنطيق ، وهى تشتد شهرا بعد شهر . وآمل ألا يكون هناك خطر من تكرار الحملة . ولكن الجدل أعمى وأصم بالنسبة إلى أى درس من دروس التجارب . » ثم سأل هوايتهد عن « تهريب الخمور فى إنجلترا ، حينما كنتَ تسكن على ساحل كَنْتْ . هل كان هناك حافز للتهريب ، أم هل كان كل ما يهرب يمكن الحصول عليه بنفس السهولة فى داخل البلاد ؟ » .

وقال هوايتهد : « كانت تقوم وسط المستنقعات القريبة من النهر كنيسة قديمة . وكل ما أعرفه عنها هو أنه منذ مائة وخمسين عاما — أى فى عهد نابليون تقريبا — كانت تأتى عبر هذه المستنقعات كميات كبيرة من الكونياك والنبيذ الممتاز ، الذى يخزن فى سراديب تلك الكنيسة بموافقة القسيس . وفى أكثر من مرة ، حينما كان يصل النبأ أثناء الصلاة بأن الضباط قادمون فى الطريق ، كان المصلون جميعا يؤجلون الصلاة لكى يحصلوا على الشراب قبل أن يصل . وكان يعاونهم على ذلك القسيس ! » واختتم حديثه متجها إلينا قائلا : ويدل ذلك على أن الكنيسة الرسمية كانت تشارك الناس حياتهم فى إخلاص شديد » .

(٢٨)

٣ من يونيه ١٩٤٣

مدت وإدوارد ويكس إلى لقاء آل هوايتهد . وكان يوما من أيام الصيف الحار ، حل بنا بغتة بعدما نعمنا بربيع بارد النسمات امتد بنا أمدا طويلا . وكان بيت ويكس غير معد للإقامة فيه — وهو يقع فى ٥٣ شارع تشتنت . واستعد

ويكس وأسرته للرحيل لقضـاء فصل الصيف فى مزارع بفرلى فى صبيحة اليوم التالى .

ويبدو تل بيكن فى يونيه كأنه فى موكب عرس · الأزهار تتفتح فى المساحات الصغيرة بين الأسوار الحديدية وجدران المنازل المشيدة من الطوب الأحمر . والمليق والنباتات ذات الأزهار البنفسجية تتسلق واجهات المنازل . وكنت ترى أوراق الأشجار اليانعةوالبقع المعشوشبة فى أفنية المنازل وفى ميدانلويزبرج . وما تـكاد المدينة ترتدى حلة جمالها حتى نتركها ونرحل .

وتغير المنظر تغيراً سريعاً من بوسطن إلى كبردج . ولـكى نبلغ بيت آل هوايتهد فى الموعد الذى ضربناه . ركبنا سيارة أجرة . وكانت الستائر التى تحجب الضوء مسدلة فى بيتهم . ولما كانت جميع النوافذ فى جميع الحجرات مفتحة فقد هبت نسمة لطيفة منعشة . وقد امتلأت أوانى الزهر فى حجرة الجلوس بأزهار السوسن وعود الصليب والزنبق الأصفر ، التى أمدتها بها حديقة من حدائق يونية .

ولم تـكن هناك مقدمات .

قال هوايتهد لويكس : « إن عدد شهر يونية من مجلتك (الأطلنطيق) عدد ممتاز » .

فقال متواضعاً : « إنه الحظ ، وإنى لأحمد الله عليه . إن الموضوعات المناسبة وصلتنى فى الوقت المناسب » .

— وكان من بين الموضوعات المناسبة (عودوا إلى الفنون الحرة) الذى كتبه ا.ك. راند و (أمريكا التى لم يتصورها العقل) الذى كتبه ارشبولد ماك ليس و (النجم الغربى) لستيفن فنسان بنيه و (تـكوين عقل هوفر) لربكا وست .

والظاهر أن مستر ويكس كان فى واشنطن (حيث تحدثت ساعة مع ويلى . أو لعله من الأصح أن أقولَ إن ويلى قد تحدث إلى ساعة من الزمان) .

« وكيف بدا ؟ »

« كان الحديث عن طبرق وكريت والهند . ولم يكن فيه ما يبعث على الابتهاج. وبدا عليه الانهاك والتعب . لم يكن متخاذلا ، ولـكنه منهوك القوى » (كان ويكس يخفف وقع النبأ . فقد نمى إلى مكتب الصحيفة أن الأثر الذى تركه ويلى فى واشنطن هو أنه لم يكن قط منهوكا) « وكان حديثه شائقا . وقد تولى القيادة فى أفريقيا فى وقت دب فيه اليأس فى النفوس . وقد دهشوا — كما دهش كل إنسان — لسرعة مسيرهم وللمدى الذى بلغوه » .

وانحرف الحديث نحو الموقف فى الهند . وقالوا إن روزفلت حرص على ألا يتدخل فى الشئون الاستعمارية البريطانية .

وقالت مسز هوايتهد : « إنى معجبة به من أجل هذا . ويعلم الله أننا أخطأنا كثيرا . وعلينا أن نصحح أخطاءنا بأنفسنا . هل أنت فى جانب روزفلت ؟ ... » وترددتْ قليلا وهمت بالانسحاب .

وقال ويكس : « إننى أؤيده كل التأييد ، فأنا من الحزب الديمقراطى » .

قالت : « حسنا . إن المرء لا يعرف قط أى سبيل يسلك الناس فى هـذا الموضوع . إننا نعتاد الإحساس بالأرض التى نقف عليها أولا . يجب أن تـكون هناك شارة نستطيع لباسها كى يعرف أحدنا الآخر » .

واقترح مستر ويكس : « أن تـكون شارة من شارات الحلات نضعه فى العروة . ولـكن ربما كان ذلك أسوأ من عدمه »

وقلت إن من الناس من لقي حظاً سعيداً في بعض الأحيان ، لأن مذهبه السياسي لم يكن معروفا ، وبخاصة في الأوقات العصيبة .

وقال هوايتهد باسماً : « هذا حق . وقد كان من حسن حظنا أن ملكينا الأولين من أسرة هانوفر لم يستطيعا أن يتكلما الإنجليزية . فلما تولى علينا ثالث يستطيع الكلام بها ، أوقعنا في هذه المتاعب معكم ، التي لم نتخلص منها كاية حتى الآن . ومما زاد الطين بلة أن جورج الثالث كان رجلا عائليا مثاليا . يحبه الناس حبا جما ، يلقبونه (جورج الفلاح) ، والزوج الطيب . والأب الشفيق ، وما إلى ذلك : كانت لديه كل الفضائل العائلية التي رجحت كفة خرقه السياسي المربع » .

وقالت مسز هوايتهد : « وحتى المنشقين على العقائد السائدة كانوا يبجلونه » .

وسألته : « ألم تقل إن أسرة هانوفر لم تحتمل إلا لحسن مسلكها ؟ » .

وقال هوايتهد : « لقد أتت بهم زمرة من النبلاء الأحرار . وتألف من هؤلاء النبلاء (المجلس) . ولو أثبت الملكان الأولان جورج الأول وجورج الثاني أنهما يتدخلان ، فربما أعيدا إلى وطنهما . وفي رأيي أن جورج الثالث هو الذي دعانا إلى أن نقف في الجانب الخاطىء حينما جاءت الثورة الفرنسية . وإلا لأمكننا – في ظني – أن نضع في عام ١٧٨٩ قوانين الإصلاح التي صدرت فيما بين عام ١٨٣٠ و ١٨٤٠ . ولو فعلنا ذلك لحسنت علاقتنا بالفرنسيين ، ولاجتزنا عصر التصنيع في القرن التالي دون تلك الأحياء الشعبية المريعة » .

ثم اتجه الحديث إلى فن الأدب ، وسأل ويكس هوايتهد عن الصورة التي يعتقد أن الأدب سوف يتخذها بعد انتهاء الحرب .

وعند الإجابة ، تحدث هوايتهد عن الميل نحو السخرية بعد الحروب ، وضرب لذلك مثلا لتن ستراتشى بعد الحرب الماضية . غير أنه قال إن أمثال هؤلاء الرجال – مهما كانوا ممتعين – عقيمون ، والراجح أن يكون إنتاجهم – بناء على ذلك – هزيلا .

وسأل مستر ويكس : « وهل تعتقد أن أتباع فرويد سيتسلطون على أدبنا مرة أخرى ؟ » .

قال هوايتهد : « إنهم مثال لما أعنى بقبول جانب من الحق على أنه كل الحق فى سذاجة . إن آراء فرويد أشاعها قوم لم يفهموه إلا فهماً ناقصاً ، وعجزوا عن بذل المجهود الضخم اللازم لإدراكها من حيث علاقتها بالحقائق الأكبر ، فنسبوا إليها – من أجل ذلك – أهمية لا تتفق ألبتة وأهميتها الحقيقية » .

وقال ويكس : « أضف إلى ذلك شيوعها بين جيل ما بعد الحرب الذى كان بحاجة الى أن يُذكر له على وجه الدقة ماتعنى هذه التفسيرات الناقصة لفرويد » .

وقد كتمت فى صدرى هذا السؤال فترة ، ثم وجهته قائلا : « لقد قلتَ مرة إن بين الوقت الذى نمارس فيه التجربة ، والوقت الذى نعبر فيه عنها ثانية بالقول أو بالفعل ، فجوة لا نعلم عنها شيئاً . هل تطورت هذه الفكرة لديك بعد هذا ؟ » .

وأجاب هوايتهد قائلا : « فى الأسبوع الماضى ، فى حفل توزيع الدرجات العلمية ، كان هنا اخصائى فى الذهن . قال إن خبرتنا البدنية تنتقل إلى الذهن عن طريق العمود الفقرى ، وبخاصة إلى ذلك الجزء من الذهن الذى يقع خلف رؤوسنا . وكثيراً ما رأيت أفراداً لهم خلف جماجمهم نتوء ضخم وقلت : (أليس مما يدعو

إلى الحسرة ألا يكون هذا النتوء فى مقدمة الجمجمة حيث يمكن أن يؤدى لهم عملا نافعاً ، ولكن يظهر أنى كنت على خطأ شديد . وقد قال لى هذا الجراح إنه من الممكن نقل جزء كبير من ذهن الإنسان من هنا إلى هنا » (مشيراً إلى عارضيه الأيمن والأيسر) « ويستمر على حاله كما كان . أما إذا حدث انفصال خطير فى خلف الرقبة ، بات المرء ممتوهاً . وقد عرف الفلاسفة منذ قرون أن حواسنا ليست دليلا قاطعاً على وجود العالم الخارجى . ولم يعرف ذلك منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وإنما عرف من عهد اليونان . لم يكن هناك ألبتة سبب لكى نستنتج وجود الحقيقة الخارجية من أى دليل يأتينا عن طريق الحواس . إن كل شىء ذاتى . والعالم الخارجى قد لا يكون هناك ألبتة . وبرغم هذا ، فالواقع أن الأفراد الذين لا يفترضون وجود هذا العالم الخارجى حقيقة من الحقائق يزج بهم فى مستشفيات المجانين . ولكن علمنا به يأتينا فى كل وقت من طريق العمود الفقرى بوساطة خبراتنا البدنية ، وتأدية أعضائنا لوظائفها أداء ساراً . لأن أبداننا جزء من هذا العالم الخارجى ، كهذا المقعد تماما الذى يستقر فيه جسمى فى الوقت الحاضر . ولذا فأنا أنصحك ألا تُحدث فى خلف رقبتك شيئاً خطيراً . أما مقدمة رأسك ، فلك أن تهملها كما تشاء ، ولا تتأثر فى شىء . أما إذا تخلخلت مؤخرة رأسك ، فأنت فى خطر » .

وأدى بنا هذا الحديث إلى التندر على المشتغلين بالتدليك . ولما عاد النقاش إلى رزانته ذكرنا تلك العبارة التى وردت فى صفحة ٣٥٥ من كتاب « مغامرات الأفكار » والتى جاءت فيها جملة تسترعى الانتباه تتعلق بهذا الموضوع الغامض الذى يتصل بما يحدث بين الوقت الذى تقع فيه الخبرة الخارجية على الجسم والعمود الفقرى والذهن ، والوقت الذى تخرج فيه ثانية . وهذه الجملة هى :

« إن العملية فى ذاتها هى الواقع » .

ذكرنا هذه الجملة له ، وعلقت عليها بقولى إن (الناس يقولون إنها بمجرد دخولها فى رؤوسهم لا تخرج ثانية . وأعتقد أنى أعرف ما تعنى ، أو أنا على الأقل أعرف ما تعنى بالنسبة إلىّ . ولـكن هلا قلت لنا ما معناها لديك ؟ »

قال: « لقد استغرق الفلاسفة وقتا طويلا ، قرونا فى الواقع ، لـكى يتجاوزوا فـكرة المادة الثابتة . إن بعض المواد — كالماء أو النار — يمـكن مشاهدتها وهى تتغير بسرعة . وبعضها الآخر — كالصخر — ثابت لا يتغير ، ونحن نعلم الآن أن قطعة الجرانيت كتلة من الحركة الدائبة ، وأنها تتغير بسرعة مريعة . ولـكن إلى أن عرفنا ذلك ، كان الصخر يبدو كأنه قليل الحياة أو بغير حياة ، وإن كان يظهر فى ثبات هائل . ولما كان من الواضح فيما مضى أن التفـكير القائم ضئيل جداً فقد جاء به الفلاسفة القدامى من الخارج . وكانت تبدو هناك فواصل بين جزء من الـكون وجزء آخر منه . أما فى ضوء ما نعرف الآن ، فليس هناك خط فاصل بين ما لا نهاية لاتساعه وما لا نهاية لضآلته . وعنصر الوقت له أثره كذلك . إن أجسامنا البشرية تتغير من يوم إلى يوم . إن بعض مظاهرها الخارجية لا يتبدل ، ولـكن التغير دائم وأحيانا يُرى . والمجموعات الـكوكبية تبدو كأنها لا تتغير ألبتة ، وإن كنا نعلم أنها تتغير ، كما نعلم أن السُّدم قد اتخذت شكلها الراهن ولـكنها تتحول إلى أشكال أخرى . وسواء أكان التغير يحدث فى لحظة أم فى بلايين السنين ، فليس ذلك إلا قياسا إنسانيا . إن حقيقة التغير لا تتأثر باستخدامنا — كبشر — المعايير الوحيدة التى لدينا ، والتى تتأثر حتما بحدود حياتنا . إننا موجودون هنا فى ظروف معينة من المـكان والزمان ، علينا أن نؤدى وظائفنا فى حدودها ، وهذه الظروف تلوّن أحكامنا ما لم نراقبها ... إن هذه المائدة الصغيرة القائمة إلى جانبى — وقرعها بأصابعه — فى حالة تغير . ولو أنك خزنتها فى مكان ما عشرة آلاف عام ثم عدت لمشاهدتها ، فربما بلغ بها التغير مدى يتعذر عليك معه أن تعرف أنها كانت مائدة . ومع

ذلك فإن العملية التى تؤدى الى هذا التغير الملموس الى درجة قصوى مستمرة بها الآن ، وإن تكن — فى جميع الأغراض العملية الإنسانية — هى بعينها المائدة التى رأيتها المرة الماضية عندما كنتَ هنا ، وهى بعينها المائدة التى رأيتها بجانبى مدة أربعين عاما . إن التغير دائم ، سواء قسناه بالدقائق أو بآلاف السنين . ونحن أنفسنا جزء منه ، لقد جئنا إلى الوجود فى ركن معين من الكون نتيجة لعمليات التغير ، وليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن أنواعاً أخرى من الحياة لم يوجد مثيل لها فى الكون ، وإن كان يشق علينا أن نتصور ذلك . وهذه الحيوات الأخرى تختلف عنا فيما نرى أكثر مما نعلم الآن مما بيننا وبين أسلافنا من خلاف . إن بعض أسلافنا المباشرين يبدون من نفس جنسنا ، ولكن كلما بَعُد السلف كان مخلوقات أشك فى أننا نشبهها ألبتة » .

(وكان يحدثنا فى عبارة بسيطة أن أحكامنا تتأثر تأثرا شديداً بالزمان والمكان ، فى حين أن الحقائق تخرج عن نطاق الزمان والمكان ، وأن التغير هو العملية المستمرة ، وهو بعينه الحقيقة)

وسألته : « إلى أى حد أدت بك الرياضة إلى هذه الأسرار ؟ »

وأجاب قائلا : « إن الرياضة بطبيعتها هى دراسة الأنواع فى أى نظام من النظم . وكانت فى صورتها الأولى تتعلق بالعدد والكم . وهذا هو منشؤها التاريخى : أما فكرة المنطق الرياضى فهى حديثة نسبياً . ولكن قد تكون الرياضة نافعة فى ربط أنواع معينة فى نظام من النظم بإدراكنا ، إلا أنها لا تعطينا أية فكرة عن حقيقتها ، كما كان يُظن فيما سبق . وربما درست هندسة إقليدس ، ولكنى أشك فى أنها قد حلت لك أى لغز من ألغاز الحياة » .

واعترفت : « بأنى درست هندسة إقليدس ، ولما كنت غير بارع فى الرياضة فقد زادت ألغاز الحياة تعقيداً » .

« كانت هندسة إقليدس تعد فى وقت من الأوقات وصفا دقيقا للعالم الخارجى . ولكن العالم الوحيد الذى يصح أن تكون وصفاً دقيقا له هو عالم هندسة إقليدس . ولما بدأت معارضتها فى القرن الثامن عشر ، اعتبرت تقاريبها المؤكدة فى أول الأمر – حتى من جانب مستكشفيها أنفسهم – من الأخطاء » .

« لقد قلت مرة إنه فى الوقت الذى بلغ فيه كشف الإبرة المغناطيسية أوربا (كانت الرياضة عديمة الفائدة تقريبا منذ ألف عام) كيف كانت عديمة الفائدة ؟ »

كان أرشميدس — حينما طعنه الجندى الرومانى — يعرف من علوم الرياضة ما عُرف فى أى وقت من الأوقات حتى القرن الرابع عشر تقريبا ، حينما عادت الرياضة إلى مواصلة التقدم » .

« أو ليست عندنا رقابة على الطريقة التى تتقدم بها الفنون والعلوم أو تتأخر فى عصر من العصور ؟ »

وأجاب عن السؤال من خبرته قائلا : « لنأخذ عصرنا مثلا . كنت فى كمبردج فيما بين عام ١٨٨٠ و ١٨٩٠ أولا طالبا ثم عضوا فى هيئة التدريس . وقد انقضى زهاء مائتى عام أو مائتين وخمسين عاما منذ اندفعت الرياضة دفعة جديدة من رجال من أمثال ديكارت وسر إسحق نيوتن . وكانت هناك مواضع غامضة كانت قواعد هذا العلم تمد فيها غير محدودة . ولكن الطبيعة الرياضية كانت تبدو فى جملتها سليمة قوية ثابتة ...... ولما تصرم القرن ، لم يبق ألبتة أمر من الأمور لم يتعرض للنقد ، بل لم يهتز من أساسه . ولم تسلم من ذلك

فكرة رئيسية واحدة . وإنى أعد ذلك حقيقة من الحقائق العظمى التى وقعت فى دائرة خبراتى » .

قلت : « وهل نستطيع أن نطبق هذا القول على الدين والأخلاق ؟ »

« نعم ، مع هذا الفارق ، وهو أن الفلسفة والعلم رحبا بهذه النظريات الجديدة التى هدمت النظريات القديمة ، ومن ثم انتفعت بها . فى حين أن الدين قاوم الآراء الجديدة ومن ثم كابد كثيرا » .

وسأل ويكس : « وهل ينتظر أن تستمر هذه السرعة فى التغير ؟ »

« إن نتائج هذه الآراء الجديدة فى العالم ستستمر فى التأثير فى حياتنا تأثيراً عميقا ، وبخاصة فى مجال الحيل الفنية ، إننا نتكلم عن التغيرات التى حدثت فى المجتمع من جراء الثورة الصناعية منذ نحو قرن تقريبا ، التى بدأت حوالى عام ١٧٩٠ وامتدت إلى القرن التاسع عشر . إنها لا تكاد تذكر إذا قيست إلى الثورة العلمية التى استمرت فى الخمسين السنة الماضية منذ نحو عام ١٨٩٠ . بيد أن الحيل الفنية الجديدة أيسر فى إدراكها وأقل أهمية فى نتائجها من المستكشفات الجديدة . وهى فوق ذلك وهمية ، لأنها توهم الناس أن التقدم مستمر ، فى حين أن الدافع إليه فى الواقع قد استنفد أغراضه من قبل » .

وقال ويكس : « نظرا لبعض المنافع التى تعود علينا من الحيل الفنية الجديدة ربما استطعنا أن نتوقف قليلا ، حتى يتمكن الإنسان من اللحاق بها اجتماعياً » .

وقال هوايتهد : « إنه من طبيعة الأشياء فيما أظن أن تقع هذه الحيل الفنية الجديدة فى أيدى الرجال الأشرار ... ثم إن هذه الحيل الفنية — بدورها عاونت على ظهور مستكشفات جديدة . ولكن بعد تجربة واحدة من هذا القبيل فى حياة المرء ، تجربة تدل على عدم ثبات أشد الأفكار صلابة فى مظهرها ، بعد هذا لا بد أن

يحرص المرء من شدة الثقة . وفى الكلمات الأخيرة التى كتبتها (فى نهاية ذلك المقال الذى يختتم مجلدا عن فلسفتى) قلت : « إن الدقة أكذوبة » .

وعلق على ذلك ويكس قائلا : « ذلك حكم سيىء لرئيس تحرير مجلة . مامقدار الدقة فى صفحاتنا ؟ » وأضفت فى صراحة مماثلة : « إنه أسوأ فى صحيفة يومية » .

واقترح علينا هوايتهد لكى يهدىء من روعنا قائلا : « تستطيعون أن تعلقوا بالهوامش فى أذيال مقالاتكم الافتتاحية ، شارحين للقراء أن ذلك مايبدو اليوم صدقا ، ولكنه قد يكون شيئا آخر فى الغد » .

« إن ذلك يقرب من الاتجاه العقلى الذى أكتب به « مقالاتى الافتتاحية » وقد قال نيتشه إن المرء لا يعرف أى الأنباء هامة إلا بعد مائة عام . »

وفى هذا الصدد قال هوايتهد : « إن حياة الفكرة تختلف اختلافا شاسعا . بعضها يعيش مائتى عام ، وبعضها يعيش ألفين . وبعضها لا يبقى أكثر من عام أو عامين ، فى حين أن بعضها الآخر ينتظر قرونا قبل أن يستجيب لها أحد ويضعها موضع التنفيذ . وهنا كذلك يكون عنصر الزمن متقلبا . ولكنى لا أظن أن عصرا من العصور قد شهد انقلابا شاملا فى طرائق التفكير السائدة كما شهد نصف القرن الأخير . وهناك فيلسوف واحدما كان هذا ليدهشه . إننا حينما نقرأ أفلاطون نقول من حين الى آخر مسكين ، لأنه لم يعرف كذا أو كذا .. ولكنه — بوجه عام قد توقع أكثر هذه الاحتمالات . ونحن نلتمس له المعاذير — على وجه الجملة — أقل مما نلتمسها لأى فرد آخر . إن أرسطو لو بعث اليوم لفزع ... لأنه قسم وصنف الى أجناس وأنواع منفصلة . أما أفلاطون فمتماسك . وأجدنى أشد انغماسا فى مؤلفه الأخير ، الذى يشتمل على الآراء الميتافيزيقية — مثل ثيتيتس — منى فى مؤلفاته الأولى ، التى يشتد فيها اهتمامه بالاجتماع ، الذى نرى أن بعض نظرياته لا يستقيم تماما » .

واشتركنا فى الموازنة بين ذلك وما يحدث غالبا بعد دراسة مستفيضة لأحد الفنانين الكبار — كيف نجد تدريجا أن مؤلفاته الأخيرة هى مدار إيثارنا . كما يحدث فى حكمنا على ألحان بيتهوفن الأخيرة .

وقال هوايتهد : « إن مؤلفات أفلاطون التى أرجع إليها من حين الى آخر هى تلك التى وضعها بعد « الجمهورية » . وطريقته أن يعلن موضوعه ، ثم يقدمه على عجل من أوجه متعددة ، قل منها ما طرأ لأى إنسان آخر ، وهى تثير نشاطا حماسيا فى عقل القارىء . وتلك الآراء يُلقى بها جزافا إلى حد كبير . وبعدما ينتهى من ذلك يشرع فى ربطها بأولئك الناس الذين يعيشون فى عصره والذين هم أقرب ما يكونون إلى فهم مرماه . وكلما تقدم (أشاع) هذه الأفكار حتى تبدو كأنها تدخل فى دائرة إدراك الجمهور . بيد أنى أود أن أنبهك إلى أن كثيرا من مزايا الأفكار يتبدد بإشاعتها » .

« لقد أطلعتنى مرة على مقال فى (تيميوس) يمثل تماما هـــذه العملية التى وصفت . »

« إن الأفكار حينما تشيع تميل إلى أن تفقد قوتها . إن ما ربطها بصور الحياة المعينة فى أى عصر من العصور سريع الزوال . وجانب من هذه السرعة فى الزوال نجده فى الآراء ذاتها ، حتى فى أنقى صورها وأقواها . وقد حاولت أن أضع هذه الحقيقة فى اعتبارى كلما عالجت آراء الفلاسفة فى العصور الأخرى . ومن الواضح أن تفكيرهم — مهما يكن مجردا — كان يتلون إلى حد ما بالمكان والزمان اللذين عاشوا فيهما ، وبالقوى التاريخية الفعالة ، وبالجو العقلى ، وبكل الظروف الخاصة التى كانت تتحكم فى الحياة حينما كانوا يفكرون ويكتبون . وقد فاتت هذه النقطة — فيما يبدو لى — كل من كتب عن مؤلفاتى ، أو أكثرهم . وهى تجعل كثيرا مما قالوا بعيدا عن الصواب. ولقد وضحت رأيى فى الكلام وفى الكتابة

فاذا لم يكن مفهوما ، فلا حيلة لى . فالمرء لايستطيع أن يعيد ويكرر إلى مالا نهاية. وفى المحاضرتين الأخيرتين فى ختام المجلد الذى ذكرتُ مثال لما أعنى . إن إله أفلاطون إله لهذا العالم . وقد جمع أغسطين بين إله أفلاطون وإله القديس بولس ، وخرج بنتيجة مزعجة . ومنذ ذلك الحين اتسمت فكرتنا عن هذا العالم حتى شملت الكون كله . وقد تصورت اتحادا بين إله أفلاطون وإله الكون » .

ودق جرس الساعة الضخمة فى برج مموريال هول معلنا الساعة ، فكان ذلك مذكرا لنا ومنبها إلى الوقت وسط هذا التأمل فى الأبدية . وهبت النسمات العليلة لمساء شهر يونية الرطب الحار خلال النوافذ المفتحة . وخرجت مع مسز هوايتهد إلى المطبخ الصغير لكى نأتى بطبق من البسكويت والويسكى والماء . أما شرابهما فكان معتدلا . فهى لا تتناول إلا الماء بغير الثلج ، وهو يتناول الماء القراح بالثلج .

وبينما كنا نكسر قطع الثلج سمعنا ضحكا عاليا منبعثا من حجرة الجلوس .

قلت : « لقد فاتتنا هذه » .

وهرولنا قافلين .

وقال ويكس : « كان يتحدث عن الفجوة الحديثة بين السياسة والتخصص فى العلم . وذكرته بأن مجلة الأطلنطيق قد نشرت بحثه فى هذا الموضوع » .

وقال هوايتهد متلطفا : « وذكّرته بأنه حذف الصفحات الأربع الأولى » .

فقالت ، وقد وقفت تجاهه وهزت سبابتها متهمة إياه : « نعم . وقد أخطأت فيا فعلت . إننا أسفنا منذ ذلك الحين على موافقتنا على ذلك » .

وبات تحت رحمتهما . وغطى رأسه بالشال الحريرى متظاهرا بالفزع . وضحكنا ، وأمست القصة كأنها مسرحية هزلية .

واستطرد هوايتهد قائلا : « كنت أعتبر تلك الصفحات الافتتاحية ضرورية فى بحثى . ففيها ميزت بين الفنون والعلوم ، وبين الأدب والتاريخ ،

وبين النظام الاجتماعى الجامد والنظام الاجتماعى الناشط . ولـكنى كبير النفس ، فأنا أعفو عنك ، حتى إن كنت قد أخفيت فـكرى ، لأنى لاأستطيع أن أطبع هذه الآراء الآن فى أى مـكان آخر » .

قلت : « لقـد طبعت كاملة فى (٧٥ — ١ ، من محاضر المجمع العلمى الأمريكى للفنون والعلوم) حيث ألقيتَ المحاضرة ، وقد طلبت اثنتى عشرة نسخة من السكرتير لـكى أرسلها الى الأصدقاء » .

« وهل بقيت لديك منها واحدة ؟ »

« نعـــم » .

« هل أستطيع أن أحصل عليها ؟ »

« سوف تـكون عندك فى الغد » .

وبقى أمامنا ربع ساعة قبل أن ننصرف . وفى خلاله عدنا بالحديث من الأمور الـكونية إلى أمور الساعة ، كإضراب عمال الفحم المحدق بنا ، وماذا يصيب من يحاول أن ينشر وصفا محايداً للقضية . ثم انصرفنا بعد العاشرة بقليل .

وفى سيارة الأجرة شرح لى ويـكس لماذا حذف الصفحات الافتتاحية ، قال : « إنها تبين أنها أُلقيت فى محاضرة ، والناس يؤثرون أن يقرأوا ما يظهر لهم أنه يوجه اليهم مكتوبا لأول مرة » .

وفى اليوم التالى أعدت قراءة الصفحات الافتتاحية للمحاضرة كما نشرها المجمع العلمى . ويبدو لى أن هوايتهد قد قال فى الأعمدة الثلاثة الأولى من تلك العجالة أكثر مما يستطيع أكثر الناس أن يقولوا فى ثلاثين .

(٢٩)

١٠ من يونية ١٩٤٣

حفل آخر لتوزيع الدرجات العلمية أثناء الحرب . وقد أزيلت من فناء الكلية ـ حيث عبرت ـ أخشاب السقالات ، التي نقلت إلى المكان الذى تقام فيه الحفلات فى الهواء . وتحولت رقعة الحشيش الى أرض صلبة من أثر السير عليها بالأقدام . وبدت كيمبردج العلمية ـ كأية مدينة جامعية أخرى بعد انتهاء موسم الدراسة ـ وكأنها قد هجرت على حين غرة .

وكان مساء مكفهرا ، يهطل فيه المطر مدرارا وتهب فيه الريح عاتية . وكان هوايتهد وزوجه وحيدين وبدت عليهما الطمأنينة أكثر مما عهدنا فيهما . وفى لمح البصر تجاوزنا مقدمات الكلام وضربنا فى أعماق الحديث. ودار الجدل حول الفجوة بين لغة الكتابة ولغة الكلام ، بين الأدب وحديث الناس .

وقال هوايتهد : « يستبعد جدا أن يكون شيشرون قد تحدث إلى أصدقائه بلغة رسائله ، فما بالك بلغة خطبه ؟ »

وأضافت إلى ذلك مسز هوايتهد قولها : « إن العديد من السكان يعقدون الأمر كذلك فهما تكن لغة الناس حية قوية التصوير ، فإن المتعلمين يتجنبونها إذا استعملتها الطبقة المستذلة ».

وقلت: « إن الفجوة تبدو عميقة فى اللغة الإنجليزية بوجه خاص ».

وقال : إنها ليست بالعمق الذى تظن . فإن طبقات لندن الفقيرة — مثلا — تقدر شكسبير تقديرا عجيبا. ولغته لا تبعد عنه ألبتة. وروحهم الفكاهية من روحه تقريبا . فهم يضحكون مما يضحك منه ، وليس فى كل هذا ما يدعو إلى الدهشة ، فهم

كأولئك القوم الذين كتبت لهم المسرحيات أصلا . فى شرق لندن مدرسة للتكنولوجيا كنت من لجنة الزائرين بها ، ورأيت فيها الكثير . وذات مساء رأيت معلما يقرأ صفحة من الأدب فى كتاب مقرر مع تلاميذه ، وسأل عن معنى كلمة غير مألوفة من القرن السابع عشر . وأجابه أحد الشبان إجابة صحيحة . وسئل كيف عرف فقال : « شهدت مسرحية اشكسبير (وذكرها بالاسم) فى مسرح أولدفك مساء الخميس الماضى ، وقد استعملت هذه الكلمة فيها بنفس معناها هنا » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن روح الفكاهة الإنجليزية كما تعبر عن نفسها فى الحديث الشائع تميل إلى الخشونة . وهى أيضا تثير الضحك إلى درجة كبيرة . وهى تختلف عن العامية الفرنسية ، التى تخفى وراءها عادة تلميحا قذرا . أما العامية الإنجليزية فعبارة عن خشونة طيبة صادقة تجابهك فى صراحة » .

قلت : « لو سمح لى أن أقول كلمة طيبة فى العامية الأمريكية ، فهى أنها — فوق كونها جديدة قوية — تكاد تكون دائما عذبة نقية ، روحها الطبيعية عالية صافية » .

ووافق على ذلك قائلا : « هذا حق . وهو من فضائل شعبكم » .

« العامية آفة حياتى فى التحرير . إن وجودى فى مكتب صحيفة يومية يجعلنى أسمعها دائما . والآراء المعقدة تحتاج إلى عرضها فى لغة بسيطة فى ظاهرها لجمهور قراء الصحيفة ، مع ضرورة الرجوع إلى اللغة الأدبية عند الحاجة . من أجل هذا تبدو العامية كأنها الطريق المختصر ، فى حين إنها ليست كذلك . إنها كالطريق المقفل أو الشارع المسدود » .

وعتبت علىّ مسز هوايتهد قائلة : « إن قوة اللغة النامية تثير فى نفسك القلق باعتبارك أديبا » .

« ربما . وإنما يثير فى نفسى القلق كذلك أن أرى الصيغ الشرطية والأفعال المساعدة تختفى من لغة الحديث الشائعة عندنا » .

وقالت بغتة : « من رأيي أن الفارق بين حديثكم وحديثنا ـ الأمريكي والإنجليزي ـ فارق في الأسلوب ، وإذا كان لحديثنا أسلوب ـ حتى في لغة الشعب ـ فذلك بالرغم منا ، ودون أن ندري . وأعتقد أن التعابير الاصطلاحية والألفاظ اللغة ـ في الوقت الحاضر على الأقل ـ أقل انتشارا هنا . وكثيرا ما ألمس فقرا في الألفاظ حتى عند أصدقائي هنا الذين أتيحت لهم فرصة الإلمام بها . وإن كنت أسمع في الحديث أسلوبا ، فهو مكتسب (مهما يكن الاكتساب بطريقة تستحق التقدير) ، ومعنى ذلك أنه مستمد من الكتب » .

قلت : « لاحظت لما تقولين مثالا رائعا في إحدى مدننا الصغيرة بماساشوست . وكان ذلك من فتى إنجليزي في الرابعة عشرة من عمره جيء به ليعيش هنا . ولم يختلف عن الفتيان الكشافة الأمريكان الذين شاركهم في اللعب من حيث أبواه ، ومن حيث الطبقة التي ينتمي إليها . بل ربما تميزوا عنه في ذلك . وبالرغم من هذا فإن هذا الفتى ـ كلما فتح فاه ـ أخجلني بحديثه الجميل ، بتعابيره الإنجليزية الطبيعية . وذلك دون وعي منه . إنما كان يتحدث بالطريقة الوحيدة التي كان يعرفها » .

وقال هوايتهد : « أنتم أيها الأمريكان لكم ميزة وحيدة كبرى جاءتكم بطريق المصادفة ، أقصد الأمريكان المنحدرين من أصل إنجليزي . إن الأدب الإنجليزي من عهد شارل الثاني حتى نهاية القرن الثامن عشر تأثر بالفرنسية إلى درجة أفقدته صفته المميزة ـ وذلك أمر لا يدركه الكثيرون . من أجل هذا كان الأدب الإنجليزي في هذه الفترة غير شائق . فالمسرحية الهزلية بعد عودة الملكية ـ مثلا ـ فرنسية أكثر منها إنجليزية » .

« إنها ـ برغم روعتها ـ كثيرا ما تنتمي الى عالم غير عالمنا » .

واستطرد قائلا : إن شعراء القرن الثامن عشر أيضا متكلفون متحذلقون وينسجون على منوال التقليد الفرنسي . أما أنتم في أمريكا فقد نجوتم من ذلك . ابتعدتم هنا وأخذتم في تنمية ما تريدون التعبير عنه مهما يكن . وبالرغم من أن بعض شخصياتكم الكبيرة

— مثل جفرسن وفرانكلن — كانوا فى فرنسا إبان الفوران الثورى ، الذى انتقل إلى الفرنسيين منكم ، ثم انتقل منهم إليكم ، حتى افترض أكثر الناس أن تأثير فرنسا فى أمريكا كان بالغا — بالرغم من هذا ، فإنه كان أقل خطورة من أثر فرنسا فى الفكر الإنجليزى . وقد كان كولردج ووردزورث والشعراء الرومانسيون الإنجليز : بيرون وشلى وكيتس ، ردا على هذه الحركة . وإذا تكلمنا — من ناحية أخرى — عن استخدامكم للغة نفسها ، بمعزل عن الأفكار التى تعبرون عنها بها ، فإن موقفكم — حقا — شديد التعقيد بسبب دخول عناصر غير إنجليزية فى بلادكم » .

« إن هذا العبء يقع على كواهل المعلمين بالمدارس العامة عندنا ، وهنا فى بوسطن — على الأقل — رأيتهم يواجهون الموقف فى شجاعة . إننا فى حى الصحافة نسمع الإيطاليين واليونان واليهود وكل من لم نعرف من الأجناس من قبل ! من باعة الصحف الصغار ينادون على صحفهم فى لغة بوسطونية صحيحة ، إلى غيرهم ممن يحرفون النطق فى الألف والراء الأخيرة » .

« إن هذه الحاجة عينها قد دعت إلى الدراسات فى (اللغة الإنجليزية) فى كلياتكم . إننا فى المدرسة الإعدادية بشربورن فى غربى إنجلترا ، حيث كنت أتلقى العلم وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى ، وقد تولى أبى القسيس تربيتى حتى هذه السن ، إننا هناك لم نسمع عن شىء من هذا ، ولا سمعنا به فى كمبردج أيضا إلى ما بعد ذلك بجيل تقريبا . كنا نتعلم اليونانية واللاتينية والرياضة . وكان التاريخ القديم يأتى عرضا أثناء دراسة اللاتينية واليونانية . أما التاريخ الإنجليزى فكنا نقرؤه لأنه كان يشوقنا . وقد يدهشك أن تعرف كيف كنا نناقش الحضارة القديمة فى حماسة بالغة ، وكيف كنا نرى دروس جزر بحر إيجة وما جاورها من البلدان ملائمة لنا — نحن الفتيان الإنجليز من ابناء الجزر البريطانية — من حيث علاقتها بالبحار والقارات الكبرى . وكانت « روسيا » فى تلك الأيام تضاهى « فارس » لبلاد

« اليونان » كما عرفناها . وكنا نقرأ الأدب الإنجليزى للمتعة ، وبخاصة ما نظم الشعراء . وقد « علمونا » مسرحيتين لشكسبير — ولست أذكرهما — ولكنى « أستطيع » أن أذكر أنى لم أهتم قط بالعودة إلى قراءة هاتين المسرحيتين ، وإن كنت قدقرأت مراراوتكراراً بقية مسرحيات شكسبيربسرور شديد. ومن اللغات الحديثة درسنا الألمانية دراسة جدية . أما اللادنان اللتان لم تنالا منا اهتماما جديا فى المدرسة فهما الفرنسية والطبيمة » وتوقف عن الكلام قليلا ، ثم قال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة « ومن العلوم لم نتعلم إلا قليلا بقدر المستطاع » .

وسألته : « ولماذا لم تدرسوا الفرنسية دراسة جدية ؟ » .

وصاحت مسز هوايتهد قائلة : « ماذا تقول ؟ هل تريدنا أن نأخذ الرجل الفرنسي الذى يشبه الضفدع مأخذا جديا فى تلك الأيام ؟ واذكر أنى نشأت فى فرنسا ولم أتكلم سوى الفرنسية حتى ذهبت الى إنجلترا وأنا فتاة فى السابعة عشرة من عمرى . حينئذ تكلمت الإنجليزية ، إلا أن أحدا لم يستطع فهم ما أقول » .

وتطوع مستر هوايتهد برواية شيء من ذكرياته . قال : « لقد قضيت المساء الأول الذى أمضيناه معا فى إطلاعها على بعض الصور لأنى لم أستطع فهم ما كانت تقول » .

قالت : « نعم ، بيد أنى سرعان ماأدركت أنى لاأستطيع أن أستمر كما كنت . ومهما يكن ما بذلت من جهد فى تعلم الإنجليزية ، فقد بذلت جهدا أكبر فى التخلى عن لهجتى الفرنسية . وقد التقى مرة أحد أصدقائنا من كمبردج — وهو رجل ظريف ، اسمه تيودور بك ، سافر إلى مكان ما بالشرق — التقى برجل من ترنتى كان يعرفنى ، وقال . « هل سمعت أن هوايتهد قد تزوج ؟ كلا . من تكون ؟ وما شكلها ؟ فقال صديقنا بك : « لقد أخطأ هوايتهد خطأ جسيما . إذ اقترن بمن ليست على شاكلته » .

« إن ما حيرنى فيكما أمدا طويلا ، قبل أن عرفتكما ، هو أنه بالرغم من أنكما قد عشتما إلى حد كبير على الصفوة فى مجال التبادل العقلى ، فى كمبردج وفى لندن فيما بعد ، الا أنكما لم تترفعا قط . وبالرغم من أنه لم يطرأ لى أبدا فى تلك الأيام أنى أستطيع أن أحضر الاجتماع الذى كنتما تعقدانه مساء كل أحد . إلا أنه قد قيل لى إن كل امرىء هنا يستطيع الحضور إن شاء ، وإنكما كنتما تستقبلان الزائرين زرافات » .

قالت نخورة : « ستين فى المساء الواحد . ولكنهم كانوا يدخلون المطبخ ويعاوننى » .

« عرفت بعض أسر الأساتذة الذين جاءوا إلى هذا المكان من الجامعات الأخرى ، ممن لقوا مشقة كبرى مدة طويلة قبل أن يألفوا العيش فى كمبروج . فلما أتيتما تحولت الحال — فيما يبدو — إلى اجتماع حى . »

قالت « خبرنى . هل بدا علينا فى أول الأمر أننا من [الأجانب] إلى درجة قصوى ؟ »

« أجل فى أول الأمر . وأستطيع أن أذكر متى بدأ التحول . كان ذلك بين عامى ٣٤ و ٣٥ »

« وفيم كان الفارق ؟ »

« لقد أحببتكما »

وقالت إن فى هذا التفسير الكفاية .

وسأل هوايتهد : « منذ كم سنة تعارفنا ؟ »

« منذ أحد عشر عاما »

« إن الصداقة تبدد الزمن . إنى أشعر كأننى عرفتك منذ أربعين عاماً »

« هناك روائى إنجليزى تعودت أن أقرأه وأن أعود إلى قراءته . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن صفحاته كانت سبيلى الوحيد فى ذلك الحين للاتصال بالعالم الذى كنتما تتحركان فيه تحركا طبيعياً ، وهو عالم يفهم فيه الناس الآراء ويتناولونها فى يسر . وذلك هو چورج مرديث . »

قال : « حقاً لقد نعمنا بمجتمع ترنتى وكنجز ، وهما الكليتان اللتان عرفنا فيهما الناس معرفة طبيعية جداً . ولست أقصد (بالمجتمع) بطبيعة الحال معنى الترفع السخيف ،وإنما أقصد الاختلاط بأصحاب العقول المتجانسة . ولكننا لم نتخير فى كمبرج هنا أو هناك . » وذكر أسماء الكثيرين من زملائه ، والتقطت أذنى من بينهم اسم چب .

فصحت قائلا : « چب ؟ لقد نشر كتاباً طالعته عن سوفوكليز . وكان چب دائما فى متناولى فى نص إغريقى حينما كنت هنا فى الكلية ، وكثيراً ماتساءلت عن شكله . وهذه هى المرة الأولى التى أتابع فيها أثره » .

« كان زميلا لطيفاً وله زوجة فاتنة . لم تكن ضليعة فى العلم ، ولكنك لاتريدها أن تكون كذلك . وكان لزوجها مزاج حاد كانت تستطيع أن تخفف مسز چب من وطأته بفتنتها . »

وصححته مسز هوايتهد قائلة : بل قل ليدى چب ، ولا تظلم ذكراها . فقد كانت تحب هذا اللقب . »

واستطرد هوايتهد قائلا : « إن المكان الذى اصطدمت معه فيه كان فى انتخابات الزملاء لترنتى ، التى كان يحن اليها حنيناً شديداً . وكلما خرجنا من معركة من هذه المعارك الانتخابية كان سر رتشارد خصما لأحد زملائه لايبادله

بالكلام . وكنت أضطر إلى أن أقول لزوجتي [ادع – ياعزيزتي – چب وزوجته للعشاء . إن مسز رتشارد لا يكلمني في الوقت الحاضر] ومن الأعمال التي أذكرها جيداً والتي أمتعتني كثيراً ماقام به عندما ركب متن النهر على عجلته » .

وقالت : « كانت ليدى چب شديدة العطف عليّ حينما وصلت الى كمبردج وأنا حديثة عهد بالزواج وقالت لى : اتخذى لك ماشئت من إخوة ، ولكن لاتتخذى لك أبناء عم ، وكانت نصيحة طيبة استجبت لها » .

قلت : « بالنسبة إليّ كطالب كان ناشر كتاب سوفوكليز الذى أرجع إليه عملاقا » .

ووافقتنى مسز هوايتهد ، وقالت جادة : « ...... حتى فى مزاجه الحاد ! » .

« وأعطانى كذلك درساً من دروس (اللغة الإنجليزية) ، التى كنتما تتحدثان عنها منذ لحظة . لأنى – مثلكما – تعلمت عن الإنجليزية من اليونانية » .

وحذرنى هوايتهد قائلا : « لاحظ أن هذه الدراسات فى (الإنجليزية) فى الكليات الأمريكية ضرورية جداً . وإذا كانت الدراسات الكلاسيكية فى اليونانية القديمة واللاتينية لا تدرس ، فلابد من دراسة الإنجليزية ، على أحسن صورة ممكنة . وكل ما أرجوه ألا يجعلوا دراستها مملة . إن المعلمين – ما لم يكونوا موهوبين بالطبيعة فى مهنتهم – ليسوا خير من يحبب الشباب فى الأدب الممتاز » .

وسألت مسز هوايتهد بغتة : « هل تستطيع أن تخبرنى لماذا يفضل الرجال النساء كثيراً كمعلمين ؟ أقصد على وجه الإجمال . حينما تكون المرأة المعلمة ممتازة (وقد كنت كذلك من ناحية ، ولم أكن من ناحية أخرى) تجدها رائعة ، غير أن ذلك استثناء . أما فى الرجال فهناك ما يجعل المهنة لهم عملا طبيعياً (إن صح أن نقول ذلك) وهم يحبون القيام بها » .

« دعنا نحصر ملاحظاتنا فى أشخاص غير موجودين » (ولمحت بنظرى المعلم الجالس إلى يمينى) . « يبدو أن هذا الميل يتخذ فى الرجال صورة الرغبة فى إذاعة العلم والمعرفة . كان هذا الميل عند رتشارد ڤاجنر ، وكان يعلم أن هذا الميل فى نفسه ، وقال فى خطاب إلى ماتيلد وزندنك إن هذا الميل قد اتخذ فى نفسه صورة الرغبة فى إذاعة المعرفة بين الناس . وإن المرء ليلمس هذا الاتجاه عينه لدى أقل النـاس شأناً ، ويمكن أن يكون قوى الأثر . وهو مركب من محبة صادقة للجنس البشرى ومن الرغبة فى تقديم العون له . . . . »

وسألت مسز هوايتهد :« وهل ذلك بالإضافة إلى متعة التحدث إلى الجمهور؟»

« أقترح أن نحتكم إلى أحد أعضاء هذه المهنة ، الموجود بيننا الآن . ما رأيك فيهم ؟ »

قال وقد نظر إلينا متلطفاً بنا : « لولا أنى واحد منهم لقلت إنهم قوم يدعون إلى الإعجاب » .

وتشبثت زوجته برأيها وقالت : « إن الرغبة فى السيطرة عامل من العوامل فى هذا » .

قال: « لابد من التمييز بين الرغبة فى السيطرة وحب العمل المجدى . إن الدنيا مليئة دائماً — وهى الآن أشد امتلاء من أى عهد سبق — بالأفراد الذين يريدون أن يسيطروا حباً فى السيطرة فحسب (وهنا هز قبضته القوية فى الهواء وكشر عن أسنانه) . ولكن رجال الخير ، من أمثال الطبقات المهنية وأصحاب الخيال الخلاق ، إنما يريدون النشاط المجدى . أنت — مثلا — حينما تحرر مقالاتك ، لا تدفعك رغبة السيطرة . . . . »

«حتى إن دفعتنى رغبة السيطرة ، فإن نوهم السلطان لا يمكن الإبقاء عليه » وقال هوايتهد : « أعترف أن الخط الفاصل بين الاثنين رقيق جداً ، إنما المهم

هو الفصل بينهما . ففى أحد الجانبين مجرد حب السيطرة ، وفى الجانب الآخر متعة التأثير بلون من ألوان النشاط النافع . . . خذ مثلا أوبرات ڤاجنر التى تحبها ، لا أظن أنها تؤذيك بتاتاً . إنها بالنسبة إليك عالم من الخيال الشعرى . ولكنى على يقين من أنها لعدد كبير من الألمان فى الوقت الحاضر تعنى (أننا سلبنا كم مرة ، وسنسلبكم مرة أخرى !) » .

وبدا فى نظرة هوايتهد وفى نغمته وهو يذكر هذه العبارة الأخيرة أنه يقتبس من أقوال غيره .

وسألته : « هل حدث فى التاريخ أن نبذ أفراد مسئولون فرضاً قواعد الأخلاق نبذاً تاماً ، كما يحدث فى ألمانيا الحديثة ؟ » .

قال : « لقد كان هناك دائماً أفراد فى جميع الأمم تأججت فى صدورهم إرادة السيطرة دون أن يحد منهم وازع من ضمير . وقد سادوا فترات تطول أحياناً وتقصر أحيانا أخرى ، أما ما استجد فى هذا الموقف فى ألمانيا فهو اتساع مداه ، وطول أمده . فقد دام أطول من أى عهد سبق وبعنف أشد ، وكانت له آثار أبعد مدى وأقوى هدماً » .

وقالت مسز هوايتهد : « لقد ذكرت مرديث منذ لحظة . كيف استطاع أن يضع طبيعتين لا توافق ألبتة بينهما فى امرأة واحدة كما وضع فى ديانا ؟ إن الطبيعتين لا يمكن أن يعيشا معاً فى إهاب واحد ؛ ولو فعلا لتمزق منهما الإهاب ! » .

وأدى بنا هذا إلى الموازنة بين الروائيين الإنجليز والروس .

وقال هوايتهد : « الظاهر أن الروس قد تميزوا إلى أقصى حد فى الرواية على نطاق واسع — فهناك تولستوى ودستوفسكى وترجنيف . إن الرواية تهتم إلى حد كبير بالعادات الاجتماعية السائدة فى وقت معين ومكان معين ؛ إلا إن

تناولتها أمثال هذه الأيدى التى تتعرض لجميع آفاق المجتمع — الأسرة ، والنظم السياسية والعسكرية والاقتصادية ، والصراع بين الشخصيات والآراء . واهتمام الرواية بزمان معين ومكان معين يضعها فى المحل الثانى كصورة من صور الفن ، فلا ترتفع إلى مستوى تلك الموضوعات العالمية العظيمة التى تعرضت لها المآسى الإغريقية الكبرى . ولكن ، ألم تلاحظ أن هناك عدداً كبيراً من الأعمال الفنية الثانوية تعيش وتكتب لها حياة طويلة — قد لا تستحقها كما تستحقها الأعمال التى تفضلها — وذلك لأنها تشتمل على موضوع من الموضوعات التى تشيع بين الناس فى كل حين ؟ وفى الحق إن الموضوع الواسع الانتشار يرجح أن يكون موضوعاً جيداً . غير أن العمل الفنى — لكى يعيش — لا بد أن يكون مستساغاً عند عدد كبير من الناس » .

قلت : « كم يود عالمنا أن يعلم إذا كانت المآسى اليونانية الثلاث والثلاثون التى بين أيدينا هى خير المآسى التى بلغ عددها ثلثمائة وتسع عشرة ، والتى عرف عن شعراء المأساة الثلاثة الكبار أنهم كتبوها . إن جلبرت مرى يزعم أن المآسى التى عاشت ربما كانت أفضلها جميعاً ، أما إذا تحدثنا عن الرواية كدراسة اجتماعية ، فإن الكتاب الخيالى الذى أحب أن أقرأه إن أردت صورة عن الطبقة الوسطى فى إنجلترا فى منتصف القرن التاسع عشر ، هذا الكتاب من وضع امرأة ، وعنوانه (مدلمارش) » .

قال : « سأحدثك عن روائى آخر ، يقترب مثلها — إن لم يكن أكثر منها — من الحقيقة ، وذلك هو أنتونى ترولوب » .

وقالت زوجته : وقد أشارت إليه بحركة فى وجهها تدعو إلى الضحك ، وفى أحلى أنغام صوتها : « لست أنكر أن الصورة لا تمثل غيرك يا عزيزى وغير أسرتك الكهنونية » . وقد أضافت هذه العبارة الأخيرة فى خبث شديد .

وسألت : « وما رأيكم فى الحوار ؟ كم منه مطبوعاً أو ملق على المسرح مما يمثل تمثيلا صادقاً الطريقة التى يتحدث الناس بها فعلا ؟ » .

وصاحت مسز هوايتهد قائلة : « ها نحن أولاء قد عدنا إلى موضوع الفجوة بين لغة الكتابة ولغة الكلام » .

« الأمر شبيه بالموسيقى ـ التى يتكرر فيها النغم ... إن الحوار كما يجرى على ألسنة الناس فعلا قلما يكتب ويكون له أثر إلا إذا تناولته يد الكاتب بالتحوير ـ ولو قليلا . لا بد أن يكون جرسه بالطريقة التى يتحدث بها الناس ، ولكنك إن حاولت أن تدوّن حديث الناس حرفياً فإنك قد تجد أنه لا ينم عن الحياة كما ينبغى » .

وتدخل هوايتهد لينقذنا : « الفن هو صياغة خبرة من الخبرات فى قالب معين ، واستمتاعنا الجمالى حين نتعرف إلى هذا القالب . ومن الخطأ أن نظن أن للكلمات كياناً ذاتياً . إنها تعتمد فى قوتها — كما تعتمد فى معناها — على ملابساتها العاطفية وعلى نغمها حين النطق بها . وهى تستمد كثيراً من تأثيرها من أثر المقال كله الذى وردت فيه . إنك إذا استخرجت الكلمات من محيطها أصبحت زائفة . وكم عانيت من الكتاب الذين اقتبسوا منى عبارة من العبارات ، إما بعيداً عن محيطها أو إلى جوار مادة غير ملائمة ، مما حرف معناى كل التحريف ، أو هدمه هدماً شاملا » .

« وهل هذا أمر يحتمل أن يقع فيه أساتذة الفلسفة ؟ »

قال : « إنى لا أقدر الفلاسفة — كطبقة — قدراً كبيراً . إن المقول الفلسفية الممتازة القليلة بحاجة إلى أن تُفهم من حيث علاقتها بالعصور التى عاشت وفكرت فيها . وهذا بعينه هو ما لا يحدث إطلاقا . إن الفيلسوف صاحب الباع الطويل لا يفكر فى فراغ مطلق وحتى أشد أفكاره تجريداً يتكيف إلى حد ما بما هو معروف أو غير معروف فى الوقت الذى يعيش فيه . ما هى العادات الاجتماعية المحيطة به ،

وما هى الاستجابات العاطفية ، وماذا يعده الناس هاماً ؟ وما هى الآراء الأساسية فى الدين والسياسة ؟ إن ديكارت — مثلا — كان رجلا بسيطاً نسبيا . وأعتقد أنه نسى القرن السابع عشر » .

« وكذلك نسيه أولئك الذين حاضروا عن ديكارت هنا حينما كنت طالبا . وهكذا كانت حالهم حينما بلغوا سپينوزا وليبنتز » .

وقال هوايتهد : « إن أرسطو يوضح ما أرمى إليه توضيحاً حسنا . لقد أسس العلم الحديث . وتقسيمه للظواهر الملاحظة ، الذى حسبه حقائق كاملة ، تبين أنه لا يزيد عن أنصاف حقائق ، بل أقل من ذلك . إن أقسام أرسطو — الأنواع والأجناس — صادقة بمعنى أننا نعرف أن الكلب يختلف عن القرد الأفريقى ، وان كليهما يختلف عن الإنسان . ولكنك أنت وأنا والكلب والقرد كلنا ننحدر من جزيئات دقيقة من المادة الحية التى نشأت فى مكان ما عند حافة البحر والأرض منذ ملايين وبلايين السنين . ومع ذلك فإن أردنا علما، فإن ما فعل أرسطو كان عين الصواب . لابد لك فى العلم من النظام ، ومن أجل هذا لابد من عزل أنواع معينة من هذا النظام وإخضاعها للملاحظة . غير أن الموضوع فى العلم — كما هو فى الفلسفة — لا يمكن فهمه دون دراسته من حيث علاقته بالحياة المحيطة به . وكان من الممكن أن يأتى العصر الصناعى فى عهد أرشيميدس . فإن كل ماهو ضرورى كان معروفا ، ولم ينقص العهد سوى الشاى والقهوة . وقد أثرت هذه الحقيقة فى عادات الناس حتى إن العصر الصناعى كان لا بد أن يتخلف قرونا حتى يلاحظ الناس فى اسكتلندا غلاياتهم والماء يغلى فيها ، وهكذا اخترعوا الآلة البخارية » .

واستطرد قائلا : « هناك فيلسوف واحد يعدنا بتفسيره الخاص لمحيطه الاجتماعى ، وهو صاحب أعظم عقل أنتجه إنسان الغرب ، وذلك هو أفلاطون .

إنه يكتب فى صيغة الحوار ، حيث يتناول الحديث أشخاص كثيرون ، فترى وجهات نظرهم المختلفة ، وتتكون لديك فكرة عن أى أنواع الأشخاص هم ، وبأى العادات الاجتماعية المحيطة والنظم السياسية تأثر تفكيرهم – المدينة الحكومية وصناعاتها ، ونظامها الاقتصادى ، وحياتها العائلية ، وعاداتها التقليدية . وقد قلت منذ لحظة لا يمكن أن نعامل الألفاظ – ونحن مطمئنون – كأنها معان مستقلة بذاتها أو أفكار منتزعة من محيطها . إنها تكتسب معناها الحقيقى من قوة المقال الذى وردت فيه . كما أن جمال النجم لا ينحصر فى لونه وبريقه فحسب ، ولكنه يكتسب كذلك من جلال الكون المحيط » .

وكان ذلك يحتاج إلى بعض الوقت للإغراق فيه ، وحيث إنا كنا مشتركين فى حديث ، ولم نكن نقرأ كتاباً نستطيع أن نلقيه جانبا أو أن نعيد قراءته لكى نحصر الفكر فى إحدى فقراته ، فقد قلت لكى أتيح لنفسى راحة عشرين دقيقة :

« لقد قضيت الليالى فى العام الماضى فى الرباعيات الأخيرة لبيتهوفن ومعزوفاته على البيانو ، وهى من أشد القطع الموسيقية إبهاما . ولست أزعم أنى أفهمها إلا من بعض نواحيها ، ولكنها أيضا كجمال النجم ، تكتسب من جلال الكون الفكرى المحيط . إنها تغرق المرء ساعات متصلة فى عالم من القيم المجردة ، كالرياضيات العليا ، وإنى أعتقد فعلا إنها زادت من قدرتى على فهم بعض الرياضيات العليا للفكر المجرد الذى أستمع إليه منك . إن الموسيقى بطبيعة الحال ممعنة فى رياضياتها وهى كذلك مجردة . ومن خصائصها العجيبة أيضا أن لها فى الوقت عينه محتوى عاطفيا وعقليا . ولست أدعى أنى أعرف الموسيقى ، ولكنى أعتقد أن الموسيقى هى رياضة الجمال . »

قال : « إنى أقبل هذا التعريف ، لأنى أعتقد أنا نستوعب عن طريق حاسة السمع عندنا بمقدار ما نستوعب عن طريق حاسة النظر ، وربما أكثر . وأرجو ألا تظن

أننى أقصد أن أوازن بين اعتمادنا على الحاستين ، لأننا أكثر اعتماداً على النظر ما دامت لدينا القدرة على الانتقال . غير أنى أعتقد أننا أشد استجابة للصوت الرزين ، للموسيقى ، أو لجَرسَ عظيم . إنه ينبه العاطفة فى اللحظة عينها التى يطرق فيها السمع ، ولا نفكر فيه إلا فيما بعد . إن موسيقى الأرغن توجهنا توجيهاً دينياً أيسر مما تفعل الأشياء المرئية بدرجة كبرى . إن سلامكم الوطنى ، الذى كثيراً ما أستمع إليه مذاعاً بالراديو ، لا يوحى — لحسن الحظ — بأن ترده الجماهير جماعة ، ولكنه يؤدى الغرض منه بدرجة تدعو إلى الإعجاب ، وإنى حينما أصغى إليه أكون أشد تأثراً منى وأنا أشهد العَلَم . ولا أقول شيئاً (وابتسم وهو يقول هذا) عن المزايا النسبية لعلمكم الوطنى كعلم . إنما الرأى الذى أرمى إليه هو أن الفكرة ـ بحاسة النظر ـ تبعث العاطفة ، فى حين أن العاطفة ـ بالصوت ـ تبعث الفكرة ، وهو اتجاه أكثر مباشرة ، ومن ثم أشد قوة » .

فعلقت بقولى : « حضرت مع مستر تَجدْ ؛ مدير أركسترا بوسطن السمفونى ، تمثيل مسرحية ابسن (چون جبرائيل بوركمان) . وفى الفصل الثانى ، يعزف أحدهم (دانس ما كابر) لستت سانين خلف المناظر . إن المسرحية قوية ، ولكن حينما سكتت الموسيقى تبادلنا النظر وابتسمنا . إن الموسيقى ـ وإن تكن قد خفيت حتى لا تطمس الحوار ـ قد طغت على المنظر . لقد فعلت ما قلتَ تماما ، تحدثت إلى العواطف مباشرة » .

وأجاب بقوله : « إن تسعين فى المائة من حياتنا تسيرها العاطفة . إن أذهاننا تسجل فقط وتنفذ ما ترسله إليها خبراتنا البدنية . إن العقل بالنسبة للعاطفة كالملابس بالنسبة لأجسادنا . وما كنا لنستطيع أن نمدّن الحياة جيدا بغير ملبس ، أما لو كانت لدينا ملابس بغير أجساد فنحن إذن بغير قيمة » .

ودقت ساعة مموريال هول التاسعة ، وجاءت مسز هوايتهد بمائدة الشكلاتة

الساخنة . وفيما تبقى لدينا من وقت تحدثنا عن فترة من فترات التاريخ كانت ـ فيما يبدو ـ سعيدة الحظ . وهى فترة عاشت فيها ثلاثتنا مددا متفاوتة .

قال : « إن من أسعد الأوقات التى عرفتُ فى تاريخ الإنسان ، فترة الأعوام الثلاثين التى تقع على وجه التقريب بين عام ١٨٨٠ وعام ١٩١٠ ، ولست أقصد إلى القول أنه لم تكن هناك أشياء عديدة كانت بحاجة إلى التغيير . ولكنا نوينا أن نغيرها وشرعنا فى ذلك ، كانت الظروف مثالية لأمثالنا ، الذين نستمتع بقدر معقول من الراحة ـ لم يكن لدينا مال كثير ، وأمامنا عمل ضخم لا بد من أدائه ، وإحساس بالهدف والتقدم فى العالم » .

وقالت مسز هوايتهد : « وكنا نعمل أيضا لأغراض كثيرا ما كانت تتعارض وصالح الطبقة التى ننتمى إليها » .

قال : « كانت زوجتى ، فيما بين سن العشرين والخامسة والعشرين ، تعانى وقتا عصيبا ، كان عليها أن تكسب قوت يومها فى لندن » .

« كنت شابة ، لا يحمينى أحد ، وعلى أن أتوجه إلى عملى وأعود منه وحدى . وقد عرّضتنى ملابسى للمضايقة ، لأنها لم تكن مما يلائم فتاة عاملة ، ولكن كان لا بد لى من ارتدائها ، لأنها كانت كل ما أملك » .

وعاد إلى الكلام فقال : « أما عن نفسى ، فإنى أستطيع أن أقول إن ظروفى كانت على خير ما يرام طوال حياتى ؛ وفى تلك السنوات التى تقع بين عام ١٨٨٠ و ١٩١٠ كثيرا ما كنا نتحدث عن ذلك العالم العجيب الذى لا بد أن يعيش فيه أبناؤنا » .

(٣٠)

١٩ من يونية ١٩٤٣

تغيب هوايتهد عن الغداء السابق بنادى السبت فى شهر مايو . وأرسل يقول

بأن القرار الذى يحرم استخدام الناز فى الذهاب إلى الحفلات الاجتماعية كان ينطبق — فيما يتعلق به — على عربات الأجرة . ولما كان لا يفكر فى ركوب قطار كمبردج الذى يسير تحت الأرض ، فقد تحتم عليه عدم الحضور . وأسف الجميع لغيابه ، وقلت :

« لابد أن نفكر فى الإتيان به إلى هنا بأية وسيلة : إن شركة تشكر لعربات الأجرة لديها عربات تجرها الخيل فى الطرقات » .

وقال الرئيس : « لقد ألفنا منك ومن ألفرد كدر لجنة لترى ما يمكن أن يعمل » .

وقادتنى هذه المهمة إلى الطرف الجنوبى من المدينة ، إلى إسطبل شركة تشكر لعربات الأجرة . وهنا كان القرن التاسع عشر لا يزال فى حيوية شديدة . فهناك خدم للخيول ، وسائسون ، ولا يقل عن ثلاثين حصانا قويا ، وعربات أصبحت الآن مما يصح أن يودع المتاحف ، وعربات من التى لا تتسع إلا لاثنين ، وحناطير وعربات ركوب ، ومركبات مقفلة ، وعربات تتسع لأربعة أشخاص ، وعربات خفيفة ذات عجلتين ، وعربات تجرها الكلاب ، وعربات يجرها حصان واحد ؛ وصيحات السائسين ، بل إن رائحة الإسطبل نفسها كانت قمينة بالمتحف . إنها تذكر بالأيام السعيدة الخالية ! واخترنا عربة يجرها حصان واحد ، أنيقة ، منجدة بالجلد الفاخر ، نوافذها من الزجاج البلورى ، بها بوق للنداء ، ومصابيح على الجانبين ، عمرها أربعون عاما ، وكانت ملكا لأسرة ثرية نسيت اسمها ، وكانت تسير فى الطريق المؤدى إلى واشنطن كل شتاء .

* * *

(يبلغ نادى السبت عيده المئوى فى عام ١٩٥٥ . « كثيرا ما كان مسترامرسن يترك مكتبه فى كنكورد يوم السبت لكى يتوجه إلى مكتبة أثينم ، ويزور أصدقاءه ، أو يقابل ناشريه بشأن العمل . والأرجح أن يتوقف عند (مكتبة الركن) عند ملتقى شارع واشنطن بشارع المدرسة » وقبل إنشاء النادى بست سنوات كان امرسن يبحث مع أصدقائه مشروع إنشاء ناد حيث يستطيع العلماء المنعزلون والشعراء ، والطبيعيون ـ كأولئك الذين كانوا فى كنكورد ـ أن يجدوا صحبة ملائمة حينما يأتون إلى المدينة . وقد انتهى الأمر فى الواقع إلى إنشاء ناديين فى وقت واحد تقريبا : أحدهما نادى المجلة ؛ الذى تولدت عنه فى عام ١٨٥٧ مجلة أطلنطيق الشهرية . ثم نادى السبت الذى حل محله تدريجا أو ابتلعه ابتلاعا .

ومن بين أعضائه الأوائل أمرسن وهوثورن ولنجفلو ولول وهولمز وموتلى ودانا وهويتير وبرسكت وجاسز وباركان . وكان يقدم الغداء فيه — ولا يزال — فى السبت الأخير من كل شهر من سبتمبر إلى يونيه ، مع بذل المحاولة فى كل يونيه لحضور حفلات توزيع الدرجات العلمية بهارفارد . وفى تلك الأيام الباسلة من القرن التاسع عشر كان الأعضاء يجلسون من الساعة الثالثة حتى التاسعة ، فى بيت باركر ، فى حجرة أمامية فسيحة حيث تطل النوافذ الطويلة على تمثال دكتور فرانكلن البرنزى ـ وكان يصلح أن يكون عضوا له قيمته !ـ فى حقول ستى هول الخضراء . ويلتقى الأعضاء الآن فى نادى الاتحاد بشارع بارك ، على مرمى حجر تقريبا من ذلكما المعلمين الأولين ـ أثينم ومكتبة الركن القديم التى انتقلت الآن إلى شارع بربفلد ، وهذه الحقائق والمقتبسات مأخوذة من المدد الأول من مجلدين ضخمين عن تاريخه ، بعنوان : السنوات الأولى من نادى السبت ، تأليف أدوارد والدو أمرسن) .

* * *

كان موعد الغداء فى الساعة الواحدة والنصف . وطلبت من العربة أن تكون بفندق أمباسادور فى كمبردج فى الساعة الثانية عشرة والنصف . وكانت هناك فى الموعد المضروب تماما . ولكنها غير العربة التى اخترناها .

وتبين لنا السبب فى ذلك فيما بعد . كانت هذه العربة معيبة قليلا . المقبض مخلوع من الباب من جانب الدخول . وكانت منجدة بلون أرجو انى ملكى . وكانت تفوح بروائح مختلفة ، بما فيها رائحة الخيول ، ولكنى لم أتبين منها أثراً لرائحة أكاليل الموتى . وركبنا .

لم تكن سيارة ، القاعد مغطاة بالوسادات ، ولكنها برغم ذلك جامدة . والمساحة التى تتحرك فيها الركب ليست فسيحة ، وعجلات المطاط الجامدة التى تكسو الإطارات الخشبية لا تخفف كثيرا من هزات الكتل المرصوفة (وكان ذلك كله يعد من أسباب الترف) — ولكن النوافذ كانت مفتوحة . وكان اليوم من أيام يونية الصافية تهب فيه نسمات نقية ، وتتوهج فيه أشعة الشمس وأقصر الطرق إلى شارع پارك كان يمر بكمبردج خـــلال حى المصانع وفوق قنطرة لنجفلو .

وكان منظرنا يسترعى الانتباه . كان وليام هِل — سائق العربة — يلبس قبعة من الحرير سوداء عالية ، ليست جديدة كما كانت من قبل ؛ وسترة زرقاء ، ليست جديدة كذلك ، ذات أزرار نحاسية . وبدت الدهشة على وجوه المشاة . واعتقد أنهم ظنوا هذا المنظر فى أول الأمر حركة بهلوانية للإعلان ، وأخذوا يبحثون عن اللافتة . فلما لم يجدوها طرأت لهم فكرة أخرى ، وهى أننا ربما كنا طالبين فى حالة من حالات المرح ، وتطلعوا داخل العربة ليروا من فيها . فوجدوا أن راكبيها لا يتفقون وما تصوروا . وفغر الناس أفواههم ، وانفجر بعضهم بالضحك . ولما انحدرت العربة خلال حى المصانع ، صاح صغار الأطفال الذين يلعبون فى

الطرقات بعبارات السخرية ـ لا تزعج نفوسهم نوازع الضمير . ومن حين إلى آخر كنا نمر بسائق سيارة أجرة ، فنراه يطل برأسه ويلقى على سائقنا نكتة ، مثل « تقدم ولا تخش شيئا يا جدى ! » .

كل هذا لم يزد على أن يكون صورة لاشمورية لازمت الموضوع الذى طرح للمناقشة .

قال هوايتهد : « نحن فى دور الانحلال من تلك الفترة التاريخية التى أؤرخها على وجه التقريب من حوالى عام ١٢٥٠ بعد الميلاد ، والتى بدورها تعتبر بداية لنهاية العصور الوسطى . وأشك إن كان أحد فى القرن الثالث عشر يدرك ما كان قد بدأ بالفعل يحدث » .

وسألت : « هل من الممكن عادة للناس أن يدركوا حقيقة الانهيار الاجتماعى الكبير ، حتى يحل بهم ؟ »

وأجاب : « إن والدى يوضح ذلك .ولد فى عام ١٨٢٧وعاش حتى عام ١٨٩٨، فامتد عمره واحدا وسبعين عاماً . وقد شاهد الثورة الصناعية الأولى ـ وعدها أمرا طبيعيا ـ وهى الثورة التى بدأت فى أواخر القرن الثامن عشر . وكان من مظاهرها الآلة البخارية ، ونظام المصانع وما إلى ذلك . ولكنه لم يتخيل ولو فى صورة باهتة الثورة الثانية ، وهى أعظم من الأولى ، الثورة التى أحدثتها التكنولوجيا . كان قسيسا . وكان العالم الذى يعيش فيه يبدو آمنا ثابتاً . بالرغم من أنه كان فى نهايته تقريبا فى سنة وفاته . . . . ولما كانت إنجلترا أول ماتصنع فقد أثر ذلك فى تاريخنا بطريقة عجيبة عكسية : فبدلا من أن نتحرر ، فى عهد الثورة الفرنسية ، أصبحت حكومتنا محافظة ، وقاومنا آراء القرن الثامن عشر التقدمية ، بدلا من أن نرحب بها » .

وقلت : إن فى عصور التغير السريع ، يتوقف كثير ، وكثير جدا ، على نوع الشخصيات التى ترتفع إلى مراكز الحكم .

وقال هوايتهد : « من الأسف الشديد أن ارازمس لم يكن شخصية أقوى مما كان . كانت آراؤه صائبة ، كان من الممكن أن تعد العالم بحلول لتقدم العالم المسيحي أوفق من الحل الذي انتهى إليه الأمر . ولكنه كان يفتقر الى القوة . وآلى الأمر الى أيدي لوثر وكالفن ، اللذين وقعا في أخطاء جسيمة . كانت نظرة ارازمس هي نظرة الأفراد العاقلين المستنيرين ، ولو أن من قام بتطبيقها كان زعيما قادرا لما كانت هناك حاجة إلى أجنيشس ليولا أو (مجلس الدين). لقد ارتكب كالفن ولوثر خطأ فاحشا بنبذهما كل جاذبية للكنيسة من الناحية الجمالية وهي أحد عناصرها الطيبة . وأنت تعلم مقدار جفاف الصلوات البروتستانتية : قليل فيها ما يغذي العاطفة ، وهي لا تلجأ إلى الجمال إلا قليلا . أولا تلجأ ألبتة إليه » .

« وقد يشوقك أن تعرف أن صديقنا لفنجستون ، بعد ما أتم قراءة سيرة لوثر التي كتبت منذ عهد قريب ، كتب إلي يقول إن لوثر بدا له وكأنه (هتلر آخر غير عف اللسان) »

قال هوايتهد : « إن لفنجستون رجل أقدر رأيه في مثل هذه الأمور أكثر من أي شخص آخر. إن من كان مطلوبا في عصر الانتقال ذاك رجل يعمم الآراء القديمة ويوجهها توجيها حرا أو يفسرها تفسيرا رمزيا يمكن أن يجعلها مقبولة للناس الذين يتطلعون إلى المستقبل. ذلك ما فعله شعراء المأساة العظام ايسكلس وسوفوكليز ويوربيديز ، ثم ما فعله فيما بعد الفلاسفة ، وبخاصة أفلاطون ـ ذلك ما فعله هؤلاء بديانة أولمب الاغريقة القديمة في القرن الخامس ق . م . استطاعوا أن يتناولوا الآلهة القدامى، زيوس وابولو وپالاس أثينا وغيرهم ، وأن يخففوا من بربرية العقائد القديمة وينقدوها ويحولوا الأساطير البدائية إلى رمزية ، ويبنوا قنطرة بين ما كان الناس يعتقدون فيه سابقا ولم يستطيعوا بعد الايمان به ، وبين الآراء التي يمكن ان يقبلها القوم المتمدنون ـ استطاعوا أن يبنوا هذه القنطرة بسوقهم الناس معهم في مجتمعات شعبية ضخمة تشهد أداء مسرحياتهم أمام الجمهور » .

وعلقت على ذلك بقولى : « يقال إن الأسطورة هى الصيغة التى ينقل الناس بها الحقائق التى يحسونها إحساسا عميقا ، قبل أن تبلغ مرحلة الآراءالعامة . وكانت لكتاب المسرحية الأثينيين هؤلاء — باستخدامهم موضوعات أسطورية لمسرحياتهم — ميزة كبرى ، لأنهم يناشدون فى وقت واحد العقل والعاطفة ، يناشدون المواطنين العاديين كما يناشدون المتعلمين. مما أدى إلى أن تتمكن المجموعتان من زيادة الانسجام فى الشعور والعمل » .

وقال هوايتهد : « إن أية طريقة من طرق التفكير تقوم على أرضنا هذه محدودة جدا فى تصوراتها — سواء أكان ذلك فى الدين أم فى الفلسفة — وقد كانت أكثر الطرق كذلك فعلا . إننا نعلم الآن أن أرضنا كوكب تافه يدور حول شمس ثانوية فى جزء من الكون ليس كبير الأهمية . وأثر هذه المعرفة عند خيار الناس وهم يتبادلون الحديث كما أتبادله معك — على فرض أننا من خيار الناس (وقال ذلك وهو يبتسم) — ينبغى أن يكون أعظم من ذلك بدرجة لا تحد . ولست أرى سببا يدعو إلى الظن بأن الهواء المحيط بنا والسماوات التى تعلونا قد لا تكون مسكونة بأصحاب عقول ، أو بذاتيات ، أو صور من الحياة ، لا نفهمها كما لا تفهمنا الحشرات .

إن الفارق — حجما — بين الحشرات وبيننا لا يقاس إلى الفارق بيننا وبين الأجسام السماوية — ومن يدرى ؟ — ربما كانت السدم ذاتيات حساسة ، وما نستطيع رؤيته منها هو أجسامها . وليس ذلك أبعد عن المعقول من أنه ربما كانت هناك حشرات لها عقول حادة ، وإن تكن نظرتها أضيق أفقا من نظرتنا (وهنا ابتسم مرة أخرى) . أقصد أننا جزء من سلسلة لا متناهية . وما دامت السلسلة لا متناهية فيجدر بنا أن نضع هذه الحقيقة فى اعتبارنا ، وأن نقر فى أذهاننا هذه الإمكانيات التى لا تنتهى » .

« كانت لديك فى شبابك ميزة الاستماع إلى ما كان يدور الحديث فيه فى حجرة الجلوس العامة فى ترنتى ، والمساهمة فيه — »

قال هوايتهد : « وأضف إلى ذلك كنجز »

« كنجز وترنتي إذن. وقد دام ذلك خلال العقدين الثالث والرابع من عمرك. وكان أولئك الناس من غير شك من الطراز الأول ، وكان من بينهم كثير من رجال العلم كما كان من بينهم كثير من أساتذة العلوم الانسانية. وقد حدث ذلك كله ما بين عام ١٨٨٠ و ١٩٠٠ ، فى الفترة السابقة مباشرة لتلك التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية الكبرى التى انقضت علينا. ويبدو لى أنه لو كان بالإمكان التنبؤ، لاستطاع هؤلاء أن يتوقعوا حدوث أمر ما . فماذا كان مقدار توقعهم فيما تظن؟ »

« كان كبيراً بالتأكيد فى الناحية العلمية . ذهبت إلى كمبردج فى عام ١٨٨٠، وكنت رياضياً ممتازاً بالنسبة إلى فتى فى التاسعة عشرة من عمره . وكان معلمى تلميذا لكلارك ما كسويل ، الذى مات قبل ذلك بنحو عام ، وهو أيضا كان مبرزاً . وكانت آراء نيوتن لاتزال فى تمام قوتها . وقد عمل كلارك ما كسويل على التوفيق بينها وبين المستكشفات الحديثة آنذاك فى الكهرباء . أما فى الطبيعة الرياضية فيبدو أن الجهد فيها كاد ينتهى . واتجهت المحاولة نحو شرح بعض ماتبقى من مفارقات بين ما كان مفهوما ومالم يكن وذلك بطريق التفسير الرياضى . وفى محاولة ذلك انقلب كل شىء رأسا على عقب . وكان الناس فى ترنتى بين عام ١٨٨٥ وعام ١٨٩٥ تقريبا — وبعضهم من المباقرة — يعرفون على وجه العموم ماسوف يأتى فى سبيل التقدم العلمى . أما ما لم يستطيعوا بطبيعة الحال أن يتنبأوا به فهو ماسوف يترتب على الحيل الفنية الجديدة من الناحية الاجتماعية . ليست هناك فكرة واحدة فى طبيعيات نيوتن — مما كان يعلم لحقيقة كلية — لم يحل محلها غيرها . إن آراء نيوتن لاتزال نافعة ، كما كانت فى أى وقت سبق . ولكنها لم تعد صادقة بمعنى الصدق الذى تعلمتُ أنها تمثله . وقد أثرت هذه التجربة فى تفكيرى أثراً عميقا . لقد ظن الناس أنهم على يقين ، بل وعلى يقين من أصلب شىء فى الكون على مايبدو ، ثم رأوا أن هذا اليقين قد تحول على أيديهم إلى لانهايات لايتصورها العقل، فأثر ذلك بالنسبة إلىّ فى كل شىء آخر فى الكون » .

وقد عبرت العربة قنطرة لنجفلو وأخذت تتجه نحو شارع كمبردج بدلا من شارع شارلز .

فأطل هوايتهد وسأل : « فى أى طريق تعتقدون أنه يسير ؟ »

قلت . « هذه هى الطرقات شديدة الانحدار التى تقع خلف بيكن هل . إنه لا يستطيع أن يصعد فى أى واحد منها . أعتقد أنه بحث مع رئيسه الطريق الذى يسلكه ، واختار أيسر الطرق للحصان » .

فقال هوايتهد . « إن الحصان يترنح كثيراً من جانب إلى آخر . والظاهر أنه لم يعتد جر العربات . وأعتقد أنه يصلح أن يكون مسرّحا . إن فكرته فى تيسير الأمور على نفسه هى — فيما يظهر — أن يحاول السير فى كل شارع جانبى » .

(وكانت تلك ملاحظة تنم عن ذكاء . ففى نهاية الرحلة اعترف لى وليام هل أنه لم يمتلك هذا الحصان إلا منذ يوم الإثنين السابق) .

وانطلق خلال ميدان سكولاى ، وعلى امتداد شارع ترمنت إلى جوار مخزن الحبوب ، ومدافن كنيسة كنجز إلى زاوية شارع بارك ، متجنبا بذلك كل التلال حتى المائة الباردة الأخيرة من الطريق ، حيث أول انحدار بشارع بارك حتى مقر الحكومة . وهنا أيضا اجتذب الانتباه الشديد منظر عربة يجرها حصان تقف عند نادى الاتحاد ، ومما زاد فى اجتذاب الانتباه أن العربة كانت تسير فى الطريق الضيق الذى يقع بين النادى وعمارة تِيكْنر ، ثم توقفت فجأة بين الرصيفين . وقد اعترضت سيارة نهاية الطريق المسدود من الداخل . وطلب إلىّ سائق العربة أن ينزل الركاب ليحركوها .

وخيراً فعل . ودخلنا النادى فى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرين بعد الظهر . وسلمت رسالة السائق الى الكاتب فى مكتبه . ونظر إلى فى دهشة وذهول . وأمدت الرسالة .

قلت · « إن الأستاذ هوايتهد قد أتى ليحضر غداء نادى السبت فى إحدى العربات ويقول السائق إنه لا يستطيع أن يسير بالعربة فوق التل ، وهو يريد أن يسير فى طريقكم هذا ، ولكنه مسدود بإحدى السيارات ؟ ونظر إلى الكاتب وكأنه لم يفهم شيئا . قلت :

« أخرج معى لأريك » .

وخرج معى . ثم ضحك مقهقها ، ولكنه حرك السيارة ، وانطلق سائق العربة الى الداخل ، وقد لزم جانب الطريق ، ملتمسا الظل للحصان ، ومبتعداً عن حركة المرور .(نهاية النصف الأول — وقد تقدمنا)

وليام فلپس ، الذى شغل منصب وكيل وزارة من عام ١٩٣٣حتى عام ١٩٣٦ كما كان سفيرا فى إيطاليا من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٤١ ، أحد أعضاء النادى . وكان حاضرا . وقد عاد من وقت قريب جدا من مهمته فى الهند كممثل شخصى للرئيس بلقب سفير. وبعد الغداء تحدث عن هذا الشأن بناء على طلب الحاضرين لمدة نصف ساعة تقريبا ثم دعا إلى سؤاله . ولو استثنينا بعض ماذكره عن لنلثجو نائب الملك واوكنلك رئيس قوات الجيش وفيلد مارشال ويفل فقد حرص على ألا يزيد فى كلامه عما يمكن أن يذاع فى مؤتمر صحفى . ولكنه أظهر فى جلاء أن الولايات المتحدة تتصل بهذا الجزء من العالم اتصالا لا يسر ، وأن أعمال الحكومة البريطانية التعسفية تكذب فى آسيا مزاعمنا كمحررين .

وفى الحديث الذى تلا ذلك وجه اليه السؤال هوايتهد والأستاذ هارلوشابلى، عالم الفلك بهارڤارد ، وبلس پرى وچيروم هنسيكر ، مهندس الملاحة الجوية ، ورئيس القسم بالمعهد التكنولوچى بماساشوست ، وكامرون فوربس ، الذى كان حاكما عاما فى الفلبين وسفيرا فى اليابان ، والذى تحدث كرجل له خبرته الخاصة كسياسى عمل فى آسيا .

وكانت الحجرة باردة مريحة ، بالرغم من أن جو الظهيرة فى الخارج كان شديد الحرارة . وهى طويلة ، مرتفعة السقف ، لها مدفأة مزخرفة فى أحد طرفيها على طراز أوائل القرن التاسع عشر ، لأن البناء كان فى الأصل منزل أبوى لورنس لول بالمدينة ، وقد ذكر مرة أن هذه الحجرة كانت حجرة نوم لأمه . ويطل المكان على قمم الأشجار فى الحقول العامة التى أينعت وأورقت واشتدت خضرتها بفعل الربيع المطير . وتملو هذه الحقول سماء يونيه الزرقاء ، مبيضة من أثر ضوء الشمس القوى . ومليئة بالسحب الفضية التى تجرى سريعة تدفعها الرياح الجنوبية الغربية . وقبل أن ننصرف طلب إلى ادوار فوريس سكرتير النادى أن ألقى نظرة على دفتر الزيارات . ولم تكن أمامى سوى لحظة واحدة لأننا كنا قد طلبنا عودة العربة فى الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة ، وهى الآن الثالثة والنصف تقريبا . وفى هذه اللحظة التى توافرت لى رأيت توقيعات فرانسس پاركمان ووليم چيمس وتوقيع جده وجد أخيه كامرن ، ر. و. امرسن .

وخرج ادوارد پكمان وألفرد كِدَرْ لكى يلقيا على العربة نظرة . وتذكرا السنوات التى قضياها فى الكلية وقالا إن الرواية لا تتم فصولا إلا إذا تناولوا قليلا من الشراب ، وإن السائق — لكى يعيش وفقا للتقاليد — ينبغى أن يكون ثملا . ولكنه لم يكن ، غير أنهما ابتهجا لما عرفا أنه لم يكن من الممتنعين عن الشراب .

ولما كان الوقت مساء السبت ، والجو لطيفا ، فقد كان الناس وزوجته وابنهما الصغير فى المدينة يسيرون على الأقدام فوق الأرصفة ، وأكثرهم فى شارع ترمنت ، حيث كان علينا أداء رسالة منزلية عند س . س . پيرس : كان لا بد لنا من تسلم ثلاث علب ثقيلة مصنوعة من الكرتون ، طلبناها من قبل بالتليفون ، لأن قلة تموين الغاز لا يمكنهم من توصيل البقالة الى كمبردج . ولما اقتربت العربة من الرصيف الذى يقع أمام المحل التجارى ، شق على المشترين

— وأكثرهم من السيدات — أن يلزموا آداب السلوك • دهشن لأول نظرة ، ثم ابتهجن ، ثم تحيرن ، ثم حاولن أن يكتمن ضحكاتهن . واستطمن لأول وهلة بطبيعة الحال أن يدركن أننا اضطررنا الى ذلك بسبب قلة تموين الناز ، ولكنهن لم يكن على استعداد لأن يتقبلن التقاليد الملكية كلها التى سادت فى القرن التاسع عشر بغير تحوير •

وقال هوايتهد بعد ما وضعنا بضاعتنا فى العربة ، علبتين الى جوار ركبتى السائق ، وعلبة الى جواره على المقعد : « أظن أننا لو أطللنا برؤوسنا من النوافذ وانحنينا ، استقبلنا الناس بالهتاف » •

ولم يكن الأمر يختلف عن ذلك كثيرا • فقد لفت اللاحون — وهم فى زيهم البحرى — رؤوسهم صوبنا ، وابتسموا ساخرين • ووقف الفتيان — وهم فى زيهم العسكرى — صامتين فى طريقهم تبدو عليهم الدهشة ، كما وقف المشترون وأيديهم مليئة بالحزم، وتطلعوا إلينا فى ذهول ، محاولين أن يكيفوا موقفنا من غير شك • ولما كنا نكف عن السير عند علامات المرور ، كنا نستمع فى وضوح إلى ما يبديه بعض المارة من ملاحظات • وكنا نستطيع أن نتلقى كثيرا من نكات الجمهور السائرين فوق الرصيف لو أردنا ذلك •

وأذكر فوق هذا كله روعة هذا اليوم من أيام شهر يونية • ولا يرى المرء كثيرا من الخضرة — فيما خلا مخزن الحبوب وحقول مدافن كنيسة كنجز — وهو في طريق العودة كما كنا • وقد لزمنا نفس الطريق الذى أتينا به — خلال ميدان سكولاى إلى شارع كمبردج عبر قنطرة لنجفلو . ولكن العين تقع هنا وهناك على شجرة أو على رقعة خضراء ، مترعرعة ، كثيفة . وقمم الأشجار كلها تمايل وتهتز من فعل الرياح الجنوبية الغربية . والمدينة فى رداء يونيه ، تحت سماء يونية الزرقاء ، بدت جميلة على غير عادتها .

وكنا نثب فوق الكتل الحجرية التى تعترض شارع كمبردج . وكان هوايتهد

يتحدث عن اختلاف المميزات العامة بين النساء الإنجليزيات والنساء الأمريكيات.

قال : « إن التشابه السائد بين تربية البنات والبنين فى امريكا يجعل النساء الأمريكيات جامدات والنظرية هنا هى أن تربية البنات مع البنين ، ولعبهن معهم ، واشتراكهن فى ألعابهم ، ومرافقتهن لهم إلى المدرسة ، بل وإلى الكلية أيضا فى كثير من الأحيان ، ذلك كله يكسبهن قوة فى شخصياتهن . والواقع أن هذه التربية لا تنجح النجاح الذى يتوقعه الإنسان . وأعتقد أن أنجح النساء — كنساء — كن فى القرن الثامن عشر (وأنا أتحدث بطبيعة الحال عن نساء الطبقات الممتازة) فقد كان لهن مجال أفسح لقدراتهن الفطرية التى يتميزن بها . وزوجتى سيدة من هذا الطراز . فقد نشأت فى أسرة على طراز القرن الثامن عشر من الوجهة العملية من الأرستقراط . وخفف من حدة هذا الأثر الارستقراطى اضطرارها — كشابة لم يكمل استعدادها — إلى كسب قوتها ، وقد فعلت ! أما إن أردت أن تعرف كيف كانت المرأة فى القرن الثامن عشر فاقض مساء مع زوجتى » .

قلت : « لقد قضيت معها أمسيات كثيرة ، فتكونت لدى نفس هذه الفكرة » .

وواصل حديثه قائلا : « وأرجو ألا تفهم أنى أقول إن نساءكم الأمريكيات لسن على حيوية شديدة وذوات تأثير كبير . إنهن فى كثير من الأمور أشد تحررا من نسائنا الانجليزيات . ولكن من بين النساء العاملات ـ إذا حكمنا عليهن كطبقة ـ أولئك اللائى يقمن بعمل عام إلى جانب إدارة بيوتهن وأسراتهن بجدارة وحسن تدبير ـ أعتقد أن لنسائنا الانجليزيات مجالا أوسع ... » ولخص رأيه فى اقتضاب قائلا :

« لو أنى ولدت امرأة ، لأردت أن أولد فى أمريكا وأعيش هنا الثلاثين السنة الأولى من حياتى ، ثم فى انجلترا بعد ذلك . وأعتقد أن المرأة بهذه الطريقة تحصل على خير ما فى العالمين » .

« هل صداقة أسرتكم مع خدمكم ، التى لاحظت أنها عميقة خالصة ، أمر فردى أو أمر شائع »

قال : « بل إنه أمر شائع أكثر منه فرديا . وأستطيع أن أذكر لك السبب . إن العلاقة بين المخدوم والخادم بيننا أمر لا نفكر فيه - وإن بدا ذلك عجيبا — بطبيعة نظام الطبقات عندنا ، لما ترسب فيه من نظام الإقطاع . إن الصداقة بين أشخاص من طبقات مختلفة أقرب الى الإمكان ، لأنا لا نحط من شأن المرء الذى لا يرتفع فى طبقته ، حيث إنا ندرك أن الطبقة التى يولد فيها المرء مسألة تتعلق بحظه » :

وأمّنت على هذا القول ثم أضفت (كان المفروض فى هذه البلاد حتى عهد قريب أن المرء إذا لم ينجح فى هذه الدنيا فإنما يرجع ذلك إليه ولا يزال فى هذا شىء من الصدق حتى هذا الجيل الحاضر ، وبخاصة فى الغرب الأوسط حيث نشأت . وهذا أحد الفوارق الكبرى بين الجيل الماضى وهذا الجيل : كان عندنا أمان ، أو نحسب أنه كان عندنا . أما أبناء الجيل الحالى فلم يعرفوا الأمان قط ، ولا يبدو أمامهم لكى يتطلعوا إليه » .

وقال هوايتهد : « كان الخدم دائما أصدقائى ، اعتدت وأنا صبى فى السادسة من عمرى أن أقفز هنا وهناك متنقلا مع البستانى وهو يؤدى عمله . وقد علمنى أسماء الأزهار والنباتات . واعتدت كذلك فى صباى أن أقضى الشهور متواصلة فى بيت جدتى لأمى ، الذى يطل على جرين بارك فى لندن . وكانت وصيفتها چين وايكلو تقرأ لى دكنز بصوت مرتفع — وقد قرأت لى (صحائف بكويك) كما قرأت (داڤيد كبرڤيلد) . واكسبتهما عندى حياة قوية ، وكانت أسرة أمى أرفع مكانة بدرجة ما من أسرة أبى من الناحية الاجتماعية ، بيد أنه لم تكن لها ما لأسرة أبى من امتياز عقلى ، وكان أفرادها شديدى التنازع . فلما كان يدب بينهم خلاف - وكثيرا ما كان يحدث ذلك - كانوا فى أغلب الأحيان يرفعون

أمرهم إلى جين وايكلو ، وكانت تسوى الأمر . كانت جين السمنت (المادة اللاصقة) الذى يضم أفراد الأسرة بعضهم إلى بعض » .

قلت : « هل وقعت من نفسك شخصيات دكنز موقع الصور الهزلية لأشخاص أطوارهم غريبة ، وأنت تستمع إلى وصيفة جدتك تقرؤه عليك بصوت مرتفع هناك وسط لندن ؟ »

« كلا . إن شخصيات دكنز هى الطبقات الفقيرة فى لندن . وليست ألبتة صوراً هزلية . إن هذه الفكرة تنشأ بطبيعة الحال بين القراء الذين لا يعرفون أهل لندن . أما بالنسبة إلينا فإن متعة دكنز تنحصر فى أنه يصف أشخاصا حقيقيين ، عرفنا أشباههم . وأطوارهم الغريبة من أخص مميزاتهم . ولست أعرف مكانا يولّد هذه الأطوار مثل لندن » .

« كنا نتحدث منذ بضع ليال عن روائيين استطاعوا ذلك ، وغيرهم ممن لم يستطيعوه . ما رأيك فى ثاكرى ؟ »

« إنه يرى أكثر مما ينبغى فى طبقة ما ، ولا يرى ما يكفى فى طبقة أخرى . إن محاولاته طموحة ولكنها ليست ناجحة كل النجاح . وشخصيات ترولوپ أقرب إلى الحقيقة من شخصياته . إنى أعرفهم معرفة دقيقة ، لأنى عشت بين أمثال هؤلاء الناس بعينهم » .

« كنا نتحدث عن الخدم منذ لحظة . وكنت أريد أن أقول إن المرء فى الغرب الأوسط ــ فى صباى ــ إذا لم يصادق (الفتاة المستأجرة) كما كانت تسمى الخادمة ، وإذا لم تجالس هذه الأسرة على مائدة الطعام ، فكأنه لم يحصل على واحدة منهن ! »

واستطرد هوايتهد قائلا : « إن الإحساس بالمساواة بين الناس ينشأ عن الآراء السائدة عن تهيؤ الفرص . إن القدرات البشرية تتنوع تنوعا لا حصر له ، وبعض الناس يتميزون بالنجاح فى بيئة معينة ، وبعضهم لا يتميز قط . وصور

التآلف الممكنة للقدرات البشرية سلسلة لا حصر لحلقاتها ، وهى فى ذلك كالبيئات الممكنة التى تصلح لإظهار هذه القدرات ، وتلاؤم القدرة مع البيئة أمر يتوقف على الحظ إلى حد كبير . ومن الخطأ الفاحش أن نحسب ـ كما يحدث فى كثير من الأحيان ـ أن القدرة الحقيقية تنحصر فى صور الاستعداد التى يتفق عرضا أن تكون مطلوبة فى وقت معين ومكان معين ، وفى الصور التى تؤدى إلى التقدم الاقتصادى كذلك . إن المواهب التى تتجاوب مع مثل هذه الفرصة قليلة جديدة بالنسبة لمجموع القدرات البشرية » .

قلت : « لقد تحدثتَ أكثر من مرة عن عنصر الحظ ، حتى فى أكثر الحيوات تحديدا فى مصيرها . فما رأيك فى حياتك ؟ » .

كانت هناك فى كمبردج فى شبابى وظيفتان شاغرتان . وكان ذلك من حسن حظى . إحداها وظيفة الزميل ، والأخرى وظيفة المحاضر . ولولا الوظيفة الثانية ، لكان من الأرجح أن أشتغل بالتدريس فى مدرسة خاصة ، وألا أتقدم أكثر من ذلك ».

وذكرت : « أن بعض الناس يتركون فى نفسى انطباعا بأنهم يحملون بين جوانحهم مغناطيسا يخلق لهم الفرص . ويبدو كأنه الحظ ، ولا أعتقد أنه كذلك وربما كنتَ واحداً من هؤلاء »

وقال مؤكداً : « كلا . إننى لم أخلق فرصى بنفسى قط . ولقد نجحت إلى حد كبير ، ولكن بعض هذا النجاح يعود إلى عنصر الحظ » .

« لقد قمتَ بجانب كبير من العمل الإدارى فى ترنتى ثم فى جامعة لندن فيما بعد ـ مما جعلك تحيا حياة العمل جنبا إلى جنب مع حياة الفكر . . . وقبل أن أضع سؤالى الرئيسى اسمح لى أن أوجه إليك سؤالا عارضا : ما رأيك فى جامعة لندن ؟

وفى الاجابة عن هذا السؤال وصف فى شىء من التفصيل وظائفها ، وبعض

واجباته فى عمل مجلس الجامعة، واختتم حديثه بابتسامة وهو يقول : ولما كنت أحد أعضاء المجلس فإننى أعتقد أننا أدينا عملا رائما ! »

« ويؤدى بى ذلك إلى سؤالى الثانى : أى الحياتين عمل على نموك أكثر من الآخر : حياتك كعالم ، أو حياتك كإدارى ؟ »

« تعلمت مهنتى من الكتب بطبيعة الحال ، بيد أن العمل الإدارى لم يكن أقل أثراً فى تنميتى. بل إنى فى الواقع لأميل إلى القول بأنه كان أشد أثراً . ولولا مقابلاتى المستمرة ومعاملاتى وحديثى مع الناس لانحصرت فى زوايا العالم الباحث. إننى قوى الايمان بالمحادثة . وأعتقد أنى حصلت على الجانب الأكبر من نمو شخيصتى من الحديث الجيد الذى أسعفنى الحظ دائما بالحصول عليه ،وذلك فيما يخرج عن نطاق معرفة الكتاب الضرورية لتدريبنا المهنى »

« يصح ذلك فى ترتنى ، وفى لندن فيما بعد . ولكن هب أنك قضيت تلك السنوات فى مكتب صحيفة من الصحف .... »

قال : « أنت أيضا أتيحت لك فرصة عظيمة من الأحاديث التى جرت فى مكتبك »

« حقا إن الحديث فى مجلة « جلوب » يفضل كثيرا ما يتصور أكثر رجال العلم . والواقع أنى أعترف أنه أعلى قدراً مما أستطيع أن أحصل عليه فى كثير من المجتمعات العلمية : إن رجال العلم لا يقابلون من صنوف الحياة بقدر ما نقابل. ومن ناحية أخرى ، نجد أن رجال الصحافة يحيون حياة عمل . إنهم لا يعيشون عيشة التأمل ، لأننا حتى بعد أن نعود من الطريق حيث نلتقط الأخبار ، ثم نكتب كما أفعل ، لابد أن نكون قادرين على الأقل أن ندون شيئا عن موضوعات الساعة ، وأن نرويه مع تقدير مسئوليته حتى لا تقذف نوافذ مكاتبنا بالطوب فى صبيحة اليوم التالى »

وقال هوايتهد « إننى أسمى هذه الحياة حياة عملية كما أسميها حياة فكرية .

أما عن حياتى — وأنا أستعيد ذكراها الآن ـ فترجع إلى أيام الدراسة . كنت زعيما فى الألعاب ، وكنت أجيد لعب كرة القدم ، كما ألعب الكركت بدرجة مقبولة ، وإن كنت قد لا تتخيل ذلك الآن . كان بمدرسة شربورن أربعمائة طالب تقريبا ، تسمون منهم داخليون . وكنت رئيس الطلبة وزعيم الفرق الرياضية ، فكان على من أجل هذا أن أحفظ النظام فى الداخلية ، ومن ثم فقد تدربت طوالى حياتى كلها على إدارة الأمور ... ... أعتقد أننا أوشكنا على الانتهاء من رحلة العودة ». وكان يطل من نافذة العربة ، حيث كان المشاة على الجانبين ـ وقد ازداد عددهم مرة أخرى ونحن ننطلق فى الشوارع السكنية فى كمبردج ـ كانوا يتطلعون إلى إعداد العربة بدهشة ، ثم يثوبون إلى أنفسهم فى الوقت الملائم فيكتمون الضحك .

وقطعنا الرحلة عائدين فى خمس وأربعين دقيقة . وقد نقلنا وليام هل ذهابا وإيابا دون حادثة ، اللهم إلا إذا حسبت الرحلة حادثة واحدة متصلة . وفى المسكن فى الطابق العلوى كان إدوارد بكمان فى الانتظار لينقلهما إلى مزارع ددلى فى بدفورد . وكانت مسز هوايتهد أنيقة الملبس ، ترتدى القبعة ، وتلبس القفاز ، استعداداً للرحلة . وسألتنا كيف كانت رحلتنا فى العربة !

وقال هوايتهد . « ذهبنا وجئنا فى جو من انتباه الجمهور الشديد » .

قالت . « تقصد سخرية الجمهور » .

وأجاب فى شىء من المجاملة . « كلا ، بل أقول (بسمات) الجمهور » .

وقلت . « إن الرحلة كانت أقل إتعابا وأكثر سرعة مما توقعت » .

ولم يعلق هوايتهد على جانب التعب . أما عن جانب السرعة فقال فى لطف :

« لقد قضيت يوما ممتعا بعد الظهر ، ولكنى لا أجد بينه وبين السرعة صلة ! »

(٣١)

٢٧ من يولية ١٩٤٣

بعد ماقضيت يوما حاراً فى العمل بالمدينة كان من الترفيه أن أتوجه إلى كمبردج لأتناول العشاء مع آل هوايتهد فى الساعة السادسة والنصف . ولم يكن هناك أحد غيرى . وقد هب النسيم العليل وتخلل نوافذهم المفتوحة فى الطابق الخامس المطلة على الحقول والأشجار .

وتبادلنا النكات عن العشاء . قالت مسز هوايتهد :

« أشك أننا نستطيع أن نقدم إليك ما يكفى لطعامك أما نحن فنتعشى بخمس لقمات ونجد فيها الكفاية ».فقلت لها . يكفينى ثلاث لقمات فى الجو الحار .

وكان الأستاذ هوايتهد فى مكتبه ، فدخلنا عليه . وكان يرتدى لباسا أبيض ويخلع سترته (وقد طلب إلى أن أخلع سترتى كذلك ففعلت)فبدا عليه الارتياح إلى الجو كمابدت عليه صحة غيرعادية .وكان مسولينى قدسقط من عهد قريب جدا ، وتذكرت أن هوايتهد منذ صيفين مضيا فى نفس هذه الحجرة قد قال لى : « لقد دون مكيافلى قواعد النجاح قصير الأمد ، الذى يمتد من خمسة عشر إلى عشرين عاما تقريبا . وتذكرت أيضا أنه كان هناك رجل رومانى فى الزمان القديم بُعث سفيرا إلى ألمانيا العليا فى عهد الأمبراطورية دومتيان ، وقد هده الألم وأعياه ، وتعلق برغم ذلك بالحياة « حتى أعيش على الأقل يوما واحدا بعد وفاة هذا القاطع للطريق » . فقلت إنه مما يريح النفس ولو قليلا أن يشهد المرء سقوطمسولينى.

فقال هوايتهد . « هذا أمر جميل » .

وقالت : « أتسميه قاطع طريق ! إنه عقرب قذر »

وسألت مستر هوايتهد إن كان يكتب شيئا ما .

فقال . « ولكنى كنت أقرأ ما كتبتَ ».

ولم أستطع أول الأمر إدراك ما يعنى ، لأنى كتبت مقالات صحفية قصيرة منذ إبريل ، ثم تذكرت أن مجلة الأطلنطيق لشهر أغسطس ، والتى صدرت منذ وقت قريب قد نشرت لى « مركز الاعصار » .

وقد انعقد مؤتمر يضم نظاراً عديدين لمدارس إنجلترا الجديدة الإعدادية وأعضاء هيئة التحرير بمجلة (جلوب) لبحث موضوع التربية الحرة فى زمن الحرب وأثرها فى الأولاد ممن هم دون سن التجنيد وهى الثامنة عشرة . وموضع الخطر أن يتركوا تربيتهم هذه ليتجهوا — إن لم يكن كلية إلى العلوم الحربية — فمن المؤكد إلى العلوم على حساب المواد الإنسانية . ولم يعلم أحد إلى أى مدى تدوم الحرب . وإذا حرمت عدة أجيال متعاقبة من المراهقين من سبيلها الوحيد إلى التربية العامة وإلى العادات المدنية للعقل التى اعتمد عليها مجتمعنا فى نقل تقاليده الحرة ، إذا حدث ذلك فقد تكون حربنا كسباق الزوارق على نهر المسيسبى ، توقد فيه النار بشحنة الزورق وأثاث الحجرات لكى ينتهى بنصر يكسبه بعد ما يصبح هيكلا يفرغ من كل شىء سوى المواقد والآلات الحربية .

فقال هوايتهد . « إنك تثير كل الموضوعات الصحيحة ولكنى لا أستطيع أن أتفق معك فى كل نتائجك . لو أخذتم على عاتقكم فى أمريكا — على خلاف إنجلترا وبعض بلدان القارة الأوربية — أن تقدموا تعليما ممتازاً لا إلى القلة ولكن لكل أفراد الشعب ، فإن الصيغة التى يتخذها هذا التعليم تحتاج إلى تعديل . إننى أميل إلى القول بالحاجة إلى التعليم العام حتى سن السادسة عشرة تقريبا . ثم — فيما بين السادسة عشرة والتاسعة عشرة — أدخل فيه العناصر العملية . وبعد ذلك لا بد من إتاحة أكثر الفرص للدراسة ، سواء فى داخل المعاهد وفى خارجها ،

بالمحاضرات العامة الجامعية مثلا ، حتى يستطيع الناس أن يشبعوا شغفهم بكل أنواع الموضوعات ويجد كل منهم مجالا لاستعداده الخاص . وأرى أيضاً أن تصبح قراءاتهم حية باتصالهم الشخصي بالمحاضرين . ولو كان بيدى الأمر لجعلت بعض هذا التعليم المتقدم إجباريا ، وأبقيت على عملية التعلم حتى سن التسعين » . وقد قال هذه العبارة الأخيرة وهو يبتسم ، ولكنه ـ برغم هذا ـ كان يقصد ما تعنى .

واستطرد قائلا :

« ولاحظ أنى أشك فى أن هذه الجامعات العظيمة بما فيها من تخصص فى العلوم يبلغ غاية التركيز ، وبمن فيها من جماعات الأساتذة الذين ينعزلون عن الحياة اليومية لأوساط الناس ، أشك فى أن مثل هذه الجامعات تكون شيئا حسناً على إطلاقه » .

قلت : « لقد طرأت لى مثل هذه الفكرة مرارا ووصفى الخاص لها هو أن المتعلمين على هذه الصورة يصبحون متأنقين من الناحية العقلية » .

« هناك جماعات عديدة لأصحاب المهن الرفيعة فى هذه المدينة ـ بل فى أى مدينة ـ تعليمهم له ما للأساتذة الجامعة من قيمة بالنسبة إلى الجمهور » (وهنا دعينا لتناول العشاء وكنا فى طريقنا إلى مائدة الطعام) « وإحدى هذه الجماعات رجال الصحافة وينبغى لهم أن يحاضروا أكثر مما يفعلون » .

« من الألغاز عندى » (وقد صممت أن أبوح بما فى نفسى) « إن هارفارد ظلت ثلاثة قرون تمد مدينة بوسطن برجال متعلمين فرضا ، وحقيقة فى كثير من الأحيان ؛ ومع ذلك فالعائد أقل مما كان ينتظر . ألم يكن من الواجب على المدينة أن تؤدى عملا أفضل مما فعلت » .

وأجاب مؤكدا : « لقد أحسنت أداء واجبها ، بل لقد أدته بدرجة لم يألفها أحدمن قبل. وهل تستطيع أن تسمى مدينة أمريكية قامت بأفضل مما قامت به ؟

إن أصحاب المهن العالية عندكم يحتفظون ـ على وجه الجملة ـ بمستوى رفيع جدا وبخاصة أصحاب المهن الطبية . ما ذا كنت تتوقع ؟ »

« أعتقد أن ما يرضينى هو اشتمال العبقرية على الدوام . ثم إنى ربما كنت أعرف من خفايا المدينة أكثر مما ينبغى » .

وجلسنا إلى مائدة صغيرة جميلة من طراز دنكان فايف ، أعدت لثلاثة أشخاص ، وقد تسرب ضوء شمس الأصيل الأصفر من ناحية الغرب خلال الستائر البندقية التى فتحت شرائحها قليلا ، والتى رفعتها كلها مسز هوايتهد — بعد ما غربت الشمس خلف برج مموريال هول — فسمحت لضوء الشفق — الذى ما برح قويا صافيا وإن يكن أشد شحوبا ـ بالدخول ، وقد سقط بأكمله على وجه الفيلسوف الرزين . ومن المؤكد أن خمس لقمات للعشاء كان تقديراً خاطئا ، لأننا تناولنا فى العشاء ـ فيما أظن ـ طعاما فاخرا (وإن كانت مسز هوايتهد قد وصفته بالبساطة) وقد وضعت إلى جوار الأطباق زجاجات الشراب المثلج ، وشرحت لنا كيف طهت الطيور ، والسلطة ، وفطيرة التفاح . وقد جاءت (روعة) الطعام من اللمسات الماهرة فى الطهو . ثم ذكرت لى هذه اللمسات وأضافت إلى ذلك قولها :

« إن الطهو واجب من الواجبات التى لا تحتمل إلا إذا كان لقوم يحبهم الطاهى . ولولا ذلك لآثرت أنا نفسى أن أعيش على الخبز والجبن وفضلت ذلك كثيرا » .

وقال هوايتهد : « لا يحتمل أن يجد المرء طعاما جيدا ، مهما يكن عنده من طهاة ماهرين ، ومهما يكن ما يدفع لهم من أجور ، إلا إذا كان الطهاة يحبون من يطهون له . »

وقلت إن أحسن طاهيتين عرفتهما فى حياتى ، إحداهما امرأة من يوركشير ،

والأخرى من ايرلنده ، تندرجان تماما تحت هذا التقسيم ، ويضاف إلى ذلك أنهما كانتا متدينتين ، إحداهما بروتستانتية والأخرى كاثوليكية .

وأجاب هوايتهد فى احتشام : « الطهو أحد تلك الفنون التى تتطلب الأداء من أشخاص لهم طبيعة دينية إلى حد كبير » .

وأضافت إلى ذلك زوجته : « والطاهى الماهر يطهو لمجد الإله »

وتلكأنا على مائدة الطعام فى ضوء الشفق الذى أخذ فى الزوال وقد أمسى النسيم الذى هب خلال النافذة الكبرى باردا ممتعا منعشا . وفى ذلك الضوء الهادىء كان المساء من تلك الأمسيات الصيفية التى تبدو كالخلود البهيج .

وانتقلنا إلى حجرة الجلوس فتغير المنظر . وكان هوايتهد يقول إن تركه كمبردج فى سن الخمسين وذهابه إلى لندن كان أحد العوامل التى حددت مصير تطوره : « فقد زج بى ذلك فى المشكلات العملية للتربية . فى كمبردج اكتسبت خبرة فى العمل السياسى وفى التنظيم . ولكن حقائق الحياة فى لندن كانت أوسع من ذلك بكثير . وذكر لنا كثيراً من الأشياء التى كان يتحتم عليه أداؤها وكيف ساقته إلى جميع الطبقات . وقال : « إن مدارسنا الفنية مثال لما قصدت إليه حينما كنا فى بداية هذا المساء نتناقش فى التعليم العام . وأنا أعرف أن نظام التعليم الشعبى فى لندن قد وصم بالنقص . ولكنى وجدته رائعا بعدما خبرته عن كثب . إنه ييسر لجميع أنواع الناس الدراسات التى تنفعهم فى الحياة العملية وفى الفنون كذلك ، وإنك لتجد الناس من جميع الطبقات وجميع الأعمار باحثين عنها . »

وقالت مسز هوايتهد : « ومما يدل على أن هذه الدراسة لا تنتمى إلى طبقة بعينها أن شابا ممن نعرف عظيم الثراء تلقى أحسن تعليم فى التصوير فى القارة الأوربية مما يمكن أن يحصل عليه بالمال — هذا الشاب وجد عند عودته إلى الوطن

أن أحسن تعليم تلقاه فى أى مكان يمكن الحصول عليه فى إحدى مدارس لندن الفنية هذه » .

« إننى أستمع مرة أخرى إلى تفسير جزئى لشىء حيرنى بشأنكما منذ عرفتكما . فإنكما قد امتزجتما بمجتمع يهتم بالتمييز بين الناس طوال حياتكما تقريباً . ولكنكما — برغم هذا — أقل الممتازين اعتباراً للامتياز » .

وسألت مسز هوايتهد : « فى أى جانب لاحظت ذلك ؟ »

فهمكما للحياة العامة . ولأحصر كلامى فى عطفكما على الطبقة العاملة . وذلك شىء علمتنى التجربة ألا أجده قطعا فى أوساط أساتذة الكليات ، فى هارفارد أو فى أى مكان آخر . وقد أجده هنا أو هناك لدى أحد الإخصائيين . أجل . وربما صح ذلك فى علماء الاجتماع . وقد لانوا شيئا ما فى السنوات القلائل الماضية . وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن شعورهم بالأمن قد تعرض للخطر » .

قال هوايتهد : « إن من الأخطاء الكبرى فى التفكير الأمريكى أن مجموعة معينة من الاستعدادات التى تؤدى إلى التقدم الاقتصادى . هى التى تحدد القيمة الإنسانية . وليس هذا حقاً على الإطلاق . إن ثلثى الناس الذين يستطيعون كسب المال من المتوسطين ، ونصفهم على الأقل فى مستوى منحط من الناحية الخلقية . إنهم على الجملة أحط بكثير من الأنواع الأخرى التى لا تدفعها العوامل الاقتصادية . وأقصد الفنانين والمعلمين ، وأصحاب المهن الذين يؤدون عملا لأنهم يحبونه لذاته ويكسبون مايكفى ليقيموا به أودهم فحسب . وهذا التقدير السامى الذى اعتدتم أن تنسبوه لنوع القدرة الذى يؤدى إلى التقدم الاقتصادى من أفحش الأخطاء فى تفكيركم الأمريكى . وهو بحاجة إلى التصحيح دائما وبغير انقطاع من الأفراد الذين يخاطبون الجمهور ، كما تفعل أنت » .

قلت إن بعض ذلك متخلف من أيام المهاجرين الأوائل حينما كان إخضاع هذه القارة يحتاج إلى الشجاعة وإلى القدرة العملية .

وقالت مسز هوايتهد : « أجل . ولكن حتى فى هذه الحالة ينبغى أن نلاحظ هذا الفارق الدقيق . فإن المهاجرين الأوائل قلما كانوا يجمعون الثروات الطائلة ، إنما كان يجمعها أولئك الذين أتوا من بعدهم » .

وقال هوايتهد : « إن الضرر الذى ينجم عن رفع مكانة تلك الفئة من الناس التى تتميز بالقدرة على التقدم الاقتصادى ، هو إنكار الصور الرفيعة من القدرات التى توجد لدى أفراد غاية فى البساطة . من ذا الذى يقول إن المرء إذا عاش عيشة رفيقة نبيلة ولاقى مشكلاته بشجاعة من يوم إلى يوم لايكون ذلك فنا عظيما ، أو أن أولئك الذين يستطيعون ذلك ليسوا فنانين عظاما ، إنا نفهم علم الجمال بمعنى ضيق جداً : إن الناس الذين يستطيعون أن يعيشوا عيشاً جميلا فى ظروف متواضعة يفهمون الجمال فهما عميقاً — فهما إذا قيست اليه القدرة على رسم الصورة على اللوحات » (ومثل هذا العمل تمثيلا صامتا) مهما تكن هذه القدرة رائعة ، كانت هذه القدرة الأخيرة صيغة بدائية » .

« إنك تؤيدنى فى تلك النشوة التى كثيرا ما أشعر بها حينما ألتقى بجيرانى فى طرقات القرية ، النجار ، وساعى البريد ، وصائد السمك — إن نفوسهم الطيبة ولطف عشرتهم تدفئنى حتى أعماق قلبى ، وأبتسم فى دخيلة نفسى ، ذاكرا أن الحياة تسبق الأدب » .

وقال هوايتهد : « منذ خمسين ألف عام أو خمسمائة ألف عام ـ لست أدرى كم طول الزمن ـ حينما اتجه الإنسان فى تطوره ـ وربما كان ذلك فجأة ـ اتجاها نشأت عنه قدرته على الاستمتاع ـ منذ ذلك التاريخ استحدث الإنسان شيئا

إمكانياته لا حصر لها . إن الكائن البشرى ـ أنت ،أو اقلن ،أو أنا ـ عنده قدرات معينة على الاستمتاع تطورت لديه ، لأنها فطرية من ناحية ، ومن أثر التربية من ناحية أخرى . والحظ يلعب دورا كبيراً فى ذلك .

أنت ـ مثلا ـ إلى جانب استمتاعك بالأدب ، لديك القدرة والتدريب على الاستمتاع بالموسيقى .

ومن الناس من لديه القدرة على الاستمتاع بالرياضيات ، ولكنها كامنة ، وبحاجة إلى إبرازها بالدراسة . إننا لم « نولد » بالقدرة على الاستمتاع بالرياضيات. وآخرون ، وإن كانوا قد ولدوا بقدرة كامنة على الاستمتاع بالموسيقى ، إما كستمعين أو عازفين ، لم « يولدوا » عازفين أو مستمعين على درجة عالية من التمييز . إنما هذا وذاك بحاجة إلى التطور . إن مدى قدراتنا على الاستمتاع واسع ولم نستكشف منه بعد سوى الأطراف، إنها قدرة لا بد أن تكون كذلك لدى الحشرات ، وإن كنت لا أعرف عنها ما يمكننى من تقدير أى أنواع الاستمتاع عندهم ..... والعجيب أن الإنسان ـ فى نظمه الاجتماعية ـ لم يهىء حتى الآن إلا فرصة ضئيلة لتطوير قدراتنا على الاستمتاع ، وقد مرت عصور عديدة كانت فى ذلك محظوظة . فبالرغم مما كانت عليه المدن الإيطالية من الاضطراب فى عهد النهضة ، فقد كان يسودها أحيانا حكام ذوو حس دقيق بأنواع المتع البشرية المتعددة المستحدثة . وكذلك كان حكام بعض الامارات الألمانية الصغيرة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر يشتهرون برعاية صور مختلفة من المتع ، وبخاصة الموسيقى والمسرح . وأعتقد أن الدول الصغرى أنجح فى ذلك من الدول الكبرى . كانت الولايات الألمانية الصغرى قادرة على إنتاج الأوبرات الريفية الرائعة خلال القرن التاسع عشر ، فى حين أن الحكومة الفرنسية مالت إلى الجمود الكلاسيكى ، بالرغم من امتلاكها لمسرح ممتــــاز » .

«هذا : «التخلف الزمنى» بين الفرد ونظامه الاجتماعى يعيد إلى ذاكرتى ملاحظتك التى أبديتها فى العام الماضى عن العلاقة بين إمكانيات الإنسان التى لا حصر لها ، والقيود ذات الحدود الضيقة . إن الدول تهتم بتنظيم الوجود المادى ، وهو أمر محدود جدا . وقد تذكر كيف تحدثنا مرة ـ حينما كنت تقطن فى «التلال الزرقاء» عن هذه الحقيقة : وهى أنه لم توجد فى التاريخ ـ اللهم إلا إن كان ذلك عرضا ـ دولة ثقافية ، إنما وجدت دول قوية على هامشها قليل من الابتداع . وقد أبديت شكك فى أن الدولة هى أفضل الحالات التى تعين على رعاية الفنون الخلاقة » .

قال : « حينما تحاول ذلك الدول الكبرى ، تميل إلى أن تصب قدرات الناس على الاستمتاع وعلى الابتكار فى قالب معين . ويميل ذلك نحو الجمود . وإنى أشك فى أن رقابة الدولة فى صالح الفنون فى أمريكا . إن حيوية التفكير فى المغامرة . وذلك ما بشرت به طوال حياتى ، وقل بعد ذلك ما بشرت به . إن الأفكار لاتدوم . ولابد أن يتناولها التغيير . والفكرة يجب أن ترى دائما فى صورة جديدة . ولابد أن يمازجها عنصر من عناصر الجدة غضا من حين إلى آخر ، وحينما ينتهى عنصر الجدة ، تنتهى الفكرة . إن معنى الحياة هو المغامرة» .

فقالت مسز هوايتهد جادة : « من المغامرة أن يولد الانسان ، بل هى مغامرة خطرة جداً » .

وتكلمت وهى واقفة ، وخلفها حائط طلى بلون عجيب يكاد يكون سوادا . وكانت تلبس رداء أسود بتطريز أبيض عند الرقبة . وشعرها أبيض . وفى شفق الصيف الهادىء كانت تبدو بصورة رائعة رسمها على لوحة مصور ذائع الصيت . ولم يدم هذا المنظر إلا لحظة ، وذلك حينما تهيأت لتبدى ملاحظاتها ؛ ثم انصرفت إلى غرفة الطعام . »

وسألت : « وما رأيك فى المغامرين الذين يخطئون المغامرة ويسببون الأضرار برغم ماعندهم من حسن النية » .

فقال هوايتهد مؤكدا : « يالهم من حمقى . وهنا يأتى دور المعرفة . لابد للمغامرين من استخدام عقولهم ، ولابد لهم من معرفة الماضى ، لكى لايستمروا فى تكرار أخطاء التاريخ . إن من بين مخاوفى من هذه الحرب أن يُفرض على الإنسان نظام صارم ، وأن تتجمد تلك الصفة الرقيقة ، أعنى قدرته على استحداث الآراء ، وعلى إيجاد الأوجه الجديدة للآراء القديمة ، ثم يطوى السنين قرنا بعد قرن ، وهو يشتد غباء ، وتمسكا بالقواعد ، حتى يبلغ هو ومجتمعه مستوى الحشرات الراكد . وقد عرفت آسيا شيئاً من ذلك . وليس من شك فى أن أقوالا جميلة قد قيلت فى الصين منذ ألف عام ، بيد أن كل قرن — لمدة ألفى عام على الأقل — كان أقل مما سبقه تشويقا . وإذا أراد الناس أن يذكروا لى ما تدين به المدنية للهند كان لابد لهم من العودة إلى حوالى عام ٥٠٠ ق . م . وربما تعجبت لشعورى البارد ، لا نحو چون ديوى شخصيا . الذى أجله كرجل ، والذى أعجب ببعض أوجه مؤلفاته ، ولكن نحو تفكيره . ويرجع السبب فى ذلك الى أنه يهتم فى تفكيره بالأمان ، فى حين أن حيوية عقل الإنسان فى المغامرة . كان المصريين فى عام ٥٠٠ ق ... من غير شك تاريخ جليل وراءهم ، ولكنه يخلو من المغامرة . وقارن بالقليل الذى ورثوه للرجل الغربى تلك الوفرة من علوم الجمال وقواعد الأخلاق التى ورثناها عن الإغريق والعبرانيين . »

كنت أقوم بهذه المقارنة وأنت تتحدث . إن ذلك الكاهن المصرى القديم فى قصة أفلاطون كان يدرك لاشعوريا شيئاً من هذه الموازنة حينما كان يقول لسولون : أنتم أيها الهلينيون لستم إلا اصبيانا .... إنكم جميعاً شباب فى عقولكم والصبى مغامر » .

وأجاب هوايتهد قائلا : « أملى أن تتسلم أمريكا قيادة البشرية بعد هذه الحرب .إن أمريكا -- كما أرها — هى الأمل الوحيد . هنا مغامرة ، وترحيب بالجديد وتستطيعون أن تفعلوا لمستقبل البشرية ما فعلت اليونان وأرض الميعاد للعالم الحديث مقابل ماتفعله آسيا وأوربا . لقد كانت لليهود بعض الآراء الخلقية ولكنها ما كانت لتثمر لولا الإغريق » .

« ما هو فضل الإغريق فى رأيك » .

« النظره الجمالية إلى الحياة » .

« لاحظت منذ لحظة وأنت تستخدم هاتين اللفظتين (الجمال) والأخلاق فى معرض الكلام عن الهلينيين والاسرائيليين أنك تقدم الجمال » .

قال : « هذا صحيح » .

« هل ترى أن الجمال فكرة أوسع وأعمق جذوراً من الحق ؟ »

« أجل ، فإن الحق ـ إذا انفصل عن الجمال — لا يكون خيرا ولا شرا . »

قالت مسز هوايتهد التىعادت أثناء المناقشة : «وهذا ماوقع فيه البيورتان . نبذوا الجمال . وقد بدأوا بداية حسنة ، حينما اعتقدوا أنهم خلقوا فى صورة الله . ولكنهم انتهوا بأن جعلوا الله فى صورة الإنسان . »

« وبأية سرعة يختر هذا اللبن — أو تفسد الأمور : لقد انقضى أقل من عام مابين مستعمرة بليموث ووليم برادفورد وبين كوتون ماثر . »

قال هوايتهد : « كانت الفكرة تفقد حيويتها . لقد كفت عن المغامرة . وورثتها برتون الفكرة دون وراثة حرارتها . كان السلف لا يعتنون عن الموت فى سبيلها ، وقد فعل بعضهم . وربما لم يعد أمام الخلف ما يموتون من أجله . لقد عرفوا قوة الإيمان عند أسلافهم ، وشعروا أنه لا بد لهم من الإحساس بالحرارة القديمة ، وحاولوا أو تظاهروا بذلك ، ومن ثم أعطوا عن أنفسهم فكرة المنافقين . »

وذكرته مسز هوايتهد بقولها : « إن أبويك نفسيهما لم يعتقدا بقوة كما حسبنا » .

واستطرد قائلا لقد (حسبنا) أنهما مازالا يعتقدان بقوة وكان (أبواها) من المؤمنين بشدة . ولكن لما جاء أبواى ، كانت الفكرة قد برزت إلى درجة ربما اعتبر معها موقف أبوىّ اليوم موقف نفاق . وأود أن أنبه إلى أنى لم أقل إن موقفهما كان موقف نفاق . بل لقد كانا مخلصين . ولكن الموقف تغير فمرضا علينا ديانتهما باعتبارها أساسا وسيلة لحفظ النظام ـ فى الأسرة وفى المجتمع . ولكن ذلك أمر يختلف كل الاختلاف عن العقيدة الدينية » .

وعلقت بقولى : « إن المرء يلحظ تغيرا شبيها بهذا فى كتدرائية ستراسبرج . إن أحداً لم يمدنى لها من قبل ، وكانت مفاجأة لى . صحن الكنيسة وأجنحتها غوطية من عصر متأخر ، خفيفة لطيفة فى كمالها المنطقى الرشيق . أما الأجزاء القديمة فى ركن المذبح فهى رومانسيكية ، من عصر الإيمان الشديد ، وتأثيرها من العنف بحيث يضعف قوة الصحن ، برغم جماله » .

قال هوايتهد : « إن فن العمارة مثال طيب لدورة الحياة فى مغامرات الأفكار . وهو من الصور الفنية التى أهتم بها أشد الاهتمام . ولأضرب مثلا بالفن الغوطى الإنجليزى : إنه يبدأ بالنورماندى الرومانسيكى القديم ، ثم يستمر قرنا بعد قرن مجتازا الأساليب الأربعة المتتالية تقريبا حتى القرن الخامس عشر حيث يبلغ نهايته . إن ما كان يحدث فى تلك القرون الأربعة المتتالية هو أن الأوجه الجديدة للفكرة كانت تستكشف وتتطور . وكانت عناصر متتابعة من الجدة تظهر وتدخل الفن ـ مثل كثرة النوافذ ، وارتفاع الأعمدة ، وجمال القطع الحجرية المتشابكة التى تزخرف بها النوافذ الغوطية ، وما إلى ذلك ـ حتى بدا كأنه لم تعد هناك زيادة لمستزيد . إن إمكان ظهور وجه جديد قد نفد ، وبلغت الفكرة الغوطية نهايتها

فكفت عن التطور ، وتوقفت وقوفا تاما . فتراهم يعودون إلى فن البناء اليونانى ، والرومانى ، ويطبقونه على عالم النهضة المتغير ، فترى كنيسة سنت بول مكان الدير الغوطى . بيد أن الأسلوب الكلاسيكى لفن البناء القديم الذى أدخل على العالم الحديث كانت له — فيما أظن — هذه الخاصية العجيبة . بالرغم من أنه يؤدى أغراضا عدة بدرجة تدعو إلى العجب ، ويمكن — على وجه العموم — أن يظهر بمظهر الجمال إن تناولته يد صناع ماهرة ، بالرغم من ذلك فإنه ينقصه ذلك ... ذلك الشىء النهائى .... ماذا أسميه .... ؟ »

واقترحت مسز هوايتهد أن يسميه « التجاوز » .

وقبل هذا التعبير وقال : « أجل هذا التجاوز النهائى . أقصد أنه لا يقيم ذلك البناء الذى أقطع فى سبيل رؤيته رحلة تستغرق أربع ساعات بالقطار . » واستطرد قائلا : « إن المادة الجديدة ، والزاوية الجديدة للنظر إلى الفكرة ، قد يعطيها المعنى السعيد . كما فعل النازحون الأوائل إلى إنجلترا الجديدة عندكم حينما أدخلوا البيت الإنجليزى إلى هذه السواحل ، ولكنهم اضطروا إلى بنائه من الخشب . لقد كان على نفس الأسلوب ولكن مع تعديل جديد بهيج . وأشك فى أنكم بلغتم هذا الإتقان فى بيوتكم الحجرية .... »

« إننا لم نقمها حتى ما بعد ١٨٤٠ وما بعد ١٨٥٠ . وكان « إحياء غوطيا » . وأنت تعلم مدى قصر الوقت الذى استغرقه .... »

« لا أظن أنها تعتبر ناجحة » .

« كانت محاولة للعودة إلى الأسلوب الغوطى دون التقاليد الغوطية » .

ووجه هوايتهد بغتة فكرته الخاصة وجهة جديدة حين قال : « إن عظمة لورنس لول تضمنت هذا الادراك لصعوبة الاحتفاظ بالفكرة حية ، ولم تقدر بعد هذه الصورة من صور عظمته بوجه عام . رأى أن المطلوب هو فترة معينة من التعليم

المنظم للشباب، ثم يسمح لهم بعد ذلك بأن يكشفوا بأنفسهم — بإرشاد الأساتذة أو بغير إرشادهم — ميادين متنوعة من العلم أو العمل. وإلى جانب ذلك رأى الحاجة إلى أضافة أقدم صورة من صور التسلية والتعليم عرفت للجنس البشرى — وهى: المحادثة. وتلاحظ أن تأسيسه (للزملاء الصغار) يقوم على هذه المبادىء. إنهم يختارون لجدارتهم ـ بقدر الإمكان ـ من جميع أنحاء هذه القارة، ودراساتهم تتنوع بمقدار تنوع الفنون والعلوم. وقد ظفروا بقدر معين من التدريب المنظم ومن العمل الذى يعزهم. وقد نُظمت جمعيتهم بحيث يجتمعون على العشاء، ويقضون معا على الأقل ليلة كل أسبوع ينفقونها فى تبادل الحديث بعضهم مع بعض، ومع عدد كبير من مختلف الضيوف البارزين الذين ينتمون إلى مختلف المهن. ولا تقوم بينهم (عصبية علمية). فالشباب الذى يدرس الأدب يلتقى بالشباب الذى يدرس الأحياء والرياضة. فى حين أنى ألاحظ قدرا كبيرا من العصبية العلمية بين هيئة التدريس فى هارفارد ذاتها. ويخيل إليك أن الشباب فى قسم من الأقسام لا يتعلم شيئا من زملائهم فى قسم آخر، بل لقد يخيل إليك» (وهنا ظهر الاستياء فى نظرته) «إنهم يقون أنفسهم من الفساد. وأعتقد أنه من الخطأ الفاحش أن يزعم المحاضرون الجامعيون أنهم قادرون على توجيه الكلام عاما بعد عام إلى الشباب، إلى الطلاب، مع ابتعادهم عن فرصة التعلم من الشباب المتحمس. وهو من أثمن الاشياء فى هذه الدنيا ....»

وأبدت مسز هوايتهد هذه الملاحظة «كأن المحاضرين قد رخص لهم بالغرور!»

«إنك تصف (الشباب المتحمس) بأنه من (أثمن الأشياء فى هذه الدنيا، وأرجو أن تشرح فى وضوح أشد ما تعنى بذلك؟»

«أعنى» ـ وهنا تردد، وفكر فى التعريف ـ «وميض الشاب..) (وأخشى أننى سأضطر إلى استخدام تعبير ضخم، ولكنى لا أعنى به الضخامة) إنما أعنى وميض الشاب الذى كشف لتوه عملا أدبياً عظيماً. ليس المهم هو

الـكتاب الذى استكشفه ، إنما هو ما يلقى عليه من ضوء . هنا نجد معنى المغامرة والجدة ، ونجد أن الفكرة القديمة تُرى من جديد من زاوية جديدة . وهذا هو ما ينبغى لملى الجامعة أن يرقبوه فى يقظة شديدة ، وما ينبغى لهم احترامه كلما ظهر ، بدلا من أن يحسوا بشىء من السخط على الشبان الذين تشتد بهم حماستهم » .

« لما كنت من القادمين من الغرب الأوسط فقد أحسست بأن الحماسة فى انجلترا الجديدة غير مستحبة . وقد لاحظ ذلك أيضاً هارفى كوشنج الذى قدم كذلك من الغرب الأوسط ، وقال بأن مقاومة العقل الجامد والمادة الجامدة — فيما يختص به — لأى تجديد ، سواء فى الجراحة أو فى غيرها ، هذه المقاومة تشق على امرىء لديه — مثله — أمر جديد عسير لا بد من أدائه ، حتى إنه ليتحتم أن تتوافر لديه حماسة شديدة تكون له بمثابة العجلة التى تدفع فكرته وسط المشاق وكأنها المنشار الذى يشق عقداً من الكتل الخشبية » .

وقالت مسز هوايتهد : « كل من قدم من إنجلترا إلى إنجلترا الجديدة — مثلنا — لا يحس هبوطاً فى درجة الحرارة كما أحسستَ لقدومك من الغرب الأوسط ، بل يحس بارتفاع فيها . بعد الجو الاجتماعى الذى لمسناه فى إنجلترا أحسسنا كأن الجو فى إنجلترا الجديدة لهيباً يندلع من نار » .

قلت : « إن العقل فى إنجلترا الجديدة (كما لاحظ ذلك كثير من الأجانب) كثيراً ما يترك فى أول الأمر أثراً أطيب مما يتركه القلب فى إنجلترا الجديدة » .

وسألت مسز هوايتهد : « هل طرأ لك أن سكان إنجلترا الجديدة قد يكونون من الجبناء ؟ » .

« كلا . لم يطرأ لى ذلك . ولكنهم كثيراً ما يكونون كذلك ، حتى خيارهم وإذا كنت لم أحبهم فلماذا ابثت بينهم ؟ إننى أعجب بالناس وبالمناظر ، وبالثقافة

الناضجة ، وبالمكتبات ، والأركسترا . وأكاد لا أذكر أنى استمعت إلى محادثة خليعة بين الشباب من قبل حتى أتيت إلى هنا » .

وقال هوايتهد : « فى كمبردج ناد كنت أروده فى شبابى . وكان تنيسون وصديقه هلام ، الذى مات فى ريعان شبابه ، من بين مؤسسيه . وكانا يطلقان على نفسيهما اسم (الرسولين) ، أما الأعضاء فطلاب ؛ وبعد تخرجهم تكون لهم (أجنحة) ويصبحون من الملائكة . وكان الأعضاء الجدد يختارون جميعاً بوساطة هؤلاء الطلاب ، وعلى أساس أنه يحتمل أن يثبتوا أنهم من الأشخاص المتمين . وفى كل اجتماع ـ وكانت الاجتماعات تعقد مساء السبت دائماً ـ كان يتقدم أحد الأعضاء ببحث يقدم فيه بعض الأفكار للنقاش ، ويستغرق ذلك ما يقرب من عشرين دقيقة. وقد سبق للأعضاء إجراء الاقتراع لترتيبهم فى الكلام بعد التقديم الأولىّ للفكرة . وينتظر من كل فرد منهم ـ فى دوره ـ أن يقف عند الموقد ويدلى بما يعنّ له . والمفهوم بينهم ألا يذاع فى الخارج شىء مما يقال هنا على اعتبار صدوره من أى عضو من الأعضاء . والواقع أنه من المفروض ألا يعرف أحد من هم الأعضاء ، وإن كان يصيب الحدس فى حقيقة الأمر . وكم من عضو من الرجال البارزين قد مر (بالرسل) ؛ وكانوا يتناولون العشاء فى لندن مرة كل عام يحضره (الملائكة) . ويرأس الاجتماع أحد (الملائكة) ويجلس على قمة المائدة . وينوب عنه فى الرياسة آخر من اختير ليكون (رسولا) ويجلس على الطرف الآخر للمائدة . ولا يسمح لأعضاء كليات كمبردج بالدخول فى كلية أخرى بعد العاشرة مساء ، ولكنا كنا نتجمع قبيل العاشرة ، ونحدد عدد المجتمعين باثنى عشر ، ويستمر النقاش بيننا حتى الفجر . وكان مستوى النقاش عالياً إلى درجة مذهلة ـ على الأقل حتى نشوب الحرب » .

وتحول الشفق إلى الغسق ، ثم إلى الظلام . وكانت الحجرة باردة بهيجة

يهب عليها نسيم المساء خلال النوافذ، مما أغرانا باستمرار الجلوس فى الظلام، الذى دفعنا ـ إن كان له أثر ـ إلى رفع مستوى الحديث. وواصلنا الكلام تحت هذه الظلال المريحة.

وقالت مسز هوايتهد: « لقد ذكرت الصحف بطبيعة الحال تأسيس مستر لول لجماعة صغار الزملاء، بيد أن ذكرها لها لا يدنو من مقدار أهميتها المستقبل التى تستحقها. ما هو الخبر؟ لو أن مسز لول هربت مع السائق، أو لو أن مستر لول أساء الاتصال بالخادمة، لما خصصت الصحف مثل هذا الحيز الضيق كما فعلت فى موضوع (صغار الزملاء) ».

قلت: « إنك تسألين على من تقع الملامة. إن ذلك يتوقف على من توجهين إليه السؤال. ولو سألتنى قلت إنى أعتقد أن وراء ذلك أن الصحيفة كالسلعة التجارية لابد أن تجلب الربح مضافا إلى تكاليف إنتاجها. إن ما تحتاج إليه هو قسم أبقراطى لرجال الصحافة. كيف تكون الجامعة لو عاشت على ما يدفعه الطلبة من نفقات ».

قال هوايتهد: « إنها لا يمكن أن يكون لها وجود ».

واستطردت مسز هوايتهد قائلة: « فى جنوبى إنجلترا قليل جدا من الموسيقى وكان من المفروض أن السكان هناك غير موسيقيين بفطرتهم. وأخيراً منذ أن أخذت محطة الإذاعة البريطانية تذيع الموسيقى الجيدة فقط، نما فى الناس هناك حب الموسيقى وتكونت لديهم الجماعات الموسيقية فى القرى، ولا يريدون إلا أحسن الموسيقى لأنفسهم. إن كل من يملك جهازاً للراديو فى انجلترا يدفع ضريبة صغيرة وذلك يسد نفقات محطة الاذاعة البريطانية، ولا يسمح بالإعلان على أمواج الأثير. ومن التخريف الشديد أن نظن أن الناس لا يريدون أحسن الأشياء. وعلى هذا الزعم تقدم إليهم المادة المنحطة التى ينتظر أن تجد فى السوق رواجا، وتميل هذه المادة إلى الهبوط تدريجا ».

« بعد مقاومة هذه الخرافة الكبرى داخل مكتب الصحيفة لفترة تربو على نصف العمر ، وبعد ما أثبتنا أنها بالفعل خرافة — ومن الإنصاف أن أقول إن ذلك لم يكن دون بعض المعونة من إدارة الجريدة ومن أصحابها — بعد ذلك ، ما زلت أدهش حينما أرى أفرادا عليهم سيما الاحترام فى العربات العامة يقرأون الخط الدقيق فى الأسطر التى تدرج تحت العناوين المبتذلة إلى درجة فاضحة . ولا يبدو عليهم أنهم أناس يهتمون بهذا اللون من الأخبار » .

وعلقت مسزهوايتهد بقولها « وقد يذعنون فى نهاية الأمر ويتعلمون استساغة السم بعد ما يتناولون منه قدراً كافيا » . . . .

وقال هوايتهد : « ومن الأنصاف أن أذكر أن جانبا كبيرا مما يكتب للمقالات الجدية فى صحفكم يضع أمام القراء مسئوليتهم عن الاحتفاظ بالنظام الاجتماعى . وأوجه ذلك متنوعة ، ولكنها جميعا تنتهى إلى هذه الغاية : تذكير القراء بأن الاحتفاظ بالنظام الاجتماعى يتوقف عليهم . والمسئولية عن أى نظام اجتماعى هى أساس الحضارة . فإذا لم يكن هناك مجتمع يأمن فيه المرء على حياته وملكه ، لا يمكن أن تستمر الحياة إلا على أحط المستويات — لا يمكن أن توفر حياة طيبة لأولئك الذين تحبهم ، ولا يمكنك أن تكرس جهودك لنشاط على مستوى أرفع . ومن ثم فإن الاحساس بالمسئولية عن استمرار نظام اجتماعى ما أساس لأى نظام أخلاقى . وهذه الصورة من صور المسئولية تنتفى بتاتا من المسيحية . ويكاد يسوع ألا يذكرها اللهم إلا فى عبارة واحدة أو عبارتين » .

وقالت مسز هوايتهد : « وإحدى هاتين العبارتين (أعط ما لقيصر . . . .) فيها مراوغة » .

واستطرد قائلا : « أود أن أذكر أنه كانت هناك أسباب تاريخية لهذا النقص . فلم يكن لليهود دولة مستقلة يحكمونها ، ولا يمكن أن نلقى اللوم على امرىء لأنه قصّر فى اعتبار ما لم يكن هناك فى عصره فرصة لاعتباره . لقد قال ما كان

ينتظر من مفكر قدير أن يقوله . إن ظروفه التاريخية لم تستنبط قانونا أخلاقيا يتعلق بالمسئولية عن النظام الاجتماعى . بيد أن انتفاء مثل هذه المسئولية كان خاصية من خواص اليهود لمدة قرون . وهذا سبب من أسباب عدم محبة الناس لهم . وقد تقول إن الطريقة التى عوملوا بها فى كثير من البلدان التى نزحوا إليها لم تسمح لهم بالإسهام فى هذه المسئولية ، وأنا أوافقك على ذلك كل الموافقة . ولكن هذا الانتفاء قد أوقع المسيحية فى تناقض يكاد أن يكون دائما . إنها تقول بأن مظاهر الحياة الخارجية لا تستحق الاهتمام ، وهى تصر فى الوقت عينه على ضروب من السلوك الخلقى التى لا يمكن مراعاتها - بغير هلاك - إلا إذا نظمت مظاهر الحياة الخارجية تنظيما حسناً كافيا . إن مجتمعاً يسير على مبادىء مسيحية بحت لا يمكن له ألبتة أن يعيش » .

وعلقت بقولى : « لقد ظهر ذلك فى أحيان كثيرة فى النقد الاجتماعى للقرن التاسع عشر ، وبخاصة بين الروس، أمثال تولستوى وكروبتكن : فوضوى مسيحى وفوضوى فلسفى . أما بين النقاد الاجتماعيين فى البلدان الأوربية (والأمريكية) الأخرى، فإن المرء لا يفتأ يقابل هذا الإحساس بالسخط والحيرة : إنكم تسمون أنفسكم مسيحيين ومجتمعكم مجتمعا مسيحيا ، إذن فلماذا لا . . . ؟ وما ظهر لنا اليوم — مما لم يظهر فى ذلك الحين — هو أن الاستقرار الاجتماعى النسبى فى القرن الذى يقع بين عام ١٨١٥ وعام ١٩١٤ قد خدع حتى الكثيرين من أقدر المفكرين فظنوا أن النظام الاجتماعى المستقر أمر مؤكد . »

فأجاب بقوله : « لم يدرك الناس أن الاستقرار الاجتماعى من متطلبات السلوك الخلقى إلا بعد توحيد العالم الحديث بالوسائل الفنية العلمية . وقد أرغمنا على ذلك أنماط الرجال الذين يتولون قيادة الأداة الحكومية فى بعض البلدان ، وهم الذين أجبرونا على مقاومتهم حتى نستطيع أن نحتفظ بأى نوع من أنواع حسن المعاملة الاجتماعية » .

وأثرت هذا السؤال : « وإذا ما اعترفنا بذلك ، فأى نوع من أنواع الأخلاق تريد أن يحتفظ به النظام الاجتماعى المستقر ؟ منذ بضع ليال راعنى أن أستمع إلى أحد المؤلفين ـ وهو رجل أحترمه كثيرا — استمعت إليه وهو يشير إلى شخص ما ، فى كتاب أو فى خطاب عام ، (يشيد بالفضائل البرجوازية) . والآن أرانى أستمع إلى نقد البرجوازية نقداً مرا ، وأعرف بعض الأسباب التى يقوم عليها هذا النقد . ولـكن هل لا يستطيع عالمنا أن يفيد من بعض الفضائل البرجوازية ؟ »

قال هوايتهد : «إن إحدى فضائلهم أنهم يدفعون ديونهم.وهى فضيلة كبرى. ولن يستقر المجتمع بدونها . »

وقد دقت ساعة مموريال هول العاشرة . ولما كانت مسز هوايتهد تعلم أن علىّ أن ألحق بالقطار، فقد نهضت فى أدب جم وأشعلت أحد الأنوار. وكنا قد جلسنا فى الظلام قرابة الساعة .

وخرج معى مستر هوايتهد إلى المصعد ، وقال : « أشعر دائما أن على واجبين لا بد من أدائهما للضيف الراحل ، أحدهما أن أتأكد من أنه لم ينس شيئا مما يملك ، والآخر أن أتأكد من أنه لم يحمل معه شيئا مما أملك » .

(٣٢)

١٣ من يناير ١٩٤٤

ظهر من وقت قريب المجلد الأول من سيرة سنتايانا بقلمه تحت عنوان (أشخاص وأماكن) وقد أثار جدلا حول موضوع التهكم عند آل هوايتهد حيث كنت أقضى المساء .

وذكرت هوايتهد قائلا : « إنك عرّفت التهكم من عهـــد ليس ببعيد . وأذكر الألفاظ ولـكنى لست على ثقة من أنى أفهم ما تعنى . قلت : « إن التهكم حالة عقلية مقبضة » .

قال هوايتهد : « لا أذكر المناسبة التى قلت فيها ذلك ، ولذا فيجدر بى أن أبدأ من جديد » . وفكر قليلا ، وقد تغضن جبينه ، وتشابكت أصابعه ، وأسند مرفقيه إلى ذراعى مقعده . ثم تحدث بعد لحظة قائلا : « أعتقد أن التهكم ينم عن الحالة العقلية للشعب أو للعصر الذى فقد الإيمان . إنهم يخفون ما فقدوا ، أو يتفاخرون به عن طريق الضحك . إنك قلما تجد التهكم إلا عند المنبوذين على صورة من الصور ، وإلى حد ما » .

« مثل لتن ستراتشى » ؟

قال هوايتهد : « كان اسمه على شفتى » .

قالت مسز هوايتهد : « كان إنسانا ممتعا ، ولكنه عانى كثيرا » .

« بدنيا أو عقليا » ؟

« لم يعان كثيرا من الناحية الجسمانية ، وإن كان دائما على ضعف وكثيرا ما كان يتألم (وكان ابنا لأب مسن) . بل كان عناؤه أشد من الناحية العقلية . كان مظهره الخارجى مثيرا للضحك وكان بذلك عليما . وتلك الصورة التى رسمها له أغسطس جون ، التى كثيرا ما يظن خطأ أنها رسم كاريكاتورى ، ليست كذلك ، بل إنها — على العكس — صورة صادقة له . وكان صوته مرتفعا كالصرير . لقد كان يعانى من شدة الخلاف بينه وبين الآخرين » .

وقال هوايتهد : « إن تهكم ستراتشى هو تهكم تلك المجموعة العالية الثقافة التى نبذت مسئوليتها عن النظام الاجتماعى . وقد عانت إنجلترا كثيرا من أمثال هؤلاء بعد الحرب الماضية وأستطيع — من قبيل التيسير — أن أسميهم (مجموعة بلومزبرى) . وأؤكد لك أن بعضا منهم كانوا أفرادا قادرين ...... » ثم واصل حديثه قائلا : « ولكننا لو حصرنا حديثنا فى المهذبين ، قلت إنى عرفت منهم إثنين معرفة جيدة فى شبابهما ، وكثيرا ما أفكر فيهما معا ، مهما كان بينهما

من خلاف . أما أحدهما فهو لوجان پيرسول سمث ، وأما الآخر فهو ستراتشى . وكان كلاهما من رجال العلم والثقافة . غير أنه كان بينهما هذا الاختلاف الكبير على الأقل كما عرفتهما . كان پيرسول سمث موهوبا فى إجادة الكتابة — وقد فعل . أما ستراتشى فقد كتب لأنه اضطر إلى ذلك اضطراراً . كانت الكتابة فى نفسه وكان لا بد من ظهورها . وبرغم هذا ، فمن التناقض العجيب ألا يكون لپيرسول سمث أتبــــاع ، لأنه كان يفتقر إلى الابتكار الذى تلمسه عند غيره . أما ستراتشى الذى كان له أتباع ، فقد كان السبب فى ارتكابهم أضرارا جمة ».

وأضافت إلى ذلك قولها : « ثم إن بعضهم كان فاسدا حقا » ...

واستطرد هوايتهد قائلا : « ولقد جاء ستراتشى فى نهاية عصر قوى . وأؤكد لك أنه كان قديرا ذكيا ، ولكن أولئك الذين حاكوه مباشرة كانوا جماعة من الكتاب الذين ينقصهم ذكاؤه كما تنقصهم مقدرته ، وقد ارتكبوا أضرارا كثيرة . كيف تعرّف تهكم سنتايانا » ؟

وأسرعت زوجته إلى الإجابة قائلة : « شأن هدام » . وروت تكرار مقابلتها له فى حجرات طالب فى اكسفورد . كان شديد القرابة به ، وكان معجبا بسنتايانا ، فكان يدعوه دائما لتناول الشاى . « وكان سنتايانا دائما يعامل الشاب بتهكم . ولم يكن الشاب من أصحاب الفكر العميق ، ولكنى راقبت ما كان يجرى وحكمت عليه بالسفالة . إنه تهكم رجل فقد الإيمان فحاول أن يحطمه فى الشباب — وهو عندى عمل شيطانى » !

وأجبت بقولى : « كثيرا ما يقال عنا نحن الأمريكان إنا سذج لا يرجى لنا صلاح . ولكنى بعد ما قرأت هذا المجلد من سيرة سنتايانا بقلمه ، وأعجبت بنثره الرائع وبما حوى من ومضات الإلهام ، وبعد ما ضحكت من نقده لنا ، بعد هذا وجدت نفسى فى شك مما إذا كنا جميعا من الغباء بحيث لا ندرك ما يسخر به غيرنا منا من وراء حجاب من التهكم » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن شعبكم يستقبل ذلك بروح طيبة ، كما يستقبلون النكتة التى تقال فيهم . ولكن من الخطأ أن يظن أحد أنكم لا تفهمون ماوراء ذلك . منكم روائى معاصر بيننا يسخر منكم بنفس هذه الطريقة . وأنتم تأخذون سخريته بنية حسنة ، وهو لا يستغل أحداً . وسخريته تصدر عن عدم الايمان ، الذى يبدأ — كما هى الحال فى السخرية دائما — من عدم إيمانه بنفسه » .

« إن ذلك ينبهنا إلى أمر يحير فى سنتايانا . إنه يكتب عن الكاثوليكية نثرا غنائياً . ولكن هل من الممكن ، وهو يلم بكل هذه المعارف — أقصد كل شيء من الفنون الشعبية القديمة إلى علم النفس الحديث — أن يعدّ نفسه ، برغم هذا ، من بين المؤمنين الصادقين ! »

وقال هوايتهد : « إن الكاثوليكية تسمح بأن تكتب (فيها) كتابة جميلة . إنها قديمة جداً ، وهى متنوعة تنوعاً ضخماً ، رائعة فى مظهرها ، لها أوجهها الشعرية والجمالية ، ويمكن أن تكون ممتعة إلى أبعد الحدود . وليس المرء بحاجة إلى إيمان شديد لكى يقوم بذلك ، بل إنى لأقول إن الكاثوليكى الذى لا يمارس الكاثوليكية مثل سنتايانا — الذى يعتبر بوصفه كاتبا فناناً كبيراً — يؤدى أداء ساحراً ......أما عن فلسفته فإنى أعترف بأنى أحس إزاءها إحساسا مختلفاً . إن متعة الفلسفة تتوقف على إخلاص الفيلسوف . لقد نظر إلى العالم بطريقة معينة ورأى الظواهر المختلفة من وجهة جديدة . إنه ملىء برؤياه ، ومشغوف بنقلها إلى غيره . وقيمته عند الآخرين فيما رأى . إن أكثر الفلاسفة يمنون بقوة مايقولون ، وكل العظماء منهم يفعلون ذلك . أما فيما يتعلق بفلسفة سنتايانا ، فإنى أحس أنه يلعب بالأفكار فحسب . كل مايقول فاتر ، مفكك ، ويكاد لا يهمه منه شيء . لقد فاتته العظمة ، وأعتقد أن السبب يرجع إلى افتقاره إلى الإخلاص . »

وسألت : «وما رأيك فى تهكم سقراط ؟ هل ينطبق عليه ماعرفت به التهكم أولا ؟ وما رأيك فى التهكم المسرحى لشعراء المأساة الإغريق ؟ أقصد الصورة التى ترتمد لها الفرائص التى رسمها سوفوكليز لأوديب — وهو يحكم على نفسه بلسانه فى غباء ، فيلقى خطبا تعنى عنده شيئاً وتعنى نقيضه تماما عند المستمعين الذين يصيبهم الذهول .أوالتهكم التراجيبدىالذى يقدمهلنا ايسكلسفىأجاممنون — مناظر كتلك التى يمشى فيها الملك داخل قصره فوق ذلك البساط الأرجوانى ، وهو ما أغرته الملكة بأن يفعله كرمز بأنها سوف تفلح فى قتله . إن المأساة الإغريقية غارقة فى أمثال هذا اللون منالتهكم . »

وقالت مسز هوايتهد : « ذلك هو التهكم الذى يوحى به الموقف » .

قال : « إن الانحلاللم يمتد بالتأكيد إلى الإغريق فى القرن الخامس ق .م ، وهو بطبيعة الحال عصر كبار المسرحيين . وأشك أن يكون الناس قد عاشوا بمثل هذه الحيوية أو وسعوا من آفاق الملكات البشرية أكثر من ذلك فى أى مكان أو زمان آخر . ولكن ما تجده فى هذا القرن هو التساؤل عن الصيغ الدينية القديمة . وقد كفوا عن الاعتقاد أن الآلهة أشخاص غير عاديين كما كان أسلافهم يعتقدون ، بيد أنهم كانوا يرون أن الآلهة ما زال بوسعها أن تؤدى أغراضا مفيدة باعتبارها رموزا . أما عن تهكم سقراط ـ سواء اعتبرته شخصية تاريخية ، أو نظرت اليهقليلا فى ضوء شخصيته الأدبية فى (محاورات) أفلاطون ـ فقدكان هناك بطبيعة الحال نقد حى فيه تشكك للديانة التقليدية ـ منالسفسطائيين ومن إليهم ـ ولكنك تجد كذلك فى ذلك المجتمع شيئاً شبيها لما تجد، بصورة أكثر شيوعا فى مجتمعنا اليوم ، أعنى أنك قد تجد فى نفس الوقت والبيئة ـ كما تجد عندنا فى لندن بين جماعة البلومز برى ـ حركة عقلية تتميز بالانحلال، وفى الزاوية الأخرى قد تكون هناك بداية حياة جديدة قوية للعقل والمجتمع ، حتى إنك قلما تستطيع أن تقول إن العصر قطعة واحدة . فى كل عصر من

عصور الانحلال قد تكون هناك بضع بذور للمستقبل ، كما كانت هناك نشأة المسيحية عند انحلال الامبراطورية الرومانية ، ولكن المرء لا يستطيع أن يتبين فى حينه أى هذه البذور سيموت وأيها سيحيا ليرث ما بقى من شئون روما . ويدعونا ذلك إلى زيادة التسامح ما دمنا لا ندرى من أى هذه البذور سينبثق المستقبل . وهناك خطاب رائع من الامبراطور تراجان [1] حول هذا الموضوع ، عن المسيحيين ، الذين كانوا يعدون من أسباب القلق والضيق . يقول تراجان إنه من الأفضل إن أمكن — مسالمتهم وتهدئتهم ، بدلا من اضطهادهم . »

ثم أثير هذا الموضوع : هل الأسطورة هى الصورة التى تعبر بها الشعوب البدائية عن آرائها العامة قبل أن تكون لهم لغة من المجردات ، مما يؤدى فى آخر الآمر إلى الظن بأن الأساطير لم تكن سوى أفكار مجردة . وقد أثرت هذا الموضوع من قبل ، بيد أنى أثرته مرة أخرى ظانا أن شيئا مختلفا قد يتمخض ، وقد حدث .

قال هوايتهد فى وثوق : « إن الأسطورة تأتى قبل ظهور الأفكار العامة . وعند أول ظهورها ، لاتكون هناك — فيما أعتقد — فكرة تشخيص أى

---

(١) « إن الطريقة التى اتبعتها ، يا عزيزى بابنى ، فى محاكمة أولئك الذين اتهموا أمامك بالمسيحية ، ملائمة جداً ؛ إذ أنه ليس من الممكن أن توضع خطة معينة للعمل طبقا لها فى جميع الحالات التى من هذا القبيل . بيد أنى لا أنصحك ألا تجرى أية تحريات رسمية بشأنهم إذا هم سيقوا إليك ، وثبتت عليهم الجريمة ، فلابد من عقابهم ، مع هذا الشرط : إذا أنكر المتهم أنه مسيحى ، وأثبت ذلك بدعاء آلهتنا فعليك أن تسامحه بعد أن يقرر الندم (برغم كل شك سابق) . أما البيانات التى لا يذكر فيها اسم المتهم فلا ينبغى أن تقدم إلى المحاكمة على أية صورة من الصور ، لأن فى ذلك إقراراً لمبدأ غاية فى الخطورة ، لا يتفق ألبتة مع عدالة حكومتى » الفصل العاشر من (الخطابات) لجيوس بلنيوس كيسليوس سكندس (بلينى الصغير) . ويعتقد مومسن أن تاريخ هذا الفصل العاشر هو عام ١٠٨ أو ١٠٩ بعد الميلاد .

تصور مجرد على الإطلاق . بل الأرجح أن واضعي الأساطير يرون شخصيات معينة متصارعة ، يؤدى صراعها إلى نتائج معينة ، أو يرون قوة ، ناهضة فى العالم المحيط بهم ، تعارضها أو تؤازرها قوة أخرى . ثم يشخصون هذه العمليات وفيما بعد تعيد النظر فى هذه الأساطير عقول أكثر فلسفة ، فترى أنها تحتوى على بذور الأفكار المجردة . كما كنا نقول منذ لحظة عن الإغريق حينما كفوا عن الاعتقاد فى أن آلهتهم كائنات فوق البشرية ، ولكنهم رأوا فيها بعض أوجه الحق الرمزى » .

قلت : « إن أحد الذين أرخوا سيرة شلى ، وهو كلتن بروك — فيما أعتقد — قال إن شلى أحد واضعى الأساطير القلائل الذين عاشوا فى العالم الحديث » .

فقال هوايتهد : « إن شلى شاعر عظيم جداً . وكنت أكثر من قراءته فى وقت من الأوقات حينما كنت أقرأ الشعر . ولكنى لا أقرأ الشعر اليوم » .

« إن مادفعنى إلى إثارة السؤال هو أن أكثر الآداب العظمى وراءها أساطير شعبية . ويبدو أنه ليست عندنا نحن الأمريكان أساطير — على الأقل بهذا المعنى ، وهو أن أكثر ماضينا فى هذه القارة قد حدث فى ضوء شديد هو ضوء التسجيل التاريخى القوى » .

قال هوايتهد : « أنتم أيها الأمريكان تخلقون اليوم أساطيركم » .

وأدى ذلك إلى مناقشة حادة عن بعض أساطيرنا .

وأجابته مسز هوايتهد فى خبث : « إن إحدى هذه الأساطير هى الديموقراطية » .

وقال هوايتهد : « إن الآراء السياسية التى يقوم عليها مجتمعكم الأمريكى نوع من الأساطير . ولها تاريخ طويل إذا بدأنا بالعصر الحديث نسبياً (أقصد أن نترك الأصول الإغريقية الرومانية والهلينية العبرية) قلنا إنها تنبعث عن لوك فى

القرن السابع عشر الإنجليزى ، ثم تنحدر إلى الفرنسيين العظام فى القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تطبق عمليا قط حتى أتت إلى مؤسسى جمهوريتكم . والهدف من هذه الأسطورة السياسية هو تحسين حياة الرجل العادى وتأمينها . بيد أن هذه الأسطورة فى القرن التاسع عشر فى أمريكا تمرضت لانقلاب جدى . فقد فُسّر حق الرجل العادى فى الحياة الطيبة بحق بضعة أفراد استثنائيين ، بنسبة واحد لكل ألف تقريبا — أو أقل — أقصد بحقهم فى استغلال موارد قارة جديدة بطريقة يجعلون بها أنفسهم مفرطين فى الثراء ، وحينما أقول « استثنائيين » أرجو ألا تفهم أنى أعنى أنهم ممتازون . بل لقد يكونون فى كل آصرة من من أواصر الحياة ماخلا تكوين الثروة على درجة من الانحطاط ، وكثيرا ما يكونون كذلك . ولكن بتقدم القرن التاسع عشر فى هذه القارة ، كان هؤلاء الأفراد هم الذين حملوا هذه الأسطورة السياسية ، وبهم انحطت إلى هذه الفكرة الخاطئة المبتذلة : وهى أن أى فرد فى أمريكا يستطيع أن يصبح ثريا إذا أصر على ذلك . وفى هذا القرن الحاضر عليكم أن تنقذوا المعانى الأصيلة لأسطورتكم السياسية من أولئك الأفراد القلائل الذين يسيطرون على ثروات ضخمة ، والذين أساءوا معنى الأسطورة » .

قلت : « إنك تحيرنى بشأن الحكم الذى سيصدره المستقبل على العصر الفكتورى » .

قال هوايتهد : « كان جو هذا العصر من الناحية الاجتماعية خانقا ، وقد كان هذا الجو الخانق عقبة فى سبيل جانب كبير من أدب العصر ، لأن الأدب يخضع إلى حد كبير للصور الاجتماعية التى ينشأ فيها . إن الناس فى القرن الثامن عشر — فى إنجلترا وفرنسا على الأقل — كانوا أكثر حيوية وأشد نفاذا من الناس فى القرن التاسع عشر — ولكنا حين نقول بهذا يجب أن نذكر دائما أننا لا نتحدث إلا عن القلة المحظوظة التى تعلو قـــة المجتمع . ولا يتفوق

القرن التاسع عشر إلا فى اهتمامه بعامة الناس . فهذا شىء جديد . وكان هذا الاهتمام فى أول أمره يتعثر ولا يستقيم ، ولم يمتد إلى الناس جميعا بأية حال من الأحوال . ولكنه كان صادقا ، وهو يميز القرن التاسع عشر عن كل قرن آخر سبقه . وحينما يتلاشى هذا الصراع المالى الحاضر ، فسيكون ذلك هو الجانب فى عصرنا الحاضر الذى يستحق الإنقاذ — إن أمكن إنقاذه . »

« وما هى فى رأيك مرتبة العصر الفكتورى من الناحية الثقافية ؟ »

« إنه فى مرتبة عصور العالم القليلة العظيمة ، ولكنه أقلها شأنا » .

« وهل يمكنك أن تعطينى فكرة عن مكانته وقيمته » ؟

« أجل ، إنه يشبه إلى حد ما تلك الفترة من الإمبراطورية الرومانية التى جاءت بعد تاستس ، حينما كانت الحياة آمنة سليمة إلى حد كبير ، ولكنها لم تكن براقة جدا — فكان عصرا فضيا ، ولم يكن عصرا ذهبياً » .

وسألت مسز هوايتهد : « ما هى التواريخ التى تحدد بها العصر الفكتورى ؟ »

فأجاب : « ربما كان القرن التاسع عشر تعبيرا أفضل . ويبدأ القرن التاسع عشر عندى بعام ١٨٣٠ ، وينتهى بطبيعة الحال بعام ١٩١٤ . فى عام ١٨٣٠ كان معظم عظماء الرجال الذين خلقوا عظمة هذا القرن لا يزالون فى الكليات . »

وسألت مسز هوايتهد بغتة : « قل لى أى شاعر أو شعراء من الإنجليز فى القرن التاسع عشر لا زلت تقرأ ، إن كنت تقرأ ألبتة شعرا ؟ . . . هل هو شلى ؟ » .

ولما كان سؤالها موجها إلىّ ، فقد ذكرت قائمة طويلة من الشعراء ، ومن بينهم تنسن .

« أى القصائد تقرأ ؟ »

« (الكأس المقدسة) فى عيد الميلاد ، و (موت آرثر) فى عيد رأس السنة ،

و (للذكرى) فى فترات كثيرة »

قالت : « (للذكرى) ليست قصيدة ناجحة ، وكان لابد لكى تنجح أن تكون تدفقا لروح معذبة ، ولكنها لم تكن كذلك . »

ولما كنت أعلم أن زوجها يقدر القصيدة قدرا أعلى من ذلك بكثير ، وقد تحدث عنها باعتبارها واحدة من تلك القصائد الجدية الكبرى فى الأدب الإنجليزى. فقد نقلت الموضوع إليه .

قال : « كان تنسن شاعراً عظيما يعالج موضوعات لا أعدها جليلة . كان موضوعه إنجلترا فى عهد فكتوريا » .

قالت : « إذا ذكرنا الروائيين الإنجليز فى القرن التاسع عشر ، قلنا إن بعضهم كان مجيدا ، وبعضهم أقل إجادة . ولكن ألم يتفوق هذا القرن فى العلوم ؟ فهناك داروين . . . . »

ولم يعلق هوايتهد على ذلك ، وأحسب أنى عرفت السبب فى هذا ، وهو أن القرن التاسع عشر — حتى نهايته بالتأكيد — كان ضعيفا فى العلوم إذا قيس إلى القرن السابع عشر ، وهو « قرن العبقرية » كما أطلق عليه فى كتابه (العلم والعالم الحديث) . وهنا حاولت أن أقحم جيتة وبيتهوفن ، غير أنى ذكرت أن قرننا التاسع عشر قد حكم عليه أن يبدأ فى عام ١٨٣٠ ، فى حين أن جيته قد توفى فى عام ١٨٣٢ وبيتهوفن فى عام ١٨٢٧ .

واستطرد هوايتهد قائلا : « ولكن إذا كان هذا الاهتمام بعامة الناس يميز عصرنا وهو صفة من صفاته التى تدعو إلى الإعجاب ، فهناك إلى جانب ذلك هذا السؤال : ألا يتبط انتشار الفرص على نطاق واسع من الموهبة و العبقرية ويهبط بهما إلى مستويات أقل ارتفاعا ؟ كانت للقرن الثامن عشر وسائله التى يتعرف بها الموهبة ويتعهدها ، بالرغم من أن هذه الوسائل كثيرا ما كانت ناقصة . فكيف

يمكن أن نتعرف إلى القدرات الاستثنائية ـ ولا أعنى المواهب العادية ، وإنما أعنى القوى الاستثنائية حقا — فى مجتمع ديمقراطى تماما » ؟

فقالت مسز هوايتهد جازمة ، ومؤكدة رأيها بهزها فى عنف شديد كرة خيط النسيج التى كانت بيدها : « إننى لا أتفق معك فى هـذا . إن التسوية تطلق المواهب التى لم تـكن تنطلق من قبل و (ترفع) المستويات بنشر الفرص . وإليك مثالا من تطبيق هذه النظرية . لم يصل إلينا من روايات القرن التاسع عشر إلا أحسنها . وقد نشرت بين روايات أخرى أكثر عدداً وأقل قيمة أو لا قيمة لها ألبتة . وكلما ظهرت رواية جديدة فى القرن التاسع عشر عُدّ ذلك حدثا من الأحداث . أما اليوم ، فإن عدد الروايات ـ السيئة والحسنة والعادية ـ التى تصدر قد ازداد بدرجة كبيرة ، ومع ذلك فإن نشر الرواية الجيدة لا يعد حدثا ، إذ أن هناك عدداً كبيراً منها » .

قلت : « باعتبارى رجلا لا يقرأ من الراويات المعاصرة ما يكفى لأن يكون لى حق إبداء الرأى ، أقول إنه مما يسترعى انتباهى أن تولستوى ودوستوفسكى ، وترجنيف ، وتشيكوف ، وجوركى ، الذين كتبوا الروايات فى ظل الأوتقراطية القيصرية ـ هؤلاء على الأقـل لم يتفوق عليهم كاتب ممن عرفنا منذ ثورة سنة ١٩١٧ » .

وسألت مسز هوايتهد : « ولـكن هل تسمى روسيا السوفيتية ديمقراطية ؟ »

وأجاب هوايتهد قائلا : « نحن الإنجليز والأمريكان ضعفاء التصور بدرجة فريدة فى تفسيرنا لمعنى (الديمقراطية) . ويبدو أننا لا نستطيع أن ندخل تحت تعريفنا أية صورة من صور المجتمع لا تتفق تمام الاتفاق وصورة المجتمع عندنا ، أنظر إلى الطريقة التى تقاتل بها جيوشهم فى هذه الحرب . إن الشعب الروسى كله متحد بالتأكيد فى تصميمه على تحرير أرضه من الألمان . ولا جدال فى أنهم سيفعلون ذلك . إن اتحادهم فى الدفاع كامل ، لأنهم يدافعون عن نظام اجتماعى

يحسون أنه نظامهم ، وأعتقد أن القوتين العظيمتين اللتين ستتمخض عنهما هذه الحرب هما روسيا وأمريكا ، على تناقض فى المبادىء التى تدفع كلا منهما ، المبادىء الروسية ستدور حول التماسك ، والمبادىء الأمريكية حول الفردية .

« هل ترى فى أية ناحية من نواحى الفكر السياسى المعاصر أية فكرة جديدة فيها قوة المستكشفات العلمية وما يترتب عليها من مخترعات فى الخمسين سنة الماضية ؟ » .

« هناك ماركس بالطبع ، وإن كنت لا أستطيع التحدث عنه فى وثوق » .

« لقد وضعه لنين موضع التطبيق » .

« نعم . ومن الحقائق الفذة أن نبى الثورة العمالية قد وجد أول تطبيق عملى لآرائه فى مجتمع تسوده الزراعة » .

وقد تطوعت لتصويبه مسز هوايتهد بقولها : « ذلك لأنه بلغ غاية الفساد وأوشك على الانهيار »

وقال هوايتهد : « ألم يمت لنين فى الوقت الملائم ؟ ألم ينته من مهمته ، وأصبح المطلوب رجلا ذا موهبة أقل قدرة على النظر وأكثر قدرة على العمل ؟ »

« ألا ترى أن تروتسكى يفى بالمطلوب ؟ »

وقال هوايتهد إنه يشك فى أن يكون تروتسكى ذا فائدة كبرى كرئيس لوطن اشتراكى ، — أو بصراحة أوفى — لروسيا السوفيتية . وعلقت بقولى : « حينما طرد ستالين تروتسكى من روسيا ، قال تروتسكى — فيما أذكر — إن ستالين تدهور شنيع بعد لنين ، وسيحكم روسيا لا كمفكر عظيم ولكن كرجل بالعقلية السياسية لرئيس من رؤساء السجون » .

وقال هوايتهد وهو يبتسم متلطفاً : « يبدو أن قدراته الخاصة تجد فى الوقت الحاضر مجالا نافعا » .

« إنك تذكرنى — وأنا أذكرك — بما قلت لكنستابل فى (نادى السبت) حينما كنا نبحث فيما إذا كان إيدن يستطيع — عند الضرورة — أن يحل محل تشرشل ، بعدما أصيب تشرشل بالالتهاب الرئوى . وقال كنستابل الذى كان على معرفة بايدن (إنه ليس رجلا لامعا ، ولكنه شخص مهذب ، ثم قلت أنت .. »

وقالت مسز هوايتهد وفى نفسها شر : « ماذا قال ؟ »

« قال : « إن تشرشل وهو ملقى على سريره يعانى الالتهاب الرئوى أفضل كرئيس للوزراء من أى رجل آخر فى إنجلترا ممن يدنون منه . قد يكون إيدن شخصاً مهذباً ، ولكن هذا الوقت ليس بوقت التهذيب ! »

(وأثار ذلك فى الجالسين إلى المائدة عاصفة من الضحك) .

ثم جيء بالشكولاته فوق الطاولة ، وقد بلغت الآن نحو العاشرة . وكانت الشوكلاتة أفضل من أى وقت سبق ، أو ربما كنا جميعا أشد جوعا مما اعتدنا . ثم انتقل الحديث فى الوقت نفسه إلى النظام المدرسى .

وقال هوايتهد . « كنت رئيسا للطلاب فى شربورن ، وقد اضطررت ذات مرة أن أضرب أحد الطلاب علقة . وكان ذنبه سرقة بعض النقود . وقال ناظر المدرسة « إما أن تضربه على مشهد من المدرسة أو أطرده . ولم يعد بعدئذ مجال للاختيار . وكان لا بد لى من التنفيذ . ولم يكن الأساتذة بالطبع حاضرين . وتم الضرب بحضور الطلاب فقط » .

« وماذا كان إحساسك به » .

« لم أحب أن أفعل ذلك ، وإنما أرغمت عليه إرغاما . وكان الضرب فى تلك الأيام ـ فى السنوات المتأخرة ما بين عام ١٨٧٠ و١٨٨٠ ـ ضرورة من ضرورات النظام معترفا بها . وكان ناظر المدرسة — وهو رجل طيب القلب بدرجة غير عادية — يضطر بين الحين والحين إلى أن يقوم بالضرب بنفسه . وكلما ضرب

طالما رأيناه يخفى رأسه بين ذراعيه ويبكى . وكنت تستطيع أن تسمع وقع الدبوس ! »

« ألم يضربك أبواك قط فى طفولتك » .

« كلا . إذا احتاج الأمر إلى ضربى ، كانا يقدمان إلىّ جرعة من دواء ويقولان لى إنه يؤسفهما اعتلال صحتى » .

وقالت مسز هوايتهد ثائرة : « لقد ضربنى أبواى . ولم يؤد ذلك قط إلى نتيجة حسنة . إنما كانت التربية فى بريتون حازمة . ونشأنا فى طفولتنا على قصص العصور الوسطى الشعبية التى كانت ما تزال تروى فى الريف . وأذكر مرة أن قيل لى وقد أخطأت — كما قيل للفارس الجريح الذى قال فى حلبة اللعب [إننى أحس بالعطش] — قيل لى ما قاله له الملك (اشرب دماءك يا بوما نوار وان تعطش بعد ذلك) » .

وكنا نتصفح ألبوما من الصور الفوتوغرافية القديمة ، ونبحث عن فريقين من فرق الكركت فى شربورن عند ما كان هوايتهد شابا لم يبلغ العشرين من عمره . وقد أخذت الصور أمام ما يشبه أن يكون بوابة غوطية قديمة . وقلت إنها تبدو قديمة جدا .

وقال هوايتهد : « لقد احتفلت المدرسة بعيدها المائتين بعد الألف فى عام ١٩٤١ ، والمعتقد أن تاريخها يرجع إلى عهد الملك ألفرد . وكان أحد مبانيها ديرا ، والمظنون أن الحجرة الصغيرة التى شغلتها فى سنتى الأخيرة كانت حجرة الراهب » :

وسألت مسز هوايتهد : « هل تستطيع أن تتبينه من بين هذه الجماعة من الشباب » ؟

وكانت هناك مجموعتان من الصور الفوتوغرافية فى نفس المكان من عامين متتاليين . وكان التعرف إليه فى المجموعة الثانية — وهو أكبر — أيسر منه فى المجموعة الأولى وهو أصغر .

وقال هوايتهد : « من الأمور التى تسترعى الانتباه فى تربيتنا بهذه المدرسة - ولم يكن ذلك خاصاً بشربورن وحدها بأية حال من الأحوال ، وإنما كان من مميزات كل تربية مدرسية إنجليزية فى ذلك الوقت — أننا درسنا أدب اليونان وتاريخهم ، ولكننا أخذنا منهما تلك الأوجه التى كانت تشبه — فيما يبدو — حياتنا وشئوننا الإنجليزية ، واكتفينا بذلك . فأثينا — مثلا — كانت قوة بحرية ، وكان لإنجلترا أسطول بحرى . ولما كانت الآفاق الواسعة للقوة البحرية الحديثة لم تعرف بعد ، فقد ظننا أنها تنطبق أساسا على سواحل أوربا ، كما كانت القوة البحرية الأثينية تمارس نفوذها على السواحل والجزر فى شرق البحر المتوسط : مع ملاحظة أن أحداً لم يدرك أن ذلك كان يحدث بالفعل إنما كنا نأخذ من العالم القديم ما كان يمكن تطبيقه علينا وكذلك - فيما يتعلق بروما - - قرأنا كبار المؤلفين فى العصر الجمهورى المتأخر وفى عهد أغسطس ، ولكن الجانب من التاريخ الرومانى الذى بدا مشابها لتاريخنا هو تلك القرون المتأخرة بعدما فقد الأدب أعظم أسمائه — وكان تاستس آخرهم فى رأيى — وهى القرون الثلاثة التى تلت عام ٧٠ بعد الميلاد ، حينما كان المهم هو احتفاظ روما بمستواها المرتفع عن طريق السياسية الحكيمة والإدارة المدنية . . . وإذا وازنا بين المؤلفين الاغريق والرومان كل فى عصره الزاهر ، أى فى القرن الخامس فى اليونان وفى عصر أغسطس بالنسبة لروما ، وجدنا أن الإغريق يتفوقون على الرومان بدرجة لا يمكن قياسها فالآراء عندهم أشد ابتكارا وأقوى حيوية بدرجة كبيرة . والواقع أن المؤلف الرومانى الوحيد الذى أرى أنه يمكن أن يقاس إلى اليونان فى صفات الحيوية والابتكار هو رجل قد يدهشك . هو لوكريشس » .

وأجبت بقولى : « إن لوكريشس لديه مايقوله لشعوب عصرنا . وذلك لا يدهشنى . لأنى أذكر كيف أن أرنولد توينبى قد وجد عند لوكريشس فى إحدى مقالاته تلك الأسطر التى تجادل فى أن الموت يحطم الشخصيه . وطرأت هذه الأسطر على ذهنه

خلال ربيع عام ١٩١٨ . وقد كتبت بعد مائة وخمسين عاما تقريبا بعدما جلا هانبال عن إيطاليا ، غير أن فزع ذلك الغزو كان لا يزال حيا فى أذهان الناس ، إلى حد أن لوكريشس ظن أن مجرد ذكراه جعل النسيان يبدو أفضل من الخلود الشخصى ..... ويؤدى بى هذا إلى موضوع أردت أن أفاتحك فيه . وهو ليس موضوعا سارا ، وسأجد مشقة فى صياغته بدقة ، لأنه لا يصدر عن دليل واحد ، وإنما يصدر عن آلاف الانطباعات المتناثرة ؛ عما أقرأ ، وعما أشاهد ، وما أسمع ، وما أمارس ، وما يترك لى استنتاجه . ثم تتجمع آثار ذلك كله ، والطريقة الوحيدة التى أعرف كيف أعبر بها عنه فى آخر الأمر قد تبدو تافهة ، بالرغم من فداحته . والموضوع هو هذا : إننا نعيش وسط انحلال مستمر لما اعتاد الناس أن يسموه (الحياة المتمدنة) » .

فقال : « لا أعد ذلك موضوعا تافها . بل إنى أراه صادقا . وأعتقد أن صديقنا العزيز آدم سمث كان له به شأن كبير . لا بمعنى أن كلمات فرد واحد قد يكون لها كل هذه النتائج البعيدة ، ولكن بمعنى أنه عبر عن نصف الحقيقة التى كانت من قبل كامنة فى عقول الناس ، وهى الحقيقة التى تكمن فى الواقع هناك دائما ، ثم أخذها الناس كحقيقة كاملة ، وشرعوا يعملون طبقا لها . وأقصد بها فكرة سيادة الدافع الاقتصادى عند الإنسان . إننى لا أنكر أن الدافع الاقتصادى موجود ، إلا أن ما يسىء إلى أمور الناس هو أن يأخذوا أنصاف الحقائق على أنها حقائق كاملة . وقد اكتسب ذلك الدافع المادى أهمية قصوى ، وحفز الناس إلى العمل بمقتضاه بما حسبوه ضميرا حيا . إلا أنه لم يكن هناك فيما مضى عصر عظيم ؛ ولا يمكن أن يوجد مثل هذا العصر العظيم ، ما لم يعمل وفقا لدوافع رفيعة مثالية . وقد نُبذت المثالية فى عصرنا جانبا . وها نحن ندفع الثمن » .

قلت : « إن كلمة (المثالية) نفسها كانت محل السخرية منذ الحرب العالمية الأولى . ولما كنت أكتب لقراء الصحافة اليومية فقد أصبحت شديد الحساسية

لأى نوع من الأفكار يقبله الناس وأى نوع لا يقبلونه ، كما أحس بالطريقة التى لابد منها لإعادة صياغة الآراء غير المقبولة حتى تستطيع أن تشق طريقها . وفى نفس الوقت تقريبا بدأنا نلاحظ أن هناك تدهوراً ظاهراً فى تأثير الديانة المسيحية».

قال هوايتهد : « لقد اتجهت الديانة المسيحية وجهة خاطئة جداً » .

وعلقت على ذلك بقولى :« إن الديانة البوذية ، وإن كانت شديدة التعقيد - أشد تعقيداً فى الواقع من أن أستطيع إدراكها - إلا أننى أتخيل - برغم ذلك - أنها تدعو إلى الاحترام من الناحية العقلية » .

وأضاف هوايتهد إلى ذلك قوله : « إن الهنود أدركوا - من بين ما أدركوه - أوجه الشبه بيننا وبين الحيوانات ، وضمنوا ذلك تفكيرهم الدينى ، ولكنك لا تستطيع أن تسميها فكرة تدعو إلى المساواة ، لأنهم كانوا يرون أن من واجبنا جميعا على السواء أن نتخلص من شخصياتنا اللعينة» (قال ذلك وهو يبتسم ، ولكنه سرعان ما عاد إليه جده) « أما عن الديانة المسيحية ، فهل تستطيع أن تتصور شيئا أشد بلاهة من الفكرة المسيحية عن السماء ؟ أى رب ذلك الذى يريد أن يخلق الملائكة والناس ليتغنوا بحمده ليلا ونهارا وإلى الأبد ؟ لاشك أن تلك هى صورة الحاكم الشرقى المستبد ، بغروره الوحشى الفارغ . إن مثل هذه الصورة إساءة إلى الله . . . . ولكنى أقول لك برغم هذا إن المسيحية - من ناحيتها العاطفية والجمالية - تلعب دوراً هاما فى حياة الناس الذين لا يرقون إلى مستوى عقلى رفيع ، فى حياة النساء خاصة ، وهى تشد أزرهم بدرجة تمس مشاعرهم مساً شديدا . إن من أسوأ ما صادف الأوربيين من حظ ، هو أنه لما حل موعد إصلاح الكنيسة ، وضع مارتن لوثر الصور الجديدة ، التى نبذ فيها الجانب الجمالى والعاطفى ، ولم يبق إلا على العظام الجافة لعلوم الدين مجردة من اللحم » .

وقد أدى الحديث عن الديانة الجرمانية إلى الحديث فى الدراسة الجرمانية ، وصفاتها التى تتميز بها إذا نظرنا إليها بجوار الدراسة فى فرنسا وإنجلترا .

وسرعان ما عمم هوايتهد الحكم فى أنواع الدراسة الثلاثة بغير تحيز ، فقال :

« إن البحث العلمى فى ألمانيا يشترك فى عيب أراه شائعاً فى أكثر البحوث . فالباحثون يصرون على استعمال كلمات كأن معانيها قائمة فى فراغ . إنهم يقولون « هذا الرجل قال (ذلك) فى (هذا) » كأن الكلمات نفسها هى كل ما فى الأمر ، وهم يتجاهلون كل التجاهل ما تنطوى عليه هذه الكلمات من الناحية العاطفية فى البيئة التاريخية التى نُطق بها فيها أولا . ماذا كان مجموع الدلالات العاطفية لتلك الألفاظ حينما نشأت فى أول الأمر ، وكيف غـيّرت من فهمنا لها التطورات التاريخية التى طرأت عليها من ذلك الحين ؟ » .

« حكم شاب ألمانى بعد استماعه إلى محاضرة ألقاها أحد العلماء البارزين فى برلين ، ومعه بلس برى حينما كانا طالباً فى شبابه هناك ـ حكم عليه بقوله : إن اطلاعه أوسع مما ينبغى ، وقد استمع بلس إلى مُمْسَنْ ، الذى أعجب به ، وإلى فون تريتسكى ، الذى يقر بأنه لم يستطع فى حينه أن يسبر كل غوره ، وكذلك إلى كثير من عظماء الرجال فى ذلك العهد ، وقد انتهى رأيه إلى أن كثيرين منهم كانوا كذلك (أوسع اطلاعا مما ينبغى) . والأرجح لمن يكون اطلاعه أوسع مما ينبغى أن يقنع بأنصاف الحقائق » .

قال هوايتهد : « إن أكثر الفروض أنصاف حقائق . والفرض من ناحية قد يكون خاطئاً ، ومن ناحية أخرى قد يكون صوابا . وهو — سواء أكان خطأ أم صوابا — يعتمد على مطابقته . فعندما يكون مطابقا نسميه صدقا ، وحينما لا يكون مطابقاً نسميه كاذبا . والواقع أنه لا هذا ولا ذاك ، وهو هذا وذاك ، فهو يعتمد على الملابسة التى نراه خلالها . إنه نصف حقيقة . وينشأ الضرر من اعتبار أنصاف الحقائق هذه حقائق كاملة » .

« وهل نعتقد أن الاقتصاديين كانوا بأنصاف الحقائق أشد ضرراً من المؤرخين ؟ » .

فأجاب : « كلما ازددت اطلاعا فى التاريخ قل تقديرى للمؤرخين . أعتقد أنهم رجال يدّعون أنهم يكتبون متثبتين عن حوادث ليسوا أهلا لإدراكها . وإن لم يكونوا كذلك فهم يقبلون الوثائق الرسمية لمصر من العصور على أن لها قيمة كاملة ، ناسين أن أهمية العصر الحقيقية هى فى الجو العاطفى الذى يدفع الناس الذين يعيشون فيه ، والآراء العامة التى يتأثرون بسلطانها . واستثنى من الحكم اثنين : أحدهما جِبْن والآخر ثيوسيديد . فقد كانت لجبن خبرة عملية حينما رأس كتيبته تلك التى كانت تعرف باسم (متطوعى هامپشير) . وكانت له خبرة كذلك بشئون السياسة . كما عرف مجموعة من الأدباء الممتعين فى لندن ، ثم إنه فى اللحظة اللائقة تماما هاجر إلى جنيف حيث احتك بآراء أبناء القارة الأوربية المثقفين المتنقلين . وهذه الخبرات بالإضافة إلى المؤهلات الأخرى أعدّته لكتابة التاريخ وميّزته بين المؤرخين المحدثين . أما عن المؤرخ القديم ثيوسيديد ؛ فقد كان قائداً يعد جزءاً من الحياة ومن العصور التى يصورها » .

(٣٣)

٩ من مايو ١٩٤٤

من الأمور العجيبة التى يتكرر حدوثها فى أوقات الحروب ما وقع لى فى طريقى إلى آل هوايتهد لتناول العشاء . فى كل ربيع فى الليالى اللطيفة ترتل جوقات هارفارد وراد كليف من عتبات ودنر هول ، من مكتبة الجامعة ، تلك الأناشيد التى تعرف عادة باسم رباعيات سفر . وهذه العتبات المشيدة من الحجر المتين تصعد إلى واجهة كلاسيكية قوية الأثر فى الناظر إليها ، من الطوب الأحمر ، واجهة من الأعمدة الأكاديمية من طراز جورج وكورنثيا . والمكان يتسع لبضع مئات من الأشخاص ، وتواجه الأعمدة رواقا مشابهاً فى كنيسة مموريال عبر مرج وغابة من شجر الدردار ، فيتكون منها صالة للموسيقى بهيجة

فى الهواء الطلق . وقد بنيت الـكنيسة تخليداً لذكرى رجال هارفارد الذين قتلوا فى الحرب العالمية الأولى .

وكان ستة من الطلاب - ثلاثة منهم فى زيهم الجامعى - يدفعون آلة من آلات البيانو فوق حامل ذى عجلات نحو العتبات . وقد أخذ الناس يتجمعون لـكى يستمعوا من غير شك إلى الموسيقى فى الهواء الطلق . ولم يكن الفتيان على علم بالبرنامج ، ولـكن فى تلك اللحظة وصل الأستاذ والاس وودورث ، رئيس الجوقة وقال لى إنهم سينشدون ثلاث فقرات من (نشيد الموتى الألمانى) لبرامز ، واتفقنا على أنها قطعة فيها سخرية تاريخية ، ويمـكن أن تؤدى بإحدى الطرق العديدة للأداء .

وكان المساء من أمسيات شهر مايو ذات اللون الذهبى من أثر أشعة الشمس المتخلفة خلف الخضرة الجديدة لأشجار الدردار المزدهرة . ووقعت عينى على شجرة قرنفلية اللون مترعرعة بالقرب من الـكنيسة ، وكانت طيور المزار قد بدأت بالفعل فى الغناء .

وكان هوايتهد وزوجته يجلسان فى فندق إمباسادور إلى جوار نوافذها القريبة ، التى كانت مفتحة على مصاريعها . فقد حل الربيع فجأة فى أربعة أيام دافئة . وتناولنا العشاء إلى جوار نافذة أخرى تفتح ناحية الغرب ، وما زالت تغمرها أشعة الشمس الغاربة فى لحظاتها الأخيرة . وتناولنا عشاء فاخراً ، بالرغم من أنه لم يكن على المائدة صنف واحد من المقرر بالتموين ، اللهم إلا قطع يسيرة من الزبد والسكر . وبينما كنا نتناول العشاء ، أخذ هوايتهد يتحدث عن أثر تحقيق الثراء المفاجىء على إسپانيا فى القرن السادس عشر .

قال : « إن تدفق الذهب من جزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية دمر إسپانيا فى مدى جيلين من أجيال العمر تقريباً . فما إن استنفدوا ما جمعه الأهالى ، حتى انتهى كل شيء . ولم يشهد الشعب الإسپانى كثيراً منه ، لأن شارل الخامس

استخدم الذهب فى تمويل حروبه الأوربية ومناوراته السياسية . فلم تنشأ صناعات جديدة . ومن ثم فإن السبائك الذهبية المتدفقة من العالم الجديد لم تخلق ثروة دائمة . وكان أكثر الأطعمة والسلع المصنوعة يستورد من الخارج . وقد قيل إن السلع المصدرة كانت تنحصر (فى الجنود والقسس) . غير أن رفاهية الأمة الحقيقية تستمد من نشاطها الصناعى (الداخلى) . ولا بد — بطبيعة الحال — من توزيع ثمار هذا النشاط توزيعاً عادلا بقدر المستطاع . أما إذا جاءت الثروة من الخارج دون أى جهد معين من أكثر أفراد الشعب ، فإنها تؤدى إلى الدمار . إن الأمة تنتعش وتعيش بنشاطها الداخلى . إنكم حتى إذا لم تستردوا ديونكم للأمم الأخرى بعد الحرب ـ ولا أظن أنكم ستستردونها ـ فسيكون لديكم فى هذا البلد إعدادكم الصناعى الضخم ، وإنتاجكم الزراعى ، وشعبكم بما عنده من مهارة فنية ، وبهذا تكفلون لأنفسكم إبلالكم مما أصابكم بدرجة كافية » .

وعلقت على ذلك بقولى : « لقد حلت بالإسبان كارثتان أخريان فى نفس هذا الوقت تقريبا . فى كتاب (التقاليد والتقدم) لجلبرت مرى صفحة تسترعى الانتباه ، يقول فيها إن الاضطهادقد يكون نجاحا سياسيا كاملا مهما تكن نتائجه البعيدة وبالا ، ويضرب لذلك مثلا معاملة البروتستانت واليهود فى إسبانيا ، حيث لم تكن بالتأكيد دماء الشهداء بذور الكنيسة كما يقولون » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن التسامح ينتهى دائما بنتائج طيبة جدا . لقد أدى اليهود خدمات كثيرة لإنجلترا ، وأعتقد أنهم ـ كيهود ـ فى طريقهم إلى الزوال . أنتم فى حاجة إلى اليهود فى بلدكم هذا . إنهم يكونون جانبا من السكان يدعو إلى العجب ـ فهم أدق وأحد ذهنا من سلالتنا الانجلو أمريكانية . أما مشكلة الزنوج عندكم ـ من ناحية أخرى ـ فهى مشكلة حقيقية . وحينما يرثى الإنجليز لإحضارهم إلى هنا ، فإنى أسألهم ، ومن الذى بدأ بذلك ؟ إن المزارعين من أهل الجنوب عندكم وأصحاب السفن من أهل الشمال قد واصلوا على نطاق أوسع ما بدأه الإنجليز

ويجدر بنا أن نذكر أننا ألغيناه قانونا بحلول عام ١٨٣٣ ، ولكن رق السود لم يكن قط فى جزرنا . إنما كان مشكلة فى المستعمرات » .

وقال هوايتهد : « كان فى إحضارهم من أول الأمر قصر نظر شديد . إن خيالا يسيرا كان من الممكن أن يحذر أى مخلوق من حقيقة ما يحدث . إن الدافع المباشر ـ دافع الكسب الفردى ـ أضعف أثراً من أن يصلح أساساً لمجتمع مستقر ـ وكذلك ، من هذه الناحية ، الفائدة المباشرة لأى أمة بمفردها . كما أعتقد أننا ندرك ذلك جميعا اليوم » .

وسألت مسز هوايتهد « هل تقابل دكتور برونتج » ؟

« من حين إلى حين فقط ، ولا تتهيأ لنا فرصة كبيرة للحديث الشخصى » .

وأجابت : « كان هنا ذات مرة ، وخلوت معه فى حديث . ومما قاله إنه كان من الممكن أن ينجح رئيسا على ألمانيا لو أن أمريكا وبريطانيا أيدتاه! وإنى لأعجب أية حكومة هذه تلك التى تحتاج إلى تعضيد حكومتين أخريين ؟ » .

وقلت : « حدث ذات مرة فى بيت دكتور هانز زنسر ، حيث كنا خمسة فقط على مائدة الطعام ، أن تكلم برونتج فى حرية تامة ـ وربما كان ذلك لأن زنسر كان من سلالة جرمانية . وماذكره بالتفصيل عن ازدياد نفوذ هتلر واستيلائه على الحكم كان أشبه بالمسرحية الحزينة . والظاهر أن برونتج كان على علم بما يجرى وما كان يعتزمه هتلر ، ومع ذلك فقد كان ـ فيما يبدو ـ عاجزاً عن صد التيار » .

وهنا لاحظ هوايتهد : « أن برونتج رجل تقى جدا ، ولكن الرجل قد يكون تقيا دون أن يكون طيبا . قد يكون صاحب ضمير ، ولكن هذا الضمير قد يكون سيئا لعينا ، لأن الضمير يفرض أن حوافزه نافعة من الناحية الاجتماعية » .

وانفض العشاء ، ودخلت مع هوايتهد حجرة الجلوس ، حيث جلسنا إلى جوار النافذة المفتوحة فى ضوء الشفق الرقيق حتى انتهت مسز هوايتهد من إزالة آثار

الطعام من المائدة ، وسألني رأيي في إبعاد الحكومة لسول آفري من مكاتب حراسة منتجومري في شيكاغو .

قلت : « أعتقد أن أبلغ تعليق على ذلك تلك الصورة الفوتوغرافية لآفري التي تصوره مطرودا على يدي جنديين صغيرين يتنازعانه فيما بينهما . فذلك أسوأ من تصوير الجنديين ضاحكين ، لأنهما كانا مهذبين وحاولا جهدهما أن يرفعا رأسيهما . أما من كان ساخطا على ذلك - في ظني - فهم أصحاب الأعمال الصغيرة وأصحاب الملكيات الصغيرة الذين كانوا يتشبثون بالحياة المزيزة لما يملكون وسط حرب عالمية يموت فيها الشبان الذين لم يعيشوا بعد » .

وقال هوايتهد : « أية فكرة تلك التي تفترض أن الناس - وسط أعظم كارثة في تاريخ البشرية - ينبغي ألا يضطربوا في أعمالهم التي ألفوها وكرروها ! كم كنت أود أن أكون هناك لكي أركل آفري بقدمي » !

وأبديت رأيي قائلا : « كان ذلك مهرجانا لمن يكرهون روزفلت »

وقال هوايتهد : « لو سمعتهم يتكلمون تصورت أن مستر روزفلت تولى الرياسة في عهد من الرفاهية لم يسبق له مثيل » .

قلت : « إنني أصبر على جدلهم » .

وقال هوايتهد : « إنه ليس جدلا . إنما هو ثرثرة » .

وقبل أن نستقر في جلسة المساء طفنا حول حجرة الجلوس قليلا ، متفقدين ما بها من قطع صغيرة من خشب الماهوجاني الإسباني ، الذي لم يعد بالإمكان الحصول عليه كما ذكرت مسز هوايتهد .

وقال هوايتهد : إن المكتب تحفة من التحف . وأحد هذه القاعد اليعقوبية . تقليد سيء للطراز الفكتوري . أما الآخر فيعقوبي صحيح » .

وكان لأحد القطع تاريخ عائلي وراثي يمتد إلى أربعة أجيال ، فقد انتقل من

جدة ثانية فى التسعين من عمرها إلى جدة أولى ؛ عاشت بدورها حتى بلغت التسعين أو أكثر . وقد أخذت مسز هوايتهد أحد مقاعد حجرة الطعام التى كانت تملكها إلى بوسطن لإصلاحه ، وسألت عن قيمته. وسألها المشترى : « كم قطعة لديك من هذا الطراز ؟ » فأجابت : « ست قطع » لأن بعضها محفوظ فى بيت أبنائها . فقال المشترى : « مائتان وخمسون ريالا » — « للقطع الست » ؟ — « بل للقطعة الواحدة » .

واختتمت حديثها بقولها : « ولذا فقد أمنت عليها »

وخلال حديث دار حول تحلل عالمنا مما كان يظنه آراء منيعة ، لا فى الدين فحسب ، بل حتى فى علوم الطبيعة قال هوايتهد : « كنت أقرأ (خطابات) هكسلى ، وبخاصة المجلد الثانى منها . وقد استرعى نظرى أنه أحد أولئك الرجال الذين لا يبلغون الصف الأول ، فهو قدير جداً ، ولكنه ليس عظيما. أما دارون — من ناحية أخرى — فعظيم حقا — ولكنه أغبى عظيم ممن أذكر . لقد أدرك هو وهكسلى مبدأ التطور فى الحياة المادية ، غير أنه لم يطرأ لهما قط أن يسألا كيف يمكن أن يؤدى التطور فى الحياة المادية إلى رجل كنيوتن — على سبيل المثال » .

« هناك رجل واحد أدرك هذا النقص من زمن مبكر جدا ، وذكر ذلك ، وهو صمويل بتلر » .

وقال هوايتهد : « إنهما لم يميلا إليه » .

« تقول يميلان إليه ؛ لقد حاولا أن يتجاهلاه ، ولكنه كان أقوى من أن يتجاهله أحد » .

« إن نكران دارون لانتقال الصفات المكتسبة — غلطة أخرى . من ذا الذى يعرف أين تبدأ أجسادنا وأين تنتهى ، أو كيف تنتقل الصفات بطريقة غير

الوارثة ؟ قد يكون لدى الطفل ألف ميل فطرى مردها إلى حرف أسلافه المباشرين. وقد يسرى فى الأسرة لون معين من ألوان النشاط لعدة أجيال ، فيميل إليها الطفل بفطرته. هل هذه بيئة ، أم هل هى وراثة » ؟

وعلقت على ذلك بقولى : « لقد انحدر هارفى كشنج من أربعة أجيال من الأطباء ، فى هذه الولاية أولا ، ثم فى أوهايو . ولا يستطيع كليفلاندرز أن يتذكر وقتا لم يكن فيه طبيب باسم دكتور كشنج ، كما أنه لايستطيع أن يتذكر وقتا لم يكن فيه أحد من أسرة كشنج يعالج إنسانا ما . فلا بد أن يكون ذلك قد ضاعف من قوة الدفعة الأولى عنده كثيرا » .

وقال هوايتهد : « كان أبى ، وكان جدى ، وأعمامى ، جميعا مشتغلين بالتربية أو الإدارة المحلية ، أو كليهما . وكذلك كنت » .

وقالت مسز هوايتهد تعليقا على ذلك : « ولكنك تغايرهم بالرغم من ذلك ، وتختلف عنهم اختلافا لا يكاد المرء يتصوره . وقد كنت دائما أعزو الحرارة الكلتية فيك إلى جدتك تلك الويلزية — مارى وليامز » .

وواصل هوايتهد حديثه قائلا : « إن هذا الركون إلى الوراثة له أثر سيء . فلقد اطمأن الناس إلى إهمال البيئة لأن « الوراثة ستتولى أمر كل ذلك » كما يقولون . لكنك إذا أردت لمدنية أن تتقدم فعليك بأداء أمرين أو ثلاثة . إن القوى التى تؤثر فى عقولنا وأجسامنا على الدوام لا يحصرها العد إلى درجة لا تصدق ، كالأشعة المنبعثة — مثلا — من نجم يبعد عنا ملايين من السنوات الضوئية — وهى قوى خيالية كهذه . . . كما أن صور الحياة التى يمكن للمخلوقات أن تحياها فوق الكواكب الأخرى التى تبعد عنا ملايين من السنوات الضوئية كما تبعد ملايين السنين من وقتنا الحاضر ـ هذه الصور لانهاية لها ، وهى تسمح بكل إمكان يمكن للخيال أن يتصوره . إن آلاف الأفكار تمر بعقل الإنسان يوما بعد يوم

ويجب عليه أن يرحب بها ويديرها فى ذهنه ويتدبرها فى كل وجه من وجوهها ، ويعطيها حقها من الاعتبار . إننا بحاجة إلى أن نرحب بكل وجه من أوجه الجدة ، وبكل فرصة يمكن أن تنتهى بتشكيلات جديدة . ولكننا فى الوقت عينه بحاجة إلى أن نرحب بها بعين الفاحص المتشكك ، وأن نخضعها إلى البحث الدقيق المحايد ، لأن الأرجح أن تسعمائة وتسعاً وتسعين منها سيتمخض عن لاشىء ، إما لأنها عديمة القيمة فى حد ذاتها ، أو لأننا لن نعرف كيف نستخرج قيمتها . غير أنه من الخير لنا أن نرحب بها جميعا — مهما كنا متشككين — لأن الفكرة الألفية منها قد تكون هى الفكرة التى ستغير وجه الأرض ! » .

قلت : « لقد رأى الناس فى زماننا هذا أن المستحيل كثيرا ما يتم ، ومن ثم فهم مستعدون للاعتراف بإمكان ذلك فى عالم الكشوف العلمية ، ولكنهم ليسوا مستعدين لذلك حتى الآن فى عالم الأفكار العامة الأوسع » .

قال : « سأعطيك مثالا يبين كيف أن هذه الفرص للابتكار الجديد لا يمكن التنبؤ بها . إننا ونحن جالسون فى هذه الحجرة نستطيع بجهاز ما أن ننقل أفكارنا إلى شخص آخر يجلس فى حجرة أخرى فى بوسطن أو أبعد منها . ولكنك منذ سبعين عاما لو أردت أن تتصل على عجل مع رجل فى طوكيو كان لابد لك أن ترسل إليه برقية . إنك تستطيع اليوم أن تتحدث إلى شخص ما فى آسيا يحمل معه جهازاً فى حجم الجهاز الذى فى الحجرة الأخرى . لقد فكر ماركونى أن مثل هذا الاتصال ممكن . إنه لم يكن – بطبيعة الحال – على ثقة من ذلك فى أول الأمر . وكان هناك كثير من رجال العلم الممتازين ممن يستطيعون أن يقولوا له إن ذلك ليس بالإمكان ، كما يستطيعون أن يبينوا له السبب فى عدم الإمكان . فالذبذبات بدلا من أن تدور حول الأرض ترتفع إلى الطبقات العليا من الجو ثم تتبدد . وكانت الذبذبات فعلا تصعد إلى طبقات الجو العليا ، ولكنها بدلا من أن تتشتت انعكست ثانية صوب الأرض ، وهكذا أمكننا أن نتصل اتصالا لاسلكيا . ولم يتنبأ أحد بهذه الحقيقة التى جعلت هذا

الاتصال ممكنا حتى ماركونى نفسه فى بداية الأمر. ولكن شيئا مجهولا لا يمكن التنبؤ به ـ مجرد مصادفة إن أردت أن تسميها كذلك ـ حتمت نجاح هذه الوسيلة من الاتصال البشرى ، التى تكاد حتى اليوم لا تصدق . وكذلك قد تغير إحدى الأفكار العامة أسلوب حياتنا فوق هذا الكوكب أكثر مما أثر اللاسلكى فى تبادل الصلات ـ وهذه الفكرة ـ كفكرة اللاسلكى ـ لا يمكن للأحياء اليوم أن يتصوروها » .

قلت : « إن أوربا ـ برغم كل ماانتابها من اضطرابات ـ لم تقصر فى الابتكار المستحدث ـ على الأقل منذ النهضة ، ولعدة قرون قبل سقوط روما . أما إذا مات من الشباب فى هذه الحروب الكثير ، وتكرر انحلال المجتمعات المدنية ، فإنى لأعجب ـ بعد هذا ـ من أين يأتى الدافع إلى الآراء الجديدة » .

قال : « يمكن أن يأتى من روسيا » .

وقالت مسز هوايتهد : « ولكن يكون مشوبا بالروح الآسيوية . وأرجو ألا يغيب ذلك عن ذهنك . وهذا لا يجعله نفس الدافع بعينه » .

وواصل هوايتهد حديثه قائلا : « ليست هناك أسباب كافية حتى الآن تدعونا إلى أن نفرض أن الدافع سيأتى من أمريكا الجنوبية . إنى أتوقع أن يأتى منكم هنا فى الولايات المتحدة ، بأمريكا الشمالية . فإذا عجزتم عن ذلك فأعتقد أن العالم سيتجه وجهة سيئة . وقد تحتاجون إلى قرن آخر لكى تؤلفوا بين أجناسكم . وأعتقد أنكم ستكسبون من الامتزاج بالعناصر الذكية القادمة من جنوبى أوربا . ولو ترك العنصر الأنجلو الأمريكانى القديم وحده لبقى على شىء من الغباء » .

قلت : « إن هذا الامتزاج بين الأجناس لم يبدأ إلا من عهد قريب . ويحتمل حتى الآن أن يتخذ صورة الأفراد الموهوبين الذين يرتفعون إلى مستوى يسترعى الأنظار . إن الأجناس تمتزج ، ولكنا لا ندرى حتى الآن ماذا ستكون النتيجة .

قد تكون النتيجة ارتفاعا فى الذكاء ـ وقد تكون هبوطا نحو الغباء »

قال : « إنى لم أكف قط عن الاعتقاد فى إمكان ارتفاع الجنس البشرى إلى حد معين ، يبدأ بعده فى الانحدار ، ثم لا يستعيد مكانته قط مرة أخرى . وكثير من صور الحياة الأخرى قد فعلت ذلك . والتطور قد يسير صعوداً وقد يسير هبوطا. ورأينا فى آسيا كيف يمكن أن تركد الحياة قرونا . ويبدو أن جانبا من هذا الركود قد نشأ عن التصوف الدينى ـ من أمثال هذه العبارات (لا تعبأ بهذه الدنيا) أو (إن ما يصيبنا من حظ سيء نتيجة لمراحل وجودنا التى تحتم مصائرنا والتى تعرضنا لها فى تجسيدات سابقة ، ولا بد لنا من التكفير عنه) أو (أن الأهداف التى تتحكم فى الكون لا يمكن أن يسبر لها غور ، ومن نكون نحن حتى نتساءل عنها) ؟ » .

قلت : « أما الغرب ـ فعلى نقيض ذلك ـ قلما تردد فى حمل السلاح يواجه به خضم المشقات »

فقال هوايتهد : « إن فى الأديان الجامدة فناء الفكر »

« وهل ذلك لأنها تزعم أنها تجيب عن كل سؤال قبل أن يسأل » ؟

« إن أية طريقة من طرق التفكير اليقينية تفعل ذلك . وحينما تسود الكهانة فى مجتمع من المجتمعات ، لا تجد حرية البحث تشجيعا . وإذا ما طالت سيادة الكهان انحط مستوى الذكاء العام » .

(٣٤)

٢٩ من أغسطس ١٩٤٤

أشرف الصيف على نهايته ، وبدأت أشجار الدردار فى كمبردج بالفعل تظهر بمظهرها فى شهر سبتمبر ، وأوراقها الذابلة تتساقط فوق المروج . وكانت الساعة السابعة والدقيقة الأربعون حينما دققت جرس بيت آل هوايتهد . وكان الرجل

وزوجه كلاهما يبدوان فى صحة جيدة غير معهودة . وقلت لهما : « لابد أن تبدوا كذلك ، وقدعدتما بعد شهر قضيتماه فى جزيرتكما بعين ، ثم سمعتما بهذا الفيض من أخبار الحرب السارة . لابد أنكما تتعجبان — كما نتعجب جميعاً — إذا كنا نعيش فى عالم ١٩٤٠ — ١٩٤٢ بعينه » .

وقال هوايتهد : « حقا ، إن هذه الحوادث تتذبذب » .

وسألته : « هل هى حقا لم يسبق لها مثيل . أم هل هى على نطاق أوسع من الناحية المادية فحسب » .

« لم يحدث مايشبهها مما أعرف فى ألف عام . وإن حدث ما يشبهها فقد استغرق مائة عام ، فى حين أن هذه الحوادث لم تستغرق سوى بضعة أشهر إن ضخامة مثل هذه الحوادث — فيما سبق — لم يمكن إدراكها إلا فيما بعد ، ثم لايدركها أساسا إلا المؤرخون والباحثون . أما حوادث اليوم فيمكن أن يلمس وقوعها كل إنسان ، من يوم إلى يوم ، بل من ساعة إلى ساعة » .

« إنى آتيكم وقد كدت أفقد البصر من قراءة الصحف ، أو إدمان النظر فيما يرد إلى المكتب من أخبار مكتوبة ، وذلك منذ السادس من شهر يونيه . ما الذى يقع — فى ظنك — وأنت تقرأ هذه الحوادث ، من حيث المغزى والجوهر ؟ » .

« أمران : أولهما مجرد الاحتفاظ بالنفس ، فقد أرغمنا على الدفاع عن أنفسنا ضد نوعين من الرجال الألمان العسكريين ، بعدما كان نوعا واحدا (وهؤلاء يمثلون بطبيعة الحال الشعب من ورائهم) النوع الأول ، ضباط الجيش الألمانى النظاميون من الطبقة الأرستقراطية القديمة ، والنوع الثانى هؤلاء المغامرون الجدد من الطبقة الوضيعة . وكلاهما يقول لنفسه : أليس من الأمور العظيمة أن نسترق أوربا بأسرها ! ، وهددونا باستبدادمن نوع جديد مريع . إن أكثر الغزاة السابقين كانوا يرغبون فى الإبقاء على الثقافات الإقليمية بغير مساس ! ... ... » .

قلت : « كان الرومان يؤثرون ذلك ، فإن البلاد المغلوبة أيسر فى حكمها بهذه الطريقة » .

قال : « ولكن هؤلاء الألمان شرعوا فى استئصال كل ذلك . ولست على يقين من أنهم يرمون إلى (حكم العالم) أو على الأقل أنهم حتى الآن لا يرمون إلى ذلك . بيد أنهم لو كسبوا الحرب لسببوا لكم إزعاجا شديداً عن طريق أمريكا الجنوبية . والأمر الثانى الذى يجرى كما أرى هو هذا : أنك لا تستطيع أن تشمل حربا بمثل هذه الضخامة دون أن تفتتح عصرا جديدا . لقد كان حظنا حسناً فى تشرشل ؛ فهو قائد يدعو إلى الإعجاب فى إثارة الوطنية فى شعبه فى حرب يائسة ، ولكنه لا يفكر اجتماعيا فى حدود عهد جديد . وأشك إن كان يدعو إلى الإعجاب فى إبرام الصلح » .

قالت مسز هوايتهد مؤكدة : « إن تشرشل يفكر فى حدود القرن الثامن عشر . ولطبيعته جانبان : فهو فى جانب سياسى بريطانى من الطراز الذى نعرفه ، ونعجب به فى كثير من الوجوه . ولكنى عرفت أمه ـ وهى أخف منه عقلا . . . وهو من هذا الجانب روترى مازح ، يتغنى بالأناشيد المرحة مع (الصبية) » .

واستطرد هوايتهد قائلا : « وأنتم أحسن منا حظا فى رجلكم . فإن مستر روزفلت يفكر — فيما أعتقد — إلى حد كبير فى حدود عهد جديد . وقد ظهر ذلك قبل أن تبدأ هذه الحرب فى سياسته الداخلية ، التى أغضبت بعض أصدقائنا الأثرياء . دعنا نأمل أن يعيش حتى تكون له يد طولى فى تشكيل السلام . ثم إنى فى العهد الجديد أتطلع إلى روسيا كذلك » .

« حينما أفكر فى الأثر السيىء الذى تركته روسيا فى أمريكا لمدة خمسة وعشرين عاما ، ثم أرانا اليوم متشابكين فى عناق أخوى . . . »

ثم تحدث هوايتهد فى بطء شديد ، وهو يزن ما يقول : « يبدو لى أنكم أيها الأمريكان على شىء من ضيق العقل فى آرائكم عن تفوق شكل حكومتكم وإمكان

تطبيقه تطبيقا عاما . كيف استطاع الروس أن يقوموا بما قاموا به ؟ فى القرن السابق ، أو القرن ونصف القرن ، قبل ثورتهم ، كانوا كلما دخلوا فى شئون غرب أوربا يؤيدون عادة الجانب المخطىء ، كما فعلوا مع مترنخ فى مؤتمر فينا . حقا كان هناك أفراد فانون موهوبون ممن عرفناهم فى قمة مجتمعهم وقد أجادوا فى الفنون ـ فى الأدب (تلك الروايات التى كتبها تولستوى ودستوفسكى وترجنيف التى تفضل كثيرا رواياتنا فى هذا العصر نفسه) والمسرحية ، والموسيقى ، والتصوير ... » .

« ولا تنس الرقص . . . »

قال : « وكذلك هزيمتهم لنابليون كانت إعلانا مقدما لما هو آت — كما تكون عادة أمثال هذه الحوادث العظام . ولكن العالم لم ير العظمة الحقيقية الجديرة بها روسيا حتى هذا القرن الذى نحن فيه » .

« متى يبدأ هذا التاريخ ؟ هل من نوفمبر عام ١٩١٧ ؟ »

« بل من رحيل تروتسكى وبلوغ ستالين الحكم » .

وقالت مسز هوايتهد : « لما كان لنين أرستقراطيا ثائرا فقد احتفظ بالثورة لطبقته ، كما يفعل عادة أمثال هؤلاء الأبناء العصاة . أما ستالين فهو رجل من الشعب وأحسن لهم منه تمثيلا بدرجة كبيرة » .

ووافقها على ذلك هوايتهد قائلا : « يرجع السبب فى ذلك عندى إلى أن ستالين كان من جورجيا . كان يعتقد أن روسيا . برغم تفرعها واتساعها — يمكن أن تتحد فى شعب واحد عظيم . ومما يستحق النظر ظهور هذا العدد الضخم من المواهب من صفوف جماهير الشعب الروسى فى مثل هذه الفترة الوجيزة . خذ مثالا لذلك قوادهم فى هذه الحرب . إن أكثرهم من الشبان . ولا بد أن ينتقيهم أحدما . ولست أعتقد أن ستالين قد اختارهم مصادفة . إن من وظائف المجتمع الرئيسية إطلاق المواهب على أوسع نطاق ممكن ، والظاهر أن ذلك هو ما حدث

فى روسيا . حينما تنتقل حياة الناس انتقالا عظيما فإن ذلك يكون عادة نتيجة لاجتماع سببين أو أكثر . وبالرغم من أن رجلا واحدا لا يستطيع أن يبتدع أمثال هذه الانتقالات الكبرى ، إلا أنها ما إن بدأت حتى يمكن لرجل واحد أن يوجهها هذه الوجهة أو تلك . لقد استولى نابليون على الحكم على آراء الثورة الفرنسية ، ولكنه لم يهتم قط — فى صميمه — بهذه الآراء . ومن أسباب ذلك أنه فى قيادة الجيوش أبرع مما ينبغى ، وكان تطبيق العلوم الحربية أشد إثارة لاهتمامه . وكأن الآراء الثورية قد أوقدت النار فى جهازه الحربى » .

« هل توافقنى على أن نجم نابليون كان يرتفع مادام خاضعا لآراء الثورة الفرنسية العظيمة ، ثم بدأ فى الأفول حينما طغى عليها بشخصه الإمبراطورى » .

« أجل . ونحن الإنجليز كنا فى الجانب المخطىء طوال الوقت . كانت طبقاتنا الحاكمة وأرستقراطيتنا المالكة للأراضى مرتاعة من عهد الإرهاب ومن إطاحة رأس الملك » .

« كأن الإنجليز لم يطيحوا برأس ملك ...... »

قالت مسز هوايتهد : « أجل . ولكن الأمر كان مختلفا » .

« ألم أسمع أنه كان بالأمر انفعال دينى أيضاً ، وأن الإنجليز المنحرفين عن الدين السائد اعتقدوا أن توحيد الفلاسفة الفرنسيين والقادة الثوريين ضرب من الإلحاد ؟ » .

قالت مسز هوايتهد : « كان ذلك يضم شعبنا متماسكا خلف أرستقراطنا ، حيث كانوا بالفعل » .

« وإنى لأعجب مع ذلك من أن حرب استقلالنا الأمريكية قد وجدت — من بدايتها إلى نهايتها — كتلة كبيرة من الأصوات تؤيدها فى مجلس عمومكم البريطانى » .

قالت مسز هوايتهد : « أعتقد ذلك ؛ ولكنى أود لو استطعت أن أقنع بعض أصدقائى الأمريكان بأن ذلك هو الواقع » .

« هل ترون أن الناس لا يستطيعون أن يفكروا تفكيراً عالياً كافياً يمكنهم من أن يدركوا حركات التحرير البشرية مهما تكن صبغتها القومية ، إلا بعد أن تمر بهم بعض المحن المخيفة — شخصية كانت أو اجتماعية ؟ » .

قال هوايتهد : « إن ذلك لا يتحتم دائماً ، خذ مثالا لهذا ذلك الطراز من الفرنسيين الذين غالباً ما تتمخض عنهم المعارضة الكاملة للكنيسة . إن هذا الطراز يسترعى نظرى بسوء حظه . ولقد كانت حركة الإصلاح الدينى من أشد ما عرف التاريخ من أنواع الإخفاق الذريع . فقد نبذت كل ما يجعل الكنيسة محتملة أو رحيمة ، أعنى جاذبيتها الجمالية ، ولكنها أبقت على عقائدها البربرية ».

وقالت مسز هوايتهد جادة : « إن ما يشغلنى هو أنه ما دامت المسيحية تفقد سلطانها ، فأين تجد البشرية مكاناً تستطيع فيه أن تعبر عن نيتها الطيبة مجتمعة . إننى لا أنكر الآلام المريعة التى سببتها العقائد المسيحية للنفوس ذات الحس والخيال البعيد . فلقد كان ذلك — علم الله — أمراً فيه ما يصدم النفس الكفاية ! ولكن كما أن الأسرة هى الموئل الوحيد الذى يستطيع المرء أن يقصده حينما يسلك سلوكا شائناً (ونحن جميعاً قمينون بمثل هذا السلوك فى فترة من فترات حياتنا ، حتى إن كان ذلك عن غير قصد) فكذلك يجب أن يكون هناك مكان يستطيع الناس فيه أن يتجمعوا ، لا لكى يؤدوا هذا العمل أو ذاك بعينه ، ولكن ليذكروا أنفسهم ، ويذكر كل منهم الآخر ، بنواياهم الطيبة ، وبإرادتهم الحسنة العامة . ولو كنت أعتقد أن الكنيسة ، أو أية صورة من صور المنظمات المسيحية ، لا تزال تفعل ذلك ، أو لا يزال فى إمكانها أن تفعله ، ما قلت هذا الذى ذكرت : إن الحاجة لا تزال قائمة ، فكيف نسدها ؟ » .

ولم نثر الاعتراض بأن جماهير زوار الكنيسة قد يقولون بأن الكنائس

لاتزال تسد هذه الحاجة ، لم نثر هذا الاعتراض لأن ما ينادى به صوت واحد منعزل اليوم ، كثيرا ما تنادى به الجماهير فى الغد . وإنما أثرنا — بدلا من ذلك — هذا الموضوع : هل لا يمكن أن تكون الخبرة الجمالية صورة من صور العبادة الدينية . « أليس الجمال صورة من الصور الأخلاقية » ؛

فأجاب هوايتهد : « كلا إن الجمال والأخلاق يتحركان فى ميدانين مختلفين » .

« أمهلنى لحظة ، ودعنى أحاول أن أعيد صياغة السؤال : أليس فى عمل الفنانين العظام فحوى خلقية عالية » .

« وماذا تعنى بالفحوى الخلقية ؟ »

« أعنى الأثر الذى يتركه فى المشاهد أو المستمع الفنانون الذين عاشوا وعملوا فى مستوى مرتفع تتوافق فيه المعيشة مع العمل . ومن المؤكد أنه ليس من المبالغة فى شىء أن نقول إننا نسمو بالروح حينما نستمع إلى أداء جيد فى الموسيقى يقوم به رجال عباقرة أكثر مما نسمو بها حينما نستمع إلى صاحب النيافة أو صاحب القداسة . . . . وإنى ألاقى الكثيرين ممن يرون رأيى . فكيف يمكن أن يكون أثر أمثال هذه الأعمال الفنية غير دينى » .

فقال هوايتهد وهو يسخر منى : « بينما كنت تتكلم كنت موزعا بين فكرتين إحداهما تقول : « أجل هذا يبدو صحيحاً ، والأخرى تقول : يا لله ، ماذا يعنى ؟ » ، واستطرد قائلا : « كلا . إن الأمر الوحيد فى الجمال هو هذا : هل العمل الفنى جيد أو ردىء ؟ فلو كنت أنا وأنت مثلا نستمتع بغروب جميل فإنى لا أهزك بذارعى لأنبهك سائلا إياك ، ماذا تفكر أن تعمل بهذا الغروب ؟ ، إننا نستمتع بالتجارب الجمالية من أجل ذاتها فحسب . وهذا كل حقنا فيما نتوقع منها » .

« ربما كان ما سمعت منى من رواسب مذهبين من مذاهب آبائنا المنحرفين : أحدهما مذهب بيوريتان إنجلترا الجديدة ، والآخر مذهب الصحابة فى فيلادلفيا » .

قال هوايتهد : « إن للفنان تياراً دائم التدفق من التجارب الجمالية الجديدة ولابد أن يكون له هذا التيار . وهو يترجم هذه التجارب إلى صورة فنية . وعن طريق هذه الأعمال الفنية تنتقل خبرته إلى حياة الآخرين . » وانتهى عند هذا ، ولكنه كان يعرف ـ كما كنت أعرف ـ أن ما قاله يعني أكثر مما يطرق الأذن ».

« وإذن فالأخلاق لا شأن لها بالشعر الجيد ؟ »

وتساءل باسما : « وهل كان بيرون (أخلاقيا) ؟ »

وبذلك ضمني إلى رأيه في لحظة .

«هذا شيء يؤلم الكثيرين من شعرائنا الأمريكان في القرن التاسع عشر . فهم يلتزمون (الاستقامة) على إطلاقها أكثر مما ينبغي — على الأقل فيما يدونون من مشاعر . وعندما يقرأهم المرء اليوم يجد نفسه مضطرا إلى التشكك : (إنكم لم تعتقدوا في ذلك حقا . وليس من الممكن أنكم لم تكونوا أكثر من ذلك معرفة . ولكنكم لم تجرؤوا على القول بهذا !) والمغزى (الخلقي) الضعيف الذي يزج به هوثورن في خاتمة كتابه (الخطاب القرمزي) مثال في النثر لهذا الجبن ، إذ يقول : (كن صادقا ! وبيّن للعالم في حرية أسوأ ما عندك ، أو على الأقل صفة من صفاتك تكشف عن أسوأ ما عندك !) وحينما كنت أقرأ ذلك ، حتى في طفولتي ، كنت أشعر بما ينطوي عليه من مراوغة . (إذا لم تستطع أن تكون صادقا ، فكن صادقا على قدر ماتستطيع !)

وقالت مسز هوايتهد : « إن الشاعر الذي يتحاشى كل ذلك عندكم هو هويتمان . ولم يبلغ الشعر الأمريكي في أي موضع آخر مثل ما بلغ من السمو في قصيدته التي رثى فيها الرئيس لنكلن » .

ومن هنا انتقل الحديث إلى أثر الحيل الفنية العلمية في عالمنا الحديث .

فقال هوايتهد : « إن هذه الحيل الفنية قد خلقت موقفاً لم يسبق له قط

مثيل . لقد سألتنى فى بداية هذا المساء عما إذا كنت أظن أن هذه الحوادث العالمية — الحركات الحربية وما يترتب عليها من تطورات اجتماعية — أقوى دلالة فى حقيقتها عما يشبهها من أزمات فى الماضى ، أم هل هى أوسع منها نطاقاً من الناحية المادية فحسب ؟ » .

« نعم : هل حوادث اليوم أعظم وأبعد أثراً ؟ أم هل هى أكبر فحسب ؟ » .

« الأرجح أنها ليست (أكبر) ولا (أعظم) من انهيار أثينا فى نهاية حرب بلبونيزيا بالنسبة للإغريق . والأرجح أيضاً أنها ليست أعظم ولا أكبر من سقوط روما عند الرومان فى القرن الخامس بعد الميلاد . ولكن هذا هو ما استجد : فى تلك الأزمات السابقة فى تاريخ البشرية ، وفيما شابهها ، استغرق التطور الذى لمسناه فى السنوات الخمس الأخيرة ، بل فى الخمسة الأشهر الأخيرة ، مائة عام . هذا أمر جديد ، وهو شىء مريع . ويرجع ذلك إلى سبب واحد ، وهو أن جهاز الاتصال يعمل بسرعة تكاد تكون كالبرق الخاطف . وقد تعودنا جميعاً هذه السرعة حتى أصبح ذكر هذه الحقيقة لغواً من القول . ولكن الحقيقة فى حد ذاتها أبعد ما تكون عن اللغو . ثم إن اطراد التقدم فى الحيل الفنية الجديدة بلغ من السرعة أن نسبة الزيادة منذ عام ١٩٠٠ فى المخترعات التكنولوجية أصبحت ضعف ما كانت عليه فيما بين عام ١٨٠٠ وعام ١٩٠٠ . وقد ولدت فى عام ١٨٦١ . وأستطيع أن أقرر أن الوسائل الفنية للعيش قد تطورت بدرجة أسرع وأكبر فيما بين عام ١٨٦١ وعام ١٩٤٤ مما كانت تتطور — لو رجعنا إلى الماضى فيما بين عام ١٨٦١ و ٠٠٠ » — وهنا صمت برهة ، ثم ابتسم وقال : « كنت أريد أن أقول فيما بين عام ١٨٦١ وعام ٦١ ق . م . ! » .

وواصل حديثه قائلا : « وآثار هذه الحيل الفنية الجديدة — فوق ذلك — متشابكة . فإن تطويرها فى طرق حياتنا اليومية يؤثر فى آرائنا الخلقية ، كما أن التطور فى طرق تفكيرنا يؤثر بدوره فى طرق انتفاعنا بالوسائل الفنية الجديدة ،

فيؤدى إذن إلى مستحدثات جديدة . وكما حدثتك كثيرا ، أكاد لا أذكر فكرة كانت تعد حقيقة أساسية فى شبابى فيما بين عام ١٨٨٠ وعام ١٨٩٠ ، أكاد لا أذكر فكرة من هذا التاريخ لم يتناولها التعديل الشديد ، إن لم تصبح بائدة من أثر التطورات التى كنا نتحدث عنها . ومن ثم فإن آراءنا الخلقية تتأثر بهذا الفيض من التغيرات ، كما أن التطور الذى يطرأ على الأفكار يؤثر فى طرق انتفاعنا بالحيل الفنية » .

قالت مسز هوايتهد : « منذ لحظة حينما كنا نتحدث عن الدافع إلى العبادة ، سألت نفسى : من أين – فى نهاية الأمر – مأتاه ؟ وماهو هذا الحس الخلقى عند الإنسان . إنه لدى الطفل ، بل الرضيع ، وهو يحس بالذنب — وهو ذلك الحمل المسكين – حينما يعتقد أنه خالف صورته الصغيرة عن الخير » .

قلت : « إننى أستطيع أن أرى – وأنت تتحدثين – حذاء اريك الصغير بارزا من تحت السرير » .[1]

قالت : « إننا لم نعرف قط ما كان يظن أنه ارتكب من إثم . وأول ما كان يدلنا على أن هناك خطأ قد ارتكب هو بروز عقبيه وحدهما . إننى لم أرفعه قط من موضعه . وكان يسر جدا من جذبه من إحدى قدميه وسحبه على بطنه الصغيرة . ولكننا لم ندرك خطأه أبدا » .

وقال هوايتهد وهو مشرد الذهن : « كان أشد الناس الذين عرفت فى حياتى جاذبية . وقد جاءنا رائد فرقته فيما بعد وأخبرنا بالكثير مما لم نكن نعرف . وكان مما قاله إن حديث الفسق الذى كان يدور حول مائدة الطعام كان يخف إذا حضر اريك لا لأنه كان متصلفا – لأنه لم يكن كذلك – ولكن احتراما لصفة فيه . وكان شديد المرح ، وفى أيام التهريج كان يقود إحدى الفرق » .

---

(١) الإشارة هنا إلى ما ورد عن إبنهما اريك فيما سبق من الكتاب .

وقالت مسز هوايتهد : « إنهم لم يصدقوا أنه كان يقضى لياليه الحرة فى البيت . (فيم أنت شارد ياهوايتهد ؟) — لا يكاد يصل البيت حتى يدق التليفون ، هل أستطيع أن أتكلم مع اريك ؟ وقد دق التليفون ذات مساء خمس مرات . فقلت مادهاهم ؟ ألا يستطيعون أن يتركوك وشأنك ليلة واحدة ؟ فأجاب قائلا : إنهم زملاء جذابون . ومايفعلونه لا يؤذيهم ألبتة فيما يبدو . بل ينزلق من فوقهم كما تنزلق المياه فوق ظهر البط . ولكنى إن فعلت مثلهم ، ما استطعت أن أقابلكم وجها لوجه ، ولست أدرى أى أنواع البيوت نشأوا فيها . ربما كانت أمهاتهم من أولئك النساء اللائى بلغ بهن الطهر حدا لا يناقشن فيه أبناءهن أمور الجنس » .

«إن هذه العقدة التى تحُلُّ بالألسنة البذيئة فى حضرة صبى حسن التربية أمر يدعو إلى العجب . لقد شهدت ذلك بنفسى ولكنى لا أستطيع أن أدرك على وجه الدقة ماذا يحدث . كانت «جماعة سجنت» فى هارفارد حينما كنت طالبا مجموعة من الشبان الأذكياء ، وهو أول مكان استمعت فيه إلى الشبان وهم يتحدثون حديثا طيبا . ولكن كان من بين هذه الجماعة شابان أو ثلاثة من الطبقة العليا ، وكانوا منفرين لغيرهم . وقد انضم إلى الصف السابع فى الفصل الأول من المرحلة فتى من فلادلفيا له — فى حكمى — شخصية كشخصية اريك . وقد لوحظ على الفور أنه إذا ما جلس إلى المائدة خفف الشبان الثلاثة المنفرون من غلوائهم . ولم يكن ذلك لأنه يقول شيئا بعينه ، أو يفكر فى شىء بعينه . ولكنهم كانوا يخشون ما يمكن أن يفكر فيه ؟ والطالب لا يحب أن يسىء سبنسر ارفن الظن به » .

قال هوايتهد : » إن هذا الإدراك للقيمة البشرية يظهر فى سن مبكرة . وأكثر المحاولات للتعبير عنها باللفظ يفشل».

«إنى حينما ألتقى بها — هذه القيمة الهادئة — حيث توجد أكثر الأحيان فى الحياة العامة ، أجد أنها قيمة تفوق كل القيم الأخرى ، وأنها مرتبة تعلو جميع المراتب ، وصاحبها — برغم ذلك — لا يحس ألبتة بوقارها . وكان هذا أول

ما اكتشفت حينما ذهبت إلى العمل فى المدينة ، وكانت بوسطن فى تلك الأيام أكثر شراً مما هى اليوم . كانت عابسة حقاً ، وكان بعض أحيائها نحساً وشؤماً ولكن المرء برغم هذا كان يلتقى دائماً بهذه القيمة البشرية الصامتة الفطرية فى أبعد الأماكن احتمالا لوجودها : فى أحواض السفن ، وفى أقسام الشرطة ، وفى المساكن الشعبية . لم يكن لها اسم ، ولكنها كانت هناك ، والمرء يعرفها دائماً حينما يلتقى بها . وأستطيع حقاً أن أقول لكم إنها الشىء الوحيد فيما أعرف مما له أهمية . ولا أستطيع أن أنقلها إليكم كما ترون . وكل ما أستطيع أن أقوله لكم هو أنى رأيت (شيئاً ما) ولكنه لا يعبر عنه بالألفاظ » .

قال هوايتهد : « إن الألفاظ لا تعبر عن أعمق ما ندركه بالبداهة . بل إننا لنفقده عند محاولة صياغته فى ألفاظ . إن ما نشكو منه هو أننا قد اعتدنا أن نحسب الألفاظ أشياء ثابتة ذات معان معينة . والواقع أن معانى الألفاظ اللغوية فى تذبذب شديد ، وجزء كبير مما نحاول أن نعبر عنه باللفظ يقع خارج نطاق اللغة » .

كثيراً ما تكون الموسيقى — فيما يبدو — أقرب إلى التعبير عن أعمق مشاعرنا » .

قال : « والنحت صورة أخرى من صور التعبير العميق . وأنا أزكى خاصة النحت القديم ، لأنه — فيما أظن — كان الفن الأساسى فى العالم القديم . وكانت لهم أيضاً آدابهم ، وهى آداب عظيمة ؛ وموسيقاهم ، وإن كنا لا نعرف عنها إلا القليل . . . » .

•

قالت مسز هوايتهد : « لقد حاولت المسيحية أن تعبر عن شىء عن فكرة القيمة البشرية هذه — إذا تقبلنا صورة المسيح التاريخية ، بالرغم من تعقيد الأسانيد التاريخية وتشويهها » .

وقال هوايتهد : « لقد صاغت بعض المبادىء المفيدة ، ولكنها على وجه الجملة كانت ساذجة التفكير وعلى غير علم » .

« اشد ما صعقت نفسي ، حينما أدركت ذلك لأول مرة ! » .

وسألت مسز هوايتهد : « ومتى كان ذلك ؟ »

« بعد الحرب الأولى . وقد أخذ إدرا كى ينمو عدة سنوات قبل أن أعرف ذلك » .

« وهل اتخذ عندئذ شكلا معيناً ؟ » .

« اتخذ عشرات الأشكال . وأحسن ما أتذكره منها هو أن المسيحية لم تخترع القيمة البشرية » .

وقال هوايتهد : « بينما هذه الحرب تستمر ، ويموت فيها كثير من الشبان قبل أن يتسع لهم الوقت لكى يعيشوا ، لا أفتأ أسأل نفسي : ما هذا الذى يمكن أن يوحى بمثل هذه البطولة وهذا التفانى . ولو أن جانبنا فشل فى هذه الحرب ، لما كانت للحياة على أرضنا هذه قيمة كبيرة ، وقد أدركت الجموع أخيراً هذه الحقيقة . ومن الواضح أن أكثر هؤلاء الشبان العسكريين لم يندفعوا ببواعث الآراء السياسية المعقدة ، وأعتقد أن عدداً قليلا منهم فقط يرون أنفسهم مسيحيين وهم بذلك واعون . إن آراءهم تتخذ صوراً متعددة ، وهى آراء متعارضة ، لأنهم يعدون بالملايين . بيد أن هناك برغم هذا رأيا شائعاً بينهم . وهو — وإن لم يصوغوه فى لفظ ، وبالرغم من أننا قد اعترفنا بأنه لا يعبر عنه بالكلمات — فكرة القيمة البشرية ، وذلك أقرب ما يمكن أن نصل إليه من تعريف . إنهم يموتون من أجل ما فى العالم من قيمة » .

(٣٥)

١٤ من نوفمبر ١٩٤٤

كان مستر هوايتهد نائما فى مكتبه عندما وصلت . وكانت الساعة الثامنة من

مساء خريف معتدل . الجو رطب ، وشذى الأوراق المبتلة المتساقطة تعطر الشوارع السكنية .

(كل شيء في ظلام الموت الصامت والخريف المتساقط)

كنت عائدا لتوى مباشرة من المكتب فكان ذهنى مليئا بأهوال بمذبحة الألمان لقرية ديستومو الإغريقية ، وقد تم تحقيق تفصيلات المذبحة ونشر عنها في الطبعة الأخيرة . وبعد نصف ساعة وجدنى الفيلسوف مع مسز هوايتهد نبحث فى موضوع القسوة الألمانية وذلك حينما خرج من مكتبه . ومما قاله فى هذا إنه فى الحالات الأخرى التى لا تقاس إلى هذه الحالة إلا فى بعض المواضع من بعيد « نجد أن القسوة تُرتكب لغرض ما ، ولكن الألمان يرتكبونها لذاتها ، حتى حينما لا يكون لها سند من عقل ، ولا يكون من ورائها ربح ، وهم يتقهقرون ، لمجرد أن تسوء الأمور » .

« عندى لك نبأ سار » (وقد آثرت أن أنقل الحديث إلى موضوع آخر) . « وهو أكثر تهذيبا . لقد أصبح صديقنا لفنجستون نائبا لمدير اكسفورد ، أو لعله من الأصح أن أقول إنه عُين » .

« أصحيح ما تقول ؟ يسرنى أن أسمع ذلك » .

« إنه يقول إنه سوف يقرأ — (ولكن فى تواضع جم كما أتمثم) ملاحظات أفلاطون عن عودة الفلاسفة إلى الكهف . ومهما يكن من شيء فقد كان لفلاسفته نفوذ أكبر من نفوذ نواب المدير ، وكانوا من غير شك يمتازون بأنهم فلاسفة أحسن — هل ترى أن هذه الوظيفة ستستنفد كثيرا من وقته وقوته فى الواجبات الإدارية » ؟

« لن يكون ذلك إلى حد المبالغة فيما أعتقد . فهناك مجلس سوف يرأسه ، ولكن تسعة أعشار العمل الإدارى يقوم به عمداء الكليات » .

« قيل لى إن وظيفة نائب المدير لا ترتفع ارتفاعا مذهلا ، ولكن مما يحط من قيمة المرء ألا يشغلها » .

وقالت مسز هوايتهد باسمة : « ليس الأمر جديا إلى هذا الحد . ولكن أصدقاءك يتهامسون عليك إن لم تشغلها (وقد وضعت إصبعها على شفتيها) » .

قال : إن الوظيفة تمر بالدور على عمداء الكليات . وكل منهم يشغلها بدوره إلا اذا كانوا يعدونه عاجزا . كم يبلغ لفنجستون من العمر » ؟

قرابة الواحد والستين فيما أظن » .

« ألا يكبر هذه السن ؟ إنى أقدر عمره بالسبعين » .

وصاحت زوجته : « غير معقول ! فقد كانوا شبابا أول ما عرفناهم » .

« دعنا نبحث عنه فى (الدليل) » وذهب إلى مكتبته وعاد منها بمجلد . ووضعه تحت ضوء المصباح ، ووضع تحت عينه نظارة قراءة كبيرة ذات عدسات ثقيلة ، ثم فحص إحدى صفحات الدليل وقال معلنا : « أربعة وستون .... ولكنه قام أعمال كثيرة . كان نائبا لمدير جامعة بلفاست من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٣٣ ، ثم رئيسا للجماعة المسيحية باكسفورد ، كما أدى كثيرا من الأعمال العامة . لقد عرفته معرفة جيدة أول لأمر فى عام ١٩٢٠ ، حينما كنا معا فى لجنة رئيس الوزراء لبحث دراسة الآداب القديمة وقدرته قدراً كبيراً »

قلت : أضف إلى ذلك كل كتبه . وهى تبدأ بكتاب (العبقرية اليونانية) فى عام ١٩١١ ، وهو كتاب يدعو إلى العجب إذا عرفت أنه كان حينئذ فى الحادية والثلاثين من عمره » .

وقال هوايتهد : « إننى لا أجادل فى قيمة الكتاب . ولكن السن التى كتبه فيها لا تدعونى إلى الدهشة . فليس من غير المألوف أن يبدأ المرء فى أخراج أحسن مؤلفاته فى سن الثلاثين أو ما حولها » .

« لقد غلبتنى : فهناك بيتهوفن ، وجيته ، وميشيل أنجلو » .

« إن الأفكار الأساسية التى تسرى فى أعمال المرء مدى أيام حياته قد تتكون

فى ذهنه عندما يبلغ الثلاثين . وقد يصب هذه الأفكار فى صيغ متنوعة فيما بعد ، وقد يطيل فى شرحها . ولكن خطوطها الرئيسية ترتسم فى هذه السن » .

« ألا تعد سيرة لفنجستون إحدى السير الإنجليزية القوية المعاصرة ؟ »

« أجل . وحيث إن نشاط مُرى قد فتر ، فأعتقد أن لفنجستون سيخلفه . ما أكثر ماينتفع الانسان (بالدليل) » وأخذ يقلب صفحات هذا المجلد الضخم ، ذى الغلاف الأحمر ، والطباعة الدقيقة ، بين يديه . ثم تفرس فينا ضاحكا وقال : « لو أنهم قذفوا بى فى تلك الجزيرة المهجورة وسمحوا لى باصطحاب كتاب واحد ، لما ترددت فى مصاحبة (الدليل) »

ونزلت عند رأيه وقلت : « إنه يستغرق وقتا طويلا ، ولكن المتعة التى يستخلصها منه المرء تفترض فيه إعداداً خاصا سابقا » .

وسألت مسز هوايتهد : «ما شكل ليدى لفنجستون ؟ إنى لا أذكرها إلا وهى شابة صغيرة ، شديدة الخجل ، حينما كان طفلها الثانى لا يزال رضيعا » .

« إنها هادئة قوية الأثر . إذا عرفها المرء أعجب بها . وأستطيع أن أطيل الكلام فى هذه الصفات إلى حدما . وهى كذلك الزوجة الملائمة تماما لعميد كلية من كليات أكسفورد » .

وخلال حديثنا عن كتب لفنجستون ، ذكر هوايتهد ما يلى :

« يدهشنى أن البشرية لم تتقدم من الناحية الخلقية إلى درجة تذكر فى ألفى السنة الماضية » .

« بل فى أمد أطول من هذا » .

« إذن فى ثلاثة آلاف عام » .

« فى ألفى سنة وخمسمائة أو ستمائة عام فيما أظن » .

« لا يختلف ذلك عن تقديرى كثيرا »

« إن العصر الذى كنت أفكر فيه هو القرن الخامس قبل الميلاد فى اليونان ، والقرن السادس الذى سبقه والذى كانت تتجمع فيه قواه — وإذا ذكرت أثينا فى القرن الخامس ، فليست المشكلة هى أن الإنسان الحديث لم يحرز بعده تقدما ، بل هى الشك فى أننا قد احتفظنا بالمستوى الذى بلغته » . ورويت وقائع تاريخية معينة لاجدال فيها أدلة على هذا الرأى .

وفكر فيما قلت قليلا ، ثم قال :

« ليس من المستحيل فيما أرى (وإن كنت أتمشم أن يكون بعيد الاحتمال) أن يبلغ الإنسان قمة قواه العقلية ثم يبدأ فى الانهيار الذى يدوم آلاف السنين . بل كثيرا ما ظننت أن هذه الحرب قد تحدد مصيره ارتفاعا أو هبوطا . إن قوة الاندفاع ، والباعث على التفكير المستقل ، من الأمور التى يسهل فقدانها . وقد يستغرق الناس فى مجرد التكرار الروتينى لما ألفوه من أعمال وما اعتادوه من علاقات اجتماعية فى مستوى وضيع ، وكأنهم بغير عقول . كما تستطيع بعض الحشرات أن تدير مجتمعا مستقرا بالرغم من انعدام التفكير لديها . . . ثم ما أشد ما أساء الإنسان استخدام دياناته ! »

« إن من يعرف تاريخ هذه الديانات يميل إلى التردد حتى فى استعمال كلمة الديانات » .

« هل فكرت فى عدد كبار مؤسسى الديانات الذين ظهروا حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ؟ »

« كلا . ومتى جاء بوذا ؟ »

« حول هذا التاريخ فيما أظن . دعنا نتأكد » . ثم عاد إلى مكتبته مرة أخرى وخرج هذه المرة ومعه مجلد من دائرة المعارف البريطانية . وتأكدت من ظهوره فى القرن الخامس .

وسألته: « ومتى ظهر موسى ؟ » ولم يكن أحد منا على ثقة - وكنا على حق في شكنا ، كما ثبت ذلك فيما بعد .

« دعنا نبحث عنه أيضا » .

« لا أريد أن أرهقك بالعمل . دعني أقوم بالبحث » .

« كلا . فإني أريد أن أرى بنفسي » . وجاء بمجلد آخر من دائرة المعارف البريطانية .

« (موسى) أين تواريخه ؟ » وقد أمسك بالمجلد الضخم تحت ضوء المصباح وفحصه بنظارة القراءة ، ولم يجد أي تاريخ . وشاركته في البحث . ولم نجد تاريخا . فقال: هذا أمر عجيب! إنهم لا يعطونك أية فكرة عن تاريخه حتى في مدى قرنين .

« (موسى !) — في فراغ من الزمن . »

« دعنا نبحث في (الخروج) »

وبحثنا في الخروج . وقلبنا الصفحات، وطالعنا عمودا بعد عمود ، وعنوانا بعد عنوان ، وفحصنا المطبوع مما ، من أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى . فلم نجد تاريخا . وليس من شك في أن المؤلفين الذين اشتركوا في تحرير المقال ووقعوا بالأحرف الأولى من أسمائهم في نهايته ، لاشك أنهم كانوا متحفظين . وربما سمعوا — كما سمعتُ — بالشك الذي يلقي ظله على الفكرة التي تقول بأن شخصية تاريخية باسم موسى قد عاشت بالفعل ، وإن « الشخصية العظمى في القصة هي يَهْـوَه » .

وتمم هوايتهد قائلا : « لابد أن يكون هؤلاء الكتاب باحثين من الطراز الأول ، فإنهم لا يمدوننا إلا بقليل من العون . دعنا نبحث عما تدل عليه هذه الأحرف الأولى من الأسماء في الفهرست الذي يقع في أول المجلد . لنكتشف من يكون هؤلاء الجحوش » .

وقد صعقنا معا .

قلت : « كوك ! إنه عضو من جامعتك القدسة كمبردج ، وهو مشترك فى تأليف (تاريخ كمبردج القديم) وهو المؤلف الذى أقدسه » .

وأعاد المجلد إلى مكانه من الرف .

وقال : « حين أقرأ التاريخ ، أريد أن أعرف أين أنا . وينبغى أن يكون الزمن على قمة كل صفحة » .

« إن ترفليان يقوم لك بهذا على الأقل فى مجلده الوحيد (تاريخ إنجلترا) » .

واستطرد قائلا . « حينما كنت أطالع فرود فى شبابى كنت أنتقل من صفحة إلى أخرى ، ومن فصل إلى آخر ، دون أن ألتقى بزمن للتاريخ » .

قلت : « إن المؤرخين المتحذلقين حقا يمدون ذكر التواريخ محطا بقدرهم . كم من مرة فى (تاريخ كمبردج القديم) تجد الحادث مذكوراً فى صراحة تامة فى إحدى الصفحات، ثم تجد أنك مضطر إلى أن تقرأ عدة صفحات قبله وبعده حتى تمر على السنة التى وقع فيها الحادث تماماً » .

وقال هوايتهد : « إنهم لايريدون أن يجدوا فى طريقهم حوائل ! فالتواريخ تعترض تدفق الأسلوب الأدبى الجميل المستقيم » .

وسألته : « هل سعدت كثيرا فى أى وقت من الأوقات بالبوذية » .

« لاأستطيع أن أقول إنى سعدت . إذ يبدو أنها كلها تؤدى فى النهاية إلى تأمل سلبى لايثمر . وربما كان لذلك الجو المثبط الذى نشأت فيه بعض الأثر فى هذا . فى مثل هذه الحال يجد المرء أن أسهل الأمور أن يجلس سا كنا ولا يؤدى عملا . ولكن ذلك يؤدى إلى الجمود الاجتماعى . كما شهد العالم » .

« يقال إنها لم تنجح كثيرا فى هذا البلد إلامع الزوجات المللات . أمافيا بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٣٠ ، حينما كنت أدرسها — وأؤكد لك أنى كنت أدرسها

فى تقدير شديد لها — فقد كنت أعتقد أن إدراكها بطبائع النفوس يقترب جدا من وقائع الحياة . ولكنى لم أنفق العشرين السنة التى سبقت هذا التاريخ فى لفظ دين لكى أستوعب مكانه دينا آخر بأسره » .

وقال هوايتهد مؤكداً : « تستوعب شيئاً بأسره . إننا نعيش حتما بأنصاف الحقائق ، ونسير سيراً مرضياً ما دمنا لا نخطىء ، فنحسبها حقائق كاملة . ولكننا حينما نعتقد أنها كذلك ، نجد أنها تسبب لنا مشكلات كثيرة » .

« إن تلك الخبرة التى مرت بك فى شبابك ، حينما شهدت طبيعة نيوتن — التى كانت تعد ثابتة كالدهر — وهى تنهار تحت ناظريك ، إن هذه الخبرة لا بد أن تكون قد تركت فى نفسك أثراً عميقاً » .

قال : « لقد علمتنى أن أحذر من اليقين . كنا نظن أن كل ما يتعلق بالطبيعة معروف ، لو استثنينا بضع نقاط مظلمة قد تستغرق بضعة أعوام حتى تتكشف . وما إن حل عام ١٩٠٠ حتى وجدنا أن طبيعة نيوتن — وإن كانت لا تزال وسيلة نافعة مريحة للنظر إلى الأشياء — قد انتهت بكل معنى من معانى الانتهاء . وكما ذكرت لكم من قبل ، إن ذلك كان يثير دهشة أرسطو ، ولكنه لا يدهش أفلاطون . فلو راجعت محاوراته — لو استثنيت محاورة (القوانين) التى تظهره فى شيخوخته حينما بدأت آراؤه تتجمد ، بالرغم من احتوائها على مادة تدعو إلى الإعجاب — لتذكرت أن أية محاورة منها حينما تنتهى لاتفض أمراً بصفة نهائية . كل متحدث يدلى برأيه . فيُفحص الموضوع من نواح متعددة ، وقد تكون بعض الأوجه أشد إقناعا من بعضها الآخر . ولكن من الخطأ أن ننسب إلى أفلاطون رأيا واحداً بعينه دون سواه . إنه يتجول بنا خلال وجهات النظر المختلفة ، وهو يعلم أن كلا منها يحتوى على شىء من الصدق ، ولكن ليس منها رأى واحد يحتوى على كل الصدق . والأثر النهائى لهذا فى العقل المستقبل المرن لا يبعد عن الصواب . إننا ننتهى بمعرفة نافعة إلى حد كبير يجب علينا أن نتعلم

كيف نطبقها بأنفسنا . ليس هناك أمر كله صدق ، ولكن هناك بعض الصدق في كل وجه من الوجوه . ولو أحسنا فهم أنفسنا ، لأدركنا أن هذه هي الوسيلة التي نعالج بها الخبرة ، اللهم إلا إذا بدأنا نتيقن ـ حينئذ تبدأ المتاعب . إننا ننتفع بأنصاف الحقائق إلى درجة كبيرة ما دمنا نذكر أنها لا تعدو أن تكون أنصاف حقائق » .

«والآن ، ما دمنا نتحدث عن اليقين ، ماذا تستطيع أن تقول دفاعاً عن المتحمسين للرأي ؟ » .

« المتحمس للرأي عضو نافع في المجتمع » .

« إنك تدهشني بذلك . لقد انقضى الوقت الذي كنت أعد فيه المتحمس أملنا الوحيد . أما اليوم فأنا أنظر إليه في ارتياب ! »

« إن المتحمس يقوم بالعمل . إنه يخترق الأمور المألوفة الثابتة . إن قدراً معيناً من الحماسة ضروري لإخراج الناس أصحاب العادات من الأركان التي ألفوها . وأنت تعلم أنه من اليسير أن يكرر المرء عملا بعينه أو فكرة بعينها لا لشيء سوى أن هذه الأعمال وهذه الأفكار هي التي أداها الناس أو فكروا فيها عدة أجيال . وهذا أمر خطر أيضا ، لأن الإنسانية ـ إن تركت وشأنها ـ تميل إلى أن تدور في نفس الأفلاك التي ألفت الدوران فيها . والمتحمس صورة من صور عنصر الجدة في الحياة . وآراؤه قد لا تكون مبتكرة (والواقع أنها قلما تكون كذلك) ولكن نشاطه ودأبه صورة من الصور التي تتخذها قوة الابتكار » .

وقلت لمسز هوايتهد : « لقد قدم إلى دفاعا اجتماعيا عن الحماسة . فهل تستطيعين أن تقدمي إلى مسوّغا شخصيا لها ؟ »

« نعم . إنه يجعل الطبقات المطمئنة قلقة » .

« ذلك ما فعله عندنا دعاة إلغاء الرق . كان بعضهم منفراً إلى حد كبير ـ وكانت

لهم نزوات فى طباعهم استرسلوا فيها تحت ستار الثورة على الاسترقاق. وكان بعضهم ممن يحب الرأفة والعدالة، وبعضهم من طراز الأبطال » .

واستأنفت مسز هوايتهد حديثها قائلة : « إن بعض الناس يقبلون أبشع الإيذاءات التى توقع على الآخرين ، لأنها مألوفة ، أو ليست مما يثير نفوسهم ، أو لبلادة حسهم ، أو انعدام الخيال لديهم. إن انعدام الشعور ـ الذى يرى المتحمس ضرورة إثارته عند بعض الناس ـ يتطلب عنصر المبالغة الذى نلمسه لديه » .

وقلت إن الخيال الذى يمكنك من العطف على الآخرين أشد ضرورة مما يعتقد أصحابه ، وأضاف إلى ذلك هوايتهد وهو يتمتم قوله : « وكذلك قوة الابتكار.... وربما تذكر عبارة لى رويها لفنجستون فى كتابه عن التربية .... »

« نعم أذكرها . إن التربية الخلقية مستحيلة دون أن تكون العظمة صورة أمام أعيننا دائما . وهو يتخذ هذا الرأى موضوعا من موضوعاته الأساسية » .

وابتسم هوايتهد متفكها وقال : « زارنا يوم الأحد الماضى زميل من كلية لفنجستون . وكان قد قرأ الكتاب من قبل . قال : لقد حاولت أن أذكر من أين جاءت هذه العبارة ، فهى مألوفة لسمعى . أين وجدتها ؟ »

(٣٦)

١٩ من يناير ١٩٤٥

منح جورج السادس وسام الاستحقاق لهوايتهد فى رأس السنة . وقد وضع أساس هذا الوسام ادوارد السابع عند تتويجه ، ويتحدد عدد حامليه من الأعضاء البريطانيين بأربعة وعشرين. وقد كتبت عنه فى مجلة جلوب تحت عنوان « الفيلسوف والملك » واختتمت مقالى بهذه العبارة :

إن من بين أسباب العلاج من شرور هذه الدنيا عند أفلاطون أن يصبح

الفلاسفة ملوكا . وذلك من فكاهات أفلاطون الصغيرة ، فالفلاسفة ملوك بالفعل لأن الملوك يحكمون فى العالم المادى وحده . أما الفلاسفة فيخلقون ذلك الذى تخلق منه العوالم . وقد كرم هذا الملك نفسه حينما كرم فيلسوفاً .

وحيانى هوايتهد وهو يخرج من مكتبه بقوله : « لقد ربَّتَ كتفى . ويخيل لى أن للفنجستون يدا فى منحى هذا الوسام » .

« هناك آخرون كثيرون فى إنجلترا يهمهم ذلك إلى جانب لفنجستون» (فى عيد القيامة فى عام ١٩٤٧ باكسفورد أخبرنى سر دافيد روس — وكان حينئذ محافظا لاوريل ، كما كان من قبل نائب مدير — إنه قد اقترح منح هذا الوسام لهوايتهد من قبل . ومن الجائز أن يكون كلاهما قد تقدم بالاقتراح)

واستطرد هوايتهد فى حديثه قائلا : « أعتقد أن لفنجستون اليوم رجل عظيم الأهمية . إن وظيفة نائب مدير اكسفورد تبدو كأنها فى المحل الثانى ، ولكنها فى الواقع فى المحل الأول . إن المدير كالملك ، أما نائب المدير فهو رئيس الوزراء » .

« إنه يكتب لى كتابة شائقة عن مشكلاته الإدارية . ويقول إن وظيفته — ككل عمل إدارى — تنحصر فى دفع الحوادث له . وهو يحاول أن يجد حلولا مباشرة للمشكلات المباشرة ، والصعوبة فى أن يبقى المرء من وراء اضطرار الضرورات مدركا لأمر غائى وأن يتجنب إغفال المستقبل . وهو يقول إن الإدارة تجعله يدرك إلى أى حد كبير يعيش الناس فى الحاضر المباشر ، وإلى أى حد ضئيل تدخل فى عقولهم أية فكرة عن الأهداف البعيدة » .

« هذه آراء غير عادية بالنسبة لرجل إدارى ، ولذلك ينبغى أن يقوم بالعمل الإدارى رجال من أمثال لفنجستون » .

قلت : « بهذه المناسبة أذكر لك أنى عرفت أن تكريمك فى رأس السنة أكسبك نجاحاً عظيماً فى البدروم » (البدروم هو ردهة الفندق ، الذى يقع تحت مستوى سطح الشارع بقليل) .

وقالت مسز هوايتهد : « وأصدق من ذلك ما ذكره لى مدير الفندق ، إذ قال : (قرأ لى النبأ هذا الصباح قبل مطلع الشمس حارس الليل) ، وكلفنى فى شمم أن أبلغ مستر هوايتهد ما يلى : « قل له إنه يستحق كل جزء منه ! » . ولما نزلت إلى لوحة الأخبار فى الساعة العاشرة ، ألفيت صاحبة اللوحة تقرأ النبأ بصوت مرتفع لمجموعة من النازلين معنا فى الفندق المعجبين به . ولما كانت تعرف أننى لا أستطيع الرؤية حتى أقرأ ، فقد تطوعت أن تقرأ لى النبأ بصوت مرتفع ، وذكرت لها أنى على عجل ، ولذا فقد باعتنى نسختها الأخيرة . ولما خرج ألفرد للنزهة بعد ظهر ذلك اليوم ، حدثه بائع الصحف عن الخبر ، وقال : ثم إن الخبر مقروءاً خير منه مسموعاً ! وقد عرف بائع الصحف الخبر لأنه يهودى » .

قلت : « لقد كانوا خير المستمعين إلى لمدة ثلاثين عاماً . إننى والعبرية عاشقان من زمان بعيد . قد نختلف متحابين ، ولكنى أعرف أصدقائى حين أراهم » .

وقال هوايتهد : من عجب أن الفكر العبرى هو الذى اتجه شمالا بين الأوربيين بدلا من الفكر الهلينى » .

قالت : « كنا برابرة . وكان الفكر العبرى يمثل شيئاً خيراً مما كنا نملك » .

فقال هوايتهد : « المسيحية هى الصورة التى انتقلت فيها عقلية الإسكندرية شمالا فى أوربا . وأكثر ما لا نحب من معانيها ومن نتائجها يصدر عن لونها الشرقى . ما فيها من زهد ؛ وصفتها الاستبدادية ، ويقينيتها الجامدة . ولكن لولا الإسكندرية ما انتقل إلينا الفكر الهلينى بتاتاً . إن الإسكندرية نظمت هذا الفكر ، وبتنظيمه فقد كثيراً من قوته ، بيد أنه كان بحاجة إلى قدر من التنظيم لكى يبقى ، لأنه فى صيغته المجردة مائع زائل . لقد أعطتنا الإسكندرية المفاتيح التى استطعنا بها أن نسترد معناه الحقيقى بعد قرون . ولكن التنظيم غريب عنا — لا أقول عن أرسطو — ولكن عن أفلاطون بالتأكيد . فى (القوانين) وهو ما ألفه فى شيخوخته ، عناصر من اليقينية حقاً — إنه يقول إن أنواعاً

معينة من الناس لا يمكن أن تحتمل — ولكنه فيما ألف فى شبابه كان حريصاً، إذ أنه يقول فى أحد خطاباته ، إنه لا يقدم لنا (نظاماً) للفلسفة الأفلاطونية . ليس هناك (نظام) كما يقول — ولكن الباحثين الكلاسيكيين الألمان أجهدوا أنفسهم كثيراً — برغم هذا — فى القرن الخامس عشر لبناء نظام أفلاطونى للفلسفة ! (ماذا كان يعنى أفلاطون على وجه الدقة ؟) لقد كان شديد الاهتمام بألا يعنى شيئاً على وجه الدقة . لقد أعطى كل جانب من جوانب أى موضوع ما يستحق . وكثيراً ما قمت بعثل ما قام به ، وقدمت وجهاً حسبت أنه يستحق الالتفات إليه ، ثم أجدنى فى مؤلف بعد ذلك أقدم ما يناقضه . ومن ثم فإنى أتهم بالتناقض وعدم الثبوت على رأى » .

« هل أستطيع أن أعلل ذلك ؟ إن ما تراه من أن جميع الحقائق هى بالضرورة أنصاف حقائق — إن هذا الرأى قد استغرق منى شهورا ، بل سنوات ، لكى أدركه تماما . أجل ، لقد سمعت كلماتك لأول مرة ، ووعيتها فى ذاكرتى ، ثم دونتها ، وتدبرت معناها . بيد أن إدراك ما تعنيه الفكرة لا يتضح إلا تدريجيا ، لكى يصبح فعالا فى تفكير المرء اللاشعورى . والآن أدرك أن ابسن كانت لديه حتما نفس هذه الفكرة . فقد كان يكتب فى فترة مسرحياته الاجتماعية — منذ (أعمدة المجتمع) تقريبا حتى النهاية — مسرحية ، كما فعل فى (الأشباح) لكى يعرض جانبا من جوانب قضية من القضايا ، ثم يكتب أخرى ، كما فعل فى (البطة المتوحشة) لكى يعرض الجانب الآخر . وأعتقد أن مسرحياته الأخيرة تسير إلى حد كبير فى مثل هذه الثنائية . . . ولكن لماذا كان الفكر العبرى هو الذى انتقل شمالا فى أوربا ولم ينتقل الفكر الهلينى ؟ »

« من خصائص الفكر الهلينى أن يتلون بلون القوم الذين يستقبلونه : فهو فى الإسكندرية إسكندرى وفى روما رومانى » .

قلت : « ولكنه لم يكن فى كليهما هلينياً حقاً » .

« كلا . ولكنهما نقلا منه إلينا مايكفى حتى أستطعنا أن نجد شكاله الحقيقى لأنفسنا . أمدتنا الإسكندرية بالهيكل العقلى للديانة المسيحية ، وأعتقد أن الرجل الذى شوه تعاليم المسيح وقلبها أكثر مما فعل غيره هو بولس . وإنى لأعجب ما كان يظن به الحواريون الآخرون — إذا كانوا قد وضعوه موضع التقدير : الراجح أنهم لم يفهموا ما كان يرمى إليه ، وأشك أنه هو نفسه كان يفهم مايرمى إليه . ومن المستحيل أن نتخيل شيئاً أشد بعداً عن المسيح من الديانة المسيحية . والمسيح ربما يعجز عن فهم هذه الديانة » .

« هل تظن أن الفكر اليونانى فى العصر الذهبى كان من الممكن أن يظهر فى الوجود بغير تلك الأداة التى لاتبارى - أداة الفكر — وأعنى اللغة اليونانية » .

قال هوايتهد: « إن العبقرية الفطرية التى ولّدت الفكرَ هى بعينها التى ولدت اللغة » .

قلت : « إن دقة اللغة اليونانية ، ومرونتها ، وقدرتها على التعبير عن ظلال المعانى بدقة تامة ، وجمال جرسها المجرد وعظمة مواردها ، وبساطتها فى كل هذا — ذلك كله مصدر للدهشة لاينضب » .

قال : « ما كان أسعدنا حظا لو أصبحت اليونانية لغة أوربا بدلاً من اللاتينية » .

« لو كان ذلك لتخلصنا من كثير من أسباب الخلط فى المعانى ، لسبب واحد ، لأن العبارة اليونانية تعنى عادة بالضبط ماتقول ، ولا تعنى شيئاً آخر . منذ ماحذفنا من مناهجنا الدراسية التدريب على اللغات الكلاسيكية ، كانت النتائج فاضحة فى إنتاج الكتاب المعاصرين. لقد كنا نتعلم قواعد الإنجليزية باللاتينية واليونانية . فإذا كان التركيب الإنجليزى مطابقاً لقواعد اليونانية واللاتينية ، كان عادة فى

إنجليزية جيدة . ولـكن كثيراً ممن يـكتبون الإنجليزية اليوم يكادون يكونون أشباه أميين » .

فقال هوايتهد : « إنى لم أتعلم القواعد الإنجليزية بتاتا . لقد علمنى أبى —وكان مدرساً قبل أن يكون قسيساً — فى المنزل حتى بلغت الرابعة عشرة . ولم يرسلنى إلى مدرسة حتى هذه السن لأنى كنت ضعيف البنية فى طفولتى . وقد علمنى قواعد اليونانية من قواعد اللاتينية . كانت كلها مكتوبة باللاتينية ، وتعلمت وحفظت قواعد اليونانية باللاتينية . فلم أتعلم القواعد اليونانية منفصله بتاتاً ، ومع ذلك فأنا أقرأ اليونانية بالسهولة التى أقرأ بها الإنجليزية » .

« من نتائج إلغاء الـكلاسيكيات (الدراسات القديمة) أن أصبحت الروايات الإنجليزية (تعـلّم) فى مدارسنا الثانوية . وإنى أقدر كل التقدير أولئك الرجال الذين يعلمونها لأنهم معلمون قادرون مخلصون ، ولـكنى أعجب من فـكرة تعليم الإنجليزية » !

وقال هوايتهد : « كنا نقرأ الروايات فى طفولتى ، ولـكنا كنا نقرؤها للتفـكه » .

« وكذلك كنا فى جيلنا . ولم يطرأ لنا قط أن ندرسها ، قل لى متى بدأت تقرأ الروايات ؟ »

« بدأت قراءتها بكويك — وكنت عندئذ فى السادسة — أجلس على مقعد منخفض إلى جوار الموقد عند قدمى وصيفة جدتى ، جين واينكلو . . . وكانت جدتى سيدة ثرية . ولـكنها أخطأت إذ أنجبت ثلاثة عشر طفلا ، وحينما تقسم الثروة — مهما تضخمت — على ثلاثة عشر ، فلا بد أن تتضاءل . وحينما وصلت إلى الأحفاد لم أحصل على الـكثير . ولـكنى أنفقت وقتاً طويلا

من طفولتى فى بيت جدتى بلندن . وكانت جين وايسكاو تقرأ لى الساعات ، فكانت أول من علمتنى تذوق الأدب ، وكان (پكويك) أول ما بصرنى بالنظام الاجتماعى الإنجليزى » .

« ألم تعتقد أنه بالغ فى رسم الشخصيات – إنها كاريكاتور ؟ »

« أبدا ! إن شخصيات دكنز كانت كلها حولنا . كانوا من سكان لندن ، أو جنوبى إنجلترا . إن پكويك – كما ترى – لا يوغل شمالا – لا يعدو نورتش .... إنى أتخيلنى الآن واقفاً عند نافذة من نوافذ بيت جدتى . . . . . » وأخذ يفكر .

وقالت مسز هوايتهد فى لهفة واشتياق : « ٨١ ميدان پيكادلى ؟ »

واستطرد قائلا : « . . . . مطلا على حدائق جرين پارك ، والملكة فكتوريا تمر – » .

« هل كنت تراها ؟ .. »

« بالتأكيد . ولم يكن ذلك مرة أو مرتين إنما كل يوم أو ما يقرب من ذلك » .

« لا أستطيع أن أتصور أنك كنت تشاهد الملكة العجوز مرارا كما تشاهد عربة توزيع البقالة » .

« لم تكن (عجوزا) فى ذلك الحين . إنما كانت فى زهرة الشباب . ولم تكن شعبية جدا . إنها لم تصبح شعبية إلا بعد عام ١٨٧٠ . وانتهت حياتها بأن صارت نظاما بأسره ، حتى إننا لم نكد نصدق أنها ماتت » .

قالت مسز هوايتهد : « حتى الفقراء لبسوا الحداد . ومن عجز منهم عن شراء الملابس السوداء كان يصبغ ملابسه العادية بالسواد . إنما كانوا يحزنون على العصر الفكتورى – وإن لم يدركوا ذلك آنئذ » وقد قالت ذلك وهى مكتئبة .

وواصل هوايتهد حديثه قائلا: « كنا نخشى بأس ادوارد السابع كثيرا . وكان أبعد ما يكون عن الشعبية عندما اعتلى العرش ، ولكنه أمسى فى نهاية حكمه محبوبا جدا . أما جورج الخامس وجورج السادس - من بعده - فقد شقا طريقهما فيما أظن » .

قالت : « وإن يكن جورج السادس يبدو لى شخصا لا لون له إلى حد ما بمدأ بيه . فقد كان لجورج الخامس مزاج » .

قلت : « من العجيب أن الملكية قد عاشت حتى عام ١٩٤٥ »

قال هوايتهد : « كلا ليس ذلك عجيبا . إن الإنجليز لا يلغون شيئا ، بل يحفظونه فى مخازن التبريد ، ولذلك فوائده . فإن احتاجوا إليه ثانية وجدوه ؟ »

« إن ذلك ينطبق أيضا على كنيستهم الرسمية - لو سمحت لى أن أقول ذلك ياسيدى » .

فعلق على ذلك هوايتهد بقوله : « إن الإصلاح الدينى يبدو لى - كما ذكرت لك من قبل — كارثة من كوارث التاريخ . أعتقد أن الكنيسة كانت تُصلح من داخلها إذا اتسع لها الوقت .

كانت لأرازمس الآراء الصائبة عينها ، وقد مُنح قلنسوة الكاردنال قبل وفاته وإن يكن قد رفضها . ولكن ثورة البروتستانت قوّت مقاومة الكنيسة ، وقد نبذ البروتستانت ذلك الجانب عينه من الكنيسة الذى يجعلها رحيمة محتملة ، أقصد جاذبيتها الجمالية العاطفية . ولو كنت لأختار مذهبا من مذاهب المسيحيين المعاصرين لاخترت مذهب الموحدين ، ولكنى أود لو كان نفوذهم أشد . إننى أدرك أنهم يقربون من مذهب (استقلال الكنيسة) وأعتقد أنه من الأفضل أن يشتد قربهم ، فلا أدهش إذا سادت الكاثوليكية الولايات المتحدة ، فى خلال مائة عام أخرى » .

قلت : « إن الأمر الوحيد الجذاب من الناحية الجمالية والعاطفية الذى لم ينبذه البروتستانت هو الموسيقى »

فقال هوايتهد : « إن الديانة لا يمكن أن تبقى بغير موسيقى ، فهى شديدة التجريد » .

« هذا حق ! وحتى المتطهرين (البيوريتان) فى إنجلترا الجديدة الذين استغنوا عن الأرغن والأدوات الموسيقية فى الكنائس ، احتفظوا بترتيل مزاميرهم » !

قال : « إن الموسيقى تأتى قبل الديانة ، لأن العاطفة تأتى قبل الفكر ، والصوت قبل الحس . ما أول ماتسمع حينما تدخل الكنيسة ؟ عزف الأرغن . وما آخر ماتسمع عندما تغادرها ؟ الأرغن . والصلاة نفسها تكون غناء عند الكاثوليك . إن الموسيقى تسبق الدين بأجيال كونية . إن البلابل لا يغنى لأنثاه لأى سبب سوى متعة الحياة ، من أجل حب الغناء . إن هذه الأمور أعمق غورا من الفكر ، كما أن الصوت أعمق أثراً فى نفوسنا من النظر . وأعتقد أننا حينما كنا متوحشين كنا أشد تأثرا بصوت الرعد من وميض البرق » .

وعلقت مسز هوايتهد بقولها : « نستطيع أن نحمى أنفسنا من النظر بإغلاق أعيننا ولكننا لا نستطيع أن نغلق آذاننا . إننا لا نستطيع أن نتقى الصوت . عندما كنت أرود المسرح فى شبابى كان عناق العاشقين على المسرح يؤذينى أحيانا بتمثيله . فما كان علىّ إلا أن أغلق عينى » .

« قلت لى مرة إنك تعتقد أن الإنسان قد أولى الانطباعات التى ترتسم لديه عن طريق العين نصيبا من العناية أوفر مما ينبغى » .

قال : « إن تربيتنا تعتمد إلى حد كبير على المكتوب والمطبوع » .

« ولكن الصوت يتبخر . أما الكتابة والطباعة فثابتة إلى حد كبير . لقد ألقى بركليز مرثية ، ولكنها وصلت إلينا لأن ثيوسيديد دونها » .

وصححت مسز هوايتهد قولى وهى تبتسم : « الأرجح أن الرثية لثيو سيديد ، وليست لبركليز كما تعلم » .

« ولو صح هذا فإن الحكم لا يتغير ! »

قالت « بل ربما كان حكما أصدق »

ووافق على ذلك هوايتهد قائلا « إن ما أنقذ الكتابة هو قيمتها من حيث شكلها الثابت نسبيا مما يؤدى إلى بقائها . ولكن الصوت يخاطب العواطف ، ثم تتحول العواطف إلى تفكير ، والتفكير إلى عمل » .

وصححت ذلك مسز هوايتهد بقولها « إن العاطفة قد تتحول إلى عمل دون أن تمر بمرحلة التفكير ، وأرجو أن تذكر ذلك » .

قال : « إنى أذكره . والعلاقة بين الصوت والعمل قد تكون أنفذ كثيرا من العلاقة بين النظر والعمل . إن ما نراه يوحى إلينا ـ عامة ـ بالتفكير . أما ما نسمعه فيثير العاطفة . والموسيقى تخاطب العواطف مباشرة ، وأنا أعترف أنها قد توحى بالأفكار أيضا . . . . . »

قلت : « ولكنها إذا أوحت بالأفكار صراحة ، فهى على الأرجح ليست موسيقى جيدة » .

وقالت مسز هوايتهد : « لما كان أطفالى صغارا بدأت أسمعهم موزار . وقيل إن هذا تعالٍ من جانبي . ولكنى لم أسمعهم غثا قط فى بيتى ، وعندما سمعوه فيما بعد عرفوا أنه غث ولم يعبأوا به » .

قلت « لا صلة للموسيقى بالأخلاق . إنها كأية قوة أخرى فى الطبيعة ـ ليست فى ذاتها خيرا أو شرا . إنما يتعلق الأمر كله بطريقة استخدامها . إنها تنشط ما هو كامن فينا من قبل . إن شرا فشر ، وإن خيرا فخير » .

قالت : « لا أوافق على أن الموسيقى ليست لها بالأخلاق صلة . إن موسيقى

ڤاجنر كثيرا ما تثير الحواس بشكل واضح . ولا أعدها موسيقى (خالصة) سواء من الوجهة الجمالية أو الأخلاقية ، وأود أن أنبه إلى أنى أحبها أحيانا، ولـكنى ـ برغم هذا ـ أعرف أثرها » .

وقال هوايتهد : « إن الموسيقى يمكن أن تكون خلقية وغير خلقية . خذ ڤاجنر مثالا إن شئت . إنكم أيها الأمريكان تحبون موسيقاه ، ولا أرى أنها عادت عليكم بأى سوء ، ولـكنى أعتقد أنها عادت على الألمان بضرر بليغ . إنها توحى إليهم بأحلام القوة التى تؤدى إلى العنف » .

« أعترف بأن ڤاجنر يمكن أن يكون موضع جدل حتى الآن . ولـكنا ينبغى أن نستثنى بيتهوفن : هل هناك ديانة أنقى من موسيقى رباعياته الأخيرة ؟ وهى كذلك صوت خالص » .

قال هوايتهد « أميل إلى الاتفاق معك . وأعتقد أن من عواطف الإنسان التى ظهرت مبكراً فى تاريخه ما كان استجابة لصوت رزين » .

(٣٧)

٢٥ من مايو ١٩٤٥

تناولنا الغداء فى نادى السبت . وكان الجو ربيعا مشرقا ، ولما كان خطر استخدام عربات الأجرة قد ألغى ، فقد أتى هوايتهد فى واحدة منها . وجاء بلس يرى بالأستاذ كارل ور من كلية كُلبى ضيفا على النادى ، وهو الرجل الذى كون تلك المجموعة الفريدة من مخلفات توماس هاردى . قال لى : « أردت أن أدرس هاردى ، ولم تكن هناك مجموعة من مخلفاته ، لذا اضطررت إلى تكوين واحدة. إننى أعمل الآن فى كمبردج ، وكثيرا ماوددت العودة إلى كُلبى لأسد حاجتى إلى بعض المواد » .

وكان على مائدة الطعام ما يقرب من خمسة عشر عضواً . وكنت مع هوايتهد وحدنا فى الطرف القصى ، فقلت له : « ينبغى أن تحرص فيما تقوله لى من الآن فصاعداً . فأنا رئيسك بعد ما أصبحت أحد أعضاء اللجنة الزائرة لقسم الفلسفة ».

قال : « عجباً ، وكذلك أنا ! » .

« إذن لنبدأ من جديد » .

ولكى يكون حريصاً فيما يقوله لى ، أبدى لى هذه اللاحظة همساً :

« هل تستطيع أن تتصور كائناً يخلق عالماً لغرض مباشر ، وهو أن يسبح مخلوقاته بحمده ! » .

« إن المسيحية تتعرض للنقد أحياناً من أفراد كفاة ، بيد انه من العجب أن النظرة السائدة ـ بالرغم من ذلك ـ هى أن المسيحية محصنة ضد النقد ، مهما يكن الناس ـ من الناحية العملية ـ غير مبالين . ولو حاول أى فرد أن ينظر إلى الأمر من خارج ، ألفاه شذوذاً وحمقاً » .

قال : « إن المتعلمين الذين نشأوا بروتستانت ثم اعتنقوا الكاثوليكية ـ كما فعل بعضهم فيما بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٤٠ ـ هم عندى قوم قرأوا التاريخ دون أن يفهموه ، أو قوم لا يعرفون التاريخ. فإن أى فرد يتدبر معنى الحوادث التاريخية لا يمكن أن يتقهقر هكذا على علم منه . إن ركود الفكر عثرة من عثرات البشرية . وإدراك ذلك أيسر فى الرياضة منه فى الدين . (الرياضة هى دراسة الإمكانيات) . الرياضة فى أثينا فى القرن الخامس كانت عديمة الفائدة إذا استثنينا التطبيق العملى المباشر ، مثل ١٢ × ١٢ ـ كانت الرياضة صورة من صور التأمل . وكان أفلاطون شديد الانفعال بموضوعها ، وكان عقله مليئاً بها . كان يستخدمها كأداة للتفكير ، وكانت توحى إليه بجميع ضروب الإمكانيات التى لم تطرأ على ذهن أحد من قبل . ولو أنك تحدثت إلى أرسطو عنه فى ذلك الوقت ، فلا شك أن أرسطو كان يقول لك على انفراد : « مسكين أفلاطون ! إنه مغمور فى تلك

الأفكار الرياضية التى ليس وراءها نفع » (وابتسم ابتسامة ماجنة وهو يقول ذلك) : « والواقع أن هذه الأفكار الرياضية فى عهد أفلاطون كانت غدءة الجذوى . وبقيت كذلك ما يقرب من ستة عشر أو سبعة عشر قرناً . ومنذ القرن الثانى عشر بعد الميلاد تقريباً جعلت هذه الأفكار الرياضية - التى انفعل بها أفلاطون انفعالا شديداً - العالم الحديث ممكناً » .

« وهل هناك سبب خاص نعرفه جعلها تثمر كما فعلت بين عصر النهضة ، والقرن الخامس عشر تقريبا فى فرنسا وإنجلترا ؟ »

« كلا ، فإن كل ما يلزم للعلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة كان موجودا فى عصر أرشميدس . وإنى حينما أقول لك — كما قلت من قبل — إن كل ما كان ينقص صقلية أو اليونان العظمى — فيما يظهر — هو أن الناس لم يجلسوا إلى جوار النار ويشاهدوا أغطية غلاياتهم ترتفع ببخار الماء الذى يغلى — إنى حينما أقول ذلك قد يعتقد الناس أنى أمزح مزاح البلهاء . ولكنى جاد جدا فيما أقول » .

« ثم نعود إلى (إذاعة) تجربة معينة . التجربة — كما قلت لى — بحاجة إلى اتساع إذاعتها لكى تستمد الاستجابة لها من أوسع انتشار ممكن للمواهب — فنحن لا نجد عازفين ممتازين على البيانو بين رعاة المزارع الغربية فى القرن التاسع عشر ، مهما تكن المواهب الكامنة لامعة ؛ إذ لم يكن هناك بيانو » .

والحديث يدور عادة بين كل اثنين حتى يدق رئيس الجلسة المائدة ليسود النظام . ولذا فقد سألنى هوايتهد عن الأخبار التى نميت إلى مكتبى فى ذلك الصباح فنبأته ، ثم قلت :

«هل تستطيع أن تذكر أمة غربية واحدة انصلت بالأفكار التمدنية التى سادت فى الخمسة والعشرين القرن الماضية منذ عهد اليونان القدماء ، هل تستطيع أن تذكر

مثل هذه الأمة التى كان يمكن أن تقوم بما يقال عن الألمان فى الوقت الحاضر أنهم يقومون به » ؟

قال : « ليس فى أعمالهم التى تنسب إليهم جديد . فالغلبة ، والسرقة ، والقتل، بل والتعذيب ، كان دائما موجودا فى مكان ما وإلى درجة ما . والجديد عند الألمان هو المدى فإن ذلك لم يحدث من قبل بمثل هذا المدى » .

« وإلى أى حد تعتقد أنهم سيحسنون السلوك بعد هذا » ؟

قال : « لقد هدموا الإمبراطورية الرومانية ، وهدموا نظام العصور الوسطى، وهدموا مدنية أوربا الحديثة — وأعنى تلك المدنية التى بدأت منذ خمسمائة عام ، فى عهد النهضة تقريبا . والراجح أنهم سيواصلون الهدم ، لأنهم يحبون الهدم » .

وهنا دق مارك هاو رئيس الجلسة المائدة ، وطرح موضوع اليابان للمناقشة . وقام بأكثر الحديث لانجدن وارنر الذى عاش وتجول كثيرا فى الصين واليابان، وكامرون فوربس ، الذى كان سفيرا فى اليابان كما كان حاكما عاما للفلبين ، وكان مدار حديثهما هذه الموضوعات الهامة : ماذا سيتم فى حالة النصر بشأن موانى المعاهدة الصينية ، وبشأن منشوريا ، وكوريا ، وقواعد الطيران الجزرية ؟ وأى لون من ألوان الحكم سيسود فى الجزر اليابانية الوطنية ؟ وظن كام (كامرون) أن موانى المعاهدة ينبغى أن ترد للسيادة الصينية ، ولكن ربما ردت القواعد لبريطانيا لتحتفظ بظاهر كرامتها الاستعمارية كلها ما عدا هنج كنج ، التى رأى أنها مركزية فى حيويتها حتى إنه لا يصلح لها إلا التدويل . ولم ير هوايتهد سببا لأن تسترد بريطانيا موانى المعاهدة . ثم قال : « أما سنغافورة فهى تهمنا من أجل أستراليا ونيوزيلندة » .

وواصل هوايتهد حديثه قائلا : « إننى فى شك من أهل الصين . إن تطورهم

الثقافى لا ينم عن الاطراد . فلم يكن هناك تقدم يذكر فيما بين عام ٥٠٠ ق . م . وعام ١٢٠٠ بعد الميلاد تقريبا . ويظهر أنهم فى العصر الحديث يحاولون أن يتشبهوا بالأمريكان ما استطاعوا . ولكن هب أنهم نجحوا فى التشبه بأمريكان القرن العشرين . فهل لديهم المقدرة — بعد ذلك — أن يواصلوا التقدم بطريقتهم من هناك ، أم هل سيبقون قروناً بعد ذلك متشبهين بأمريكان القرن العشرين » ؟

وقال كامرون فوربس عن الشيوعيين فى الصين : « إنهم يختلفون أشد الاختلاف عن الشيوعيين فى روسيا السوفيتية ، فإن الأصول التاريخية التى تكيفهم تعود إلى الماضى السحيق ، ماضى الصين الذى يخصها دون سواها ، حتى إنك حينما تقول عنهم إنهم (شيوعيون) فأنت لا تكاد تتحدث عن نفس المعنى الذى يفهم من الشيوعية فى روسيا » .

وقال هوايتهد : « إن ما تقول يشوقنى ، لأن الناس يعتقدون ـ فيما يظهر ـ أنهم حينما يستعملون لفظة (الشيوعية) يسمون شيئا بعينه على وجه الدقة ، وأنهم يعرفون ما يتحدثون عنه ، والواقع أنه ليس هناك ـ كما ذكرت ـ ستة آراء وتعاريف للشيوعية فى أذهان الناس حينما يثيرون الموضوع للمناقشة ، ليس ذلك فحسب ، بل إن هناك ما يقرب من ستمائة تعريف مختلف » .

وانفض الاجتماع فى نحو الساعة الثالثة والنصف . وناديتُ وهوايتهد عربة أجرة عند برمستون كورنر ، وطوينا شارع بارك وهبطنا فى بيكن حتى شارلز مارين بمروج كومون التى اخضرت الآن فى شهر مايو . وقال هوايتهد : « إنى لم أستمع من قبل إلى كام وهو يتحدث بمثل هذه الحكمة التى تدعو إلى الإعجاب . إن السامع — عادة حينما يبدأ — يستعد للاختلاف معه ، أو للتسامح ، أو يلزم الصمت حذرا . ولكن لشد ما كانت دهشتى حينما وجدتنى على اتفاق تام معه فى كل ما قال » .

وسرنا عبر قنطرة لنجفلو ، وضربنا فى كمبردج ، التى كانت أيضا نضرة بهيجة

بعدما لبست رداء مايو القشيب الأخضر . وكانت فى زهريات مسز هوايتهد فى حجرة جلوسها أعواد الأزهار ذات الزرقة الشاحبة ، كما تدفقت من النوافذ الغربية أشعة شمس الأصيل اللامعة . وذكرنا لها بعض ما دار من حديث حول المائدة مماداً ، بناء على طلبها ، ثم عطفنا نحو الحديث فى النظام الاجتماعى الأمريكى » .

وقال هوايتهد مؤكدا : « أعتقد أن النظام الاجتماعى الأمريكى — على وجه الجملة — خير ما وجد من نظم . إن له عيوباً خطيرة . وللنظام الإنجليزى بعض نواحى التفوق ، غير أن نظامكم لا يزال خير ما أنشىء من نظم حتى اليوم . ومن التناقضات أنكم لستم فى الحقيقة شعبا (سياسيا) . إن ثلث مواطنيكم ـ فى رأيى ـ من الطراز الأول حقا ، ولكنهم ليسوا من هذا الطراز فى السياسة . ومن الثلثين الباقيين نحو النصف ـ فى زعمى ـ من الطراز الثانى ، ولكنهم طيبون برغم ذلك . أما النصف الثانى (وهنا تردد ثم استمر فى حديثه) فجرمون » .

قلت : « ويتضمن كثيرا من رجال السياسة عندنا » .

قال : « نعم » .

وتقرر أن نعدل عن الحديث فى هذا الموضوع .

قال : لقد دعيت لحضور الحفل الذى سيقام فى السادس من شهر يونية . وقد سارعت إلى التلبية قبل أن يتسع لهم الوقت لسحب الدعوة » .

وقالت مسز هوايتهد : « المفروض أن يتوجه المرء إلى قصر بكنجهام ليتسلمه[1] . فإن تسلمه فى هذا البلد ، فمن يد السفير . ولكن لما كانت لدى لورد هالفاكس أعمال كثيرة أخرى ، فإن القنصل البريطانى يقوم بتسليمه » .

وكان من رأى هوايتهد أنه ربما أثيرت بشأنه ضجة كبرى .

فقلت : « لن يكون ذلك من وجهة نظر الجامعة . متى كان أستاذ الشرف المتقاعد للفلسفة فى أية جامعة أمريكية قبل اليوم رجلا يحمل وسام الاستحقاق ؟ »

(١) تشير إلى الوسام الذى منحته الحكومة البريطانية لزوجها .

قال هوايتهد : « هذا أمر لا أهمية له »

« أنا أعرف أنه عديم الأهمية . ولكن هذه الجامعة قد وقعت فى أخطاء جسيمة فى السنوات الأخيرة . من تلك الأخطاء أنها سمحت لهارفى كشنج أن يذهب إلى ييل . ومنها أنها سمحت كذلك أيضاً بهذا لجورج بيرس بيكر . وهناك آخرون » . وقد ذكرت لهم رأى هارفى كشنج فى هذا كما أخبرنى به ذات أحد بعد الظهر فى صيف عام ١٩٣٢ حينما كنا وحدنا فى بيته القديم بشارع والنت فى بروكلين .

قال هوايتهد : « إن عادة إحالة الرجل إلى التقاعد رغما عنه فى سن الستين عادة سخيفة » .

وصححت زوجه رأيه بقولها : « يقال إنها فى حالة الجراحين ضرورة . فقد عرفت أنهم لا يستطيعون فى هذه السن أن يثقوا فى يد ثابتة » .

« إن كشنج لم يَشْكُ التقاعد فى سن الثالثة والستين . بل لقد حدد هذه السن بنفسه حينما قام بتنظيم مستشفى بيتر بنت بريام . والواقع أنه لم يشك شيئا قط . ولم يقل إلا أن الماليين المنحرفين — الذين وضع فيهم ثقته — قد محوا جزءا كبيرا من ضيعته ، بما فيها ما ورثه عن الدكتور الكليفلاندى ، الذى لم يمسه قط بل احتفظ به لشيخوخته . وقد تدهورت صحته — كما تذكر — وعرف عنه ذلك كله ، فمنح فى هارفارد أستاذية بغير مرتب » .

وبدا هوايتهد متجهما عابسا .

وغيرت مجرى الحديث بسؤالى : « كم كان عمرك حينما أحسست أولا بالتضلع فى مادتك » ؟

قال : « لم أحس بذلك قط » .

« إذن فقد وجهتُ السؤال فى صيغة نابية . ربما كان ما حاولت أن أسألك عنه هو : متى بدأت أولا تحس بالكفاية فى عملك » ؟

« لم أحس قط أنى كفء له » .

قالت زوجته : « يا لله ! أنا أعلم منه بذلك . لم يمر عام ويعود شهر سبتمبر ويستأنف التدريس ، إلا وانتابه الضعف » .

« أنت شاهدة كفء » .

« لم أراقبه إلا واحدا وخمسين عاما » .

وقال هوايتهد ـ الذى كان يصغى فى شرود ـ : « هذا رأيى فى عادة الإحالة على التقاعد رغما . إنها عادة سخيفة ، لأن الإنسان قد لا يفكر فى أمر جديد بعد الستين إلا أنه كثيرا ما يجد وسائل جديدة لاستخدام ما عرفه من قبل » .

(٣٨)

٢٩ من مايو ١٩٤٥

أقام مستر ومسز وليام چيمز حفلا لآل هوايتهد ، فى ٩٥ شارع أيرفنج ، فى البيت الكبير المريح الذى بناه الأستاذ چيمز فيما بين عام ١٨٩٠ ـ ١٩٠٠ ، وحيث عاش حتى وفاته فى عام ١٩١٠ ، وأنا أذكر حجرة الدرس لأنى زرتها وأنا طالب فى الجامعة لكى أستشيره فى موضوع رسالة .

وقد دعى الضيوف للحضور « فى أى وقت بعد الثامنة والنصف » . وكان مساء لطيفا من شهر مايو ، وكمبردج فى هدوء . والمروج النضرة من أشجار الدردار والليلاب فى فناء الكلية كانت تغرى بالتلكؤ . ولما وصلت وجدت أن آل هوايتهد وضيوفا آخرين عديدين قد سبقونى إلى حجرة الدرس . والتفت جماعة حول الموقد حيث كانت نار الحطب تشتعل . وأخذ الآخرون يتواترون حتى كان بالغرفة ثلاثون أو أربعون شخصا . وجلس الضيوف ، ولكن المجموعات كانت فى تغير مستمر . ولاحظت أن التئام الجماعات كان يتم فى مهارة ولباقة شديدة .

واستطعت من حين إلى آخر أن أجدد عهدى بهذه الغرفة . وكانت جدرانها لاتزال مليئة بالكتب ، ولكن وليام چيمز – وهو أكبر الأبناء – الذى سرعان ما اتصل بى فى حديث منفرد فى إحدى الزوايا إلى جوار مكتب أبيه قال : « ليست هذه كل الكتب ، ولا كل كتبه ، وقد رتبت إلى حد كبير وفقا للأحجام والمجموعات . كانت مكتبته مكتبة باحث ، رصت فيها الكتب من كل الأحجام وكل الأشكال جنبا إلى جنب وفقا للموضوعات » .

« إنها تبدو كما أذكرها إلى حد كبير . فهناك المجلدات ذات القصاصات الورقية فى ظهرها ، وهناك النشرات ..... وأرى هناك فى الرف الذى يلى القمة مجموعة كاملة من چورج مرديث ، طبعة أدنبرة ، كنستابل وشركاه » .

« إنها مجموعة العم هنرى . وكانت هدية من مرديث » .

وكانت على الرف الذى يعلو موقد النار صورة فوتوغرافية رائعة ، أربع بوصات فى ثمان تقريبا ، فى إطار مغطى بالزجاج ، للأخوين وليام وهنرى . وقد اختفى النضد الذى كان يتوسط الحجرة ، وكذلك اختفى مصباح القراءة الغازى المظلل باللون الأخضر الذى كان هناك فى السنين الخوالى . ولكن بقى المكتب الكبير المصنوع من شجر الجوز الأسود ، وقد بلغ من الطول ما يسمح لرجل طويل يتمطى عليه كأنه سرير خلوى ، ويقوم على قاعدتين ذواتى أدراج من شجر الجوز الأسود . وقد بدا فى الواقع كأنه سبق فى تاريخه استئجار الأستاذ چيمز للمكان ، وربما كان ملكا لأبيه . وقال الابن :

« كان أبى يجلس للعمل فى الجانب الآخر منه ، فى ذلك الركن » .

وشعرت بميل شديد إلى تجاهل الحافلين وإنعام النظر فى تلك الرفوف وتسجيل مذكرات عن العناوين والمؤلفين ، كما استطعت أن أفعل مرة أو مرتين فى مكتبة

هوايتهد . وقد اشتغل الأستاذ رالف بارتن برى ـ راوى سيرة وليام چيمز ـ فى حديث مع هوايتهد إلى جوار الموقد .

وكان يتحتم علىّ أن أغادر الحفل مبـكرا . ولما خرجت إلى الردهة لأسترد سترتى وقبعتى ، وجهت ملاحظة إلى مضيفى الذى رافقنى إلى الخارج .

قلت : « ماذا نصنع لنرسم صورة زيتية لهوايتهد ؟ »

قال : « لقد رسم شارلز هبـكنس تخطيطين بالزيت . أحدهما لم يبلغ حد الإجادة .أما الآخر فجيد جدا. ثم — كما يحدث لنا كثيرا نحن المصورين — أخذها إلى مرسمه لـكى يضع فيها اللمسات الأخيرة ، ويظن بعض الناس أنه أتلفها ».

« رأيت التخطيطين فى مرسمه . وأحدهما شديد الشبه بالصورة . وقد تحدثت عنه منذ بضعة أيام مع شارلز ، وقال لى ، فى تواضع يدعو إلى الإعجاب : (أشك فى أنى كفء لرسم هوايتهد .) . . . ولـكن هل نسمح لهوايتهد أن يغادرنا دون صورة جيدة له ؟ أنت مدين لنفسك برسم صورة لهوايتهد ».

فأجاب ضاحكا : « كنت فى شبابى أطلب إلى أى فرد أن يجلس أمامى لتصويره . أما الآن فإنى حينما أحاول أن أتعلم لغة أتردد فى أن أطلب إلى شخص أن يجلس للتصوير حتى أتعلم الحديث بهذه اللغة » .

ولما أغلق الباب الخارجى للمنزل رقم ٩٥ بشارع أيرفنج خلفى ، وخرجت مرة أخرى فى ليلة من ليالى شهر مايو ، رأيت فى لمحة خاطفة ذلك الفناء الفسيح الذى يقع جنوبى المنزل ، والذى تطل عليه نوافذ حجرة الدرس . وهناك ، فى يوم من أيام سبتمبر بعد الظهر من عام ١٩٠٣ كنت قد رأيت وليام چيمز لأول مرة . وكنت قد أديت امتحان القبول بنجاح ، ولم ألتحق بالجامعة بعد ، ولـكنى سألتحق بها بعد يومين . وقد انقضى عامان منذ شرعت أقرأ ما كتب وليام چيمز ؛ ولما كنت صبيا فى السابعة عشرة من عمرى فى مدينة صغيرة بالغرب

الأوسط ، فقد وضع مقالان من مقالاته خاصة فى قلبى بأسا وشجاعة . وكنت عارفا بفضله ، وقد أحببته غيبا . ولما التحقت أخيرا بكمبردج ، طرأ لى فجأة أنى — بعد ما توجهت إلى كنكورد وشهدت أين كان يقطن أمرسن وهوثورن — أستطيع أن أطوف لأشهد أين كان يسكن وليام چيمز . وقد عرفت من دليل الكلية اسم الشارع ورقم المنزل . وكان الصيد فى هذه المرة أفضل بكثير من البيت نفسه . فهناك فى فناء البيت كان وليام چيمز جالسا فوق مقعد فى الحديقة يتحدث مع بعض زائريه . ولم أشك قط فى أنه هو ! فلقد رأيت له من قبل صورا فوتوغرافية .. وبلغت الممرات الخارجية نغمات صوته ، وهى نغمات عذبة عالية الرنين ، وإن لم تبلغنا كلماته . وكانت هذه — فيما أظن — أول مرة أشهد فيها رجلا مبرزا بشخصه . إنه مشهد يفتح العيون : لا يستطيع المرء أن يتخيله إلا إذا قيل له عنه . وما أيسر أن تظن أنه لا يختلف كثيرا عن غيره . وهذا حق من ناحية ، وباطل من ناحية أخرى . ومهما يكن من أمر ، فهناك كان يجلس وليام چيمز فوق مقعد بالحديقة يتحدث إلى أصدقائه وديعا كالملاك . ولو خيرت بين أن أشهد ملاكا أو وليام چيمز لاخترت بالتأكيد وليام چيمز . وما زلت أعتقد أن الاختيار صحيح .

(٣٩)

٦ من يونية ١٩٤٥

فى مساء الأربعاء فى الساعة الرابعة ، فى حجرة الأساتذة فى قاعة الجامعة قدم وسام الاستحقاق ــ الشارة وشهادة التكريم ــ لألفرد نورث هوايتهد ، الدكتور فى العلوم ، والدكتور فى الآداب ، وصاحب الشهادات العلمية الأخرى ، وأستاذ الفلسفة المتقاعد فى جامعة هارفارد .

وكان التقديم على هذه الصورة فى المرتبة الثالثة ، فلو كان فى إنجلترا لكان

المنظور أن يتوجه إلى قصر بكنجهام . ولو كان السفير البريطانى أقل انشغالا لقدمه إليه إما فى واشنطن أو كمبردج . ولما كانت الظروف غير ذلك ، فقد قام بالتقديم القنصل العام البريطانى فى بوسطن . وإذا وضعنا فى اعتبارنا أبعاد العالم الذى سيعيش فيه هوايتهد ، وأبعاد الامبراطورية البريطانية ، كانت فكرة منحه تكريما أو وساما أشبه بقاربى الصغير الذى أملكه فى سوامپسكت إذا قيس إلى الباخرة (الملكة اليزابث) ، والواقع أن هوايتهد نفسه قد أنكر أن يكون لذلك أية أهمية فى ذاته . وأذكر أيضا أن چورج مرديث عندما منح وسام الاستحقاق (واختصاره بالإنجليزية .O. M) قال إن هذين الحرفين إنما يعنيان أنه رجل عجوز (بالإنجليزية old man، والحرفان الأولان .O. M) .

وعلى أية حال فقد كان منظر الطبيعة خلابا . واليوم يشبه فى جوه يوما من أيام شهر يونية فى إنجلترا - رياح جنوبية غربية وشمس مشرقة أحيانا ومطر خفيف أحيانا أخرى ، وسحب بيضاء فى أطرافها رمادية فى صدرها تندفع فى سماء زرقتها صافية . ولما حلت الساعة الرابعة كانت أشعة شمس الأصيل تتدفق خلال النوافذ ذات الأقواس المرتفعة فى الجانب الغربى من الردهة ، فى حين أن كراسى الأساتذة وعددها نحو مائتين تقريبا صفت بحيث تواجه النوافذ الشرقية التى تبلغ نفس الارتفاع ، والتى تطل على الحقول الخضراء فى مربع كنيسة سفر وايدنر التذكارية .

ويدل مظهر الغرفة على الجلال فى هدوء . ويبلغ ارتفاعها طابقين : الثانى والثالث من ردهة الجامعة ، ومهندسها المعمارى هو شارلز بلفنش . والجدران مطلية باللون الأخضر الشاحب ، الذى يبدو فى بعض الأضواء أزرق فاتح اللون . وترتفع الأعمـــــدة القصيرة البيضـاء المخططة الأيونيـة من الأرض إلى الكورنيش بين النوافذ المقوسة . وتتدلى من السقف أربع نجفات بلورية .

وقد صَـرَفَتْ نظرى عن أكثر رفاقى القريبين منى تماثيلُ نصفية من الرمر

وضعت على قواعد حول المنصة التى تحاذى الجدار بأبعاد الردهـــة الطويلة . وهناك تمثال رائع لبنيامين فرانـكلين ، من نحت هدسن فيما أظن ، وهناك آخر للرئيس اليوت ، وآخر لصديقى ومعلمى القديم دين برجز ، وكأنه حى إلى درجة مذهلة ، حتى بريق عينيه ، وأدق تجاعيد خده الأعجف الأمريـكى . وقد علقت فوق الجدران الأربعة صور لرؤساء هارفارد وللعلماء البارزين فى القرون الثلاثة الماضية . وهذا هو أستاذ القواعد اليونانية و . و . جودوين ، وعلى كتفه ثوب الدكتوراه القرمزى ، ببشرته النضرة الوردية ، وشعره الأبيض الناصع ، وابتسامته اللطيفة السماوية . وإذا استثنينا بضعة أفراد بارزين فإن الرجال المعلقة صورهم فوق الجدران أكثر أهمية من الأفراد الجالسين فوق المقاعد .

وقد وضع فوق كل مقعد برنامج مجلد بالورق الأخضر الرمادى الثقيل . وبدأ البرنامج بالرئيس كونانت الذى قال ـ من بين ما قال ـ إن هوايتهد قد جاء إلى هارفارد بعد حياة طويلة حافلة فى إنجلترا ليلقى سلسلة محاضراته الأولى فى الفلسفة ، و « أول محاضرة فى برنامج دراسى للفلسفة استمعتم إليها هى المحاضرة التى ألقيتـها . »

وروى القنصل قصة وســـام الاستحقاق . ولما اطلعت على قائمة أصحابه الحاليين ، وعددهم ثمانية عشر ، لاحظت من بينهم أسماء جلبرت مرى ، و . ج . ترفليان ، و ج . و . ماكيل ، وڤون وليامز ، وچون ميسفيلد ، وأغسطس چون . وكثيرا ماطرأ لى أن عددا كبيرا من الرجال البارزين فى إنجلترا يشعرون بالسخف فى قبول ألقاب العصور الوسطى ، وربما كان وسام الاستحقاق هذا حيلة اخترعتها الحـكومة أخيرا (بما فيها الملـكية) لـكى تواصل تشجيع استمرار العبقرية الإنجليزية .

وأشعل المصور الفوتوغرافى المصباح مرتين بينما كان القنصل يعلق شارة الوسام بشريط حول رقبة الفيلسوف . والوسام كحلية يخطف البصر .

وجلس المشتركون فى الحفل — ومن بينهم بك عميد الكلية — الذى كرم الفيلسوف بحضوره — حول مائدة مستديرة ، بدت كأنها تلك المائدة التى جلس حولها وليام چيمز وچوشيارويس وچورچ هربرت پامر ، لترسم لهم صورة وهم جالسون معا .

وعلى الحائط الشمالى صورة نبيلة لوليام چيمز . تراه واقفاً إلى جانب مكتبه الذى يبلغ فى ارتفاعه مستوى صدره ، فى غرفة دراسته بشارع إرفنج رقم ٩٥ . وخلفه رفوف الكتب وصفوف عن المجلدات المغلفة باللون البنى . ومكتبه من خشب الجوز البنى ، وهو يلبس بدلة رمادية ، وشعره ولحيته أحمران وخطهما الشيب . ويمثل ضوء الغرفة لون جو الخريف الرطب الأحمر الداكن . ووجهه وردى وكأنه اكتسب هذا اللون من قضاء الصيف فى الخلاء فى كوكروا بهامپشير الجديدة . ونظرته فى الصورة أعنف قليلا من حقيقة نفسه المادية الرقيقة . وقد ألقت شمس الأصيل التى تدفقت خلال تلك النوافذ الغربية ضوءا جميلا على الصورة . وبينما كنت أبدى إعجابى بعد أن انفض الحفل ، جاءنى الأستاذ رالف بارتن پرى ، تلميذه فى أول الأمر ، ثم زميله ، ومؤرخ سيرته أخيرا ، وتحدث إلىّ :

سألته : « متى رسمت » ؟

وأجاب : « حوالى عام ١٩٠٨ فيما أظن » .

« وإلى أى حد ترضيك هذه الصورة ؟»

« إنها ترضينى جدا ! لأن مس الن أَمتْ كانت ترسم بخطوط جريئة » .

« كان عام ١٩٠٨ قبل وفاته بعامين فقط . لا بد أنه كان ضعيفا (والواقع أن كلينا كان يعرف ضعفه) ولكنه فى الصورة يبدو قوى البنية موفور النشاط» .

فقال الأستاذ پرى « كان دائما يبدو أقوى بنية من حقيقته . وربما كان ذلك لشدة نشاط ذهنه » .

وقد لاحظت نفس الشيء فى هوايتهد ؛ فهو يتكلم بقوة الشاب ، لأنه يفكر بقوة الشاب . .

وسألته بعد تقديم الوسام إليه إذا كان يحتفظ بنسخة من كلمته . وكان التبادل بيننا شفويا كله تقريبا ، حتى إنى لم أحتفظ إلا بقطعتين من الورق مكتوبتين بخط يده ، وقد أجابنى بأنه سيرسل إلىّ المخطوط . وفى اليوم التالى تسلمته ونصه كالآتى :

« سيادة الرئيس كونانت : يستحيل علىّ أن أوفى التعبير عن فضل الجامعة التى ترأسها علىّ وعلى زوجتى . لقد مكنتنى هارفارد — كمهد وكمجموعة من الأفراد — أن أعبر عن الآراء التى أخذت تنمو فى ذهنى طوال حياتى . وأود أن أؤكد إعجابى وعبتى الشخصية لكثير من الأصدقاء فى هارفارد ، الذين حضر اليوم بعضهم . لقد سعدت خلال حياتى سعادة عظمى بالتعليم فى بلدين أضافا كثيرا إلى العلم وإلى كرامة البشرية » .

(٤٠)

١٩ من يونية ١٩٤٥

كان يوما عاصفا ، هبت فيه عاصفتان بحريتان : إحداهما عند ماربلهد ، والأخرى عند ناهانت — كما هبت عاصفة ثالثة فى مكاتب تحرير مجلة (جلوب)، حيث غضب فريق لنشر مذكرات شيانو فى الصحيفة ، وعدّوا ذلك دفاعا عن الفاشية . وسر فريق آخر لعرضها فى جميع الأنحاء وتمكين الشعب من التفرقة بين الغث والسمين » .

وأخذ آل هوايتهد بالرأى الثانى . وقد مر هوايتهد وزوجه عرضا بكمبردج لبضعة أيام فى الفترة ما بين عودتهما من لدن بكمان فى بدفورد وقضائهما شهرا فى مين حيث يعتزمان الرحيل إليها فى يوم الجمعة القادم . وكانت جميع نوافذ مسكنهما

مفتحة على مصاريعها تستقبل هواء الليل الرطب ، الذى يتسلل منه إلى الداخل نسيم حفيف . وفى آنيات الزهر أعواد نبات الصليب الضخمة البيضاء منكسة رؤوسها . وقد رفعت جميع السجاجيد وأسدلت ستائر النوافذ ، فأكسب ذلك الغرف جوا باردا نقيا منعشا . وعطرت الجو أزهار شهر يونية فبدت هذه الغرف المألوفة فى صورة غير عادية ، وأشاعت فى المكان جو الصيف .

وكنا نقول كيف إن الطلاء الجميل لخشب الأرض المتين ـ الذى انكشف الآن ـ يعكس الماهوجانى كما يعكس أعواد نبات الصليب البيضاء . وعندئذ دخل علينا هوايتهد قادما من مكتبه .

قال : « أرى أن سجاجيدنا قد رفعت . إننى لم ألحظ ذلك من قبل » .

قالت ، وقد سخرت منه : « نعم ألم ترنى أجوس خلال البيت أجمعها لأبعث بها إلى محلات التنظيف » ثم نهضت وتوجهت نحو دولاب طويل من خشب الماهوجانى وقالت : « لدينا شيء نريد أن نطلعك عليه » وكان ذلك الشيء فى كيس من الجلد القاتم ، موضوعا فوق مخمل لونه عاجى . ذلك هو شارة وسام الاستحقاق . إن الصليب المالطى مصنوع من الميناء الثمينة ذات اللون الكهرمانى التى تكسو الذهب ، يعلوه تاج ذهبي ، ودائرة من اللآلىء حول مركز من الميناء ذات اللون الأزرق الملكى ، وقد نقشت عليها هذه اللفظة (للاستحقاق) مكتوبة بالذهب وحولها إكليل من الغار .

قلت : « لا أعتقد أنهم يقصرون فى تكاليف الوسام »

قالت : « من حسن حظنا أنه لم يكلفنا شيئا . إن كل وسام آخر ما تمنحه الحكومة لابد أن يدفع ثمنه الشخص الذى يتسلمه إلا هذا ، فهو هدية من التاج» .

« أعتقد أن التاج قد دفع فيه مبلغا ما . وأود أيضا أن أذكر أن الجامعة قد أقامت

حفلها على صورة رائعة. فلم تلق الخطب الطويلة، ولم يشعر أحد بالملل، ولا ضجيج ولا حواشي، ولم يحضر إلا العدد المطلوب فحسب. هل ترى أن مائتي شخص حضور عادى فى الكلية؟»

فقال باسما: «كان حضورا عادياً بالنسبة لمن حضر فقد كانوا أعضاء فى قسم الفلسفة —»

قلت: «من الرجال والنساء بطبيعة الحال».

«— ومن صغار الزملاء وكبارهم —».

«هؤلاء استطعت أن أتبينهم، لأنى عرفت بعضهم —»

واستأنف حديثه قائلا: «ومما بعث السرور فى نفسى حضور السكرتيرين من القسمين رجالا ونساء ممن يحملون كثيراً من عبء الإدارة».

وقالت: «لم يكن لنا شأن بالدعوات فلم ندعُ سوى چون ومارى من ناحيتنا، وهما بطبيعة الحال جزء من الأسرة. وقد أرضانا ذلك كثيرا. ولم يكن من المؤكد حتى اللحظة الأخيرة أن يتمكن ألفرد من الحضور فقد رقد طول النهار، وأخيرا نهض وحاول الحضور بنفسه.

وفى اللحظة التى وصل فيها ردهة الجامعة أحس بالعافية. وأود بهذه المناسبة أن أذكر لك أن دعوتك جاءتك عن طريق علاقتك الرسمية بقسم الفلسفة».

وجاء دورى فى الكلام فقلت: «عندى لكما نبأ سار. إن لفنجسون سيحضر ليحاضر فى تورنتو فى سبتمبر المقبل. إنه لم يطلب إلىّ أن أخطر أحداً بذلك ولم أخطرسوا كما حتى الآن».

وقال هوايتهد: «لا بد من رؤيته. هل هناك أمل فى حضوره هنا؟»

«لست على ثقة من ذلك. إنه يقول إنه ينفق الساعات متنقلا فى تفكيره

من مشكلة جامعية إلى أخرى ، وأنه سوف يحاضر فى تورنتو إذا أمكن أن تكتب المحاضرات » .

فقال هوايتهد : « قل له عندما تكتب إليه إننا سنشعر بخيبة الأمل شعوراً قويا إذا لم نره » .

وتباحثنا فى الطرق والوسائل فى شىء من التفصيل .

« إن كتيبيه الصغيرين عن التربية قد أعيد نشرهما فى هذا البلد فى مجلد واحد بوساطة ماكملان ، وأطلق عليهما هذا العنوان البسيط ـــ : (فى التربية) ويقول لى بائع الكتب فى مكتبة (الركن القديم) ، إنه يوزع توزيعاً حسناً » .

قال هوايتهد : « إنه يستحق ذلك . قرأت الكتيبين فى الطبعة الإنجليزية ، وقدرتهما قدراً كبيراً » .

« متى نشر كتابك (أهداف التربية) ؟ »

« دعنى أر ، فقد نسيت » . ثم توجه إلى مكتبه وعاد بالمجلد وقرأ فى المقدمة تواريخ فصوله المختلفة . ويقع أكثرها بين عام ١٩١٢ وعام ١٩٢٢ . » ثم واصل الحديث قائلا : « إن كتاباتى فى الفلسفة كانت كلها بعد قدومى إلى هذا البلد . بيد أن الأفكار كانت تتوالد فى ذهنى فى خير سنى حياتى . وقد نبت بعضها لدىّ عندما كنت فى المدرسة وقبل أن التحق بالجامعة . وكنت أستمع إلى المناقشة فى التربية دائما منذ حداثتى . فقد كان أبى ، واثنان من أعمامى مشتغلين بها . وكنت فى كمبردج — كما تعلم — عضوا فى (جماعة الرسل) » .

قالت : « كان فى ذلك شىء من الشذوذ ، أليس كذلك ؟ ألم تكن العالم الرياضى الوحيد فى المجموعة ؟ »

وأجاب : « . . . . ربما كان ذلك لأنى كنت العالم الرياضى الوحيد الذى يهتم بالآراء العامة » .

ثم تبين أن هوايتهد قد نجح فى امتحانات الزمالة فى ترنتى مصادفة (وللطالب ثلاث فرص) . وكان الأمل ضعيفا فى قبوله حتى لقد انصرف فى الصيف دون أن يترك عنوان إقامته » .

قلت : « أشك فى أنى قد قرأت فى العبارات الإنجليزية تفكيرا محكما يبلغ ما بلغ فى كتابك (أهداف التربية) . هل الكتابة سهلة عندك ؟ »

قال : « نعم . إذا كانت فى موضوع أود الكتابة فيه » . وبدا الشك على وجه زوجته فسألها : .

« مارأيك ؟ »

فذكّرته بقولها : « إنك ملىء بالأفكار ، وأنت تدونها كلها أولا ، وهى تشتمل على كل شىء . ثم يأتى بعد ذلك دور الترتيب والتهذيب — »

« بمعونتك ..... »

« نعم ، أنت تقرأ بصوت مرتفع وأنا أصغى .... ثم قالت « لتؤيدنى : « عنده عادة سيئة فى تكرار لفظة بعينها مثل (لذلك) أو (بينما) — وفى كل صفحة بعد أخرى ترد هذه اللفظة .... »

« هل يفعل ذلك أيضا ؟ إن التكرار نوع من التأثير المغناطيسى فى النفس » . وأضافت موجهة الىّ الكلام : « إنى لأعجب كيف تستطيع أن تكتب بهذه الكثرة » .

« وإنى لأعجب أيضا لذلك . والجواب على هذا هو أنى لا أكثر الكتابة . فأنا أكتب مرتين كل أسبوع فى هذه الأيام ، أو ثلاث مرات عند الضرورة ، ولكنى أتغيب شهورا أسترد فيها الأنفاس « ثم سألتُ هوايتهد : « ماذا تفعل لكى تقى نفسك الإجهاد » ؟

وأجاب ، وقد ابتسم ابتسامة رقيقة على ما يصيبنى من حبوط ، قال : « لقد حاضرت مرتين فى اليوم عدة سنوات منذ كنت فى الرابعة والعشرين من عمرى . ومن الحق أن عطلة الصيف كانت تمتد من أواخر يونية إلى أوائل أكتوبر ، كما كنا نتعطل أربعة أسابيع فى عيد الميلاد وخمسة فى عيد القيامة . فلم يكن جدول الأعمال ثقيلا » .

وذكرته زوجته بقولها : « ولكن من الحق أيضا أنك لم تكف عن العمل قط . إذا قمنا برحلة فى القارة الأوربية لم تدع ظرف خطاب فى جيبك لم تملأ ظهره بالكتابة فوق ركبتك فى قطارات السكك الحديدية أو فى الفنادق كلما طرأت على ذهنك الأفكار . وإذا مكثنا فى إنجلترا فى مكان ما فى الريف كنت أيضا تتصفح مذكراتك الفلسفية الخاصة » .

ووجهت إليه خطابى قائلا : « الظاهر أنك لا تعتقد أن الرجل يستنفد نشاطه وينفق كل طاقته للعمل بالتعبير الدائم عن نفسه ـ فى حدود وقته وحيويته » . (وكنت أفكر فى أكثر من باحث علمى ألقى محاضراته حديثا وكان بإمكانه أن يصدرها كتابا . وكنت كذلك أفكر فى الإجهاد الذى ألمسه حولى بين الصحفيين الذين لا يستطيعون ـ أولا يريدون ـ أن يتوقفوا عن العمل وقتا كافيا) .

وأجابنى هوايتهد بقوله: « كلا. إنى أعتقد أن المرء يفيد من مثل هذا التعبير. فهو يوضح الآراء الغامضة بصياغتها حديثا أو كتابة . وبالتعبير يطور أفكاره ويشق طريقه إلى أفكار جديدة » .

« ربما كان ما كنت أريد السؤال عنه هو : هل تستمتع بالكتابة ؟ » .

« نعم ، أحب أن أكون فى جوها » .

« وإحكام الفكر فى أسلوبك — هل تعتقد أنه نشأ عن تدريبك الرياضى ؟

لقد تعلمتَ طريقة من طرق التعبير ثم انتقلت إلى غيرها . وكأنك - بعد تدريبك تدريبا ذهنيا قاسيا - انتقلت فى يسر إلى فن الكتابة والكلام » .

فقالت زوجته : « لقد مر وليام چيمز بشىء من هذا . فقد تعرض لتدريب ذهنى شاق فى الطب أولا ، ثم انتقل إلى الفلسفة ، وعلم النفس ، وتستطيع أيضا أن تقول إلى الأدب » .

قال هوايتهد : « لقد أفدت من الاشتراك فى المناقشات العامة فى ترنتى ، ثم من خبرة واسعة فيما بعد بمشكلات التربية فى جامعة لندن — وذلك بعينه هو نوع التربية الذى يرضى عنه أفلاطون . إن الرياضية لا بد أن تُدرس ، أما الفلسفة فيجب أن تناقش » .

وكان هذا الرأى قنبلة عنيفة ألقى بها . صمتَ بعد إلقائه برهة لكى يعطينى فرصة لاستيعابه ،

ثم واصل حديثه بعد ذلك قائلا : « ولا بد أن نتسامح فى انعدام الدقة فى اللغة ، ومهما قلتُ فلست مبالغا فى ذلك . وهو موضوع أعود إليه حينا بعد حين . ومن يقل بأن الفكر يمكن أن يعبر عنه بالرموز اللفظية تعبيراً كاملا أو مقبولا فهو معتوه أحمق . وقد عاد هذا الفرض على الفلسفة بالضرر البالغ . خذ مثالا أبسط عبارة عن حقيقة من الحقائق : إننا نحن الثلاثة نجلس فى هذه الغرفة . فإن كل ما له أهمية تقريبا لم يذكر فى هذه العبارة ، فإن (هذه الغرفة) تفترض وجود بناء ، وكمبردج ، والجامعة ، والعالم من حولنا الذى نحن جزء منه ، والنظم الكوكبية التى يكون عالمنا جزءاً منها ، والماضى السحيق الذى انحدرنا منه ، والمستقبل البعيد الذى ينبض فى عروقنا ويسبقنا إلى الأمام . والعبارة تفترض سلفا شخصياتنا المستقلة : كل منا يختلف عن الآخر ، كما تفترض كل ما نعرف ، وكل ما نحن عليه ، وكل ما قمنا به من عمل . إن التعبير باللفظ عن جلوسنا هنا يكاد لا يعنى

شيئا . وبالرغم من هذا ، فانا ـ فى موضوعات ـ أكثر من هذه جدية بكثير ، وعلى نطاق أوسع مدى ـ نقبل دائماً أقوالا من حقائق تاريخية وتأملات فلسفية أشد افتقاراً إلى الدقة أو إلى أية علاقة بالحقائق الدقيقة . وحينما نخاطب بهذه الأفكار البالغ فى تبسيطها أشخاصاً لا يستطيعون أن يحيطوها بالفروض المحذوقة ، فإنها لا تعنى شيئا ، ولا تفهم ، بل ولا تطرق الذهن ... » .

وعلى مائدة صغيرة على يساره وضعت كأسان من النبيذ ، له ولى . فسمهما وقال : « (واحد وواحد يكوّنان اثنين) واحد وواحد من ماذا ؟ كأس واحدة ، أو كأس واحدة بها بعض النبيذ ؟ أو واحد وواحد فى أى مكان ؟ على المائدة ، أو فى هذه الغرفة ، أو فى هـذا الـكون ؟ ثم إن كأسين ليستا ولا يمكن أن تكونا متساويتين تماما بأية حال . ولا يمكن أن تمتلئا بكميتين متساويتين من النبيذ . فهل نعنى إذن (واحد زائدا لواحد) بعد حساب كل نقص أو إضافة ضرورية ؟ ولـكن الكأسين تموجان أيضاً بالنشاط الذرى . ولولا أننا تعودنا أن نقيس الوقت بمقاييس ناقصة مضحكة من وعينا بامتداد الحياة البشرية ، لتذكرنا أن هاتين الـكأسين تنحلان أمام أعيننا . إنى أرفض أن أخدع بمثل هذا الانعدام فى الدقة الشنيع فى استخدام الألفاظ » .

وكان فيما قاله ما يملأ الرأس بالتفـكير فى برهة واحدة . وقد حوّم قليلا حول هذا الموضوع وسألنى : « هل تظن أن الإغريق كانوا أول شعب فى التاريخ أحس بالحاجة إلى شىء يخضع للدقة فى اللغة ؟ لقد كانوا بحاجة إلى تفسير صحيح لهومر . متى كان ذلك ؟ »

« فى وقت ما فى القرن السادس ق . م . والمفروض أنه قد تم بأمر من بزستراتوس » .

« ومتى تظن أن الأدب العبرى القديم قد بدأ ؟ » .

وتحدثت عن الطريقة المروفة التى جمعت بها فى التوراة ، ثم أضفت إلى ذلك قولى : « إن العهد القديم والقصائد الهومرية كلاهما من (الكتب التقليدية) التى استغرقت فى استكمالها قرونا . وفى طريقة جمعهما — أحدهما بوساطة اليهود القدماء ، والآخر بوساطة الإغريق القدماء — ترى الفرق واضحاً جداً فى أسلوب الشعبين وروحهما : فقد أخرج أحدهما كتاباً فى الأخلاق ، والآخر عملا فنياً » .

قال : «إن العبقرية العبرية فريدة فى بابها . كانت خلقية إلى درجة كبيرة . كان اليهود من أبرز الشعوب التى عاشت فى التاريخ » . وكرر ما قال من قبل ، وهو « إنى بالرغم من هذا لا أعتقد أنى كنت أحب العيش بينهم . فقد كان الإغريق أقوى منهم منطقاً » .

قلت : « وبالرغم من هذا فقد أخرج اليهود كتاباً من أعظم الكتب التى عرفت فى التاريخ ، وقد فاق (الإلياذة) ! »

فقال هوايتهد وعيناه تبرقان : « إذا اعتقدنا فى الوحى المنسوب إلى الإنجيل ، تعجبنا كيف يختار لتدوين بعضه رجل مثل سليمان ، برغم من أنه كانت لديه مليون زوجة وألف محظية » .

وكان من رأيى « أنه لو كان كذلك ، فلا بد أن يكون قد حدث فى شبابه حينما لم تكن له سوى زوجتين ، وحينما كان فى بداية حياته » .

وأضافت إلى ذلك مسز هوايتهد قولها فى جد ورزانة : « وقبل أن تبدأ تبعاته العائلية الثقيلة » .

وعلقت بقولى : « إن داود شخصية أدعى إلى العطف ، وليس من شك فى أن مذكرات قصره أشد إخلاصاً مما يكون عليه عادة هذا النوع من الأدب . ولا تزال الألوف من الفتيان الخارجين على الدين يسمون باسمه — بعد ما بطلت التسمية بهكتور بزمان طويل . إن داود اسم جميل . أما عن سليمان ، أفليست

زوجاته الإحدى ومليون مجرد قصة طويلة ؟ إذا كان المرء سيقص أكذوبة كبرى ، فأحر به أن يروى قصة جيدة » .

وسأل هوايتهد : « هل هناك ما يدعو إلى الظن بأن الأمم المحيطة قد أعارت اليهود القدماء اهتماماً كبيراً ـ أى قبل عهد الغزوات الرومانية ؟ » .

واعترفت بجهلى فى هذا ، ولكن ما كان ينطبع فى ذهنى هو أن هذه الأمم لم تعر اليهود القدماء إلا اهتماماً قليلا نسبياً .

واستطرد قائلا : « إن ما أود معرفته هو إلى أى حد كان الساميون والهلينيون يبدون التعبير عن آراء كانت سائدة بوجه عام فى ذلك الجزء من العالم القديم ، أم لم يفعلوا ذلك قط ؟ وأعنى تلك الآراء التى تدفقت إليهم من شعوب أقدم وأمم مجاورة . إننا نعلم بالطبع أن شيئاً من هذا قد حدث ، وأن بعض الآراء الشرقية كانت معروفة لأفلاطون ، وأن الأنبياء القدماء قد سبقوا يسوع فى كثير من آرائه » .

« حينما أسأل — وكثيراً ما يحدث ذلك — كيف أعلل تفجر العبقرية فى اليونان من القرن السادس إلى القرن الثالث ق . م . أكاد لا أعرف من أين أبدأ » .

وأجاب هوايتهد بقوله : « لابد أن تذكر أن شرق البحر المتوسط كان بقعة عجيبة ، واستمر كذلك أمداً طويلا . فهناك إلى جانب الهلينيين والساميين الثقافة المنوانية الميسينية ، والفينيقيون ، والإمبراطوريات الثلاث الكبرى ، بابل وآشور ومصر » .

وهذه اللمحة السريعة للنظام الرتيب الذى تنهار على أساسه الإمبراطوريات دفعه إلى التحدث عن زيادة السرعة فى تطور عالمنا اليوم عنها فى أى عهد سبق .

واعترضت الحديث مسز هوايتهد بهذه العبارة : « لقد اتفقنا ـ لو استطعنا ـ أنا وألفرد أن نعود مرة كل خمسين عاماً لنرى ما حدث » .

قال : « ولا نحتاج إلى البقاء سوى شهرين فى كل مرة » .

« إنك تريد (أن تموت موتاً مؤقتاً) مثل توم سوير » .

قالت : « كلا . بل ثلاثة أشهر . إننا فى حاجة إلى مثل هذه الفترة لكى نتمثل بقدر ما نستطيع » .

وتابع هوايتهد الحديث فى الموضوع الأساسى قائلا : « وسواء أرخت هذا الاطراد فى سرعة التطور منذ مائة وخمسين عاماً ، أو منذ خمسين عاما ، فإن التغير فى مجتمعنا يفوق كل ما سبقه فى التاريخ . إن الآراء بعيدة المدى فى الطبيعة البشرية لم تتغير ، فهى تتعلق بطريقة التفكير ، والشعور ، والعمل . أما ما استجد فى موقفنا فهو ـ » وهنا توقف قليلا وابتسم ، ثم واصل الحديث قائلا : « ما أسميه (الحيل) » .

« وماذا تعنى (بالحيل) على وجه الدقة ؟ »

« أعنى بها الأسماء التى تطلق على مختلف الشعارات السياسية والتى تسهل قبولها ، أعنى الوسائل التى نقابل بها الأزمات الاجتماعية المختلفة ، أعنى الأسماء التى نطلقها على التطور الاجتماعى ... وما شابه ذلك » .

وتدخلت فى الحديث مسز هوايتهد وهمت قائلة : « سأعطيك مثالا . عندما تجد حكومتكم نفسها مضطرة إلى اتباع سياسة استعمارية ، تسمونها (حسن الجوار) ولكنكم برغم هذا تحتفظون بجزر المحيط الهادى ـ وينبغى لكم أن تفعلوا ذلك . فقد كلفتكم كثيراً . أما إذا فعلت إنجلترا مثل ما تفعلون ، أطلقتم عليه (مناطق النفوذ) » .

ووجهت حديثى إلى هوايتهد سائلا : « هل تعتقد أن الولايات المتحدة استعمارية ؟ » .

قال فى هدوء : « لاشك فى ذلك ».

ولما تأكدت من آرائهما لم أتابع الموضوع . بل عدت إلى تعريف «الحيل» .

قلت : « (الحيل) إذن هى الطريقة التى يدور بها الناس حول الأركان على عجلة دون الاحتكاك بصنابير المياه » .

قال : « إنهم لا يتحاشون دائما هذه الصنابير » .

فعلقت على ذلك بقولى : « إن الحيل ، مألوفة جدا لدىّ . فهى تشغل الجانب الأكبر من فراغ الصحف . ولكن ما رأيك فى الآراء بعيدة المدى للطبيعة البشرية — كيف نفكر ونحس ، ولماذا نسلك هذا السلوك . . . . »

قال هوايتهد : « هذه الآراء مألوفة لديك أيضا ، فقد دونها الإغريق . والعجيب فى الأدب اليونانى أنه لايشيخ . فهو اليوم فى مثل الحيوية التى كان عليها عندما كتب » .

قلت : « بل أكثر من ذلك . إننا ندرسه لكى نفهم أمورا عن أنفسنا لايستطيع كتابنا أن يذكروها بمثل هذا الوضوح » .

واستطرد هوايتهد قائلا : « إن فناء الآداب دراسة فريدة . هب أن الأدب اليونانى قد أبيد كله — وقد كان ذلك شديد الاحتمال — لو حدث ذلك ما كان ينقصنا ذلك الذى لم نعرفه قط ، ومع ذلك فإن حياتنا بأسرها كانت تمسى أفقر مما هى بدرجة كبرى ! أعتقد أن جامعة الإسكندرية هى التى أنقذت هذا الأدب ، واحتفظت بأوراق البردى ونشرت تأثيرها ومحتوياتها على نطاق واسع مكن لها البقاء . إنى أسأل نفسى أحيانا ما الذى يجعل للأدب قيمته التى تخلده . إن أدب القرن الثامن عشر — على سبيل المثال — قد فقد كثيرا — بل أكثر ما فيه

من عناصر التشويق ، اللهم إلا إذا كان المرء يقرؤه لكى يفهم كيف كان الناس يعيشون ويفكرون خلال تلك الفترة . وإن سرعة التطور الاجتماعى وعنفه فى وقتنا هذا كفيل بأن يحكم على آداب كثيرة أخرى بالإهمال — بما فيها بعض ما كتبه معاصرونا الذين ظفروا منا بالتقدير أعتقد أن الآداب (الاجتماعيه) هى التى تسقط فى البحر حينما ينبغى أن نخفف حمولة السفينة لكى تنجو من العاصفة » .

« لست على ثقة مما تعنى بالآداب الاجتماعية »

« الآداب التى تفترض سلفا استمرار نظام اجتماعى قائم — وأقصد به النظام الاجتماعى الذى تقوم عليه » .

« هذا الشرح يجعل الأمر أشد وضوحا . ويستطيع المرء فعلا أن يذكر أعمالا أدبية عديدة كان لها قدرها فى القرن التاسع عشر — وهى بالفعل من الطراز الأول فى بعض الأحيان — وقد ألقى بها فى اليم التطور الاجتماعى فى وقتنا الحاضر » .

قال : « إن كتابات الفترة الأخيرة من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر أقدر على البقاء » .

« وأعتقد أنك ذكرت أيضا قدرة الأدب اليونانى على البقاء . فهو وإن يكن قائما على النظام الاجتماعى السائد فى ذلك الحين ، إلا أن ذلك النظام الاجتماعى قد تعرض للفحص والنقد المستمر من القرن السادس إلى القرن الرابع ، كما أن بقاء هذا النظام كثيرا ماتعرض للخطر ، وقد تنوعت أشكاله وتطورت بسرعة هائلة ، حتى إن أكثر كبار الكتاب من الإغريق قلما سلموا — فيما يبدو لى — بأنه نظام ثابت دائم حتما . وبعض كبار الكتاب منهم — كأفلاطون ، وثيوسيديد وأرستوفان — كانت لديهم فى نهاية القرن الخامس تقريبا فكرة واضحة جدا

بأن نظامهم الاجتماعى مهدد بالانحلال » .

وقال هوايتهد : « وإن أردت مثالا آخر مما أسميته (الحيل) ذكرت لك معاملة الهيئات الصناعية الكبرى . لقد بدأنا باعتبارها (أشخاصا) . وكانت هذه الفكرة تؤدى خدمة طيبة لإنجلترا فى القرن الثامن عشر فى علاقاتها بالهند ـ وإن كنت لا أقر بأن الهنود قد رضوا عنها كما رضى عنها الإنجليز . ولما بلغنا نهاية القرن التاسع عشر أصبحت هذه الفكرة عتيقة لا يمكن الدفاع عنها . فقد تدخلت هذه الهيئات إن خيرا أو شرا – فى كل أركان حياتنا ، وأصبح الزعم بأن الهيئة (شخص) كلاما لا معنى له . فالمرء مشاعر وعواطف ورغبات ومطامع ، والهيئة وحدة مستقلة لا شخصية لها . ومن خطل الرأى أن نفترض أنها لن تخضع تدريجا للرقابة العامة » .

وقد دقت الساعة العاشرة من زمن بعيد من ساعة البرج بالقاعة التذكارية ، التى تمكن مشاهدتها من نوافذ مسكنهما ، وكان المطر يتساقط .

وبناء على اتفاق سابق سحبت مسز هوايتهد مقعدا إلى جوار المكتب المصنوع من خشب الماهوجانى ذى الأدراج الستة الضخمة وبدأت تبحث عن صورة ألفرد الفوتوغرافية التى وعدت بها . وتطور هذا الجهد إلى عمل ضخم ، وأخرجت الأدراج واحد بعد الآخر ، وانقلبت محتوياتها رأسا على عقب ، أو سقطت على الأرض حزم ثقيلة من المخطوطات . وكانت طريقتها فى البحث ، واستغراقها فيه كلية ، شائقة لافتة للنظر . وقد نسيت نفسها تماما ، وأمسى موقفها يدعو إلى المتابعة فى حد ذاته ، وطرأت على ذهنى فكرة طالما وردت على خاطرى من قبل وهى هذه : « إن هذا العمل يكون له أثره فوق المسرح . إنها تبحث عن شيء فى المكتب ، ومحتويات المكتب تقلب بصورة شائقة ، وبعضها يسقط فوق الأرض ، وهى تفحص بعضها الآخر فى حجرها : إن هذه المرأة ربما

قامت بدور الممثلة خير قيام . وقد خطرت لي هذه الخواطر كوميض البرق » .
وكانت أنيقة الملبس ، وفى مطلع المساء حينما كنا نقلب شارة وسام الاستحقاق، وضعت الشارة على نسيج ردائها لتبين لنا تناسق الألوان . ولكنها لم تعلق الشارة حول عنقها ، ولم تكن هى المرأة التى تفعل ذلك !

قلت : « تخلى عن البحث ، فهو عمل شاق جدا ، وترقبى فرصة أخرى » .

قالت : « إن انتظرنا فلن نجدها »

« هذا حق . وقد انتظرتُ بالفعل تسع سنوات » .

وأخيرا أخرجت ما كانت تبحث عنه — صورة فوتوغرافية لألفرد فى مكتبه حينما كانا يقطنان فى كانتون . وكان جالسا فى مقعده المنجد بالجلد ، ولوحة كتابته موضوعة على ذراعى المقعد ، ويداه معقودتان فوق كومة من المخطوطات . وخلفه صفوف من الكتب فوق الرفوف ، وإلى جواره فوق نضد منخفض قدح من تلك الأقداح المألوفة التى كثيرا ما تناولنا فيها الشكلاته »

قلت : « إننى أفضل هذه الصورة على صورته فى عيدهارفارد المئوى الثالث . لأنه فى هذه الصورة يغض الطرف ولا يرى المرء عينيه » .

قال : « دعنى أريكم أول صورة أخذت لى » ثم توجه إلى حجرة أخرى وعاد بمجموعة من الصور القديمة، وتصفحها ، ثم قال فى نهاية الأمر : « إننى لا أستطيع أن أجدها » ثم قال : « ولكن ها هوذا ناظر شربورن حينما كنت بها طفلا ، وهو من أعظم من عرفت من نظار المدارس . وهذا هو جدى » .

« إنه يبدو مثالا للرجل الإنجليزى فى عهد فكتوريا . هل عاش حياته كلها فى القرن التاسع عشر ؟ »

« تقريباً . وقد ولد فى عام ١٧٩٤ ، وعاش عيشة طيبة إلى ما بعد الثمانين من

عمره . وقد أخذت له هذه الصورة وهو فى نحو الثمانين من عمره » .

« إذا كان هذا الوجه لا يدل على إنجلترا فى القرن التاسع عشر .. ! »

فقال حفيده فى نغمة فكاهية استعاد بها الماضى : « كان يحكم المدينة . وكخطيب للجماهير لم يكن له مثيل » .

« كم كان عدد سكان المدينة ؟ »

« عشرين ألفاً » .

« إننا نسمى هذه مدينة كبيرة . أما أنا فقد نشأت فى مدينة صغيرة ، عدد سكانها ثلاثة آلاف . »

« إننا نسمى هذه قرية » .

وقالت مسزهوايتهد « ها هى ذى » وأخرجت بغتة من درج خفى بمكتبها صورة فوتوغرافية صغيرة فى إطار بيضاوى من البرونز المذهب محفوظ فى قطعة من المخمل القرمزى بهت لونها ولكنها ما زالت داكنة . وكانت الصورة مبطنة بالجلد القوى ، وممدة بحلقة من النحاس تعلق منها فوق الحائط . وقد أطلعنى عليها وقال :

« هذه أول صورة لى »

ورأيت فى حجر مربية باسمة طفلا فى سن الواحدة ، وقد أخذت نحوه فى عطف شديد . وكان الطفل فى رداء من الشفوف (الوسلين) الأبيض ، ملامحه غليظة ، وشعره أشقر ، لم يطل بعد لكى يقص ، ورأسه قوى الاستدارة ، ملامحه ثابتة ، ونظرته حازمة . ولو طُلب إلىّ أن أحدس لمن تكون الصورة لكان من اليسير على أن أتكهن بأنها صورة لطفل بريطانى .

ثم قالا إنهما سيذهبان إلى مين يوم الجمعة .

« وما عنوانكما ؟ »

قالت مسز هوايتهد : « جزيرة باتلشپ ، بحيرة سيباجو الصغيرة ، جراى الغربية . إن الجزيرة تبلغ فى مساحتها ربع الفدان تقريبا ولها هذه الميزة الكبرى (وهنا ألقت نظرة جانبية إلى ألفرد) وهى أن المرء لايستطيع فيها أن يقوم برحلات طويلة على قدميه » .

(٤١)

فى أغسطس من عام ١٩٤٥

كانت حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ فى شهر أغسطس تسير مسرعة نحو نهايتها. ومن بين الانفجارات التى حدثت القنابل الذرية التى ألقيت فى مكانين : الأول فى هيروشيما فى ٦ من أغسطس ، والثانى فى نجازاكى فى ٩ من أغسطس . وقد شغلت الأحداث العامة الأذهان إلى درجة قصوى حتى باتت الشئون الشخصية الخاصة لكل فرد وكأنها حلم يقظان. وفى المساء الذى تلا إلقاء القنبلة الذرية الأولى كنت عند آل هوايتهد . وكان هناك أيضاً الأستاذ هنرى، موريس شفر من قسم الفلسفة بهارفارد. وكنت أتوقع أن يتحدث هوايتهد فى النتائج الاجتماعية للتفجير الذرى . غير أنه استمع إلى الموضوع فى أدب جم ثم رفض أن يتحدث فيه . ولم يناقشه إلا بعد عام أو عامين . ولكنه حينئذ كان من القلائل الذين يعرفون ما يكفى لكى يدركوا ماذا يمكن أن يخبئه المجهول .

وكان شارلز هپكنسن يرسم له صورة زيتية. وقد انتهى من تخطيطين تجريبيين. وكان على هوايتهد الآن أن يجلس سبع مرات ، كل جلسة منها ساعتان ، من

الساعة الحادية عشرة صباحاً حتى الساعة الأولى من بعد الظهر ، وهى أطول مدة يمكن أن يحتمل هوايتهد فيها الجلوس . وكانت الجلسات تخفف بقدر المستطاع بالحديث بين أربعتنا. وأكثر هذا الحديث لم يسجل بسبب ضغط الحوادث العامة، ولكنى احتفظت بأجزاء منه . ولما سئل هوايتهد : « أيهما أهم : الوقائع أو الأفكار ؟ » .

تدبر الأمر قليلا ثم قال :

« الأفكار التى تتعلق بالوقائع »

وفى خلال الحديث عن كتاب « تنوع الخبرات الدينية » لوليام چيمز ، قال :

« قل من يدرك صعوبة التفاهم باللفظ . ولو أنى أردت أن أكتب شيئاً عن شخصيتك ، لاستطعت بطبيعة الحال — ولكن ما أكثر ما يبقى مما لم يمكن صياغته فى كلمات . ومن ثم فإنه عندما يظهر التوازن النادر للمعرفة والإدراك ، كما ظهر عند وليام چيمز — وهو من أولئك الذين يستطيعون أكثر من سواهم أن ينقلوا الكثير من أفكارهم ـ كان من مميزات نظامه الفلسفى أنه بقى ناقصاً . ولو سد هذا النقص لقل شأن هذا النظام . إن فى محاورات أفلاطون ثروة من الفكر والإيحاء والتلميحات التى ترمى إلى بعيد . ولكنه حينما أراد فيما بعد أن يكون أشد صراحة فيما يتعلق ببعض هذه التلميحات ، تقلصت أفكاره .

«ويمكن أن يحدث مثل ذلك فى البحث العلمى . وللبحث العلمى بطبيعة الحال أهمية عظمى ــ وهو يتطلب المعرفه الدقيقة ، والتعليل ــ ولكن كثيراً من كبار الباحثين يهبطون بالمباقرة إلى المستوى العادى .

« خذ مثالا لذلك چون ديوى ؛ إنه عندما نقل فلسفة وليام چيمز ضيق نطاقها كثيراً فيما أظن . إن الوعى بالمركبات وبالإمكانيات الماثلة دائماً فى خبرة

الإنسان مضمون فى كل ما يكتب چيمز . ولكن دبوى من ذلك . وإدراك وليام چيمز بالمدى الفسيح وبتشابك العلاقات فى كل الموضوعات جمله من أصحاب العقول الفلسفية الكبرى التى عرفها التاريخ . وهذا الإدراك - فوق هذا - فيه من الإحساس وهزة الشعور مايضمن لوليام چيمز البقاء كرجل من رجال الأدب، إن لم يكتب له الخلود كفيلسوف . ولكن لتفكيره الفلسفى صفة البقاء . عندما كنت أؤدى الامتحانات للحصول على درجتى الجامعية فى الرياضة ، كنا نحسب أن الأوجه الطبيعية والميكانيكية للعالم معروفة كلها مستقرة ، مع استثناء بعض المشكلات التى لا تعترض طريقنا والتى كان يشتغل بها أشخاص كفاة ، والتى لابد أن تحل فى وقت قريب . ثم تقوض كل شىء . ولكن عقل وليام چيمز كان من النوع الذى يستطيع أن يواجه صدمة الانفجار ، التى أودت بالكثيرين غيره » .

كانت الأحاديث التى تدور أثناء جلساته للتصوير مرحة أحيانا ، جادة أحياناً أخرى ، لأننا بتنا على علم بأن مذبحة الحرب قد قاربت نهايتها ، مؤقتاً على الأقل . وكان هوايتهد وزوجته يرفهان عنا بقصص عن حياتهما الزوجية أيام الشباب فى رامزجيت وفى كمبردج . ومن تلك القصص ماروى لنا عن ليدى چب وزوجها سر رتشارد الغضوب .

روت لنا مسز هوايتهد : « أنها كانت تلعب الشطرنج فى المكتبة مع الشاب آرثر چيمس بلفور . وظل سر رتشارد يدخل ويخرج من الغرفة فيقطع عليهما اللعب . وأخيراً نهضت ليدى چب وأغلقت الباب بعد خروجه . فعاد ، وحاول الدخول ، وخشخش القفل ، ثم بدأ يركل الباب . فصاحت ليدى چب عندئذ وقالت له اركل ماشئت ياعزيزى ، فالباب بابك وطلاؤه طلاؤك » .

وروى لنا هوايتهد كذلك قصصاً أخرى .

قال : « كانت كنيسة أبى فى رامزجيت بناءً نورمانديا قديما مسقفا بقبة

كالبرميل . وكانت من حيث فن البناء قوية الأثر، فى حين أن الاستماع فيها لم يكن سهلا . فإن جلست فى نهاية الكنيسة شق عليك أن تسمع كلمة واحدة من كل عشر كلمات . ولكن حينما كان أبى يعظ ، لم تكن هناك مشكلة ، فقد كان صوته قويا رنانا ، يسرى فى كل الأرجاء ويتردد صداه على طول القبة ، محملا بالجد والحكمة الخلقية . وكان ممن يؤمنون بالعهد القديم . أما العهد الجديد فلم يَعْنِ عنده كثيراً . وكانت عنده حماسة الأنبياء القدامى ، وإن استمعت إليه لست فى نغماته عمق الشعور . ولم يكن السامع بحاجة إلى أن يتبين الكلمات : ففى نغماته مايكفى . وأشد ما كان يهز الشاعر صدق صوته الوقور . أليس كذلك ياأفلن؟ »

فوافقت على ذلك وقالت : « كل ماذكرت صحيح ! ونقيضه أيضا صحيح . لقد كنت تصر فى وقت خطبتنا أن تصحبنى إلى صلاة المساء فى كنيسة سنت مارى فى كبردج . وكنت أرتدى خير ماعندى من ثياب ، لأنى كنت أدرك تماما أنى سوف أكون محطا للأنظار . كما كنا ندعى — وكنت أخشى ذلك — قبل الأوان لاعتلاء المذبح ، ونجلس فى المقدمة حيث لم تكن هناك صعوبة فى الاستماع » .

ثم وجهت سؤالها إلى قائلة : « ثم ماذا تظن قد حدث ؟ »

« شىء مقبض أو شىء ممتع . ولا أعتقد أن الأمر كان وسطا » .

فقالت فى حزم : « بل كان هذا وذاك . قام بالوعظ قسيس شاب ، وفى نهاية موعظته قال — وكان ذلك فى مرة من المرات التى لم تسعف فيها كلماته صوته —

قال : « وأخيرا ، أيها الإخوة ، أقول لكم إن الحياة لاتخلق المشكلات لمن يحسن السلوك » .

« لم يقل ذلك » !

« بل قال . وكانت لى ولألفرد قدرة مثالية على التحكم فى عضلات الوجه ، ولكن لما انصرفنا وأصبحنا بعيدين عن الأسماع قلت له : « قد تكون الكاثوليكية عيوبها ، ولكنك فى الكنيسة الكاثوليكية على الأقل لا تجد مثل هذا قط » .

وأجاب ألفرد بقوله : « حتى فى الكنيسة البروتستانتية ياعزيزتى لا يسمع المرء كثيراً فى مثل هذه الجودة » .

اعتاد هوايتهد إبان إقامته فى لندن ، حينما كان يضطر إلى ركوب الأتوبيس أن يصطحب — كما قال — شخصية من الشخصيات التاريخية ، ويضمها إلى جواره ، وهو فى أكثر الأحيان فى الطابق الثانى من الأوتوبيس . وكان يتبادل الأحاديث الحية مع صاحبه ، ويشرح له معنى مايشهدانه من أعلى الأتوبيس . ثم يصغى إلى تعليق صاحبه . من كان هؤلاء الصحاب ؟ كثيرا ما كان يصحب إسحق نيوتن ، أو أرسطو ، أو أرشميدس ، ولكنه لم يصحب أفلاطون قط . لماذا لم يصحبه ؟ إنه لم يرض مطلقا أن يذكر السبب ، وربما كان هو نفسه لا يعرف السبب . ولكن أفلاطون لم يكن قط من رفاق الطريق .

وأدى بنا ذلك إلى شىء من المزاح عن الأوربيين الذين يأتون إلى هذه البلاد فى رحلة عابرة ثم يعودون إلى بلادهم ويؤلفون الكتب عن كل شئوننا .

فقال هوايتهد : « هذه هى الطريقة الوحيدة للقيام بهذا العمل . إننى بعد ما أقمت هنا أكثر من عشرين عاما لا أحلم بأن أكتب مثل هذا الآن . ولكنى لو دونت انطباعاتى عن أمريكا بعد إقامتى فيها ثلاثة أشهر ، لكان هذا الكتاب هو كتاب الكتب ! »

وذات صباح كنا نتحدث عن الثورات ، وبخاصة فى فرنسا وروسيا .

فقال هوايتهد : « إن التحطيم الحقيقى فى الثورات ليس فى إطاحتها بطبقة

حاكمة أو بإعدامها ملكا . فقد كانت إنجلترا تسير سيرا حسناً بدون شارل الأول ، واستطاعت فرنسا أن تستغنى عن لويس السادس عشر . ولم يكن آل هوهنزلرن خسارة كبرى لألمانيا ، ولم يكن آل هابسبرج خسارة للنمسا ، دع عنك آل رومانوف بالنسبة لروسيا . وحتى حينما تطيح الثورات بالطبقات الحاكمة ، فإن التخلخل الاجتماعى قد لا يكون خطيرا . كانت الحياة فى باريس إبان الثورة الفرنسية — حتى فى عهد الإرهاب — على مدى شوارع قليلة من ميدان الكنكورد والمقصلة تسير سيرها الطبيعى . إنما يكون تحطيم الثورات الحقيقى فى إزالة أفراد الشعب الذين يقومون بالخدمات الاجتماعية الصغرى ، أولئك الذين يقومون بالعمل اليومى الذى يسير قدما بعمليات الحياة المتمدنة المادية ، ولا أعنى مايسمونه المهن العلمية ، كالقانون ، والطب ، وأعمال القسس ، بل أعنى المعلمين ، وصغار الموظفين ، والعمال المهرة ، أولئك الذين يعرفون كيف يقومون بالأعمال الضرورية التى ليس لها مظهر . هؤلاء هم النسيج الذى يفصل قشرة الشجرة عن لحائها ، الذى لو تخلخل لذوت الشجرة » .

* * *

كان لابد لإحضار شارلز هپكنسن — وهو آنئذ فى السبعين من عمره — إلى تلك الجلسات التصويرية من بعض الحيل . فهو فى الصيف يقطن فى شاركسموث وهى مقره فى مانشستر على الساحل الشمالى . وركوب القطار إلى بوسطن والرحلة التى تتلو ذلك فى الممرات التحتية إلى كمبردج لكى يبلغ مكان التصوير ترهقه أشد الإرهاق فى جو أغسطس المضنى . ومن حسن الحظ أن لجنة التموين فى ماربلهد قد استثارت وتكرمت بمنح الغاز الإضافى الذى يلزم لنقله من محطة سالم للسكة الحديدية إلى كمبردج ذهاباً وإياباً . واستمرت الحال كذلك حتى منتصف أغسطس ، وبعدئذ أدى استسلام اليابان إلى إطلاق إمداد الغاز إلى ما كان عليه من فيض .

وقد كان من المعروف — إلى جانب ذلك — من أمد بعيد أن تموين الغاز لم يكن يقصد منه الاقتصاد فى الغاز إنما يقصد منه اقتصاد المطاط للعجلات .

وتمت الصورة فى أول سبتمبر تقريباً . وركبت السيارة مع المصور فى يوم عاصف إلى متحف بوسطن للفنون الجميلة ، لكى نطلع عليها مستر كونستابل ، أمين متحف الصور . ودخل كونستابل وهوبكنسن فى جدل عويص حول مزايا الصورة . وعرضت فيما بعد فى حجرات جمعية الزملاء فى بيت إليوت .

وكلما تقدم الشهر كان هوايتهد يطلب إلينا الوعد الصادق للاحتفاظ بكل موعد قادم لجلسة من الجلسات :

« هل ننتظركم يوم الخميس المقبل بعد الظهر فى الساعة الحادية عشرة تماماً حينما يدق جرس مموريال هول الساعة ؟ » .

« ولم لا ؟ »

« إن الحرب قد تنتهى فى أى يوم من الأيام ، ولو حدث ذلك رقصتم فى الشوارع ، أو وقفتم على رءوسكم » .

وفى يوم ١٤ من أغسطس سلمت اليابان ، وكان الابتهاج جنونياً . ولو أن بعض أولئك الذين شهدوا هدنة عام ١٩١٨ لم يكونوا بالغى الحماسة . ووضعت الحرب أوزارها فعلا فى الثانى من شهر سبتمبر باستسلام رسمى . ومنذ ذلك الحين عرّفنا السلام بأنه فترة سكون بين حربين لكى نتعرف العدو .

وكان شهر أغسطس هذا — برغم ذلك — وتلك الأصائل الهادئة التى كان يتم فيها التصوير ويدور الحديث فى حجرة جلوس آل هوايتهد ، والشمس ترسل ضوءها فوق قمم الأشجار تحت نوافذهم ، والجو الرطب الساكن يفوح بعبق الزهر المتنوع الألوان المحفوظ فى الأوانى المصنوعة من الميناء السوداء

اللامعة ، وجرس مموريال هول ذو الصوت العميق يعترض حديث هوايتهد أولا عندما يدق الثانية عشرة ، ثم عندما يدق الواحدة ، وكل ذلك مسبوق بالركوب من سالم إلى كمبردج خلال أرض زراعية تبتسم من بهجة الصيف ، حيث الأزهار الأرجوانية اللون تترعرع فى المراعى المبتلة على طول الطريق — أقول كان شهر أغسطس هذا مابرح كأنشودة السلام فى عالم الحرب .

(٤٣)

١١ من سبتمبر ١٩٤٥

وهكذا انتهت الحرب ، ولكن الناس مازالون مذهولين ، لايستطيعون إدراك الموقف تماما . وكان الصيف يسير نحو أوائل الخريف فى أيام متتالية تتألق بأشعة الشمس الذهبية وزرقة البحر . ومنذ أن توقفت مذبحة الحرب أمكن مرة أخرى أن يحس المرء أن الدنيا جميلة . ولا يكون الجو مشرقا أبدا على شواطىء خليج ناهانت مثل إشراقه فى نهاية الصيف .

وفى غضون ذلك وصل سر رتشارد لفنجستون من إنجلترا بالطائرة (وهى أسبقية متقدمة جدا بالنسبة لرجل من المدنيين) وتوجه لقضاء يومين فى معهد الدراسات العليا فى برنستن . وكان يقصد تورنتو لكى يلقى أربع محاضرات فى الجامعة . ثم جاء إلى سوامبسكت ليقضى يومين آخرين فى راحة وهدوء . وركبنا بعد ذلك ذات خميس فى الصباح إلى كمبردج لتناول الغداء مع آل هوايتهد . ولما كان يتوقع أسبوعين من عمل شاق فى تورنتو قبل عودته إلى إنجلترا بالطائرة ، فلم يرتبط بموعد آخر .

وقد قتل ابنه الأصغر كابتن روبرت لفنجستون فى هذه الحرب الثانية ، كما قتل ابن هوايتهد فى الحرب الأولى . فكان هذا بينهما رباطاً بغير كلام .

وجلس أربعتنا فى مكتب هوايتهد ذى الجدران المليئة بالكتب . وقد غمره غيض من ضوء الشمس الذهبي من خلال نافذة جنوبية فتحت على مصراعيها لكى تستقبل الهواء الدافىء الساكن . وكانت طيور الزيزان تشدو فى الخارج فوق الأشجار . رجل اسكتلندى وآخر إنجليزى ، يتباينان فى الشكل . هوايتهد بريطانى من كنت وانجليا الشرقية متورد أشقر اللون . ولفنجستون ، مديد القامة ، نحيل الجسم ، رملى الشعر ، رملى البشرة . وإن كان فى هذه اللحظة محمرها على غير عادته من أثر التعرض لضوء الشمس المتوهج ولزرقة البحر الشديدة فى إنجلترا الجديدة فى شهر سبتمبر على الساحل الشمالى .

وسرعان ما انتهيا من تجديد التعارف بينهما . وتلت ذلك فترة قصيرة من السكون . ثم سأل لفنجستون :

« ماذا تظن كان أثر العلم على عالمنا ؟ »

« ما رأيك أنت قبل أن أجيب ؟ » .

« ألم يلغ العلم الرق ؟ »

« لو قلت ذلك حوالى عام ١٩٠٠ لكنت من الصادقين ، ولكن سرعة التغير فى الماضى — لمدة خمسين عاما — قد غيرت الموقف كله . ولا أتحدث عن القنبلة الذرية فى الوقت الحاضر ، لأنها ليست الا الحلقة الأخيرة فى سلسلة ، وأحدث من أن نزنها وزنها الصحيح على أية حال » .

وقال لفنجستون : « يبدو لى أن العلماء عند إعلان القنبلة الذرية كانوا يستخفون بها ، ولكن الناس كانوا منزعجين » .

ومضى هوايتهد يقول : « أقصد أن ظروف حياتنا قد تغيرت أساساً فى الخمسين السنة الأخيرة أشد مما تغيرت فى الألفى السنة السابقة ـ بل فى الثلاثة الآلاف من الأعوام السابقة . وجوابى على سؤالك الأول هو أنى أعتقد أنا

فى مستهل عصر من عصور التحرير ، وحياة أفضل للجماهير ، وتفجر جديد لطاقة متحررة خلاقة ، وشكل للمجتمع جديد ؛ إما هذا وإما أن تبيد البشرية نفسها ويقفر هذا الكوكب » .

وقال لفنجستون : « هب أن بعض عظماء اليونان قد عادوا ورأونا على ما نحن عليه الآن ... أمثال ثيو سيديد وأفلاطون وبركليز وأرسطو ؟ » .

« إن أرسطو يصمق إلى درجة لا يمكن التعبير عنها من الطريقة التى نبذت بها أحكامه العامة . ولا أقصد أن أفكاره ـ الأنواع والأجناس وما إلى ذلك ـ لم يثبت نفعها على نطاق واسع . فإن أرسطو قد استكشف كل أنصاف الحقائق التى كانت ضرورية لابتداع العلوم » .

وعاد لفنجستون إلى الحديث فقال : « يبدو لى من ناحية أخرى أن كتاب (الأخلاق) لأرسطو له فضل أكبر » .

وبدت على هوايتهد المخالفة وقال : « أسلم لك بأن آراءه هنا محددة إلى درجة تدعو إلى الإعجاب ، وأن أفكار أفلاطون فى هـذا الموضوع تميل نسبياً إلى الغموض . ولـكنى أوثر الغموض » .

وعلق على ذلك لفنجستون بقوله: «إن الإغريق لم يميلوا إلى الغموض. ويمكن بهذا المعنى أن يقال عن أفلاطون إنه لا يكاد يمثل اليونان . إنهم كانوا يحبون تمييز الخطوط ويحبون تنظيم مادة الموضوع تنظيما واضحاً داخل صورة محددة » .

ومضى هوايتهد يقول : «إننى أفضل أفلاطون . ويبدو لى أنه الرجل الوحيد فى العالم القديم الذى لا يدهش لما حدث لو رآه ، لأنه كان حين يفكر يأخذ فى اعتباره دائماً كل مالا يمكن التنبؤ به ،وما تتضمنه الأشياء من إمكانيات لاحصر لها . إنك حينما لا تكون على ثقة تامة مما تصيب من هدف توسع لنفسك دائماً مجال الفرصة لكى تبلغ هدفاً له قيمته » .

والتفت ثانية إلى ڤتجنستون وواصل حديثه قائلا : « أريد أن أوجه إليك سؤالا . هل أنا على حق حينما أعتقد أن البحث الألمانى يخطىء جد الخطأ عندما يحاول أن ينسب إلى أفلاطون بعض النتائج الصريحة فى محاوراته ، وعندما ينسب إليه حديث متكلم واحد ورأيا نهائيا ؟ يبدو لى أن ذلك بعينه هو ما كان يحاول تحاشيه . خذ خطاباته مثالا : لو فرضنا أنه كتبها — وحتى إن كان لم يكتبها — فإنها تنم عن صورة ذهنية سادت فى العصور القديمة عن مؤلفاته : وأقصد أنه لم يكن هناك نظام أفلاطونى فلسفى . إنما فعل كان الكشف عن أوجه متعددة للمشكلة ثم يتركنا وإياها ... يبدو لى أنه كان لديه — أكثر من أى فرد آخر — إحساس رفيع بإمكانيات الكون التى لاحد لها » .

وأجابه ڤتجنستون بقوله : « لست الآن على استعداد لأن أقرر شيئاً بشأن البحث الألمانى ، ولكن فى كل ما يقرأ المرء لأرسطو يلمس مقاومته لتأثير أفلاطون ، وفى كل ما كتب أرسطو لا يستطيع المرء الفرار من تأثير تفكير أفلاطون » .

قال هوايتهد : « دعنى أتحدث عن نفسى لحظة . لقد تلقيت تعليما كلاسيكياً جيداً ، وحينما التحقت بكمبردج فى السنوات الأولى بعد عام ١٨٨٠ واصلت تدريبى الرياضى على أيدى معلمين ممتازين . وكان المفروض آنئذ أن كل شىء تقريباً مما يمكن معرفته عن الطبيعة كان معروفا — اللهم إلا موضوعات قليلة ، مثل ظاهرة المغناطيس الألكترونى ، التى بقى علينا أن نصلها بمبادىء نيوتن (أو هكذا كان يظن) . أما فيما عدا ذلك فكان المفروض أن الطبيعة موضوع قد انتهى البحث فيه تقريباً . واستمر البحث خلال الاثنتى عشرة السنة التالية لإيجاد هذه الصلة . وقبل أن يتصرم القرن التاسع عشر بسنوات قلائل بدرت شكوك خفيفة ، ومخاوف يسيرة من أن كل شىء لم يعد يدعو إلى الاطمئنان ، ولكن أحداً لم يحس ما هو آت . ولما حل عام ١٩٠٠ انهارت طبيعيات نيوتن ،

وانتهى أمرها ! وما زلت أتحدث عن شخصى حينما أقول إن ذلك كان له أثر عميق فى نفسى . لقد خُدعت مرة ، ولعنة الله علىّ لو خدعت مرة أخرى ! المفروض أن اينشتين قد كشف كشفاً عالمياً . ولكن ليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن نسبية اينشتين أكثر نهائية من (مبادىء) نيوتن . والخطر فى الفكر اليقينى . أنه يسىء إلى الدين . وليس العلم معصوما منه . وأنا — كما ترى — تطورىّ إلى أبعد الحدود . لقد بدات أرضنا منذ ملايين السنين تأخذ فى البرودة ، وبدأت أشكال الحياة فى أبسط صورها . (من أين جاءت هذه الأشكال ؟) لا بد أنها كانت كامنة فى مجموع النظام العام . لا بد أنها كانت موجودة بالقوة فى أدق الجزئيات ، أولا فى هذا الكوكب النارى ، ثم فى هذا الكوكب المائى والأرضى . ألم تفكر مرة فى أنه من السخف أن نبدأ فى تقدير المقاييس الطبيعية بأجسامنا التى تبلغ فى طولها خمس أقدام ونصف القدم أو ست أقدام ؟»

قال افنجستون : « إذا بالغنا فى الفكرة قلنا إن (الإنسان هو قياس كل شىء) » وروى هذه العبارة باليونانية .

ووافقه على ذلك هوايتهد وقال : « إن أفكارنا عن الأبعاد الطبيعية تحكمية إلى درجة السخف . إننى لا أعتقد أنه من المستحيل أن أدق حصاة قد تحتوى فى داخلها على عالم يبلغ من التعقيد هذا العالم الذى نعرفه ، وأن العالم أو العوالم التى بدأنا نفهمها منذ وقت قريب قد تبلغ بالقياس إلى ما لم نكتشف بعد من الصغر مبلغ ما فى الحصاة من عالم بالنسبة إلى العالم الذى نعرفه ، أو أن الاتساع قد يكون أفسح فى الاتجاه الآخر — أقصد اتجاه ما نعده صغيراً صغراً متناهياً ... إن التطور يثب وثباً فيما أحسب . منذ خمسين ألف عام تقريبا كانت هناك وثبة سعيدة ، تجسدت فى رجل واحد ، أو فى أسرة واحدة ، أو فى قليل من الأسرات؛ وبعد فترة حدث تقدم عظيم آخر ترتب على ذلك » .

وقيل إننا ربما كنا نعيش فى غضون (وثبة) من هذه الوثبات — اللهم إلا إذا قضت علينا .

وفكر فى ذلك هوايتهد ثم قال : « لماذا نتحدث عن « قوانين الطبيعة » فى حين أن ما نقصد هو السلوك المميز للظواهر فى حدود معينة فى مرحلة معينة من مراحل التطور فى فترة معينة — بمقدار ما يمكن أن نتحقق من كل هذا ؟ » .

ولما فتر الضحك ، وجه حديثه إلى لفنجستون قائلا : « ولكن دعنا نتخل عن كل ذلك . إننى أريد أن أتحدث عن كتبك فى التربية التى تدعو إلى الإعجاب ، وبخاصة تربية الراشدين . ما أسخف أن ننفى الأطفال من المدرسة فى سن السادسة عشرة ، أو حتى الثامنة عشرة ، ونعدهم قادرين على مجابهة أمور الحياة المعقدة . . . » .

قال لفنجستون : « من رأيى كما تعلم أن التربية لابد أن تستمر طوال الحياة كلها لكل إنسان ، على مستويات القدرة والاستعداد المختلفة ، وإن هذه هى الطريقة الوحيدة التى تجعل الديمقراطية الحديثة فعالة ، أو التى تمكنها من استمرار البقاء » .

قال هوايتهد : « إن مانريد هو أن نستخرج بقدر مانستطيع كل القدرات الكامنة فى الموهبة البشرية . ولكنا لم نعرف حتى الآن طريقة للقيام بذلك على الوجه الأكمل . قد نستخرج طائفة معينة من المواهب فى ظل أشكال معينة من التنظيم الاجتماعى الذى يلائم تطورها ، ولكن ذلك لا يحدث إلا فى نطاق محدود جداً وفى ظروف مكانية وزمنية غاية فى الضيق . لايبدو قط أننا وجدنا وسيلة نستخرج بها الانتشار الكامل لقدرات الإنسان الكامنة » .

وعادت مسز هوايتهد إلى حجرة الدرس . ولم يكن الغداء قد أعد تماماً ، فجلست على موطىء قدمى كرسى زوجها ذى الحشية الوثيرة ، وواجهت الرجلين الإنجليزيين ، وانطلقت فى جدل عن بلدينا :

ووجهت الحديث إلى لفنجستون قائلة : « الأمر الذى لاينبغى للمرء أن يفعله — وهو هين إلى أقصى الحدود — هو أن يقوم بالمقارنة . إن البلدين لايقارن أحدهما بالآخر . كل منهما فريدفى نوعه . لقد عشناهنا واحدا وعشرين عاماً ، وكل يوم نلمس فرقا جديداً . وحينما جئنا إلى هنا أول الأمر بعد الحرب الأولى ، كان الأمل الذى رأيته مرتسما على الوجوه يذهلنى - كل هؤلاء الصغار كانوا يتطلعون إلى الحياة فى شغف وحماسة ... ... »

وقال لفنجستون باسما : « لقد وصلت لتوى بالطائرة إلى بلتيمور يوم الأحد الماضى بعد الظهر ، فأنا إذن فى موقف صحيح يمكننى من تأليف كتاب عن أمريكا » .

قلت : « كلما طالت إقامة المرء هنا أحس بالعجز عن تأليف مثل هذا الكتاب . ولكن لا تخدعك الظواهر : إن كثيراً منها يضللنا . . . . »

قال هوايتهد . « هل أحدثكم عن إحدى هذه الظواهر — لو سمح لى لوشيان — الصحف » .

« إنى أستطيع أن أوجه إليها لومى بطريقة أكثرمنك تحديدا ولكن هلم » .

ومضى يقول : « إذا نظرت إلى صفحاتها الأولى قد تظن أن هناك قضية أساسية تتقاتل هذه الصحف بشأنها » .

وحذرته قائلة . « تذكر ياأولتى أننا لما كنا نغادر إنجلترا إلى القارة الأوربية كنا نجد الجرعة فى القارة هائلة ، وقد كانت كذلك فعلا » .

« أذكر ذلك جيدا . إن الانطباع الذى تتركه الصفحات الأولى فى الصحف خادع تماما . ليس من أنباء الصحف أنك لو سألت غريبا ـ أى فرد فى مجال الحياة الأمريكية كلها — عن اتجاه مكان معين ، يحيد عن طريقه شارعين لكى

يدلك على الطريق الصحيح . ومع ذلك فهذا هو مايمثل تماماً أفراد هذا الشعب ، الذين يظهر لى أن لديهم شفقة طبيعية أكثر من أى شعب عاش على وجه هذه الأرض » .

وسألت لفنجستون : « هل طُلب إليك أن توقع فى أوراق للدخول فى هذه البـــلاد ؟ »

« لا أذكر شيئا غير عادى أو مزعجا » .

« ولـكن هذا هو الواقع وإن كنت لاتذكر . حينما جئنا للإقامة هنا — وهذا هو ما أعنى بألا تخـدعك الظواهر — طُلب إلىّ والى ألفرد أن نوقع على إقرارات بالقسم بأننا لم نقض فى السجن أكثر من عشرة أشهر ! »

قال لفنجستون : « كلا . لا أذكر أننى وقعت على شىء من هذا » .

وتطوعت بالتصحيح فقلت : « ولـكن جلبرت مرى يذكر ذلك . حينما جاء إلى هذا البلد فى عام ١٩٢٦ ، لـكى يلقى مثلك سلسلة من المحاضرات فحسب ، قال إن الأجانب لابد أن يوقعوا على ورقة مجيبين فيها عن هذين السؤالين : هل أنت فوضوى ؟ وهل أنت متعدد الزوجات » ؟

قالت مسز هوايتهد : « يا إلـهى ! »

وبعدما استردت رباطة جأشها استطردت قائلة : « بعدماجئنا للإقامة هنا اعتدنا أن نستقبل الطلاب ليلة كل أسبوع ، لمدة تسع سنوات وكان عددالفتيان والفتيات الذين يجوسون خلال حجراتنا يبلغ المئات ، اولا وآخرا . وكانوايفدون من مختلف البيوت، بما فيها المزارع ، ومايقرب أن يكون أحياءشعبية . ولـكنى أقول لك إن رقة طباعهم ، وحسن ذوقهم ، وتربيتهم الطيبة فعلا ، كانت ملموسة حقا فى كل حالة من الحالات. وكان ذلك فى تلك الأيام الباسلة ،أيام قانون ڤولستد، حينما كان الناس ـ والمسنون منهم خاصة ـ يمتلئون بالشراب قبل أن يبدأوا فى

تناول العشاء . وبالرغم من هذا ففى خلال هذه الفترة كلها لم يأت الينا علاسوى فرد واحد ، وهو — إن شئت الحق — من أبناء ارستقراط بوسطن! وعلى نقيض ذلك تماما فتى جاء من نيويورك ، من الجانب الشرقى. وفى منتصف السهرة تقريبا تمطى وتنهد وقال . « أليست هذه الدنيا عجيبة ؟» .... فسألته : «وماذا تعنى؟» فأجاب : « منذ أسابيع قليلة ، كنت أدحرج البراميل فى شوارع نيويورك ، وهأنذا الآن وسط الترف وكل هذه الكتب (ومسكننا الكائن على ضفة النهر لم يكن بطبيعة الحال مما يبهر) إن مايعنى هو أن هذه هى المرة الأولى بالنسبة إليه فى مثل هذا الوسط ـ ولكنها لم تكن المرة الأخيرة ! فقد صار واحد من تلاميذ ألفرد اللامعين ، وأجاد إجادة ملحوظة » .

وعلق على ذلك لفنجستون بقوله : « إن الوسط الاجتماعى للجامعات الإنجليزية قد تغير تغيراً كبيراً » . وذكر لذلك أمثلة فقال : « إن الإيراد الصافى لآباء الدارسين عندنا فى العام الماضى فى الجامعة كان ٤٠٠ جنيه ، ٦٨٨ جنيها ، ٣٦١ جنيها ، ٣١٨ جنيها ، ١٠٦٥ جنيها (وقد تحددت هذه الأرقام بطبيعة الحال منذ ذلك الحديث) واثنان منهما لم يطلبا الراتب الإضافى . ولذلك فقد كانا على يسار ، ولكن كان هناك اثنان ممن يكسبون الأجور أسبوعياً ، بمعدل ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات فى الأسبوع ، وثمانية جنيهات فى الأسبوع » .

فقال هوايتهد : « يبدو لى أن الجامعات الإنجليزية ، وربما بالأخص منها اكسفورد وكمبردج ، قد أخذت تعود إلى مثل وظيفتها فى العصور الوسطى ، وهى تعليم الفتيان الموهوبين من الطبقات الفقيرة . كانت جامعاتنا فى القرن الثامن عشر تعلم فى الأغلب الشبان الأرستقراط ، أو على الأقل أبناء عمد الأرياف ، مع قلة من الدارسين من الطبقات الفقيرة . واستمدت طلابها فى القرن التاسع عشر من القطاعات المنتعشة فى الطبقة الوسطى وطبقة أصحاب المهن الرفيعة — من أمثالنا

— مثلا — ممن يبدو أن الدنيا لهم آمنة ممتعة . ولـكن الجامعات الآن قد بدأت تقبل الأطفال من الطبقة العاملة » .

قال لفنجستون : « مما قلت لى ومما لاحظت هنا فى زياراتى السابقة ، وقليلا فى هذه الزيارة أيضاً ، يبدو لى أن الديمقراطية فى إنجلترا رأسية ؛ أقصد إحساساً بالمساواة يسرى من أعلى المجتمع إلى أسفله ، يخترق الطبقات — أما فى أمريكا ، حيث تـكون الطبقات أقل تحديداً ، فالديمقراطية أشد أفقية » . ومثل البعدين بإشارات من يديه .

وقال هوايتهد : « سأعطيك مثالاً عن مدى أفقية الديمقراطية هنا . إن سائقى عربات الأجرة هنا فى كمبردج وبوسطن ممن يجيدون الحديث ، ولديهم فعلا حديث شائق يوجهونه إليك . ومنذ عهد قريب التقينا بأحدهم ليسوقنا من بوسطن إلى بيتنا . وقد أبطأ السير وتخلل الطرقات الجانبية (وشرح لنا كيف أنه لا يطيل المسافة ، وإنما يطيل الوقت) وبادلنا الحديث الحى ، يـكلمنا ونكلمه . ولما أنزلنا عند بابنا قال : « هذا أمتع حديث تبادلته منذ أمد طويل » .

وأعلن ميعاد الغداء . وتوجهنا إلى المائدة . واتجه الحديث نحو الروائيين الإنجليز .

وقال هوايتهد : « يبدو لى أن النساء يكتبن روايات أفضل مما يكتب الرجال ، فالرجال أميل إلى الانحراف نحو البحث عن الأفـكار المجردة ، محاولين أن يضموا الحياة فى إطارها . أما النساء فأميل إلى أن يقدموا لنا العلاقات الخاصة التى تجعل الحياة والأشخاص أشـد حيوية فى أعيننا » . ثم وجه إلى لفنجستون السؤال قائلا : « وما رأيك فى هذا ؟ »

« كنت أفـكر فى مسز جاسكل وأنت تتكلم . وأنا أوافقك على ما تقول » .

واستطرد هوايتهد يقول : « وأرى استثناء واحداً لذلك ،وهو ليس نابغاً من الطراز الأول ، ولكنه صاحب موهبة تدعو إلى الإعجاب تمثلت تماماً فيما فعل . فقد صور لنا الحياة والفكر الشائع فى عهده من خلال طبقة تمثل ذلك العهد إلى حد كبير ، وهى طبقة القسس . وأقصد أنتونى ترولوپ » .

وصاحت زوجته قائلة : « حق لك أن تعرف . ألم تغرق فيها إلى الأذقان ، كما غرقت منذ سنواتى الأولى بعد العشرين ...... ولا تنس أنها أفسدت كل فرد من أفراد أسرتك فى جيلك ، ما عداك . وأنا أسلم لك بأن ترولوپ قد أحسن التصوير ولكنه بالغ قليلا » .

وقال هوايتهد : « إنه على الأقل كان صادقاً ياعزيزتى » . وأبرق بعينيه نحوها عبر المائدة . ثم قال : « إننا على اتفاق فى ذلك . إننى حين أقرؤه أستطيع أن أستمع إلى أبى وأصدقائه من القساوسة وهم يتحدثون. بل إن النكات نفسها تبدو طبيعية جداً . وقد كنا نقطن بالقرب من كانتربرى ، ورأينا الكثير من قساوسة الكتدرائية » .

وأذعنت لذلك مسز هوايتهد ، وقالت : « بيد أن النساء الروائيات لا يحسن تصوير الرجال ، ويقعن عادة فى الخطأ حينما يحاولن تصوير من يؤثرن من أشخاص الرجال » .

ثم ثار الجدل فيما إذا كان الروائيون الرجال أفضل منهن فى تصوير النساء ، مع إجراء المقارنة بين چورج مرديث وچورج إليوت .

فقال هوايتهد : « إن لثاكرى فنا عظيما ، ولكنه يحصر نفسه فى طبقة واحدة حصراً شديداً . إنه يطوف بك خلال إنجلترا والقارة الأوربية كلها. ولكن أشخاصه فى نهاية الأمر نوع واحد من البشر تقريباً » .

وأضافت إلى ذلك قولها : « ثم إنه كان يكتب عن طبقة لا ينتمى إليها . ويلاحظ من الخارج مأخوذاً من ناحية ومستاء من ناحية أخرى . ولم يستطع قط أن يقر لنفسه أمراً » .

وقال لفنجستون : « إن من الروايات الإنجليزية فى القرن التاسع عشر التى أعتقد أنها سوف تدوم « بكويك » (فهو بعبقريته الإغريقية يوازن بين بهجة عيد الميلاد فى دنجلى دل وصورة الحياة الريفية فى اتكا فى قصة « السلم » لأرستوفان كما وردت فى الأبيات الشعرية من ١١٢٧ إلى ١١٧١) » ثم استطرد يقول : « ليست قصة « بكويك » أدبا فحسب . إنها تاريخ أيضا ، وهى تصور الإنجليز على حقيقتهم فعلا » .

ثم قال هوايتهد : « كنت منذ لحظة أقول إنى أعتقد أن النساء قد كتبن أحسن الروايات » .

وسكت قليلا ورمقنا بنظرة خبيثة ثم قال : « ويجدر بى أن أقول إن دكنز كان من بين أفضل النساء الروائيات ! » .

« وما رأيك فى جولز وردى ؟ »

وكان من رأى لفنجستن أن أشخاصه لم يطابقوا الواقع تمام المطابقة .

وقالت مسز هوايتهد : « كان جولزوردى — مثل ثاكرى — خارجا عن الأشخاص الذين يكتب عنهم » .

ودفع هوايتهد الموضوع دفعة جديدة فقال : « الأمر فى الرسائل كما هو فى الروايات . فالنساء يكتبن رسائل أفضل مما يكتب الرجال . إنهن يدون ما نريد أن نعرف ، وكيف يشعر الناس إزاء الأشياء ، وكيف يعيشون ، ماذا يأكلون ويلبسون ، وما يزعج خواطرهم — يكتبن عن كل تلك الأمور المباشرة التى

تجعل حياة عصر من العصور تعيش مرة أخرى . إن التاريخ ينبغى أن يستند إلى الرسائل أكثر مما يفعل . من ذا الذى تهمه معركة كريسى ، والتواريخ ، والأماكن ، وكل ما نحشو به أذهاننا باسم التاريخ ؟ وما شأننا بها ؟ إنما التاريخ هو الحياة اليومية المتتالية . إنه ليس مايقع من حوادث ، إنما هو الاجتماع . إنه تقدم الفكر » .

وقال لفنجستون : « إن عيب التاريخ الرسمى إنه يعطينا النتائج ، وخواتيم الأمور ، دون أن يرينا كيف بلغ الإنسان هذه النتائج » .

ووافقه على ذلك قائلا : « هذا جد صحيح . وليس التصادم إلا الخطوة الأخيرة فى أية عملية من العمليات . إن ما نريد أن نعرفه هو تقدم الآراء ، والتخمر الذى أدى إلى الصدام » .

وقالت مسز هوايتهد : « والمذكرات مصدر تاريخى آخر ينبغى أن نزيد من استخدامه ، وإن كان الفرنسيون قد استغلوها أكثر مما فعل الإنجليز ، واستغلوها استغلالا مثمرا . إن الأدب الإنجليزى ليس غنيا جدا فى المذكرات . وما لدينا منها يميل إلى الوحشة والكآبة . أما المذكرات الفرنسية فهى على نقيض ذلك حية ومليئة بالحقائق . ومن الحق أنها كثيرا ما تسجل ألوانا من الهروب الشائن ، ولكنها تسجلها بروح إن كانت لاتدعو إلى التسامح فإنها لا تبعث على الضيق . أما ما شابهها من المذكرات الإنجليزية فيدعو إلى النفور ، وأشخاصها غير محببين » .

ثم بدأوا يتحدثون عن أولئك الذين يمكن أن يقال عنهم إنهم أجادوا كتابة التاريخ فى القرن التاسع عشر فى إنجلترا .

فقالت مسزهوايتهد : « ليس منهم ماكولى بأسلوبه المتكلف .... وعباراته

القصيحة الموسيقية كأنه خطاب فى مجلس العموم مما كان له أثره فى ذلك العهد، وكل سطحى إلى أبعد غاية » .

وقال لفنجستون : « لا تنسى أن ما كولى قد استطاع أن يجعل قراءة التاريخ شائقة ، وهو عمل ليس باليسير » .

قالت : « وكذلك فعل ستراتشى ، غير أن ذلك لم يجعل ما كتبه من التاريخ الجيد » .

وقال لفنجستون : « إننى لا أحب ما كتب أكثر مما تحبين ؛ ولكنها كثيرا ما تكون كتابة جيدة » .

« أسلم لك بهذا . وكثيرا ما يكون قوله طريفا جداً ، بيد أنه لا يبلغ هذه الدرجة من الطرافة على لسان غيره » .

ونهضنا وقدمت لنا القهوة فى حجرة الجلوس. وأخذ آل هوايتهد ولفنجستون وهم يمثلون كمبردج واكسفورد يجرون مباراة بين جامعتيهما ، موازنين بين أطوارها الغريبة ، وأوجه التناقض بينهما ، ومزاياها وعيوبهما .

قالت مسز هوايتهد : « لقد وصلت إلى هناك فى عام العرائس الثلاثين ، وأؤكد لك أنه لم يكن مكانا سهلا للعرائس » .

ووضح ذلك هوايتهد بقوله : « حدث تغير فى لوائح الجامعة قبل ذلك بوقت وجيز فسُمح للرؤساء بالزواج . وكان لا بد قبل ذلك للواحد منهم لكى يتزوج أن يستأذن الكنيسة ، ولما كان أكثرهم لا يعتقد فى الطقوس التى كان عليه أن يؤديها ، فقد كانوا يتحايلون على إرضاء ضمائرهم بكل أنواع التفسيرات التعسفية لتلك الآراء الدينية التى لم تعد — فى ظنى — بالخير على كنيسة الجامعة. وكانت النتيجة — كما تقول افلن — أن ثلاثين أو أربعين عروسا وصلت إلى كمبردج

دفعة واحدة ، وبعضهن مثلها صغيرات جداً ، وبعضهن لم يكن ألبتة صغيرات » .

قالت مسز هوايتهد : « ولكنى تعلمت بسرعة . ولما كنت قد ولدت ونشأت فى فرنسا ، فقد قرأت بالفرنسية كثيرا ، ولكن انتقالى المفاجىء إلى إنجلترا لم يمكنى من قراءة ماينتظر أن يقرأه المرء بالإنجليزية . وقد جلس إلى جوارى أحد الرؤساء فى حفل عشاء وشرع يسألنى عما قرأت بالإنجليزية . ولم أحسن الإجابة بطبيعة الحال . فقال : « أرى أنك لم تقرئى شيئا » وكف عن الاهتمام بى بقية المساء ..... واستمر على ذلك لايهتم بأمرى لبضع سنوات . كلا . لم يكن هذا المكان سهلا للعرائس » .

وأضاف إلى ذلك هوايتهد قوله : « ولم يكن سهلا كذلك دائما للعرسان » ثم سألها : « ألا تذكرين آل ڤرل وجيم ستيفن ؟ »

واختنقت فجأة من شدة الضحك .

وحذرته قائلة : « ولكن لابد أن تشرح لسر رتشارد أن ذلك كان قبل أن يغيب ستيفن عن صوابه » .

واستطرد هوايتهد قائلا : « كان فى زيارتنا بكمبردج حينما كنا نسكن إلى جوار آل ڤرل . كانت حديقتانا متلاصقتين » .

وذكرت مسز هوايتهد : إنه لم يفصلنا سوى جدار سمكه طوبة واحدة ؟»

« وكان ڤرل يتكلم بصوت مرتفع ذى صرير» (وأخذ يقلده) « وكان جيم ستيفن مقلدا مضحكا . فبدأ يقلد ڤرل فى منظر خيالى تصوره فيه وهو يطلب يد زوجته . وصعقت اڤلن المسكينة وأشارت اليه بحركات عصبية لكى يكف عن التقليد ، وقالت هامسة : « إنهما يستطيعان الاستماع ، فبيننا وبينهما جدار رقيق »

وقال ستيفن : « وهل فى ذلك من خطر ؟ إنه يصلح الأمر بينهما » .

وفى معرض المقارنة بين الجامعتين تساءل لفنجستون إن كان هناك مجال للاختيار فى قسوة الإنسان على الإنسان .

فقال هوايتهد : « إن ما كان لدينا من مدنية فى كمبردج إنما جاءنا من الخارج. أما فى اكسفورد فأنتم تمدنون شعبكم داخل الجامعة » .

وأقر لفنجستون : بأن اكسفورد أرقى من الوجهة الاجتماعية . أما فى كمبردج فأنتم تدربون الرياضيين والعلماء »

وقال هوايتهد : « إنما أنقذنى من هذا وسار بى نحو المدنية عاملان : أحدهما (الرسل) ، وهو ناد ثقافى من اثنى عشر عضوا من الطلاب » .

وسأله لفنجستون: « وماهو العامل الثانى ؟ »

« خروجى من كمبردج وانغماسى فى جامعة لندن خمسة عشر عاما » .

وسأل لفنجستون فى نغمة رقيقة مازحة : « وماذا تظن أن ذلك قد فعل بك »؟

« زج بى بين مختلف الناس . وأضف إلى ذلك خبرتى فى مجلس الجامعة» .

وعلق على ذلك لفنجستون بقوله : « إن الميل الاجتماعى فى اكسفورد إنما يعزى عادة إلى (العظماء) القدامى . وأقول العظماء القدامى ، لأن أولئك الذين يدرسون العظماء المحدثين ويتقنون دراستهم يقرون بأنهم أضعف أثرا وأضعف نفوذاً» .

وسأله هوايتهد : « وماهو - فيما تتصور - أثر العظماء القدامى فى الإنسان ؟»

فأجاب لفنجستون بقوله: «إن فى كتاب (طبيعة التعليم الجامعى) لنيومان تعريفا للرجل المهذب ، يشغل نحو ثلاث صفحات[1] وهو يقرب من تعريف ما نسأل عنه أكثر من أى شيء آخر عرفت . ومما يزيد التعريف قوة أن نيومان لا يؤيد هذا الطراز من البشر الذى يصفه ، ولا يترك عند القارىء شكا فى ذلك ، لأنه يذكر كمثال له الإمبراطور جوليان ، ذلك المارق على الحق المسيحى ، عدو التربية

(١) « مجال التعليم الجامعى وطبيعته » لجون هنرى نيومان — طبعة « أفريمان » من ص ١٨٦ — ١٨٨.

المسيحية » ثم روى مايلى . « (إن دين الرجل المهذب [الجنتلمان] يميل إلى الحرية والتساهل . إنه يقوم على أساس الشرف . الرذيلة شر ، لأنها عديمة القيمة ، ممقوتة ، مزدراة) » .

وصاحت مسز هوايتهد قائلة : مسكين نيومان ، ذلك المخلوق الحساس ، الأعزل ، رقيق الشاعر ! ومن ذا الذى يلومه ؟ »

قال هوايتهد : « لقد قابلته مرة »

وسأله لفنجستون : « لكى تتحدث معه ؟ »

« نعم »

« وهل تذكر ما قال ؟ »

وبدت أمارات التفكير لحظة على هوايتهد ، ثم صاح فجأة قائلا : « كان ذلك من زمان بعيد جدا . عندى سؤال أريد أن أوجهه إلى قسيس من الجزويت ... »

واقترحت مسز هوايتهد وهي تنهض من مكانها : « أن يوجه السؤال من مكتبه » وتأجل الحديث لوقت ما .

وحفزه لفنجستون على الكلام حينما عدنا إلى المكتب . قال : « كان لديك سؤال تريد أن توجهه إلى قسيس من الجزويت » .

« أجل . هو هذا : (هل فى السماء ضحك ؟) إن انعدام الفكاهة فى الإنجيل أمر يدعو إلى العجب » .

وأجاب لفنجستون قائلا : « لقد حاولت أن أعيد قراءة العهد القديم منذ برهة . إن كثيرا مما به رائع من جميع الوجوه ، غير أن أجزاء منه ... هل تذكر هذه العبارة لأوسكار وايلد (حينما أذكر كل ماجلبه لى هذا الكتاب من أضرار ، يتماسكنى اليأس — مع هذا — من أن أكتب شيئا يقاس إليه) » .

وسأل هوايتهد : « ألم تكن عند اليهود روح فكاهية ؟ » .

« حينما يكون الأمر جديا للغاية ، ألا نفقد شيئا منه إذا ضحكنا منه ؟ ألا يقلل الضحك من قيمته ؟ »

وقال هوايتهد : « لننظر فى الفنون . هل فيها فكاهة ؟ »

وكان من رأى لفنجستون أنه من العسير أن تلمس فكاهة فى أعظم الفنون ، كالتصوير الدينى فى إيطاليا لعهد النهضة . وقال : « إنى أشك فى أن الفكاهة تسير مع أعظم الفنون والأفكار » .

قلت : « إن فى كوميديات إرستوفان ضحكا كثيرا ، وفى كتبه فن ودين معا » .

وقال لفنجستون : « هذا صحيح . ولكنى أعتقد دائما أن أرستوفان أحسن ما يكون فى الأجزاء التى يمزح فيها » .

« والموضوع الاساسى الذى أختلف معك فيه هو ان الضحك صفة مقدسة . وأن انعدام الضحك فى الديانات العبرية أمر خطير بالنسبة إلينا نحن الأجناس الأوربية الشمالية ، لأن الضحك يلعب دورا كبيرا فى حياتنا ، ونحن مرغمون على أن نلتمس الضحك خارج ديانتنا كلية تقريبا » .

وسأل لفنجستون : « وكيف يمكن أن نلتمس الضحك داخل الدين ؟ »

« لقد حدث ذلك . هناك كلية للفنون الحرة فى إنجلترا الجديدة يجدر بى ألا أسميها ، لأن الأمور كانت تسير فيها سيرا سيئا منذ عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٤٠ »

وقال هوايتهد : « لقد أصبت القول فى هذا . ولقد دعيت لإلقاء محاضرات هناك فى عام ١٩٣٠ ، ولمست ذلك بنفسى » . ودهشت لما ذكر .

وقلت : « إذن فأنت تنفذ إلى الضمائر ، لأننا نعنى كلية واحدة . كان الطلبة

خارجين على النظام . وكان يطلب إليهم حضور الصلاة فى الكنيسة أيام الأحد . فإذا ما وجدوا الواعظ الزائر على غير هواهم (وكثيرا ما كان كذلك) سعلوا له لكى ينزل من المنصة ، ولا يمكن صدهم مما يفعلون بأية وسيلة من الوسائل . ولكن كان هناك واعظ واحد يتردد كثيرا ، ويستمعون إليه فى سرور بالغ . وكان رجلا ذكيا ، جاداً جدا فى مراميه الخلقية ، وكان كذلك ذا روح فكاهية مرحة . وفيما بين عبارة جدية وأخرى كان يستطيع أن يثير فى الطلبة الضحك الشديد . كانوا يعبدونه.... أما عن الضحك فى الديانة الإغريقية ، فلا ينبغى لنا أن نقف عند ارستوفان . إنه يرجع إلى عهد هومر . والجزء الأول من الإلياذة ينتهى بالآلهة وهى تضحك فوق الأولمب » .

وخضع لقولى لفنجستون ، وقال : « هناك أثر من مسرحية هزلية مفقودة ، نجد فيها أن بروميثيوس يسرق النار من السماء ، فتظن الأمساخ[1] أن تقبيلها شىء جميل ، فيفعلون وتحترق لحاهم » .

واستأنف هوايتهد حديثه قائلا : « كان للعبريين رأى خلقى شديد الصرامة ، وإن يكن فى حدود ضيقة جدا . وذلك فى (جمال القداسة) . ولا يلحق بهم أحد فى هذا ، غير أن الحدود غاية فى الضيق » .

(وخرجنا بعد فترة من الزمن بأمثلة متنوعة من الكتاب المقدس مما يمكن —لو وسّعنا حدود التعريف— أن نفسره بأنه من باب الفكاهة. من تلك الأمثلة اليا وهو يعيّر أنبياء البعل بعجز آلهتهم ، وقد أمر بذبحهم على أيدى مريديهم السابقين (سفر الملوك الأول ، إصحاح ١٨ — آية ٤٠) ومثال آخر النبى يوشع وهو يدعو دبتين لتفترسا اثنين وأربعين طفلا عيّروه بقراع رأسه (سفر الملوك

(١) المسخ فى المسرحية اليونانية شخص خرافى نصفه الأعلى بشر والأسفل ماعز .

الثانى — إصحاح ٢ آية — ٢٤) ومثال ثالث هامان الذى صلب على خشبة ارتفاعها خمسون ذراعا كان قد أعدها لقتل مردخاى (استير إصحاح ٧ آية ١٠) ومثال رابع حادث القديس بولس مع صائغى هيا كل الفضة فى أفسيس ، وهو سخرية من الطراز الأول (أعمال الرسل - إصحاح ١٩ - آية ٢٤) . ولكن يجب أن نقر أن هـذه الأمثلة جميعا لا تبلغ من الفكاهة ما يجعل المستمعين يغرقون فى الضحك فى أجنحة الكنيسة) .

وقال لفنجستون إجابة عن هذه الملاحظة الأخيرة لهوايتهد : « إن الإغريق كان عندهم كل ما كان ينقص اليهود » .

ومضى هوايتهد يقول : « إذا مسسنا هذا الموضوع من ناحيته الحديثة وجدنا أن (الموحدين) - فيما أظن - هم أقرب من وجد سبيلا لتطبيق الآراء المسيحية على العالم الذى نعيش فيه الآن - وأضم إلى الموحدين أولئك القوم المتدينين الذين يشبهونهم أشد الشبه ، وأقصد (الطائفيين) . وأقول عرضا إنى قد تسلمت خطابا منذ بضعة أيام من راع أسقفى يقرظ فلسفتى ولم يسمنى إلا أن أعتقد أنه أشد شبها بالراعى الإنجليزى فى القرن الثامن عشر من حيث عمق تفكيره الدينى منه براعى القرن العشرين . . . استمع إلى » . قال ذلك وقد اتجه بغتة نحو لفنجستون : « سأسألك سؤالا شخصيا ، حتى إن خرجت فيه على حدود اللياقة ، وليست بك حاجة إلى الإجابة عنه إن لم تشأ : كيف أعطيت صوتك فى الانتخابات الأخيرة ؟ » .

« صوّتُّ مع العمال » .

« حسناً فعلت . وهكذا كنت أصوّتُ لو كنت هناك » .

« حدث أن مرشحنا المحلى كان رجلا طيباً جداً » .

« كنت أصوت لمرشح العمال ، حتى لو كان رجلا ضعيفاً ، اللهم إلا إذا كان جحشاً كبيرا » .

وسألت مسز هوايتهد : « وهـــل توقعت النتيجة التى انتهت إليها الانتخابات ؟ » .

قال لفنجستون : « كلا . إن أكثر ما كان يتوقعه أى امرىء ــ فيما يظهر — انخفاض شديد فى عدد مقاعد المحافظين » .

وسألت : « وماذا دها حملة تشرشل ؟ » .

« يُظن أنه وقع بين يدى بيفربروك » .

وعادت إلى الـكلام تقول : « لقد عرفنا تشرشل وتابعنا سيرته منذ حرب البور . ويبدو أنه بطل من ناحية ، وشديد الضجيج الفارغ من ناحية أخرى . هو رائع فى القتال ، ولـكن إذا ما وضعت الحرب أوزارها ، ظهر منه الضجيج الفارغ » .

وقال لفنجستون : « مما يدعو إلى الثناء حقاً فى الانتخابات البريطانية أن المرشحين لم يبعثوا الموتى من قبورهم ولم ينبشوا بحثاً عن القضايا الميتة . وقد خرج بولدوين وتشمبرلين من مجال الجدل . والمرة الوحيدة التى أعرف أنه أشير إليهما فيها كانت إبان مناقشة فى مجلس العموم بشأن إرسال القضبان الحديدية لميدان القتال من عندنا . فقال أحد الأعضاء : « اتركوا لبولدوين قضبانه ، فهو فى حاجة إليها لـكى تحميه من الشعب ! وأُغرقت هذه الملاحظة فى صيحات الاستهجان . وكان مصدرها عضواً من المحافظين » .

ومضت مسز هوايتهد تقول: « إن شعبية تشرشل لم تضعف ، فهو عند الشعب لا يزال (ونِى الطيب العجوز ؟) ويلقى من الهتاف عند ظهوره أمام الجمهور أكثر مما يلقى رئيس الوزراء المهالى . إن الشعب يعجب به ويكرمه ، ولـكنه لا يصوت له . وهذا عندى مظهر لا مثيل له من مظاهر الحـكمة السياسية من جانب الناخبين البريطانيين » .

وقال لفنجستون ، وهو – باعتباره أفلاطونيا – يعرف حق المعرفة النقد الصحيح (للرجل الديمقراطى).

قال : « أجل . وذلك مما يجعل المرء يعتقد فى الديمقراطية » .

ووجه هوايتهد إلىّ الخطاب قائلا : « إلى أى حد يحتمل – فى ظنك – أن يكون عليكم رئيس من الرجال العسكريين بعد هذه الحرب ؟ »

قلت : « لقد مرت بنا تجربتان كئيبتان فى ذلك ، لاتزالان ماثلتين حيتين فى الأذهان » .

قالت مسز هوايتهد : « إن الجنرال ماك آرثر يجعل منهما مسرحية » .

« ربما كان ذلك . وهو كرجل عسكرى يدعو إلى الإعجاب ، ولكنه يتصف أيضا بالحس المسرحى ، وهذا فى الحياة العامة الأمريكية لايلقى قبولا حسنا » .

وقال هوايتهد . « إن ايزنهاور شخصية عظيمة حقا . مارأيك فيه » ؟ لم يهتم أحد بالتنبؤ له .

ووجهت مسز هوايتهد خطابها إلى لفنجستون قائلة . « من التغيرات العظمى فى العقلية الأمريكية التى ينبغى لك أن تضعها موضع الاعتبار ، أن الأمريكان يعرفون الآن أن الدنيا ليست فى أمان ، حتى بالنسبة إليهم . أما نحن – من ناحيتنا – فلم نكن قط آمنين ، وقد عرفنا ذلك فى أكثر الأحيان ، ماخلا فترة وجيزة فى أخريات القرن التاسع عشر . ما أشد ما كان فى العالم آنئذ من أسباب الراحة – وقد اختفى هذا العالم ! أقصد عالم الملكة فكتوريا . لقد باتت ذكراها اليوم أسطورة من الأساطير » ،

وسأل هوايتهد وقد عاد بغتة إلى حديثنا عن الفكاهة « هل عرف عن الملكة فكتوريا أنها ألقت مرة نكتة فكاهية ؟ »

وروى لفنجستون مايلي : « إنها لاتسلي . ولـكن لديها على الأقل روحا فـكاهية سلبية . فقد كانت تعرف مالم يكن – فى ظنها – فـكاهيا » ،

« ولـكنها قالت مرة : إن مستر جلادستون يخاطبنى كأنى مجتمع عام » .

قالت مسز هوايتهد : « نعم ، ولـكن هل كانت تعرف أن هذه الملحوظة فـكاهية » ،

وقال هوايتهد : « ألم تـكن الطريقة التى يتصل بها (دِزِى) بالملـكة شائنة. إن شهرة دزرائيلى مثال من الانفصال السياسى يسترعى الانتباه . لم يكن محبوبا من الشعب ، ولـكنهم عرفوا إنه قدير وقبلوا أن يـكون لهم ممثلا سياسياً » .

ورنت ساعة برج ممووريال هول الثالثة . وكان هناك قطار بعد الظهر إلى ورنتو لابد أن يستقله سر رتشارد . ووقفنا ، لـكى نستأذن فى الانصراف .

وسأل هوايتهد متلطفا : « هل تشعر بالإهمال إذا لم يتقدمك بعد اليوم امرؤ يحمل محرك النار ؟ » وكانت الإشارة إلى حفل توزيع الدرجات فى اكـسفورد حينما يدخل موكبُ العلم مسرح شلدونيان ، وتتقدم نائبَ المدير فيه الصولجاناتُ المرفوعة رمزاً للسلطة .

وأجاب لفنجستون بقوله : « إن أطفالى يسلون أنفسهم بسؤالهم لماذا لاأدور وأسير فى الاتجاه المضاد . ويقول مسجلنا فى الوقت عينه – وهو رجل ذو خبرة طويلة فى هذا – إن عادة الوقوف عندما يدخل نائب المدير على اجتماع هبدومادال لها أثر حسن فعلا فى مباشرة العمل جديا . إن للطقوس مكانة فى الحياة .والاحترام قد لا يكون لشخصية ما ، أو حتى لنظام من النظم ، ولـكنه قد يكون للآراء التى ينطوى عليها الاحتفال » .

(٤٣)

١١ من نوفمبر ١٩٤٧

عيد الهدنة . قضيت المساء مع آل هوايتهد . وكانت عاصفة من عواصف الخريف تهب في الخارج ، مصحوبة بريح شديدة في قوة الزوابع ، وأمطار غزيرة .

وظهرا لى في أول الأمر على شيء من الارتخاء . ولم يكن ذلك محل عجبي لما عرفت أن زوجة ابنهما ، مسز نورث هوايتهد ، قد لاقت حتفها بعد مرض عضال طال معها . وتحتم على مسز هوايتهد نفسها أن تذهب إلى بيت فلبس ، في زيارة لمستشفى ماساشوست العام ، لتحضر عملية تهدد بالخطر العاجل . وقد أشارت إليها بيرود (بعمل المشرط) . وقبل أن يخرج هوايتهد من مكتبه حيث كان في غفوة يسيرة من النعاس ، قالت لى على حدة إن الخبر كان أشد وقعا على نفسه منه عليها .

« إنه يستطيع أن يجابه هذه الأمور عندما تقع ، ولكنه لم يعد لديه احتماله السابق . وأمثال هذه الأمور تفقده الاحتمال بعد مرورها . وهأنذا كعادتى – أو كعادتى تقريبا – ولكني في صحبته » ثم كفت عن الكلام قليلا ورمقتنى بنظرة فيها شيء من السخرية وقالت : « ربما ظننت أنهم أحرقوا جثتى وبددوا رمادها ! »

وكانت حجرة الجلوس مليئة بالأزهار ، أقحوان أصفر وبرونزى ، وزهر الخزامى ، منسقة بطريقة فنية مع أعواد السعف الخضراء . وتحدثت عن هذه الزهور . فقالت : « نعم ، إننى مدللة ، وإنى لأحبها ! وقد تحسبنى ممثلة سينمائية لو عرفت الطريقة التى تأتينى بها الأزهار » .

ثم نهضت ، واتجهت نحو مكتبتها المصنوعة من خشب الماهوجانى ، وأخرجت

حزمة من الرسائل . وقالت « أود أن أخطرك بأمر من الأمور ، وإن كنت لا أزيد أن يذكر عنه فى الوقت الحاضر شىء ما » . وأخذت تفض الرسائل وتتصفحها ، وهى تتحدث إبان ذلك .

تعلم أن إيرادنا من إنجلترا قد انخفض أثناء الحرب . وسبب لنا ذلك أزمة مالية شديدة . ولكنى استطعت أن أدبر الأمر . وما أريدك أن تعرفه هو أن مدير البنك الذى نحتفظ فيه بحسابنا قد تسلم ثلاث مرات خلال الحرب صكوكا مالية معتمدة من مجهول لكى تودع لحسابنا ، والمبلغ المحول هو بعينه فى المرات الثلاث ـ ثلاثمائة دولار . وسألته هل يعرف المرسل . قال لا ، ولكنه يستطيع أن يتصل بالبنك الآخر . ولم نستطع أن نقبل عطايا من مجهول بطبيعة الحال ، ولكنى سألت إن كان من الجائز أن تكون سدادا لدين نسيناه أوفضل أديناه . وأجاب قائلا : (ربما كان الأمر كذلك) كلا . إن شيخوختنا لا تسمح لنا بذلك . وبلغنا اعترافنا القلبى بالجميل ، ولكنا لم نستطع أن نقبل . . . . . . إنى لا أستطيع أن أجد الرسالة التى أبحث عنها . هل يحدث لك أن تحفظ الأشياء ثم تفقدها ؟ »

«ليس هذا محل سؤال ! فى الربيع الماضى عدت إلى وطنى بهدايا من اكسفورد حفظتها بعناية ، وها نحن أولاء فى شهر نوفمبر ولا أستطيع حتى الآن أن أعثر عليها » .

« إنك بذلك تشجعنى . . . . . كم كنت أود أن تقرأ الرسالة ، ولكنى أستطيع أن أنبئك بما فيها . أرسل مجهول إلى الكلية منحة مالية للتفوق فى الدراسة، وأراد أن تعرف باسم منحة ألفرد نورث هوايتهد . ويبلغ ربع المبلغ المقدم ألفا ومائتى دولار فى العام يدفع لألفرد ما بقى حيا ، ويدفع لى بعد مماته ، ثم يدفع بعد ذلك للطالب صاحب المنحة . وأشد ما يؤثر فى كلينا السخاء فى الهبة ، وكذلك اللباقة والرقة فى الطريقة . وقد دفع المبلغ للكلية : فتحتم بذلك قبولها ، ولم يعد لنا فى الأمر رأى . وأشد ما سر له ألفرد هو أن الهبة تترك علاقة دائمة بين اسمه والكلية فى صورة حية » .

ثم أضافت قولها : « المنحة ثلاثون ألف دولار ، وربحها أربعة فى المائة » .

ولم نستطع ان نتكهن باسم الواهب . غير أنا فكرنا فى احتمالين أوثلاثة.

ثم قالت : « هذه هى الرسالة » ونهضت وأعادت الأوراق إلى المكتبة وعادت إلى مقعدها وأشعلت سيجارة . ودق التليفون . فقالت : « من يكون الملعون ! » وردت عليه . غير أن المفاجأة كانت سارة لها ، لأن المتكلم كان شخصاً عزيزا عليها . ولما انتهى الحديث قرعت باب المكتب ودخلت فى رفق ، وتحدثت بصوت منخفض ، قالت : « إن لو شيان هنا ، لاتقفز ، وتريث بضع لحظات قبل أن تنهض » .

وسرعان ماخرج من مكتبه . ولم يتيقظ بعد تمام اليقظة ولكنه بعد ماغسل وجهه بالماء البارد ، عاد إلينا معافى .

وأحسنا استقبالى . والظاهر أنهما كانا يتوقعان زيارة رسول من لدن ناشره ، ومعنى ذلك أن ممثلا من الشركة الإنجليزية قد أتى فى صحبة رجل من الفرع الأمريكى .

قال : « الأمر العاجل هو أنهم يفكرون فى إصدار طبعة من مؤلفاتى تصلح لقراء الأوتوبيس » .

« وهل يدخل فى ذلك كتابك (التطور والواقع) »

« جزء منه ... »

قالت : « إنا نؤثر أن يطبعوا المؤلف كله أولا يطبعون البتة شيئا منه ، بدلا من أن يطبعوا مقتطفات من المؤلفات كلها انتقاها الناشرون . ولشدما كان إحساسنا بخيبة الأمل حينما وجدنا أن الناشرين قد أخذوا على عواتقهم أن ينتقوا المقتطفات ، فكانوا أحيانا يحذفون فصولا بأسرها » .

« ولماذا يطبع كل .... الضخم — لست أدرى ماذا أسميه ؟»

« وما تظن كان جواب ألفرد ؟ »

« ماذا قال فى أمر كهذا ؟ »

« قال لا شك إنهم أصلحوه ... ! »

« كنت دائما أقول إنه أطيب روحا مما يتطلب هذا العالم. ومن الأنباء العجيبة أن يعاد طبع كتاب (التطور والواقع) فى أية صورة من الصور . إننى لا أستطيع أن أحصل على طبعة فى مجلد واحد . وقد أعلنت مكتبة (الركن القديم) عن نسخة لى فى الشهرين السابقين . وأذكر أنكَ قلتَ لى إنه الكتاب الذى أردت أن تكتبه أكثر من أى كتاب آخر » .

قال : « كتبت فى مقدمته شيئا ينبغى أن يتكرر فى الفقرة الأولى من الفصل الأول ، كما يتكرر فى مواضع متلاحقة فى غضون الكتاب كله . وذلك أنى شديد التأثر بعجز أية محاولة بشرية تماما عن التعبير عن مثل هذه الآراء الفلسفية ، وما أبعد هذه العمليات العالمية عن أفق تفكيرنا . إن كل ما يستطيعه المرء — حينما يجسر على الخوض فى هذه الموضوعات — أن (يتقدم بمقترحات) » .

« هل صحيح أن طبعة فى مجلد واحد من كتابك (أهداف التربية) قد أعيد إصدارها فى إنجلترا ؟ »

قالت : « نعم . وقد أرسلوا إلينا نسخة منها » .

« هذا نبأ آخر سار ، لأن بضعة من أصدقائى على الأقل ، من النظار ومن إليهم ، كانوا يسعون فى الحصول عليه » .

قال : « سأعطيك هذه النسخة » .

وتوجه إلى مكتبه ، وعاد بها ، وألقاها فى حجرى ، وكانت الصور هى الأصلية قطعا (والشركة إنجليزية) غير أن التجليد باللون الأزرق الداكن كان يختلف عن الغلاف القرمزى الذى صدر فيه الكتاب فى طبعة عام ١٩٢٨ ، وكان يفضله . ولما تقدم

المساء كتب إلىّ الإهداء .

وقالت مسز هوايتهد : « لقد قضينا وقتا سعيدا مع مندوبى الناشرين، ماخلا برهة واحـدة كانت رهيبة . ماذا تظن أن الناشرين أرادوا أن يفعلوا ؟ أن يطبعوا صورة فوتوغرافية لألفرد على غلاف مجلة (لايف) » !

« يا إلـهى ! »

قالت مقطبة جبينها : « تصور وجه ألفرد يباع فى الطرقات » .

« وكيف خرجتم من هذا المأزق ؟ »

« قلت لهم برفق شديد إنه آلى على نفسه طوال حياته ألا يسمح بالمقابلات الصحفية ، وألا يُصوَّر للصحافة — اللهم إلا فى العيد المئوى الثالث لهارفارد بطبيعة الحال ، حينما صُوِّر جميع الطلاب القدامى » .

« لا أستطيع أن أتصور ألفرد ملتحقا بزمرة هواة الاعلان » !

وعادت إلى حديثها قائلة : « لقد حسنت نيات مندوبى الناشرين فى هذا ، فوافقوا على التخلى عن الموضوع » .

« ومتى تظهر طبعة (الأوتوبيس)؟ »

« لا ندرى . إنهم لم يعطونا فكرة عن ذلك » .

وقال هوايتهد وقد رمقنى بنظرة خبيثة : « فى ظنى — وإن كنت لأدرى ، وربما لا يليق بى أن أقول ذلك — إنهم يرمون إلى تأجيل النشر إلى ما بعد مغادرتى هذه الكرة الأرضية بقليل » .

وقالت زوجته « إن كان الأمر كذلك، فأنا أشك فى حكمهم. إن كانوا يريدون رواجا باسم هوايتهد فإنما يكون ذلك اليوم. هل رأيت المجلد الجديد للمقتطفات» ؟

« نعم . وقد وصلتنى حتى الآن ثلاث نسخ » .

« ومارأيك فيها » ؟

« أعتقد أنهم قد أجادوا الاختيار » .

قالت « (فطنة هوايتهد وحكمته) : ياله من عنوان ! إنى أسلم بالفطنة ، وبشىء من الحكمة ، ولكن .... »

« ليس العنوان جديدا كل الجدة . فقد استعمل لمقتطفات من چورچ إليوت أثناء حياتها ، كما استعمل مرة أخرى لمقتطفات من چورچ مرديث خلال حياته : وليس من شك فى أن الجناس فى ألفاظ العنوان (وهو واضح بالإنجليزية) كان إغراء لهم لم تمكن مقاومته . ولكنى عندما تصفحت المجموعة آمنت بأن المختارات قد اقتبست بعناية ومهارة . وقد تذكرت الكثير منها ، بيد أنى لم أذكر بعضاً منها ، والنتيجة أنى سأقوم بما أظن أن المقتطفات ستدفع الكثيرين إلى القيام به — وهو أن أرجع إلى الكتب نفسها » .

وكان العشاء فاخراً جداً ، وذكرهم هبوب الريح وسقوط المطر فوق النوافذ ، بالبيت المكشوف ، فى برود ستيرز ، حيث التقيا أول الأمر . لأن عمة ألفرد ، سوزان ، كانت تقطن هذا البيت ، وكان ذلك بعد إقامة دكنز فيه بزمن طويل . ولقد كان البيت مكشوفاً حقاً ، لأن البناء كان مرتفعاً ، ضيقاً ، ومكشوفاً للعراء . وبالرغم من أنه كان مشيداً من حجر الصوان ، إلا أنه فى أمثال هذه الليالى كان يهتز من العواصف التى كانت تهب من بحر الشمال . وقيل إن سفناً كثيرة كانت ترتطم وتتحطم عند هذا الرأس .

وانتقلا بخيالها من (البيت المكشوف) إلى أبرشية رامزجيت .

وقالت مسز هوايتهد : « كان هذا البيت مشيداً من الطوب ، وكانت به أشجار جميلة ، تحوطه أراض فسيحة ، وبه حديقة غناء ، فى أسفلها — كما كان معروفا — كهف عميق » .

« هل كانت جدرانه من الصخر ؟ » .

« كلا . بل كان فى حجر الطباشير » .

« وهل كان مدخل الكهف يفتح فاه فى حديقتكم ؟ » .

قال هوايتهد : « كلا . إنما كان الدخول إليه عن طريق مكان العربات العامة » .

« ما أشبه ذلك بمسرحية الفروسية التى تتخللها الأشجان . هل كان داخل الأبرشية شائقا ؟ » .

قالت مسز هوايتهد : « أجل . لم يكن قوى التأثير ، وإنما كان شائقا . كان به بهو (صالة) فسيحة ، بالرغم من أن السلم لم يكن بحالة جيدة . وكانت هذه الصالة مبنى جديداً أضافه سلف من أسلاف الأب . ولكن السلم القديم كان جميلا ، وقد نقل ثانية إلى جناح الخدم . كان الداخل بطبيعة الحال ينم عن الروح الدينى . كانت غرفة الطعام شديدة الظلام . وكان المطلوب فى غرف الطعام أن تكون موحشة . بيد أن ظلام الغرفة أظهر أدوات الأسرة الفضية ، وكان هناك منها الكثير » .

« ما هى تلك القصة الشائقة التى كنت تقصينها للفنجستون هنا ساعة الغداء عن تيت رئيس الأساقفة وابنه . ما أكثر ما حدث فى الساعات الأربع الماضية حتى إنى لا أستطيع ألبتة أن أتذكرها » .

قالت ضاحكة : « إنها قصة ألفرد . وقد كان هناك ، ولم أكن ، وإن كنت أجيد معرفتها كأنى كنت ..» .

قال هوايتهد : « كان تيت رجلا عظيما جداً ، وكان ينبغى أن يكون رئيس وزراء بريطانيا العظمى ، ولكن القدر أخطأ التوجيه ، فالتحق بالكنيسة بدلا من ذلك ، وأصبح رئيس أساقفة كانتربرى . ولما كان شديد الجوار بنا فى مسكنه

لقد أمسى من أصدقاء أبي الأعزاء ، وكثيراً ما كان يزور بيتنا . وكان أحيانا ينطلق راكبا بعد صلاة الصباح من كانتربرى لكى يتناول العشاء يوم الأحد فى الأبرشية . وفى هذا اليوم بالذات اصطحب الأسقف جور من أكسفورد ، وهو رجل قد وجد دينه ، وكنت فى ذلك الحين فى الثامنة عشرة من عمرى ، فكنت أدرك تمام الإدراك أن تيت رئيس الأساقفة كان يشغل المراكز ذات المرتبات الطيبة بأقاربه . ولما سمعت الأسقف جور يسأل مسز تيت — لكى يخلق حديثا المائدة — قائلا : (أية مهنة يميل ابنك إلى الالتحاق بها ؟) أدركت أنهما كانا فى مركز ضعيف ، ثم كانت فترة سكون . وانحنى جور فوق المائدة متوسلا إجابة عن سؤاله ، وأصغيت فى شغف إلى الجواب . قالت ليدى تيت :(لقد فكرنا فى احتمالات كثيرة ، ولكنها كلها تدور حول محور واحد فيما يبدو — فنحن نعتقد أن ابننا العزيز جوردون ينبغى أن يلتحق بسلك رجال الدين ، ثم كانت فترة سكون أخرى . ثم قال جور ، وكأنه يحدث نفسه : (حسنا !) » .

ولما نهضنا تساءلوا عما إذا كان وباء التهديد باشتعال الحرب الذى تثيره الصحف قد فترت حدته . وكل ما استطعت أن أقوله هو أننا لم نشتبك فى قتال مع روسيا منذ ست وثلاثين ساعة .

وقال هوايتهد : « إذا كانت هـذه البلاد أو تلك تشعل حربا بهذه الأسلحة الجديدة ، فقل على المدنية السلام . إنها لن تهلك الجنس البشرى ، ولكنها سترد المدنية إلى الوراء آلاف السنين » .

« هل ترى شخصية ضخمة خلف مثل هذه الكارثة ؟ »

« تلوح لى أشباح ستة من الرجال البارزين فقط » .

« هل تستطيع أن تلمح من بعيد ستة من أمثال هؤلاء فى الأفق ؟ »

« إنهم لا يلوحون فى الأفق . إنما يبدون بين ظهرانينا ، ولا يمكن تمييزهم على الفور » .

« هل أعترف لكم . إننى أمارس أعمالى التى اعتدتها ، بين أصدقائى ووسط ما ألفت من مناظر ، وكلى إحساس بالريبة ، إحساس بأن كل ذلك قد يتفتت ذرات خلال السنوات القليلة القادمة » .

وقالت مسز هوايتهد : « وأنا كذلك عندى نفس هذا الإحساس » .

فقال هوايتهد : « اسمعوا منى ما أقول لكم . إذا فكرتم فى تاريخ روسيا الماضى ، ومن هم الروس ، وما احتملوا تحت القياصرة ، واتساع رقعة بلادهم وكثرة عددهم ، يبدو لى أنه لا بد من الاعتراف أن حكومتهم الحالية هى أحسن ما يمكنهم الوصول إليه ، وهى تفضل بكثير أية حكومة من حكوماتهم السابقة . إن هذه الفكرة : إن كل ما نحتاج إلى عمله هو أن نعطى لكل امرىء حق التصويت — فى أى جزء من أجزاء الأرض ، مهما يكن تاريخه الماضى وحشيا ، ومهما كان شعبه متخلفا — فكرة سخيفة » .

ثم أضاف إلى ذلك : إنه بالرغم من أن الأسلحة الحديثة — وبخاصة القنبلة الذرية — قد جعلت كل أساليب الحرب السابقة بالية كالقتال بالأيدى أو العصى — إلا أن هذه الفكرة « لم يدركها الرجال العسكريون ، بالرغم من كل ما يتشدقون به عنها ، كما لا يكاد يدركها أى فرد آخر . خذ هذه الغرفة مثلا : إنها تبدو صلبة ، مستقرة ، وكنا نحسبها كذلك . والواقع أنها معمعان ثائر من الحركة ، وليس فيها شىء قط ثابت . إنها فى تغير دائم بنسب مختلفة فى السرعة ، وفى انحلال وتفكك ، قد يمتد من بضعة أسابيع إلى آلاف السنين — وهى فى طول الزمن لا شىء . لا يكاد يدرك أى فرد أن عالمنا قد تغير منذ عام ١٩٠٠ تغيرا لا يمكننا

منه التنبؤ بالمستقبل بتاتا . وكل محاولة لتطبيق معايير الماضى على الحاضر غاية فى الخطورة . لقد انتهى القرن التاسع عشر عاما بحلول عام ١٨٨٠ وما بعده . وكانت السنوات فيما بين عام ١٨٧٠ و ١٨٨٠ هى آخر عقوده الخصبة . ولم يكن عام ١٩١٤ إلا الضربة النهائية لما تراكم من آثار . ولكننا اليوم فى عصر التغير فيه أخطر بكثير من ذلك الذى قضى على القرن التاسع عشر » .

وبطريق غير مباشر سألته أهو قد أحس فى أى وقت مضى بتسلط قوة عليه من خارج نفسه وهو يكتب .

قال : « كنت فى كل ما كتبت أحاول أن أعبر عن الإحساس العام » .

وتحدثنا عن « أنصاف الحقائق » فمضى يقول :

« إن الناس يخطئون حين يتحدثون عن (القوانين الطبيعية). ليست هناك قوانين طبيعية . إنما هناك عادات للطبيعة مؤقتة ...

« .... وأكثر من ذلك ، أرانا متمسكين أكثر مما ينبغى بفكرة الحجم ، نقيس كل شىء بالنسبة إلى أجسادنا . ومما كشفه العلم عن الصغر اللانهائى والاتساع اللانهائى ، نجد أن حجم أجسامنا لا يكاد يكون له ألبتة صلة بالقياس الصحيح . إن فى هذا الحامل المصنوع من خشب الماهوجانى (ومسه بيده) قد توجد مدنيات معقدة متنوعة فى مداها كمدنيتنا . وتلك السماوات العلا ، بكل رحابتها ، قد لا تكون شيئا سوى جزء يسير من نسيج عالم ليست أكواننا كلها شيئا يذكر بالقياس إليه . لقد بدأ الإنسان منذ عهد قريب فقط — لا أن يدرك هذا الاتساع ، لأننا لا نستطيع الإحاطة به — وإنما يدرك أن هذا الاتساع موجود ، وأنه يقضى على كل مقاييسه السابقة . إن الخطر فى المعرفة الميتة . والمعرفة

الميتة خطر يتميز به خاصة البحث العلمى والجامعات . والعجيب أن لها احترامها الشديد . فإن (عرفت) الكثير رأى الناس فى ذلك الكفاية . فى حين أن المطلوب هو (الحركة مع وجود المعرفة) ؛ وجهات نظر مستحدثة ، المعرفة مطبقة على الخبرة » .

وسألته أيعتقد أنه تعلم من الكتب أكثر من الناس ، أو من الناس أكثر من الكتب .

فقال : «أعتقد أنى تعلمت من الناس أكثر مما تعلمت من الكتب بكثير.»

وصاحت مسز هوايتهد ونحن نتحدث فى ذلك قائلة :

« إنما تتكلمان أيها الرجلان كمنهومين بعد الامتلاء ! لو أنكما كافحتما طوال حياتكما وعانيتما الحرمان من التدريب العلمى المنظم ، لتحدثتما عن الكتب بلهجة أكثر احتراما لها . لا يشل المرء شىء كعدم المعرفة ، وعدم الإحساس قط باليقين التام بالأرض التى يقف فوقها . وما يقدم لك التدريب المنظم بالكتب هو أن يمكنك من تنظيم ما تعرف » .

« وأدركنا أنها غلبتنا فى الجدل ، فتراجعنا من ميدان العراك مخذولين . وعاد هوايتهد إلى موضوعنا يشرحه بصورة مختلفة . قال :

«يدهشنى عجز اللغة عن التعبير عن آرائنا التى نعيها ، وعجز تفكيرنا الواعى عن التعبير عما فى عقولنا الباطنة . إن أشد عيوب الفلسفة هو أنها تفترض أن اللغة وسيط دقيق . إن الفلاسفة يعبرون باللفظ ثم يفترضون أن الفكرة قد تقررت إلى الأبد . وهى حتى إن كانت قد تقررت بحاجة إلى إعادة التقرير فى كل قرن ، بل فى كل جيل . ولقد كان أفلاطون الفيلسوف الوحيد الذى عرف الحقيقة أكثر من غيره ولم يقع فى هذا الفخ . وحينما كانت تخونه الوسائل

المعروفة ، كان يقدم لنا أسطورة من الأساطير ، فلا يتحدى بها دقة المعرفة ولـكن يثير بها الأحلام . الرياضة أقرب ما تـكون إلى الدقة ، وهى أقرب ما تـكون إلى الحق . وقد يشيع استخدامها بعد ألف عام كلغة كما نستخدم الـكلام اليوم . إن أكثر ما نفكر فيه وما نقول بعقولنا الواعية وبكلامنا ضحل سطحى . وفى اللحظات النادرة فقط يظهر فى الفكر الواعى أو فى التعبير ذلك العالم الأعمق الأوسع . وتلك هى اللحظات الجديرة بالذكرى فى حياتنا ؟ حينما نحس — حينما نعلم — أننا لسنا سوى أدوات لقوة أعظم من أنفسنا ، لأغراض أعلى وأبعد مدى من أغراضنا . وتـكثر هذه اللحظات عند العباقرة ، ولـكن كل امرىء تقريبا تمر به لحظات قلائل يشرق فيها هذا الضياء . وللشعراء أهمية هنا ، لأنهم يعبرون عن هذا الوحى العظيم بالألفاظ أفضل مما يعبر عنه أكثر الفلاسفة فى أكثر الأحيان ، وفى ألفاظ — مهما كان قصورها — تثير برغم ذلك وبطريقة ما فى القارىء وفى المستمع نوعا من الإحساس القابل للانهائية الفـكر أو الشعور أو التجربة التى يتحدث عنها الشاعر . وأنا أقصد بطبيعة الحال أعظم الشعراء وحدهم » .

« هل ينبغى للشعراء أن يعرفوا كثيرا ؟ »

« كان ينبغى لبعض الشعراء أن يعرفو أكثر مما عرفوا (وبخاصة شعراء العصر الحاضر) وبعض الشعراء الآخرين كانوا يصبحون شعراء أفضل لو قلّ ما يعرفون . كان شيكسبير يكتب شعرا أفضل لأنه لم يعرف كثيرا . وأعتقد أن ملتن كان فى معرفته أدق مما يسمو بشعره » .

وقالت مسز هوايتهد : « وهل تذكر صديقنا القديم والترر الى ؟ »

« نعم أذكره . وكنت دائما تقولين إنه كان ينبغى له أن يكون شاعرا ، لا رئيسا لجامعة » .

« ومازلت عند رأيى . فلقد كانت لديه أمثال هذه اللمحات اللانهائية . وله رباعية نشرت منذ سنوات — وإنى لأذكر أين نشرت (فى وستمنستر غازيت) — لصقت بذاكرتى بصورة لاتمحى » .

ثم روت مايأتى :

قف على هيكل الدنيا .

وارقب تقلب العالم .

حيث تُلقى السكاكين والكرات النارية .

ويسمو الله فوق نجم الدب فى السماء ....

* * *

وتقدم المساء ، وضربنا فى الليل أكثر مما ظننت . وكانت عاصفة الخريف لاتزال تهطل الأمطار مدرارا خارج البيت . وكلما تقدم المساء تردد على هذا الخاطر وهو أن زيارتى الأولى لهما فى كانتون منذ أكثر من اثنى عشر عاما كانت فى السادس من إبريل ، يوم الذكرى السنوية لدخولنا فى الحرب العالمية الأولى ، وأن اليوم هو يوم الهدنة ، وهو عيد آخر للذكرى . وضايقتنى هذه الفكرة قليلا ، لأنى كنت فى كل مرة أراه فى هذه الأيام الأخيرة أخشى أن تكون المرة الأخيرة . وأبعدت الخاطر عن ذهنى ، لأنه فى بداية المساء بدا لى ضعيفاً مجهدا ، ولكنه عاد الآن يتكلم بحماسة الشاب عن القوة الخالقة فى الدنيا .

« كان من الخطأ — كما حاول اليهود — أن نظن أن الله قد خلق العالم من الخارج دفعة واحدة . خالق بكل شىء عليم ، استطاع أن يخلق العالم كما نجده اليوم — ماذا نظن بمثل هذا الكائن ؟ إنه بكل شىء عليم . وهو — برغم هذا — يودع فى العالم كل ضروب النقص ، التى تتطلب للخلاص منها أن يرسل ابنه

الأوحد إلى الدنيا يكابد فيها العذاب والموت الشنيع . يالها من آراء مثيرة ! لقد كانت الديانة الهلينية محاولة أفضل من هذه . تصور الإغريق الخلق قائماً فى كل مكان وفى كل زمان داخل الكون . وأعتقد أيضاً أنهم كانوا أسعد بعقائدهم فى الكائنات غير الطبيعية التى تتجسد فيها تلك القوى المختلفة ، التى كان بعضها خيراً ، وبعضها الآخر شراً . لأن هذين النوعين من القوى موجودان ، سواء شخصناهما أم لم نشخصهما . وفى الكون ميل عام لإنتاج أشياء لها قيمتها ، وهناك من اللحظات ما نستطيع فيها أن نعمل مع هذا الميل ، ويستطيع فيها هذا الميل أن يعمل من خلالنا . ولكن هذا الميل فى الكون إلى إنتاج أشياء لها قيمتها ليس قادراً على كل شىء بأية حال من الأحوال . فهناك من القوى ما يعترض سبيله .

« الله كائن فى الدنيا — وإلا فهو ليس موجوداً — يخلق دائماً فينا ومن حولنا . وهذا المبدأ الخلاق كائن فى كل مكان ، فى المادة الحية وما يسمى بالمادة غير الحية ، فى الأثير ، فى الماء ، فى الأرض ، فى قلوب البشر . ولكن هذا الخلق عملية مستمرة ، والعملية هى نفسها الواقع ، لأنك ما تكاد تصل حتى تبدأ رحلة جديدة . وبقدر ما يشارك الإنسان فى هذه العملية الخلاقة ، يشترك مع السماء ، مع الله . وهذه المشاركة هى خلوده ، وهى التى تجعل هذا السؤال : هل تبقى شخصيته حية بعد موت جسده ؟ سؤالا غير ذى موضوع . وفيما قدر له حقا كمشارك للخلق فى الكون كرامته وعظمته » .

خاتمة

تتحدث مسز هوايتهد فتقول :

« كنت فى ليلة عيد الميلاد أنثر أزهار العيد ونبات الدابوق فى حجرات جلوسنا . وكان ألفرد فى حالة من السعادة المطلقة ، بل فى حالة من حالات النشوة، تسرى فيه الروح العالية التى تسود فى هذا اليوم المقدس. ولو استمعت إلى ثنائه على حجراتنا لحسبت أنا قضينا سنواتنا السابقة قاطنين فى بيوت كبيوت الكلاب . ذكرت له ذلك . وقلت : (إن هذا المكان لايساوى شيئا) فقال : (أعلم ذلك، ولكن ماذا يهمنا من ذلك ؟) ولم يكن يهمنى فى الواقع من الأمر شىء ما ؟ فإنه لم يعد يعيش فيه من زمن بعيد ، بل ربما لم يعش فيه قط . وفى يوم عيد الميلاد اجتمعت أسرتنا كعادتها ، وفى اليوم التالى أحس بالمرض ، وفى هذا اليوم أتته العلة ، وشهدتها بنفسى . فقد رفع يده اليسرى ثم أسقطها ليقول لى إنه كان على علم بها ، لأنها كانت بالفعل نصف مشلولة . وعرفت أن النهاية لم تكن بعيدة» .

امتدت حياته أربعة أيام ، ولكن دون أن يسترد وعيه ، ومات فى اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر من عام ١٩٤٧ ، وهو فى السابعة والثمانين من عمره .

« وهكذا كانت نهاية صديقنا يا اكسكراتس . وأستطيع حقا أن أقول عنه إنه من بين جميع الرجال فى عهده ممن عرفت كان أحكمهم وأعدلهم وأفضلهم » .

التصميم الاساسى للغلاف: أسامة العبد

الإشـــراف الفنى: حـــسن كـــامـل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

تتألف محاورات هوايتهد من ثلاثة وأربعين حديثا دارت فى بيته بينه وبين طلابه وأصدقائه فى الأمسيات التى كان يخصصها لمثل تلك الاجتماعات، وهو أستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة. وكان من هؤلاء الأصدقاء صحفى أديب هو "لوسيان برايس"، فكان - بحكم حرفة الصحافة - يسجل لنفسه تلك الأحاديث كما كانت تقع، حتى اجتمعت له منها مجموعة، فاختار منها ثلاثة وأربعين حديثا، أولها حديث السادس من أبريل عام **1934**، وآخرها حديث الحادى عشر من نوفمبر عام **1947**.

ولقد شهد هوايتهد فى مواضع كثيرة بما هو مدين به فى حياته الفكرية لمحاوراته مع أصدقائه، فمما قاله فى ذلك أن الشطر الأعظم من نموه العقلى قد جاءه من جيد الحديث، وكثيرا ما أسعفه الحظ فى أن يهيئ له المحدِّث الممتاز، وكذلك يقول فى موضع آخر إنه يؤمن إيمانا شديدا بقيمة المحاورة والمحادثة فى التثقيف، حتى ليعترف بأن ما كسبه منها لا يقل عما كسبه مِن الكتب، وفى هذا الكتاب الذى نقدمه للقراء، صورة لهذا المحدِّث البارع فى حديثه المنساب، فى بيته وبين أصدقائه.

تصميم الغلاف : نيرڤانا